جابرييل غارسيا ماركيز

الحائز على جائزة نوبل للآداب

الحب في زمن الكوليرا

رواية



دار العودة - بيروت

الحب
في زمن الكوليرا

غابرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا

رواية

ترجمها عن الإسبانية: صالح علماني

دار العودة ـ بيروت

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

GABRIEL GARCIA MARQUEZ

EL Amor En Los Tiempos Del Colera.

Diciembre 1985

Editorial Bruguera, S.A.

الطبعة العربية الأولى
١٩٨٦

دار منارات للنشر

طبعت هذه الطبعة وكميتها الف نسخة
بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٨٩
وتطلب من دار العودة

ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، لينتقل بعدها الى الجامعة.

عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر الى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) - كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل من يكاتبه». كما انه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية. نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت «غرباء الموز»، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة.

ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧، والتي نبّهتْ العالم اليه ككاتب متميز (تُرجمت الى ٣٢ لغة بينها العربية)؛ لابل فجّرتْ اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.

وعلى اثر ذلك، حاز يوم الجمعة في العاشر من كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٢ على جائزة نوبل للأدب وذلك (لرواياته وقصصه حيث يتدفق الواقعي والغرائبي في غنيٍّ معقّد لعالمٍ شعريٍ يعكس حياة ونزاعات محيط بأكمله) - كما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية. وبذا يكون الفائز بالجائزة رقم ٧٨، وأول كولومبي ينالها، ورابع أميركي لاتيني بعد ميسترال وأستورياس، وكاربانتييه.

حقاً، إن غاربريل غارسيا ماركيز يستمد من المخيلة الكثير الكثير ليشحن به كتاباته، وبذلك يحقق تآلفاً منسجماً لعالمٍ يطفو فوق الواقع إنما جذوره متأصلة فيه ويغتني بنسغه. إنه كما الكاتب الأرجنتيني بورخس، يعتمد الخيال أو المخيلة وسيلة كبرى في الحياة والكتابة: «إن أعظم ما يمتلكه الانسان هو الخيال» - قال بورخس. أما ماركيز، فانه يقول في اكثر من مناسبة: «الخيال هو في تهيئة الواقع ليصبح فناً»، وأيضاً «الغرائبي يأخذني ولا يبقى من الواقع الا أرض القصة». ولكنه يوضح في مكان آخر فيقول عن مائة عام من العزلة: «انها تنتمي الى أدب الهروب من الواقع. كنتُ أود التعبير عن الارادة الواعية، لا أن تعدم الواقع. ولكن علينا أن ندرك انها لم تصالح الواقع». ويستطرد: «وليس قول الناس اننا نتهرب من

الواقع معقولاً، فمن يطالع انتاجنا في روية يعرف أننا مُسيسون ومتورطون اكثر من أسلافنا». وعن النقطة ذاتها يشرح قائلاً: «أعتقد أن سبر أغوار الواقع، دون أحكام مسبقة عقلية، يبسط أمام روايتنا بانوراما رائعة. ومهما اعتقد بعضهم أن منهجنا هروبي، فإن الواقع سيثبت ـ ان عاجلاً أو آجلاً ـ أن المخيلة على حق».

وهكذا نفهم لماذا رفض العروض لتحويل رواياته الى أفلام سينمائية، فهو يريد أن تبقى مخيلة القارىء حرة غير مؤطرة: «أنا أفضّل أن يتخيل قارىء كتابي الشخصيات كما يحلو له. أن يرسم ملامحها مثلما يريد. أما عندما يشاهد الرواية على الشاشة فان الشخصيات ستصبح ذات أشكال محددة هي أشكال الممثلين، وهي ليست تلك الشخصيات التي يمكن ان يتخيلها المرء أثناء القراءة».

وعن موقع وواقع الكاتب في المجتمع وتفاعله معه، فان ماركيز يحدده بدقة: «إذا كان الأدب نتاجاً اجتماعياً فان العمل الأدبي هو نتاج فردي بل الأكثر فردية في العالم. الأديب كامل الوحدة في الابداع. من هنا أميز بين الممارسات السياسية الجماعية والممارسة الأدبية الفردية البحتة».

لأجل فماركيز الرافض لجميع أشكال الممارسات القمعية لدكتاتوريات العالم، ودكتاتوريات أميركا اللاتينية خاصة، والذي نفى نفسه طوعياً خارج هياكل البطش والقمع؛ انه هو الذي لا تختلط الأمور عليه، إذ يراها بكل سطوعها من منظار شخصه المالك لحريته، فيقول معرفاً واجب الكاتب الثوري: «أعتقد ان واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً. ذلك هو التزامه.».

أشهر أعمال غابرييل غارسيا ماركيز: مائة عام من العزلة. ليس للكولونيل من يكاتبه، خريف البطريرك، قصة موت مُعلن، في ساعة نحس... الخ.

إلى ميرثيدس، طبعا

قدماً تمضي هذه الأماكن:
إذ صار لها ربة متوجة

ليناندرو دياث

لا مناص: فرائحة اللوز المر كانت تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية. ذلك ما ادركه الدكتور خوفينال اوربينو منذ دخوله البيت الذي ما زال غارقا في الظلام، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة له منذ سنوات عديدة، فاللاجيء الانتيلي جيرميا دي سانت ـ آمور، مشوه الحرب، ومصور الأطفال، واكثر خصومه رأفة في لعبة الشطرنج، قد تخلص من عذابات الذكرى باستنشاقه ابخرة سيانور الذهب.

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق، حيث كان ينام عادة، وبجواره كرسي صغير عليه الطشت المستخدم في تبخير السم. وكان يقبع على الارض، مقيدا بقائمة السرير، جسد كلب دانمركي ضخم، اسود اللون، تغطي صدره بقع بلون الثلج، وإلى جانبه العكازان. الحجرة الخانقة ذات الألوان المتنافرة، التي كانت تستخدم كحجرة نوم ومخبر تصوير في الوقت ذاته، اضيئت قليلا ببريق الفجر المنسل من النافذة المفتوحة، لكنه كان ضوءا كافيا للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط. كانت النوافذ الاخرى، وكذلك جميع كوى الحجرة، مسدودة بخرق قماشية او مختومة بورق مقوى اسود اللون، مما ضاعف من كثافة ضيقها. وكانت هناك طاولة تحتشد بزجاجات وقنان بلا لصاقات، وطشتين من التوتياء مقشري الطلاء، تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر. أما الطشت الثالث، الخاص بالسائل المثبت، فهو الموجود الى جانب الجثة، كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الانحاء، واكداس من مسودات الصور الفوتوغرافية في اطر زجاجية، واثاث مخلع، لكنه محفوظ كله من الغبار بقدرة يد نشيطة، ومع ان هواء النافذة كان قد نقى الجو، الا انه بقي لمن هو قادر على التسيير قبس فاتر من الغراميات الكئيبة لحبات اللوز المرة، كان الدكتور خوفينال اوربينو قد فكر اكثر من مرة، دون حماس مسبق، بان تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله، لكنه انتهى مع مرور الوقت إلى الافتراض بان فوضى المكان هذه ربما

هي استجابة لالهام محدد من جانب العناية الالهية.

كان مفوض شرطة قد سبقه مع طالب طب شاب يتمرن للتخصص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور اوربينو. كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرة اكثر مما فيها من التوقير، فلا احد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بجيرميا دي سانت ـ آمور. شد المعلم الشهير على يد كل منهما، كما هي عادته دائما بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس ابهامه وسبابته، كما لو كان زهرة، وكشف عن الجثة شبرا فشبرا برصانة قدسية. كان الميت عاريا تماما، متيبسا ومعوجا، عيناه مفتوحتان وجسده ازرق، وبدا كأنه كبر خمسين عاما عما كان عليه في الليلة الماضية، كانت حدقتاه صافيتين، وشعر رأسه وذقنه ضارب الى الاصفرار، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مخيط بغرز معقودة. وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعي مجذف سفينة، وذلك للجهد الذي عليه اداءه باستخدام العكازين. أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقي يتيم. تأمله الدكتور خوفينال اوربينو للحظة بقلب يعاني ألما قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت. وقال له:

ـ ايها الجبان. الأسوأ كان قد انقضى.

ثم أعاد تغطيته بالشرشف واستعاد وقاره الاكاديمي. كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة ايام، وفي كلمة الشكر التي ألقاها رفض مجددا اغراء التقاعد بقوله: «سيكون لدي متسع للراحة عندما اموت، وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن». بالرغم من ان سمع اذنه اليسرى كان يضعف اكثر فأكثر، ورغم انه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه، ببدلة كاملة من الكتان مع صدرية تقطعها سلسلة ساعة ذهبية، ولحية كلحية باستور، ذات لون صدفي، وشعر له اللون ذاته، مصفف مع فرق متقن في الوسط، وكانت هذه الأمور تعبيرا امينا عن طبعه، اما تآكل الذاكرة الذي كان يقلقه اكثر فأكثر، فكان يعوضه قدر الامكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة، ما تلبث ان تختلط في كل جيوبه، كما تختلط الأدوات، وزجاجات الدواء، واشياء اخرى كثيرة في حقيبته المتخمة. لم يكن اكبر الاطباء سنا واشهرهم في المدينة حسب، بل والرجل الاكثر تجملا فيها. ومع ذلك، فان حكمته البينة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في ادارة سلطة اسمه جعلت عدد اتباعه اقل مما يستحق.

كانت تعليماته للمفوض والطبيب المتمرن محددة وسريعة: يجب عدم اجراء التشريح.

فرائحة البيت كافية لتقرير ان سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طشت مع حامض من احماض التصوير، ولقد كان جيرميا دي سانت ـ آمور يعرف هذه المواد جيدا، بحيث لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك سهوا. وامام استفسار من المفوض، اوقفه الدكتور بطعنة تقليدية هي احدى حركاته المعتادة: «لا تنس اني انا من سيوقع على شهادة الوفاة».
اصابت خيبة الامل الطبيب الشاب: فهو لم يحظ يوما بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة. وقد فوجىء الدكتور خوفينال اوربينو بان الشاب لم ير ذلك في مدرسة الطب، لكنه فهم الامر فورا بسبب خجل الشاب السريع ولهجته الانديزية. . ربما هو حديث الوصول الى المدينة. فقال له: «لن تعدم هنا وجود مجنون في الحب يهنحك الفرصة في يوم من هذه الايام»، وعندما انتهى من الحديث فقط، ادرك انه بين عدد لا حصر له من المنتحرين الذين يذكرهم، كان ذاك هو اول منتحر بالسيانور ليست تعاسة الحب هي السبب في انتحاره، عندها طرأ تبدل ما على نبرة صوته المعتادة.

قال للمتمرن:

ـ عندما تجده، دقق جيدا. اذ يوجد رمل في قلوبهم عادة.

ثم تحدث الى المفوض كما لو كان يتحدث الى احد مرؤوسيه. امره بتجنب اية التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات، وبأقصى درجات التكتم. قال: «انا سأكلم العمدة فيما بعد». كان يعلم ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد عاش حياة تقشف بدائي، وانه كان يكسب بفنه اكثر مما يلزمه للعيش بكثير، مما يستوجب وجود مال يزيد عن تكاليف الدفن في أحد الادراج.

ـ اذا لم تجدوا المال فلا تهتموا. سأتولى انا تكاليف الدفن.

وأمر باعلام الصحف ان المصور قد توفي وفاة طبيعية، رغم انه فكر بان الخبر لن يهمهم باي حال. قال: «اذا اقتضى الامر، فسأكلم الحاكم». المفوض، الذي كان موظفا جديا وذليلا، كان يعرف ان صرامة الاستاذ المتمدن تثير حفيظة اقرب اصدقائه اليه، وكان مشدوها للسهولة التي يقفز بها فوق الاجراءات القانونية للاسراع في الدفن، والشيء الوحيد الذي لم يقتحمه هو مسألة التحدث الى الاسقف ليسمح بدفن جيرميا دي سانت ـ آمور في مقبرة المؤمنين. وحاول المفوض، المستاء من سفاهة ذاته، ان يعتذر، فقال:

ـ ما اعرفه هو ان هذا الرجل كان قديسا.

وقال الدكتور اوربينو:

ـ بل هو شيء اشد غرابة: انه قديس ملحد. لكن هذا من شؤون الرب. بعيدا، في الجانب الآخر من المدينة الاستعمارية، سمعت نواقيس الكتدرائية تدعو الى القداس

الكبير. فوضع الدكتور اوربينو نظارته ذات القوس والاطار الذهبي على عينيه، ونظر الى ساعة السلسلة، المربعة الرقيقة، التي يفتح غطاؤها بنابض، انه يوشك ان يتخلف عن موعد صلاة العنصرة.

كان في الصالة آلة تصوير ضخمة على عجلات كتلك التي في الحدائق العامة، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري، وكانت الجدران مغطاة بصور اطفال عليها تواريخ تذكارية: ذكرى المشاركة الاولى، التنكر بقناع ارنب، عيد الميلاد السعيد، لقد رأى الدكتور اوربينو هذه الجدران وهي تتغطى تدريجيا، سنة بعد اخرى، اثناء تأمله المتروي في امسيات الشطرنج، وكان قد فكر في احيان كثيرة، مع اختلاجة كآبة، بأن في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل، التي ستساس وتفسد على يد هؤلاء الاطفال المجهولين، والتي لن يبقى فيها حتى رماد مجده.

على طاولة العمل، الى جانب علبة فيها عدة غلايين محفور عليها رسوم ذئاب بحر، كانت رقعة الشطرنج وعليها دور غير مكتمل. ورغم تعجله واكتئابه، لم يستطع الدكتور اوربينو مقاومة اغراء دراستها. كان يعلم انها لعبة الليلة الماضية، فقد كان جيرميا دي سانت ـ آمور يلعب مساء كل يوم من ايام الاسبوع، ومع ثلاثة خصوم مختلفين على الاقل، لكنه كان يصل دائما الى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الاحجار في علبتها، ويضع العلبة في احد ادراج المكتب. وكان يلعب بالاحجار البيضاء دوما، ولم يكن هنالك من شك في انه كان سيخسر تلك اللعبة بعد اربع حركات اخرى دون مفر. وقال لنفسه: «لو كان ثمة جريمة، لكان هذا دليلا جيدا. فأنا لا اعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمين المتقن». ما كان بمقدوره العيش دون ان يبحث فيما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح، المعتاد على الصراع حتى اخر قطرة دم، يتخلى عن المعركة الاخيرة في حياته دون حسمها.

في الساعة السادسة صباحا، وفيما الحارس الليلي يقوم بجولته الاخيرة، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي: ادخل دون طرق الباب واتصل بالشرطة. بعد ذلك بقليل هرع مفوض الشرطة مع طالب الطب المتمرن، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثا عن دليل ضد رائحة اللوز المر التي لا يمكن اخفاؤها. واثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي، اكتشف المفوض بين الاوراق التي على المكتب مغلفا موجها الى الدكتور خوفينال اوربينو، مختوما بعدة اختام من الشمع الاحمر، مما جعل تمزيقه ضروريا لاخراج الرسالة منه. ازاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على انارة افضل، ثم القى اول الامر نظرة سريعة على الاحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط انيق على الوجهين،

ومذ قرأ الفقرة الاولى ادرك انه قد تخلف عن صلاة العنصرة. قرأ بنفس مضطرب، عائدا الى ما قرأه في عدة صفحات ليمسك مجددا بالخيط المفقود، وعندما انتهى، بدا وكأنه يرجع من مكان قصي وزمان سحيق. كان همود باديا، رغم اجتهاده للحيلولة دون ذلك: كانت شفتاه بلون الجثة الازرق ذاته، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف اصابعه عندما اعاد طي الرسالة واودعها جيب صدريته. عندئذ تذكر وجود مفوض الشرطة والطبيب الشاب، فابتسم لهما من خلال غلالة الاسى وقال:

ـ لا شيء يستحق الذكر. انها تعليماته الاخيرة.

كان هذا نصف الحقيقة، لكنهما اعتقدا انها الحقيقة الكاملة، لانه امرهما بانتزاع بلاطة مخلخلة في الارضية، حيث وجدا دفتر حسابات مستعملا كثيرا، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة، لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهموا، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وتسديد التزامات اخرى ضئيلة الشأن. كان الدكتور اوربينو مدركا حينئذ انه لن يتمكن من الوصول الى الكتدرائية قبل القداس. فقال:

ـ انها المرة الثالثة التي اتخلف فيها عن قداس الاحد، مذ بلغت سن الرشد. لكن الله يتفهم.

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق اخرى ليحل جميع التفاصيل، رغم انه لم يكن قادرا على احتمال شوقه لاطلاع زوجته على مضمون الرسالة. وعد بان يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة، كي يحضروا ان كانوا يودون تقديم تكريمهم الاخير للاجئ الذي كان الاكثر احتراما في سلوكه، والاكثر فعالية وجدية، حتى بعد ان تبين بجلاء سقوطه في احابيل خيبة الامل. وسيخبر ايضا زملاءه لاعبي الشطرنج، الذين كانوا يتفاوتون من مهنيين مشهورين وحتى عمال بلا اسم، اضافة الى اصدقاء آخرين اقل مواظبة، لكنهم ربما يودون حضور الجنازة. قبل ان يعرف بامر رسالة الموت، كان قد قرر ان يكون اول الحاضرين، لكنه بعد قراءتها لم يعد متأكدا من شيء. انما سيبعث على اية حال اكليل ياسمين، فربما يكون جيرميا دي سانت ـ آمور قد عانى لحظة اخيرة من الندم: سيتم الدفن في الخامسة، فهي الساعة المناسبة في شهور الحر الشديد. واذا ما احتاجوه لشيء فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس اوليفيا، تلميذه النجيب، الذي سيقيم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالا بيوبيله الفضي في المهنة.

كان للدكتور خوفينال اوربينو نمط بسيط من العادات يتبعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الاولى، واحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في كل المقاطعة. كان يستيقظ مع الديوك الاولى، ويبدأ في هذه الساعة بتناول ادويته السرية: برومور البوتاسيوم

لبعث النشاط، وملح السليسين لآلام العظام في ايام المطر، وطحالب السلت للاغماء، وحشيشة البلادونا للنوم الهادىء. كان يتناول شيئا في كل ساعة، ودائما في الخفاء، لانه في حياته الطويلة كطبيب وإستاذ كان دوما ضد اعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة: كان احتمال آلام الآخرين أسهل عليه من احتمال آلامه. وكان يحمل في جيبه دائما وسادة مشبعة بالكافور يستنشقها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه، لينزع عن نفسه الخوف من كل هذه الادوية المختلطة.

كان يبقى في مكتبه مدة ساعة، لتحضير درس الطب العام الذي واظب على القائه في مدرسة الطب كل يوم من ايام الاسبوع، من الاثنين الى السبت، في الساعة الثامنة تماما، حتى اليوم الذي سبق موته. كما كان قارئا مطلعا على المستجدات الادبية التي يزوده بها بالبريد المكتبي الذي يتعامل معه في باريس، اوتلك التي يوصي له عليها من برشلونة وكيله المكتبي المحلي، رغم انه لم يكن يتابع آداب اللغة الاسبانية بنفس الاهتمام الذي يتابع به الأدب الفرنسي، ولم يكن على اي حال يقرأ تلك الكتب ابدا في الصباح، وانما لساعة بعد القيلولة، وفي الليل قبل ان ينام. اما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب، فكان يمارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمام، مقابل النافذة المفتوحة، متنفسا دوما باتجاه الجهة التي تصدح منها الديكة، حيث الهواء النقي هناك. بعد ذلك يستحم، ويشذب لحيته ويصمغ شاربه بمستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغينبر الاصلية، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صدرية وقبعة لينة، وحذاء من جلد الماعز. انه يحتفظ وهو في الثمانين من العمر بالتقاليد البسيطة والروح الاحتفالية التي رجع بها من باريس، بعد جائحة داء الكوليرا الكبرى بقليل. وما زال شعره المسرح جيدا مع فرق في الوسط كما كان في شبابه، لولا اللون المعدني الذي طرأ عليه. كان يتناول فطوره مع العائلة عادة، لكنه يتبع رجيما خاصا: يتناول شراب زهر الافسنتين، لراحة المعدة، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحدا واحدا ويمضغها بتمهل مع قطعة خبز، وذلك لتفادي احتشاءات القلب، ونادرا ما يكون متحررا بعد درسه اليومي من التزام مرتبط بمبادراته التمدنية، أو التزامه الكاثوليكي، اوبابتكاراته الفنية والاجتماعية.

كان يتناول الغداء في بيته دوما، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء، مستمعا في نومه الى اغنيات الخادمات تحت اشجار المانغا، ومصغيا الى نداءات الباعة في الشارع، وصخب المحركات في الميناء، الذي تفوح روائحه مرفرفة في جو البيت في الامسيات الحارة كانها ملاك محكوم بالتعفن. ثم يقرأ بعد ذلك لمدة ساعة في الكتب الجديدة، وخصوصا الروايات والدراسات التاريخية، وبعد ذلك يلقن دروس اللغة الفرنسية والغناء

للببغـاء الـداجنـة التي صارت منذ سنوات محطا للاعجاب المحلي. وفي الساعة الرابعة يخرج لعيادة مرضاه، بعد ان يتناول ابريقا كبيرا من الليمونادة مع الثلج. ورغم تقدمه في السن، كان يرفض استقبـال مرضـاه في العيـادة، ويصـر على مواصلة علاجهم في بيـوتهم، كما فعل ذلك دائما، مذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب الى اي مكان فيها مشيا على الاقدام.

عنـدمـا جاء من اوروبـا لاول مرة، كان يستخـدم عربة الخيول الخاصة بالعائلة، والتي يقودها حصانان اشقران ذهبيان، وحين لم تعد هذه العربة صالحة للاستعمال، استبدلها بعربة من نوع فيكتـوريـا يقودها حصان واحد، واستمر في استخدامها على الدوام مع ابداء بعض الازدراء للموضـة، عندما اخذت العربات بالاختفاء من الدنيا والعربات الوحيدة التي بقيت في المـدينـة كانت تستخـدم لنزهـة السيـاح ولحمل الاكاليل في الجنازات فقط. ومع انه كان يرفض الاعتـزال، فقـد كان مدركـا انهم لا يستدعونه الا لمعالجة حالات ميؤوس منها، لكنه كان يرى في ذلـك ايضـا نوعـامن التخصص، كان قادرا على معـرفـة ما يعـانيه المريض من مظهره فقط، وكان يفقد ثقته اكثر فأكثر في الادوية المرخصة وينظر بذعر الى تعميم الجراحة، ويقـول: «ان المبضـع هو اكـبر دليـل على فشل الطب». وكان يفكر ان كل دواء اذا ما رأيناه بمقياس دقيق هو سم، وان سبعين بالمئة من الاطعمة العادية تعجل في الموت. وقد اعتاد ان يقـول في درسـه: «الادويـة القليلة المعـروفـة على اي حال، لا يعـرفها الا بعض الاطباء».

وانتقل من حماسة الشباب الى موقع كان هو نفسه يعرفه على انه موقع انساني جبري: «كل امـرىء هو سيـد موتـه، والشيء الـوحيـد الـذي بالامكـان عمله عنـدمـا تحين الساعة، هو مسـاعـدتـه على المـوت دون خوف او الم». ورغم هذه الافكـار المتطرفة، والتي كانت تشكل جزءا من الفلكلور الطبي المحـلي، فان تلاميـذه القـدمـاء ما زالـوا يستشـيرونه حتى بعد ان اصبحوا اطباء راسخين في المهنة، اذ كانوا يعترفون له بتلك التي كانت تسمى حينئذ النظرة الطبية، ولقد كان دوما طبيبا غاليا واستثنائيا، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفيريس.

كان يقوم بجولة منهجية منتظمة لدرجة ان زوجته كانت تعرف الى اين تبعث في طلبه اذا ما طرأ شيء مستعجل خلال جولته المسائية. وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الباروكية قبل ان يرجع الى البيت، وهكذا اتقن لعب الشطرنج مع شركاء حماه ومع بعض لاجئي الكاريبي، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد الى مقهى الباروكية وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعـايـة النـادي الاجتـماعي، وكـان في هذه الفترة ان جاء جيرميا دي سانت ـ آمور، بركبتيه الميتتين وبلا مهنة تصوير الاطفال في ذلك الحين، وقبل انقضاء ثلاثة اشهر كان معروفا لكل من يحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج، لان احدا لم يتمكن من كسب جولة منه. لقد كان

بالنسبة للدكتور خوفينال اوربينو لقاء معجزة، في وقت اصبحت لعبة الشطرنج لديه هوى لا حدود له ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون رغبته في اللعب.

وبفضله، امكن لجيرميا دي سانت ـ آمور ان يصبح ما آل اليه بيننا. لقد اصبح الدكتور اوربينو حاميه اللامشروط، وكفيله في كل شيء، حتى دون ان يتكلف مشقة التقصي عمن هو، اوعما يفعله، اومن اية حرب بلا امجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل. ثم اقرضه اخيرا المال لاقامة محل التصوير، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت ـ آمور بصرامة حبال، حتى آخر كواريتو، مذ صور أول طفل مرتعد من بريق المغنيزيوم.

كل ذلك كان بسبب الشطرنج. كانا يلعبان اول الامر في الساعة السابعة ليلا، بعد العشاء وكان في ذلك منفعة اكيدة للطبيب بفعل التفوق البارز للخصم؛ ولكن المنفعة اخذت تتناقص في كل مرة، الى ان تساويا. وفيما بعد، حين افتتح دون غاليليو داكونتي اول فناء سينما، واصبح جيرميا دي سانت ـ آمور واحدا من الزبائن المداومين، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تعرض فيها افلام جديدة. وكان قد اصبح صديقا حميما للطبيب في ذلك الحين، فكان هذا يرافقه الى السينما، انما بدون زوجته دوما، ذلك انها لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة، ولان جيرميا دي سانت ـ امور بدا لها من جهة اخرى، وبحاسة الشم وحدها، انه ليس بالرفيق الصالح لاحد.

يومه المختلف كان يوم الاحد. ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكتدرائية، ثم يعود الى البيت ويلبث هناك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء. ونادرا ما كان يخرج لعيادة مريض في ايام اعتكافه، ما لم تكن الحاجة ماسة الى ذلك، ولم يعد يقبل منذ عدة سنوات اي التزام اجتماعي الا اذا كان اضطراريا. في يوم العنصرة ذاك، وبمصادفة استثنائية، وقعت حادثتان غريبتان: وفاة صديق والاحتفال باليوبيل الفضي لتلميذ بارز. ومع ذلك، فانه بدلا من العودة الى البيت دون تأخر، كما كان مقررا بعد ان ثبتت وفاة جيرميا دي سانت ـ آمور، ترك لنفسه ان تنقاد وراء الفضول.

ما ان صعد الى العربة حتى قام بمراجعة سريعة لرسالة الميت، ثم امر الحوذي بايصاله الى عنوان صعب في حي العبيد القديم. لقد كان ذلك القرار غريبا على عاداته، مما جعل الحوذي يرغب بالتأكد من انه لا يوجد ثمة خطأ. لم يكن هنالك من خطأ: العنوان كان واضحا، ومن كتبه لديه اسباب كافية لمعرفته جيدا. عندئذ عاد الدكتور اوربينو الى الصفحة الاولى، وغرق ثانية في ذلك المورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي بامكانها تغيير مجرى حياته، حتى وهو في هذه السن، اذا ما استطاع اقناع نفسه بانها ليست هذيان شخص يائس.

اخـذ مزاج السـماء يتبـدل منذ الصباح الباكر، كان مغيما وباردا، انما لم تكن هناك مخاطر هطول مطر قبل منتصف النهار. وفي محاولة لايجاد طريق اقصر، دخل الحوذي في ازقة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة؛ واضطر للتوقف مرات عديدة كي لا يجفل الحصان من فوضى طلبة المدارس والجماعات الدينية العائدة من قداس العنصرة. كانت في الشارع اكاليل مصنوعة من اوراق ملونة، وموسيقى وازهار، وفتيات يحملن مظلات ملونة ويلبسن كشاكش الموسلين ويتأملن مرور الاحتفال من الشرفات. وفي ساحة الكتدرائية، حيث لم يكن ممكنا تمييز تمثال بطل التحرير بين اشجار النخيل الافريقية واعمدة النور الجديدة ذات المصابيح الا بصعوبة، كان ازدحام السيارات على اشده بسبب الخروج من الصلاة، ولم يكن هناك موطىء قدم في مقهى الباروكية المحتشم والصاخب. كانت عربة الدكتور اوربينو هي عربة الخيول الوحيدة وكانت تتميز عن العربات الاخرى القليلة المتبقية في المدينة باحتفاظها الدائم ببريق غطائها الجلدي وباجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل، وكانت عجلاتها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الاحمر مع خطوط ذهبية، كما هي العربات في ليالي الحفلات في اوبرا فينا. اضف الى ذلك ان اكثر العائلات حبا للمظاهر كانت تكتفي بان يكون قميص الحوذي في عرباتها نظيفا، بينما تابع هو مطالبة حوذي عربته بارتداء بدلة الحوذي المخملية الذاوية وقبعة مروضي السيرك، التي فضلا عن كونها زيا قديما مهجورا، كانت تنم عن تقليد غاشم في قيظ منطقة الكاريبي.

ورغم هوسه الجنوني بالمدينة، ومعرفته بها خيرا من سواه، فقليلا ما وجد الدكتور اوربينو سببا كسبب يوم الاحد ذاك للمغامرة دون تحفظ في فوضى حي العبيد. وقد اضطر الحوذي للقيام بالتفافات عديدة والسؤال مرات ومرات للوصول الى العنوان المقصود. لقد تعرف الدكتور اوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات، وصمتها الممل، وفسواتها التي كريح الغرين، والتي كانت تصعد في فجر ايام كثيرة حتى مخدعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء، وكان يحس بها تمر كما لو انها ريح اليوم الفائت وليس لها اي شأن في حياته. لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصور مثالي بفعل الحنين تحولت الى واقع لا يطاق ما ان بدأت العربة تتقافز في وحل الشوارع، حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر الى مدخل الميناء. وعلى العكس من مدينة الفيريس، المبنية بيوتها من الحجر، كانت البيوت هنا مشادة من اخشاب كالحة وسقوف من التوتياء ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة، الموروثة عن الاسبان. كل شيء كان يبدو بائسا ومهجورا، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القذرة بلا رب

ولا قانـون. وعنـدمـا وجدا العنوان اخيرا، كانت تلحق بالعربة عصبة اطفال عراة يسخرون من زينـة الحـوذي المسـرحيـة، وكـأن على هذا ان يفـزعهم بالسـوط ليبتعـدوا. اما الدكتور اوربينو، الذي هيأ نفسه لزيارة سرية، فقد ادرك بعد فوات الأوان انه لا سذاجة اشد خطورة من السذاجة في سنه.

لم يكن في مظهـر البيت الخـارجي ما يميـزه عن البيـوت الاقل حظا، سوى النافذة ذات الستـارة المخـرمـة وبوابة منتزعة من كنيسة قديمة. طرق الحوذي مقرعة الباب، وعندما تأكد من صحـة العنـوان، ساعـد الطبيب على النـزول من العربة. كانت البوابة قد فتحت دون ضجـة، وفي العتمـة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة، متشحة بالسواد المطلق وتضع وردة على اذنها. ورغم سنوات عمرها، التي لم تكن اقل من الاربعين، فانها ما زالت تبدو خلاسيه شامخة، ذات عينين ذهبيتين قاسيتين، وشعر مثبت على شكل الرأس وكأنه خوذة من القطن الحديدي. لم يعرفها الدكتور اوربينو، رغم انه قد رآها عدة مرات في شرود ادوار الشطرنج في محل المصـور، وقـد وصف لها في احـدى المناسبات اوراق الكينا من اجل الحمى الثلاثية، مد يده اليهـا، فتنـاولتهـا بين يديها، ليس لمصافحته وانما لمساعدته على الدخول. كانت الصالة تعبق برائحة وهسيس ايكة لامرئية، وكانت مليئة باثاث واشياء موزعة باتقان، كل شيء في مكانه الطبيعي. فتذكر الدكتور اوربينو دون مرارة دكان بائع عاديات في باريس، في يوم اثنين خريفي من ايام القرن الماضي، في ٢٦ شارع مونتمارت.

جلست المرأة مقابله وحدثته باسبانية ركيكة قائلة:

ـ اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور. لم اكن انتظرك بمثل هذه السرعة.

احس الدكتور اوربينو بانه مكشوف. دقق فيها بقلبه، دقق في حدادها الكثيف، في وقار كآبتهـا، وفهم عنـدئـذ ان زيـارتـه تلك بلا فائدة، لانها كانت تعرف اكثر منه بكل ما هو وارد ومبرر في رسالة جيرميا دي سانت ـ آمور. وهكذا كان. لقد رافقته حتى ساعات قليلة قبيل موته، كما رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقة منقادة اليه بما يشبه الحب، ودون ان يعـرف ذلـك احـد في عاصمـة الاقليم النـاعسـة هذه، حيث اسـرار الـدولـة ذاتها كانت مشـاعـة. لقـد تعـارفـا في مشفى للعابرين في بورت ـ او ـ برنس، حيث ولدت هي، وحيث امضى هو سنـواتـه الاولى كهـارب، ثم لحقت به الى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة، مع انهما كلاهما كانـا يعلمان دون اتفـاق مسبق بانها جاءت لتبقى الى الابـد، كانت تتـولى تنظيف وتـرتيب مخبر التصـويـر مرة في الاسبـوع، لكن أسـوأ الجيران تفكيرا ما كانوا يخلطون الظاهر بالحقيقة، لانهم كانوا يفترضون مثل كل الناس ان عاهة جيرميا دي سانت ـ آمور ليست في المشي فقـط. وحتى الـدكتـور اوربينو ذاته كان يفترض ذلك لاسباب طبية راسخة تماما، ولم

يظن يوما ان تكون له امرأة لو لم يكشف له ذلك في الرسالة. غير انه لم يستطع ان يفهم كيف ان كائنين راشدين وحرين وبلا ماض، على هامش اهتمامات مجتمع غارق في شؤونه، قد اختارا نكبة الحب المحرم. وشرحت له ذلك: «كانت تلك هي رغبته». ثم ان تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماما في يوم من الايام، وتعرفهما اثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية اكثر من مرة، لم يكن ليبدو لها بالوضع غير المرغوب فيه، بل على العكس: ربما ان الحياة اثبتت لها بان تلك هي الطريقة النموذجية.

لقد ذهبا الليلة الماضية الى السينما، كل منهما بمفرده، وجلسا في مقعدين منفصلين، كما يفعلان مرتين في الشهر على الاقل مذ اقام المهاجر الايطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في اطلال دير من القرن السابع عشر. ورأيا فلما مأخوذا عن كتاب كان رائجا في العام الفائت، وكان الدكتور اوربينو قد قرأه بقلب مكروب لبربرية الحرب: لا جديد في الجبهة. ثم اجتمعا بعد ذلك في المخبر، وهناك وجدت انه يقاسي التشتت والحنين، وفكرت ان ذلك بتأثير المشاهد القاسية للجرحى المحتضرين في الوحل. فحاولت تسليته بدعوته الى لعب الشطرنج، وقد وافق ليرضيها، لكنه كان يلعب دون تركيز، بالقطع البيضاء طبعا، الى ان اكتشف قبلها انه سيهزم بعد اربع حركات اخرى، فاستسلم بلا كبرياء. حينئذ ادرك الطبيب ان خصم اللعبة الاخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال خيرونيمو ارغوتي، كما افترض. فتمتم مدهوشا:

ـ انها لعبة متقنة!.

فأصرت بان لا فضل لها في ذلك، وان جيرميا دي سانت ـ آمور الهائم في ضباب الموت، كان يحرك الاحجار دون حب، وعندما اوقف اللعب، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت، فطلب منها تتركه وحيدا. كان يريد كتابة رسالة الى الدكتور اوربينو، الذي يعتبره اكثر الرجال الذين عرفهم وقارا، اضافة الى كونه صديق الروح، كما كان يحب ان يقول، رغم ان التشابه الوحيد بينهما هو ادمانهما لعبة الشطرنج على انها حوار للعقل وليست علما. عندئذ عرفت ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد وصل الى نهاية الاحتضار، وانه لم يبق له في الحياة الا ما يكفي لكتابة الرسالة. لم يستطع الطبيب تصديقها، فهتف:

ـ كنت تعلمين اذن!.

فأكدت بانها لم تكن تعلم فقط، وانما ساعدته ايضا على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة. لان الشهور الاحد عشر الاخيرة في حياته كانت احتضارا قاسيا.

قال الطبيب:

ـ كان واجبك ان تبلغي عنه.

فقالت مستنكرة:

ـ انا لا استطيع فعل ذلك.. كنت احبه كثيرا.

الدكتور اوربينو، الذي كان يعتقد بانه سمع بكل شيء في الدنيا، لم يسمع ابدا في حياته شيئا من هذا القبيل، يجري الاعلان عنه بكل هذه البساطة، نظر اليها بحواسه الخمس وجها لوجه ليثبتها في ذاكرته كما هي في تلك اللحظة: كانت تبدو وكأنها إله طاف، متماسكة في ثوبها الاسود، بعينيها اللتين كعيني افعى والوردة التي على اذنها. منذ سنوات بعيدة، وعلى شاطىء متوحد من شواطىء هايتي، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب، قال لها جيرميا دي سانت ـ آمور وهو يتنهد فجأة: «لن اصير كهلا ابدا». وقد فهمت هي ذلك على انه نية بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن، لكنه اوضح قصده اكثر: كان لديه تصميم حاسم على وضع حد لحياته في السبعين.

لقد اتمها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني للعام الحالي، فحدد حينئذ عشية عيد العنصرة كموعد اخير، لانه اعظم اعياد المدينة المكرسة لعبادة الروح القدس. لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية لم تكن قد عرفته مسبقا، فكثيرا ما كانا يتحدثان في ذلك، مكابدين معا سيل الايام الجارف الذي لن يستطيع اي منهما ايقافه. كان جيرميا دي سانت ـ آمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة، كان يحب البحر والحب، يحب كلبه ويحبها، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي اكثر فأكثر في اليأس، كما لو ان موته لم يكن قرارا ذاتيا وانما قدرا حتميا.

قالت:

ـ عندما تركته وحيدا في الليل، لم يكن من اهل هذه الدنيا.

كانت تريد اخذ الكلب معها، لكنه تأمله وهو يغفو بجانب العكازين وداعبه باطراف اصابعه، وقال: «اسف، لكن مستر وودرو ويلسون سيمضي معي». طلب منها ان تربطه بقائمة السرير فيما هو يكتب، وفعلت ذلك بعقدة زائفة ليتمكن الكلب من الافلات، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي قامت به دون اخلاص، وقد بررته برغبتها في الاستمرار بتذكر السيد من خلال عيني كلبه الشتوتيتين. لكن الدكتور اوربينو قاطعها ليخبرها بان الكلب لم يفلت. فقالت: «ذلك لانه لم يشأ الافلات اذن». وفرحت، لانها تفضل ان تتذكر الحبيب الميت كما طلب هو منها في الليلة السابقة، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر

اليها للمرة الاخيرة، وقال:

ـ تذكريني بوردة.

كانت قد وصلت الى بيتها بعد منتصف الليل بقليل. استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها، واخذت تشعل سيجارة من عقب الاخرى متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم انها طويلة وشاقة، وقبيل الثالثة بقليل، عندما بدأت الكلاب تنبح، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء اول وردة من وردات الفجر. لقد تنبه الدكتور اوربينو قبل ان يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تفتدى، وظن انه يعرف السبب: بامكان انسان بلا مبادىء فقط ان يتجاوب الى هذا الحد مع الألم.

تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة: لن تذهب الى الجنازة، لانها وعدت الحبيب بذلك، رغم ان الدكتور اوربينو اعتقد انه فهم عكس هذا في احدى فقرات الرسالة. ولن تسفح دمعة واحدة، ولن تهدر ما تبقى لها من سني الحياة بطبخ نفسها على نار هادئة في مرق الذكرى، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الاربعة كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات. كانت تفكر ببيع بيت جيرميا دي سانت ـ آمور، الذي اصبح بكل محتوياته ملكا لها منذ الآن كما هو وارد في الرسالة، وستتابع العيش كما عاشت دائما دون ان تشكو شيئا في مماتة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة.

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال اوربينو وهو في طريق العودة الى بيته: «مماتة الفقراء هذه». انه ليس بالتعبير المجاني. فالمدينة، مدينته، ما زالت على هامش الزمن كما كانت: نفس المدينة الملتهبة والقاحلة بمخاوفها الليلية وملذات البلوغ المتوحدة، حيث تصدأ الازهار ويفسد الملح. المدينة التي لم يصبها شيء خلال اربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة. في الشتاء، امطار فجائية ومخربة تجعل المراحيض تفيض وتحول الشوارع الى برك وحل نتنة. وفي الصيف، غبار لا مرئي، خشن كطباشير حمراء متقدة، يتسرب حتى من اكثر فجوات الخيال احكاما، هائجا برياح مجنونة تنتزع سقوف البيوت وتحمل الاطفال في الهواء. وفي ايام السبت، تغادر جماعات المولدين الفقراء بصخب اكواخ الكرتون والصفيح القائمة على ضفاف المستنقعات، مع حيواناتهم الداجنة وامتعة اكلهم وشربهم الرخيصة، ويحتلون بهجوم مرح الشواطىء الحصوية في القطاع الاستعماري. وقد كان بعضهم، بين اكبرهم سنا، يحملون حتى سنوات قليلة وسم العبيد الملكي، مطبوعا بالحديد المحمى على الصدر. وكانوا يرقصون في نهاية الاسبوع بلا رحمة، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطر في البيوت، ويمارسون الحب الحر بين خمائل

الايكـاكـو، وفي منتصف ليـل الاحـد يخربون مهرجانهم بمشاجرات دامية يخوضونها جميعهم ضد جميعهم. انهم النـاس المنـدفعـون انفسهم الـذين يتسـربـون في بقية ايام الاسبوع الى ساحـات وازقـة الاحيـاء القـديمـة، بعـربات محملة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه، ويبثون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي: حياة جديدة.

ان الاستقـلال عن السيطـرة الاسبـانيـة، ثم الغـاء الـرق بعـد ذلك، قد عجلا بحالة الانحطاط المشرف التي ولد وترعرع فيها الدكتور اوربينو. حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تغرق بصمت في قصورها المجردة من الابهة. اما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قاومت بفاعلية عالية مفاجآت الحروب وانزالات القراصنة، فكانت الشجيرات الملتفة تتدلى من الشـرفـات وتفتـح صدوعـا في جدران الجير والحجر حتى في البيوت التي ما زالت في حالة حسنـة، وعـلامـة الحيـاة الـوحيـدة في الساعة الثانية ظهرا هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة. كانت النساء تحتمين من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبخور كاحتمائهن من عدوى فاجشـة، بل ويغطـين وجـوههن بالطرحة في صلوات الفجر، وكن يمارسن حبهن ببطء وصعوبة، وغالبا ما تعكر هذا الحب خواطر مشؤومة، فيما الحياة تبدو لهن امرا لا نهائيا. وعنـد المغيب، في وقت ازدحـام حركـة المـرور، تنطلق من المستنقعـات عاصفة من البعوض السفاح، وموجة خفيفة من بخار السلح البشري الحار والكئيب، مثيرة في اعماق النفس قلق الموت.

ان حياة المدينة الاستعمارية، التي اعتاد خوفينال اوربينو الشاب رسم صورة مثالية لها في لحظـات حنينـه البـاريسيـة، لم تكن حينئـذ الا وهما من اوهـام الذاكرة. لقد كانت اكثر مدن الكاريبي ازدهارا في القرن الثامن عشر، خصوصا بامتيازها كأكبر سوق للرقيق الافريقي في الامـريكتـين، وكـونهـا مقـر اقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة، الذين كانوا يفضلون مزاولة شؤون الحكم من هنـا، مقـابـل اقيانوس العالم، بدلا من العاصمة البعيدة والمتجمدة، التي تشـوش الحس الـواقعي بمطـرهـا الازلي. وكـانـت تتجمع فيها عدة مرات في السنة اساطيل السـفن المحملة بكنـوز بوتـوسي، وكيتو، وفيراكروث، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلـك الحـين. وفي يوم الجمعة، الثامن من حزيران ١٧٠٨، في الساعة الرابعة مساء، جرى اغـراق السفينـة سان خوسيـه التي كانت قد ابحـرت لتوها باتجاه قادش وعلى متنها حمولة من الاحجـار والمعـادن الثمينـة قيمتهـا نصف مليون بيزو من عملة ذلك الزمن، اغرقها اسطول انكليـزي مقـابـل مدخل الميناء، ولم يكن قد جرى استخراجها بعد مرور اكثر من قرنين على غرقها. ولقد كان من عادة المؤرخين ان يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات.

في الجانب الآخر من الخليج، في حي لامانغا السكني، كان منزل الدكتور خوفيتال اوربينو في زمن آخر. انه بيت فسيح وبارد، مؤلف من طابق واحد، ورواق اعمدة متتالية في المنصة الخارجية، المطلة على مستنقع الابخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج. كانت ارضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي، أبيض واسود، من المدخل وحتى المطبخ، وكثيرا ما عُزي هذا الى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور اوربينو، دون تذكر انه كان ضعفا عاما من جانب البنائين الكتلانيين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذاك. كانت الصالة فسيحة، وسقفها عال جدا كما هو في بقية البيت، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي ضخم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فاتنات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من البرونز. اثاث حجرة الاستقبال، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حي في الصالة، كان كله اثاثا انكليزيا اصيلا من اواخر القرن التاسع عشر. والمصابيح المعلقة كانت من قطع كريستال صخري، وكانت هنالك في كل الانحاء اصص ومزهريات من سيفريس وتماثيل آلهة من الرخام المعرق. لكن ذلك التناسق الاوروبي كان مفقودا في بقية اجزاء البيت، حيث ارائك الخيزران تختلط مع كراس هزازة من فينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية. وفي غرف النوم، كانت توجد اضافة الى الاسرة، شباك نوم معلقة رائعة من سان خاثينتو مطرز عليها بخيوط حريرية اسم صاحب البيت بحروف قوطية، وكانت حوافها محاطة بهداب ملون. اما الردهة المصممة في الاصل من اجل حفلات العشاء، الى جوار صالة الطعام، فقد استخدمت كصالة موسيقى صغيرة تقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهيرون. وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المشترى من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جو البيت. وكان هناك فونوغراف من طراز حديث الى جانب رف عليه اسطوانات حسنة الترتيب. وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور اوربينو منذ سنوات يقبع في احد الاركان مغطى بشرشف من مانيلا. وفي سائر ارجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الاقدام في الارض.

لم يكن هنالك في البيت، رغم ذلك، مكان يكشف جلال المكتبة المرتبة، والتي كانت هيكل الدكتور اوربينو قبل ان تقوده الى الشيخوخة. فهناك، وحول طاولة خشب الجوز الخاصة بوالده، وارائك الجلد الوثيرة، جدران مغطاة حتى النوافذ بخزائن ذات رفوف وابواب زجاجية، رتب فيها بنظام شبه جنوني ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بجلد عجل وعلى عقبها الحروف الاولى من اسمه مكتوبة بماء الذهب. وعلى عكس الحجرات

الاخـرى، التي كانت تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكـريهـة ، كانت المكتبة تنعم دوما بصمت دير ورائحتـه . كان الـدكتـور اوربينـو وزوجتـه اللذان ولـدا وترعرعا في ظل الخرافة الكاريبية القائلة بفتح الابواب والنوافذ لادخال البرودة غير الموجودة في الواقع ، قد أحسا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس. لكنهما ما لبثا ان اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر، التي تتلخص باغلاق البيوت في قيظ آب حتى لا يدخل هواء الشارع الملتهب، وفتحها عى مصـارعهـا لريـح الليـل ، فأصبـح بيتـه منـذ ذلك الحين اكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامـانغـا الحـارقة ، وكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة ، وكذلك الجلوس على الـرواق لرؤ يـة مرور سفن الشحن الثقيلة الـرمـاديـة القـادمـة من نيو اورليانز، والسفن الخشبيـة ذات العجلة الخلفيـة وهي تضيء انـوارهـا في العشية ، وتنقي بنثار الموسيقى المنبعثة منها مزبلة الخليج الراكدة. وكان بيته هو الاكثر مقاومة ما بين كانون الاول واذار، حين تهدم ريح الشمال المدارية سقوف البيوت ، وتقضي الليل مدومة كالذئاب الجائعة حول البيت بحثا عن منفذ تدخل منه . ولم تكن الشكوك تراود احدا في وجود اسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الاسس.

لكن الـدكتـور اوربينـو لم يكن كذلـك في صبـاح ذلـك اليوم ، عندما رجع الى بيته قبل الساعة العاشرة ، مشوشا من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب، بل وهـددتـا بتغيـير يطـرأ عليه وهو في سن ظن ان كل شيء فيها قد انجز. كان يريد ان ينام نوم كلب ريثما يحين موعـد وليمـة الغـداء عنـد الـدكتـور لاثيـديس اوليفيـا ، لكنـه وجد الخدم هائجـين، يحاولـون أمسـاك الببغاء التي طارت الى اعلى فرع في شجرة المانغا حين اخرجوها من القفص ليقصـوا لها جنـاحيها . كانت ببغاء متنوفة ومعتوهة ، لا تتكلـم عنـدما يطلبون منها الكـلام ، وانـما عنـدمـا ينساها الجميع ، وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية. لقد دربها الدكتور اوربينو شخصيا، وكان هذا امتيازا لم يحظ به احد من افراد الاسرة، حتى ولا اولاده عندما كانوا اطفالا.

كانت في البيت منذ اكثر من عشرين سنة ، ولا احد يعرف كم سنة عاشت قبل ذلك ، وكان الدكتور اوربينو يجلس مساء كل يوم ، بعد القيلولة على شرفة الفناء ، وهو المكان الاكثر برودة في البيت ، مستخـدمـا اصعب الاسـاليب الـتر بـويـة ، حتى توصـل الى جعل الببغاء تتحدث بالفرنسية كاكاديمي . بعد ذلك ، وبدوافع الفضيلة المحضة ، علمها مرافقة القداس باللاتينيـة ، وبعض المقـاطـع المختـارة من انجيـل القديس متى ، وحاول دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الاربع بشكل آلي . وفي احدى رحلاته الاخيرة الى اوروبا، احضر معه فونوغرافا ذا نفير ، وعددا كبيرا من الاسطوانات الشائعة اضافة الى مقطوعات الكلاسيكيين

الاثيرين لديه . ويوما بعد يوم ، ومرة بعد اخرى خلال عدة شهور، اسمع الببغاء اغنيات ايفيت جيلبرت وارستيد براون ، اللذين كانا بهجة فرنسا وطربها في القرن الماضي ، الى ان حفظتها الببغاء عن ظهر قلب ، وكانت تغني بصوت امرأة اذا كانت الاغنية لها ، وبصوت رجل اذا كان المغني هو، وتنهي الغناء بقهقهة ماجنة هي انعكاس متقن للقهقهات التي تطلقها الخادمات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية ، وقد وصلت اخبار ظرافتها بعيدا جدا ، مما جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من اقاليم الداخل ويطلبون الاذن احيانا لرؤيتها ، وقد حاول بعض السائحين الانكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الاثناء على متن سفن نيو اورليانز المحملة بالموز، ان يشتروها باي ثمن. لكن يوم مجدها الاكبر هو اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريز، مع وزراء حكومته بكاملهم ، الى البيت للتأكد من صحة سمعتها . وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء ، مختنقين بقبعات وبذلات المراسم التي لم ينزعوها طوال ايام الزيارة الرسمية الثلاثة ، تحت سماء آب المتقدة ، وقد اضطروا للانصراف مخذولين كما جاؤوا ، لان الببغاء رفضت ان تقول حتى ان هذا المنقار هو منقاري ، خلال ساعتين من اليأس ، رغم التوسلات والتوعدات والخجل العام الذي احس به الدكتور اوربينو، الذي اصر على تلك الدعوة الجريئة رغم تحذيرات زوجته الحكيمة .

ان مجرد احتفاظ الببغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية هذه كان دليلا نهائيا على مكانتها المقدسة . لم يكن مسموحا ابقاء اي حيوان اخر في البيت ، باستثناء السلحفاة البرية ، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث او اربع سنوات ظنوا خلالها انها قد ضاعت الى الابد . وهذه لم يكن ينظر اليها ككائن حي ، وانما كانت اشبه بتميمة جامدة من اجل حسن الطالع ، ولم يكن احد يدري على وجه التحديد مكانها . كان الدكتور اوربينو يصر على اعلان كراهيته للحيوانات ، ويعلل ذلك بكل انواع الخرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقنع الكثيرين ، لكنها لا تنفع في اقناع زوجته ، كان يقول ان من يفرطون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراف ابشع القساوات مع البشر. وكان يقول ان الكلاب ليست وفية وانما هي ذليلة ، وان القطط انتهازية وخائنة ، وان الطواويس ليست الا عراقيل مزركشة ، وان الارانب تثير الجشع ، والقرود تعدي البشر بحمى الشبق والديكة ملعونة لانها استخدمت لانكار المسيح ثلاث مرات .

اما فيرمينا داثا ، زوجته ، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وسبعون سنة وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى ، فهي مولعة حد العبادة بالازهار الاستوائية والحيوانات الداجنة ، ولقد استغلت في بدء الزواج تأجج الحب لتقتني منها في

البيت اكثر بكثير مما ينصح به العقل السليم . كان اول ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها اسماء اباطرة رومان تنازعت فيما بينها افضال انثى متشرفة باسم ميسالينا ، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تحبل بعشرة اخرين . بعد ذلك جاءت القطط الحبشية بوجوهها التي كوجوه النسور واخلاقها الفرعونية ، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية ، التي كانت تذرع حجرات النوم كظلال شبحية وتملأ الليل صخبا بموائها في اجتماعات حبها التي كاجتماعات الساحرات . وكان هناك لبضع سنوات قرد امازوني مقيد من خاصرته الى شجرة المانغا في الفناء ، وكان يثير نوعا من العاطفة لوجهه الكئيب كوجه الاسقف اوبدوليو ، كما كانت لعينيه سذاجة عيني الاسقف ، وطلاقة يديه ذاتها ، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا داثا للتخلص منه ، وانما عادته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع .

كانت هناك جميع انواع عصافير غواتيمالا في اقفاص تملأ الممرات ، وكانت توجد كراوين متنبئة وبلشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء ، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات . وقبل الحرب الاهلية الاخيرة بقليل ، عندما دارت للمرة الاولى احاديث عن زيارة محتملة للبابا ، احضروا من غواتيمالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتا اطول مما تأخره في العودة الى وطنه ، بعد ان تبين ان الاعلان عن الزيارة البابوية كان اشاعة اطلقتها الحكومة لاخافة الليبراليين المتآمرين . وفي مناسبة اخرى ، اشتروا من مراكب مهربي كوراثاو الشراعية قفصا من الاسلاك المعدنية فيه ستة غربان معطرة ، كتلك التي كانت تمتلكها فيرمينا داثا وهي صبية في بيت والدها ، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة ، لكن احدا لم يحتمل خفقات اجنحتها الدائمة التي كانت تضمخ جو البيت برائحة اكاليل الموتى . كما جلبوا افعى اناكوندا طولها اربعة امتار ، كانت انفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم ، رغم انهم حققوا ما ارادوه منها ، فانفاسها الابدية كانت تبعد الخفافيش والسمندر ، ومختلف انواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر . اما الدكتور خوفينال اوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية ، والغارق في نشاطاته الحضارية والثقافية ، فكان يكفيه الافتراض بان زوجته ، وسط كل هذه الحيوانات البغيضة ، ليست اجمل امرأة في منطقة الكاريبي وحسب ، بل واكثرهن سعادة ايضا . ولكن في احد الايام الماطرة ، وبعد يوم عمل منهك ، وجد في البيت كارثة اعادته الى الواقع . فمن صالة الاستقبال وعلى مدى البصر كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء ، فيما الخادمات المتسلقات على الكراسي دون ان يدرين ما الذي عليهن عمله ، لم يكن قد استعدن السيطرة على انفسهم من هول المجزرة بعد .

القضيـة هي ان احـد الكـلاب البـوليسية الالمانية، اصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة، وراح يمـزق كل حيـوان يجده في طريقـه من أي جنس كان، الى ان واتت جنـائني البيت المجاور الشجاعة لمواجهته وتمزيقه بمنجله. ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها، اونقل اليها العدوى بزبد ريقه الاخضر، فأمر الدكتور اوربينو والخال هذا بقتل ما بقي حيا من الحيـوانـات واحـراق اجسـادهـا في حقل مهجور، ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيـما شامـلا. والحيـوان الـوحيـد الـذي نجـا لان احـدا لم يتـذكره، كان ذكر السلحفاة حسن الطالع.

وللمـرة الاولى رأت فيرمينـا داثـا ان زوجهـا محق في احـد الشؤون البيتيـة وحاذرت من الحـديث بعـد ذلـك عن الحيوانات لفترة طويلة من الزمن. وكانت تعزي نفسها بصور ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للينيو، قامت بوضعها في أطر وعلقتها على جدران الصالة. وربما كانت ستفقد الامل في رؤية اي حيوان في البيت ثانية، لولا ان اللصوص خلعوا في فجر احد الايام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة اجيال. ركب الدكتور اوربينو اقفالا مزدوجة في حلقات النوافذ، واحكم اقفال الابواب من الداخل بمزالج حديدية، وخبأ الاشيـاء الثمينـة في صندوق الكنوز، واعتاد متأخرا على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الـوسـادة. لكنه اعترض على شراء كلب باسل، ملقح اوغير ملقح، مفلت اومقيد، حتى ولو تركه اللصوص على العظم.

قال:

ـ لن يدخل هذا البيت كائن لا يحسن الكلام.

قال ذلـك ليضـع حدا لحجـج زوجتـه الواهية، المصرة مجددا على شراء كلب، دون ان يعلم ان ذلك القرار المتعجل سيكلفه حياته، اذ تمكنت فيرمينا داثا، التي كان طبعها الجاف قد رق بفعل السنين، وتشبثت بزلة لسان زوجها: وبعد شهور من السرقة ذهبت الى مراكب كوارثـاو الشـراعيـة واشـترت ببغـاء ملكيـة من باراماريبو كانت تحسن اطلاق شتائم البحارة فحسب، لكنها تنطقها بصوت انساني مما جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر سنتافو.

كانت ببغـاء جيـدة، اخف مما يخيـل لمن يراها، رأسها اصفر ولسانها اسود، وهو الشيء الـوحيـد الـذي يميـزهـا عن ببغاوات المانغلير والتي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحاميل زيت البطم. وقـد انحنى الـدكتـور اوربينـو، الخاسر الجيد، امام ذكاء زوجته، وفوجىء هو نفسه بالظـرافـة التي اضفـاها تعليم الخادمات على الببغاء الشعثاء. ففي الأمسيات الماطرة، حين تنحـل عقـدة لسـانها لسعادتها بريشها المبتل، كانت تنطق عبارات من ازمان اخرى لا يمكن

ان تكـون قد تعلمتهـا في البيت، مما يحمـل على التفكـير بانهـا اكـبر سنا مما تبدو عليه. وقد انهارت اخر تحفظات الطبيب عندما حاول اللصوص في احدى الليالي دخول البيت ثانية من كوة السقف، واخافتهم الببغاء بنباح ما كان له ان يكون اكثر شبها بالنباح لو ان صاحبه كان كلبـا حقيقيـا، وبـالصـراخ: نشـالـين نشـالين نشالين، وهما ظرافتان منقذتان لم تتعلمهما في البيت. وكان حينئذ ان تولى الدكتور اوربينو مسؤوليتها، فأمر باقامة عمود حمالة تحت شجرة المـانغـا مع انـاء للماء واخـر للموز الصغير الناضج، وارجوحة للقفز عليها. وفي الفترة ما بين كانون الثاني واذار. عندما يصبح الليل باردا والجو في الخارج غير صالح للحياة بسبب رياح الشمال المـداريـة. ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى بحرام، رغم ان الشكوك كانت تساور الدكتور اوربينو من ان داء الخُنّب المزمن لدى الببغاء، قد تكون له اثار خطيرة على تنفس البشـر. وكـانـوا طوال عدة سنـوات يقصون ريش جناحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيتها المائلة التي كمشية فارس عجوز. لكنها راحت تتظارف في احد الايام بحركات بهلوانيـة بين دعـائم المطبـخ فهـوت في قدر الطبيـخ وهي تعـربد بصيحتها البحرية فلينج من يستطيـع النجـاة. ولحسن الحـظ ان الطاهية تمكنت من اخراجها بالمغرفة، وهي مسلوقة وبلا ريش، ولكنهـا على قيـد الحيـاة. منذ ذلك الحين صاروا يبقونها في القفص حتى اثناء النهار، رغم الاعتقـاد الشعبي السـائد بان الببغاوات الحبيسة في اقفاص تنسى ما تعلمته، وما عادوا يخرجونها الا في برودة السـاعة الرابعة لتلقي دروس الدكتور اوربينو على شرفة الفناء، ولم ينتبه احـد في الـوقت المنـاسب الى ان اجنحتهـا قد نمت واصبحت طويلة بما فيـه الكفاية، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصها، فطارت هاربة الى اعلى شجرة المانغا.

لم يتمكنـوا من الامســاك بها طوال ثلاث ساعـات. وقـد لجأت الخـادمـات، بمساعدة خادمـات الجـوار، الى كل الحيـل لجعلهـا تنزل، لكنها بقيت متشبثة بمكانها، صارخة وهي تكـاد تنفجـر من الضحـك: يحيـا الحـزب الليبرالي، اللعنة، فليحيا الحزب الليبرالي، وهي صرخـة جريئـة قد تكلف اربعـة سكـارى منتشـين حياتهم. ما كاد الدكتور اوربينو يراها بين اوراق الشجرة، حتى حاول اقناعها بالاسبانية والفرنسية، بل وباللاتينية، والببغاء ترد عليه باللغـات ذاتهـا والتأكيـد ذاتـه ونـبرة الصوت ذاتها، لكنها لم تتحرك عن قمة الشجرة. وحين اقتنـع ان احـدا لن يستطيـع اقنـاعها بالحسنى، امر الدكتور اوربينو ان يطلبوا مساعدة رجال الاطفاء، الذين كانوا لعبته الحضارية الاكثر حداثة.

وفعـلا، كان بطفيء الحـرائق، حتى وقت قريب، متطـوعـون يستخدمون سلالم بنائين وسطـول ماء تجلب كيفمـا اتفق، وكـانـت اسـاليبهم مشـوشة، بحيث كانوا يسببون في معظم الاحيان اضرارا تفوق اضرار الحريق. انما منذ العام الماضي، وبفضل حملة تبرعات قامت بها

جمعيـة الـترقي العـام، والتي كان خوفينـال اوربينورئيس شرف لها، اصبح هناك فريق اطفاء محترف وسيـارة صهـريج مزودة بصفارة وناقوس، وخرطومي ماء عاليي الضغط، وكان رجال الاطفـاء هم تقليعـة تلك الايـام، لدرجـة انهم في المـدرسـة كانـوا يوقفـون الـدروس عندما يسمعـون نواقيس الكنـائس تقـرع بذعـر، كي يذهـب الاطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النار. وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء. لكن الدكتور اوربينو روى للسلطات البلدية بانه رأى رجال الاطفاء في هامبورغ يبعثون الحياة في طفل عثروا عليه متجمدا في احد الاقبية بعد ثلج استمـر هطـولـه عدة ايـام. كما انـه رآهم في احد ازقة نابولي، ينزلون ميتا في تابوت من شرفة طابق عاشـر، لان ادراج المبنى كانت شديـدة الانحنـاء ولم يتمكن ذوو الميت من اخراجه الى الشـارع. وهكـذا كان ان تعلم رجـال الاطفـاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة اخرى، كخلع اقفـال اوقتـل افـاع سامة، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادىء الاسعاف الاولي في الحوادث الصغرى. وبهذا لم يكن سخفا ان يطلب منهم المساعدة في انزال ببغاء عن شجرة، ولا سيما هذه الببغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل. قال الدكتور اوربينو: «قولوا لهم ان هذا بنـاء على طلبي». ومضى الى حجـرة النـوم ليرتـدي ملابس حفلة الغـداء. والحقيقـة ان مصـير الببغـاء في هذه اللحظـة، التي يشعـر فيها بالضيق من رسالة جيرميا دي سانت ـ آمور، لم يكن يهمه.

كانت فيرمينا داثـا قد ارتبدت فستانا حريريا، فضفاضا ومفلتا، خصره عند الوركين، ووضعت قلادة من الـلالىء الاصيلة بست لفـات طويلة متـدرجة، وانتعلت حذاء املس ذا كعب عال لا تستخدمه الا في المناسبات الرسمية، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير. لم يكن ذلك الزي الذي على الموضة بالزي المناسب لجدة وقورة، لكنه كان ملائما تماما لجسدها ذي العظـام الطـويلة، والـذي ما زال نحيلا وممشوقا، وليديها اللدنتين الخاليتين من اية شامة شيخوخة، ولشعرها الفولاذي الازرق، المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد. والشيء الـوحيـد الـذي ما زالت تحتفـظ به من صورة زفـافهـا هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الامة، لكن ما كان ينقصها بفعل السن كانت تعوضه بخلقها وتجعله يفيض بجدها. كانت تشعـر انهـا على ما يرام: فعصـور مشـدات الخصـر المعـدنيـة، والخصور المقيدة، والارداف المـرفـوعـة بحيـل تعتمـد على الخـرق القـماشيـة، اصبحت كلهـا غابرة، وصارت الاجساد المتحررة، المتنفسة حسب مشيئتها، تعرض كما هي، حتى في الثانية والسبعين من العمر.

وجـدهـا الـدكتـور اوربينـو جالسة مقابل خوان الزينة، تحت رياش المروحة الكهربائية البطيئـة، واضعـة القبعـة التي لها شكـل النـاقوس والمزينة بازهار بنفسج مصنوعة من اللباد. كانت حجـرة النـوم فسيحـة ومشمـة، فيهـا سريـر انكليـزي مغطى بكلة ورديـة، ونـافذتان

مفتـوحتـان تطـلان على اشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الذاهلة لاحساسها باقتراب المطـر. لقـد اعتادت فيرمينا دائما، ومنذ العودة من رحلة الزفاف، على اختيار ملابس زوجها بما يتلاءم مع حالة الطقس والمناسبة، ووضعها مرتبة على كرسي منذ الليلة السابقة ليجدها جاهزة لدى خروجه من الحمام. وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه، ثم اخيرا على الباسه، وكانت واعية انها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في اول الامر، ولكنها اصبحت مضطـرة لعمـل ذلـك منـذ نحـو خمس سنوات لانه لم يعد قادرا على ارتداء ملابسه بنفسه. لقـد احتفـلا منـذ وقت قريب باليـوبيـل الـذهبي لزواجهما، وليس بامكان احدهما العيش لحظـة واحـدة دون الآخـر، اودون التفكـير به، مع انهـما يعيـان ذلك اقل فأقل كلما استفحلت الشيخوخة. ولم يكن بمقدور اي منهما القول ان كانت تلك العبودية المتبادلة ترتكز على الحب ام على الـراحـة، لكنهـما لم يتساءلا عن ذلك ابدا وايديهما على القلب، اذ فضل كلاهما دومـا تجاهـل الجـواب. لقد بدأت تكتشف شيئا فشيئا تعثر خطى زوجها، واضطراب مزاجه، وتصدع ذاكرته، وعادته الاخيرة بالبكاء وهو نائم، لكنها لم تر في ذلك علامات صدأ نهائي بين، بل عودة سعيـدة الى الطفـولـة. ولـذا لم تعامله على انه شيخ صعب وانما كطفل هرم، ولقد كانت تلك الخدعة الهاما من العناية الالهية لكليهما لانها وضعتهما بمنأى عن الشفقة.

لا بد ان الحياة كانت ستصبح شيئـا آخـر لكليهـما، لو انهـما عرفا في الوقت المناسب ان تصريف كوارث الزواج العظيمة اسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة، واذا كانا قد تعلما شيئا معا فهو ان الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع. لقد احتملت فيرمينا دائما بقلب مثقل، طوال سنوات، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكرة. كانت تتشبث بآخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم، فيما يستيقظ هو ببراءة طفـل وليـد: كل يوم جديـد هو يوم يكسبه في الحياة. كانت تسمعه ينهض مع الديكة، واول علامـة من علائم الحيـاة يقـوم بها هي كحـة لا مبر ر لها يبـدو وكأنه يتعمدها لايقاظ زوجته. كانت تسمعـه يهمهم، ليقلقهـا فحسب، فيـما هو يبحث باللمس عن خفيـه اللذين يجب ان يكـونـا الى جوار السـريـر. وتسمعـه يخطـو نحـو الحمام متلمسا خطواته في الظلام. وبعد ان يقضي ساعة في مكتبه، وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه دون ان يشعل النور حتى هذا الوقت. لقد سألوه يوما، في لعبة من العاب الصالون، كيف يعرف نفسه، فقال: «انني رجل يرتدي ملابسه في العتمة». كانت تسمعه وهي عارفة انه لا حاجـة لاي صوت من تلك الاصـوات التي يصـدرهـا، وانـه يفعـل ذلـك متعمدا ومتظاهرا العكس، تماما مثلما هي مستيقظة وتتظاهر انها ليست كذلك. وكانت اسبابه صحيحة: فهو لم

يحتج اليها ابدا حية وصاحية، كما يحتاج اليها في هذه اللحظات العصبية.

لم تكن هنـاك من هي اكثر منهـا اناقة في النوم، اذ كانت تنام في وضعية راقصة، مسندة احـدى ذراعيهـا على جبهتهـا. كما لم يكن هنـالـك من هو اكثر وحشيـة منها عندما يقلقون احسـاسهـا بالاعتقـاد انهـا نائمـة وهي ليست كذلـك، كان الدكتور اوربينو يعرف انها تبقى مصغية الى ادنى ضجة يثيرها، بل وتكون شاكرة له، لانها تجد بذلك من تلقي عليه اللوم في ايقاظها منذ الخامسة صباحا، وقد كان الامر كذلك حقا، لدرجة انه في المناسبات القليلة التي كان يتلمس فيهـا بحثـا عن خفيه في الظـلام في مكـانها المعتاد، كانت تقول له فجأة بصوت ناعس: «لقد تركتهما البارحة في الحمام». ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب:

ـ ان اكبر مصيبة في هذا البيت هي ان المرء لا يجد فيه الى النوم سبيلا.

وعنـدئـذ تتقلب في الفـراش، وتشعـل النـور دون ان تأخـذها اية رحمة بنفسها، سعيدة بانتصارها الاول لهذا النهار. لقد كانت في العمق لعبة لكليهما، لعبة خرافية وشريرة، لكنها منعشـة في الـوقت نفســه: انها احدى سعادات الحب المدجن الخطيرة. ولكن بسبب احدى هذه الالعـاب التـافهة كانت الثلاثين سنة الاولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لان الصابون لم يكن موجودا في الحمام في احد الايام.

بدأ الامـر ببسـاطـة روتينيـة. كان الـدكتور اوربينو قد رجع الى حجرة النوم، في الزمن الـذي كان ما يزال يستحم فيـه دون مسـاعـدة، وبدأ بارتداء ملابسه دون اشعال النور. اما هي، فكـانت ما تزال في وضعهـا الجنيني الـدافىء كعـادتهـا في مثـل هذا الـوقت: عينـاهـا مغمضتان، تنفسها هادىء، وهذه الذراع المستندة الى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة. لكنها كانت نصف نائمة، كما هي العادة، وكان يعرف ذلك. وبعد صرصرة طويلة من بدلة الكتان المنشاة في العتمة، كلم الدكتور اوربينو نفسه قائلا:

ـ منذ اسبوع وانا استحم بلا صابون.

عنـدئـذ استيقظت، وتـذكـرت، وانقلبت غضبا ضد العالم، لانها نسيت بالفعل وضع صابونة جديدة في الحمام. لقد لاحظت غياب الصابون منذ ثلاثة ايام، وكانت قد اصبحت تحت الـدوش، ففكـرت باحضـار قطعـة صابـون فيـما بعـد، لكنها نسيت فيما بعد الى اليوم التـالي. وفي اليـوم الثـالث حدث لها الشيء نفسـه. لم يكن قد مضى اسبـوع في الواقع، كما يدعي ليضــاعف من احســاسهـا بالـذنب، وانـما ثلاثـة ايـام لا تغتفـر، ثم ان الغضب من احســاسهــا بانهـا فوجئت وهي على خطأ اخرجها عن طورها، فسارعت كعادتها للدفاع عن نفسها بالهجوم:

صرخت دون وعي:

ـ لقد استحميت كل هذه الايام، وكان الصابون دوما في مكانه.

ورغم معرفته الجيدة لاساليبها في الحرب، فانه لم يستطع احتمالها هذه المرة. ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة تحت اية ذريعة مهنية، ولم يعد يظهر في البيت الا لاستبدال ملابسه عند المساء، قبل ان يقوم بجولة عيادته على بيوت المرضى. وكانت تذهب الى المطبخ عندما تسمع مجيئه، متصنعة عمل اي شيء، وتبقى هناك الى ان تسمع وقع حوافر حصاني العربة في الشارع، وكلما حاولا حل الخلاف في الشهور الثلاثة التالية، فان الشيء الوحيد الذي كانا يتوصلان اليه هو تعقيده. لم يكن مستعدا للعودة الى البيت ما دامت لا توافقه على انه لم يكن يوجد صابون في الحمام، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما دام لا يعترف بانه كذب وهو واع لتعذيبها.

ومنحهما الحادث طبعا فرصة لاستحضار حوادث اخرى، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة. وبعثت الاحقاد احقادا اخرى، وفتحت جراح قديمة كانت ملتئمة لتنزف من جديد، وقد فزع كلاهما لليقين المدمر بانهما لم يفعلا شيئا خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الاحقاد. ووصل به الامر لان يقترح عليها التقدم معا للاعتراف المفتوح امام نيافة الاسقف اذا اقتضى الامر، ليكون الرب هو الحكم الاخير الذي يقرر اذا كان في مصبنة الحمام صابون ام لا. اما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين، فقد اضاعتها بصرخة هستيرية:

ـ فليذهب السيد الاسقف الى الخراء!.

هزت تلك الشتيمة ركائز المدينة، وكانت منطلقا لحكايات واقاويل ليس من السهل تكذيبها، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع: «فليذهب السيد الاسقف الى الخراء!». ومدركة انها قد تجاوزت الحد، سارعت الى اتخاذ ردة الفعل التي انتظرتها من زوجها، فهددته بالانتقال وحدها الى بيت ابيها القديم، الذي ما زال ملكا لها، رغم انه مؤجر كمكاتب عامة. لم يكن ذلك تبجحا: كانت تريد الذهاب حقا، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية، وقد تنبه الزوج الى ذلك في الوقت المناسب. ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهورها. فاستسلم ليس بمعنى القبول بانه كان يوجد صابون في الحمام، لان ذلك سيكون اهانة للحقيقة، وانما وافق على ان يستمرا بالعيش في البيت نفسه، ولكن في حجرتين منفصلتين، ودون ان يكلما بعضهما. وهكذا كانا يأكلان، ويصرفان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من احد اطراف المائدة الى الطرف الاخر بواسطة ابنيهما، دون ان ينتبه الابنان الى انهما لا يتبادلان الحديث.

وبما انه لا وجود لحمام في مكتبه، فان هذه الصيغة قد حلت الخلاف حول الضوضاء الصباحية، لانه اصبح يدخل للاستحمام بعد ان ينتهي من تحضير درسه، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته. وفي احيان كثيرة كانا يلتقيان وينتظران بالدور لتنظيف اسنانهما قبل النوم. وبعد اربعة شهور، استلقى ليقرأ في الفراش الزوجي فيما هي خارجة الى الحمام، كما كان يحدث كثيرا، فغلبه النعاس، استلقت الى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف. واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ. ولكنه بدلا من ان ينهض اطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته. فهزته من كتفه لتذكره بان عليه الذهاب الى مكتبه، لكنه كان يشعر مجددا بانه في حالة جيدة على فراش الريش الموروث عن اسلافه، ففضل الاستسلام.

قال لها:

ـ دعيني هنا، نعم، كان هناك صابون.

حين كانا يتذكران هذا الحادث، بعد ان اصبحا عند منعطف الشيخوخة، ماكانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بان ذلك الشجار كان الاخطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الاذعان والبدء في حياة اخرى. وحتى عندما اصبحا عجوزين وديعين كانا يحاذران من ذكره، لان الجراح قليلة الالتئام سرعان من تعاود النزيف وكأنها جراح الامس.

كان هو اول رجل سمعته فيرمينا داثا يتبول. سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتهما الى فرنسا، فيما الدوار ينهكها، وبدا لها وقع ينبوعه الحصاني قويا ومتسلطا، مما ضاعف رعبها من الاذى الذي يخيفها. وقد كانت تلك الذكرى تعاود مخيلتها بكثرة، كلما اضعفت السنون من قوة الينبوع، لانها لم تستطع الصبر ابدا على تلويثه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه. وقد حاول الدكتور اوربينو اقناعها، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها، ان ذلك الحدث يتكرر يوميا ليس بسبب اهماله، كما كانت تصر هي، وانما لسبب عضوي: فينبوعه في سنوات صباه كان محددا ومستقيما، حتى انه كسب وهو في المدرسة بطولة التسديد لملىء زجاجات، ولكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن، وانما اصبح زائغا كذلك، واخذ يتشعب، الى ان اصبح في نهاية الامر ينبوعا وهميا يستحيل توجيهه، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره. كان يقول: «لا بد ان مخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئا عن الرجال». وكان يساهم في السلام البيتي بعمل يومي هو اقرب الى الذل منه الى التواضع: كان يمسح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه، وكانت تعرف انه يفعل ذلك، لكنها لم تكن تقول شيئا ما لم تفح روائح الامونياك في الحمام، عندئذ

تعلن الامر وكأنـه اكتشـاف جريمـة : «ان هذا يشير قرف حظـيرة ارانب» . وعلى مشـارف الشيخـوخـة ، ادى تثـاقـل جسـد الـدكتـور اوربينو الى الهامه الحل النهائي : صار يبول وهو جالس، كما تفعل هي ، مما حافظ على مقعد المرحاض نظيفا، وجعله يتخذ وضعا ظريفا.

كان يقـوم بشؤونـه حينئـذ بشكـل سيء . لكن انزلاقا في الحمام كاد يودي بحياته جعله يتخـذ موقفـا حذرا من الـدوش . فالبيت، رغم كونـه من البيوت الحديثة، كان يفتقد حوض البـانيـو المعـدني ذا القـوائم التي كقوائم الاسد، والذي كان استخدامه شائعا في بيوت المدينة الاستعـماريـة ، فقـد امـر هو بانتـزاعه متذرعا بحجحه الصحية : ان حوض البانيو هو احدى قذارات الاوروبين الكثيرة، الذين لا يستحمون الا في يوم الجمعة الاخير من كل شهر، ثم انهم يفعلون ذلـك وسـط المـاء المتسـخ بالوساخة نفسها التي يريدون إزالتها عن اجسادهم . وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غوايا كان المتين، حيث اصبحت فيرمينا دائما تحمم زوجها بنفس طقوس تحميم الاطفال حديثي الولادة. كان الحمام يستمر لاكثر من ساعة، بماء فاتر غليت فيه اوراق العطرة وقشور البرتقال، وكان للحمام تأثير مهـدىء عليـه يجعله يغفـو في النقيـع المعطر احيانا . وبعد تحميمه ، تساعده فيرمينا دائما على ارتـداء ملابسـه ، وتـرشـه بـبودرة التـالـك ما بين ساقيه ، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع السماط ، وتلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع ، وتتابع الباسه الثيـاب قطعـة قطعـة، من الجـورب حتى ربطـة العنق ذات المشبـك اليـاقـوتي . وصـارت الصباحات الزوجية اكثر سكونا، لانه عاد الى طفولته التي انتزعها منه الاولاد. وانتهت هي من جانبهـا الى الانسجـام مع النظـام العائلي، لان السنوات كانت تمضي بالنسبة لها ايضا، فاصبحت تنام اقل فأقل، وقبل ان تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها.

في يوم احد العنصرة، عندما رفع الشرشف عن جثة جيرميا دي سانت ـ آمور، انكشف للدكتـور اوربينـو امـر كان يرفض التفكـير فيـه حتى ذلـك الحين في ابحاراته الجلية كطبيب ومؤمن . فبعـد سنـوات طويلة من التعـايش مع المـوت، وبعـد صراعـه ولمسـه باطنا وظاهرا لسنوات عديدة، كانت تلك هي المرة الاولى التي تجرأ فيها على النظر الى وجه الموت، وكان الموت ينظر اليه ايضا. لم يكن احساسه خوفا من الموت لا : فالخوف كان بداخله منذ سنوات، يحيا معه ، كان ظلا اخر فوق ظله، منذ ليلة استيقظ فيها قلقا لرؤيته حلما مشؤوما جعله يدرك ان الموت ليس احتمالا ماثلا فقط، كما احسه دائما، وانما هو واقع قائم . وبالمقابل، فان ما رآه يومذاك هو حضور جسدي لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصورا يقينيا حتى ذلك الحين. وقد اسعده ان يكون اداة العناية الالهية لهذا الكشف هو جيرميا دي سانت ـ آمور، الذي اعتبره دومـا قديسـا يجهـل فضـل ذاتـه، ولكن عنـدمـا كشفت له الـرسـالة حقيقة هويته ، وماضيه

الفاسد، وقدرته اللامعقولة على الخداع، احس بان شيئا نهائيا لا رجعة فيه قد طرأ على حياته.

ومع ذلك فان فيرمينا دائا لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهر اليها. لقد حاول ذلك بالطبع فيما هي تساعده على دس ساقيه في البنطال وتزرر صف ازرار القميص الطويل. لكنه لم يصل الى ما يريد لان التأثير على فيرمينا دائا لم يكن سهلا، وخصوصا في موت رجل لم تكن تحبه. كانت تعرف بالكاد ان جيرميا دي سانت ـ آمور هو رجل مقعد ذو عكازين لم تره ابدا، وانه قد فر من فصيلة الإعدام في احدى التمردات الكثيرة في واحدة من جزر الانتيل العديدة. وانه عمل مصور اطفال بدافع الحاجة وصار الاكثر شهرة في الإقليم كله، وانه قد كسب دور شطرنج من شخص تتذكر هي ان اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة ان اسمه كابا بلانكا.

قال لها الدكتور اوربينو:

ـ لم يكن سوى هارب من كايينا، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها. وتصوري ان الامر وصل به الى اكل اللحم البشري.

اعطاها الرسالة التي كان يريده حمل اسرارها معه الى القبر، لكنها خبأت الاوراق المطوية في خوان الزينة، دون ان تقرأها، واقفلت الدرج بالمفتاح، كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش، وعلى احكامه المبالغ فيها والتي اخذت تصبح اكثر تعقيدا مع مرور السنوات، وعلى ضيق افق لا يتلاءم مع صورته العامة. لكنه في تلك المرة تجاوز حدوده المعتادة. وافترضت ان زوجها ليس معجبا بجيرميا دي سانت ـ آمور لما كان عليه فيما مضى، وانما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلا متاع سوى حقيبة المنفيين التي كان يحملها، ولم تستطع ان تفهم لماذا فجع الى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخرا. ولم تفهم لماذا يبدو له فظيعا ان يكون على علاقة بامرأة سرية اذا كان هذا الامر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه، بما في ذلك هو نفسه في لحظة جحود. وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلا مؤثرا على الحب. وقالت: «واذا ما قررت انت عمل ذلك ايضا لاسباب جدية كتلك التي كانت لديه، فان واجبي ان افعل مثلما فعلت هي». ووجد الدكتور اوربينو مرة اخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي اثارت حفيظته طوال نصف قرن.

ـ قال:

ـ انت لا تفهمين شيئا. ان ما يغيظني ليس ما كانه او ما فعله، وانما الخدعة التي جعلها تنطلي علينا جميعا خلال هذه السنوات الطويلة.

بدأت عيناه تغرورقان بدموع سهلة، فيما تصنعت هي التجاهل وردت:

ـ حسنا فعل. فلو انه قال الحقيقة لما كنت انت ولا هذه المرأة المسكينة، ولا احد في البلدة احبه كما احببتموه.

ثبتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصدرية. وعقدت له ربطة العنق ووضعت له المشبك الياقوتي. ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمنديل المبلل بعطر اغوا فلوريدا، ووضعته في جيب الجاكيت على الصدر فاتحة اطرافه كزهرة مانوليا. دقت ساعة البندول دقاتها الاحدى عشرة في البيت الراكد، فقالت وهي تقوده من ذراعه:

ـ اسرع. سنصل متأخرين.

كانت اميتنا ديتشامباس، زوجة الدكتور لايثديس اوليفيا، وبناتها السبع المتحمسات، قد اعددن كل شيء من اجل ان يكون غداء اليوبيل الفضي هوحدث السنة الاجتماعي، منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي وهو بيت المال سابقا، كان قد غير من طرازه المعماري مهندس فلورنسي مر من هنا مثل ريح شؤم، وحول الى كنائس على الطراز الفينيسي بقايا اكثر من اربعة معابد من القرن السابع عشر. كان في البيت ست حجرات نوم وصالونان للطعام والاستقبال، واسعان وحسنا التهوية، لكنهما لا يتسعان لمدعوي المدينة، فضلا عن النخبة التي ستأتي من الخارج. كان الرواق اشبه بباحة دير، في وسطه نافورة حجرية يغرد الماء فيها، وجنائن من الهيليوتربو تعطر البيت عند المغيب، لكن الفسحة المقنطرة لم تكن كافية لكل تلك الالقاب العظيمة. ولهذا قرروا اقامة حفل الغداء في بيت العائلة الريفي، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام، ففيه ساحة فسيحة وشجيرات غار هندية كثيفة ونيلوفر مهجّن في مسيل ماء وديع، رجال مطعم دون سانتشو، نصبوا بتوجيه من السيدة اوليفيا، مظلات شوادر ملونة في الاماكن التي لا ظلال فيها، واقاموا تحت اشجار الغار مستطيلا من الطاولات يتسع لمئة واثنين وعشرين شخصا، مع شراشف كتانية بيضاء لجميع الطاولات، واغصان ورد طازجة على طاولة الشرف. كما اقاموا منصة لفرقة موسيقى الآلات الهوائية التي كان برنامجها يقتصر على موسيقى راقصة وفالسات وطنية، ولرباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة، هي مفاجأة السيدة اوليفيا لاستاذ زوجها الموقر، الذي سيرأس الغداء، ومع ان اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماما مع ذكرى التخرج، فقد اختاروا يوم احد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفلة.

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور، خوفا من نسيان شيء اوعدم انجازه في الموعد المحدد، احضروا الدجاج الحي من ثييناغا دي اورو، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل كلها، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب، وانما لانه في الزمن الاستعماري كان يعفر في

اراضي الطمي، فكـانـوا يجدون في حوصلتـه حصيات من الذهب الخالص، وكانت السيدة اوليفييـا شخصيـا، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم، تصعد الى متن السفن العابرة الفخمة لتنتقي افضـل ما يصـل من كل مكـان لتشـريف مكـانـة زوجها. لقد احتاطت لكل شيء، باستثنـاء ان الحفلة ستكـون يوم احـد حزيراني في سنة متأخرة الامطار. وقد ادخلت امر خطر كهـذا في حسـابهـا صبـاح يوم الحفلة بالـذات، عنـدمـا خرجت الى القداس الكبير وفزعت لرطـوبـة الهـواء، ورأت ان السـماء كثيفـة وواطئـة وان البصر لا يصل لرؤية الافق البحري. ورغم علائم النحس هذه، فقـد ذكـرهـا مدير الارصاد الجوية، الذي التقت به في الصلاة، بانه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جدا، حتى ولا في أقسى فصول الشتاء، ان هطل المطر في يوم العنصـرة. ورغم ذلـك، فعنـدمـا دقت السـاعة معلنة الثانية عشرة، وفيما كان معظم المدعوين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق، جعل انفجار الرعد الارض تهتز، واطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو، وانهارت السماء بمطر كالكارثة.

لقد تمكن الدكتور خوفينال اوربينو من الوصول بجهود مضنية في فوضى العاصفة، مع اخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق، وكان يُريد الوصول الى البيت قافزا من العربات مثلهم فوق الاحجـار، عبر البهـو المضطـرب، لكنـه قبـل اخيـرا مذلـة ان يحمله رجال دون سانتشو على الاذرع تحت مظلة من قماش اصفر، وجرى اعداد الطاولات المنفصلة من جديد على احسن وجـه ممكن داخـل البيت، وحتى في غرف النـوم، ولم يقم المـدعـوون بأي جهد لاخفاء مزاجهم الغارق بالماء، كان الحر في البيت كانه مرجل سفينة، اذ انهم اغلقوا النوافذ ليمنعـوا دخـول المطـر الذي يهطل مائلا بفعل الريح. كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه، وكان مقررا ان يكون هناك جانب للرجال واخر للنساء، كما هي العـادة في ذلـك الحـين، لكن البطـاقات التي تحمل الاسماء اختلطت داخل البيت، وجلس كل واحـد كيفمـا استطـاع، بفـوضى هائلة خالفت لمرة واحـدة على الاقـل تقـاليدنا الاجتماعيـة البـاليـة، ووسـط الكـارثـة، كانت اميتـا دي اوليفيا تبدو وكأنها في كل مكان، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل، لكنها تعلو على المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجهـا كي لا تتيح للعـوازل ان يشمتوا. وبمساعدة بناتها، المصاغات في الكور نفسه، تمكنت الى حد ما من حجز الاماكن على طاولة الشرف، فكان الدكتور خوفينال اوربينو في الـوسـط والاسقف اوبدوليو اي ري الى يمينه. وجلست فيرمينا داثا الى جانب زوجها، كما اعتادت ان تفعل دوما، خوفا من ان يغلبه النعاس اثناء الغداء او ان يسكب الحساء على قبة سترته. واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس اوليفييا، وهو خمسيني ذو مظهر انثوي، محتفظ جيـدا بقـواه، ولا علاقة لروحه الاحتفالية بتشخيصاته الطبية الصائبة. وامتلأت بقية مقاعد

الطاولة بممثلي السلطات الاقليمية والبلدية، وملكة جمال العام الفائت، التي قادها الحاكم من ذراعها ليجلسها الى جواره، ورغم انه لم تكن هناك عادة طلب زي خاص في الدعوات، ولا سيما في غداء ريفي، فقد كانت السيدات يرتدين بدلات سهرة وحلي من احجار كريمة، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قاتمة مع ربطة عنق سوداء، وبعضهم يرتدي الستر الرسمية البيضاء، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم، ومنهم الدكتور اوربينو، كانوا يرتدون بدلات يومية، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينو[1]، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة.

ذرعت السيدة اوليفيا، المرتعبة من اهوال الحر، البيت راجية من الجميع خلع سترهم لتناول الغداء، لكن احدا لم يجرؤ على ان يكون قدوة للاخرين. ولقد لفت الاسقف انتباه الدكتور اوربينو الى ان ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما: فهناك يجتمع لاول مرة على طاولة واحدة، وبعد التآم الجروح وتبدد الاحقاد، فريقا الحروب الاهلية التي اغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال. كان هذا التفكير يتلاءم مع حماس الليبراليين، وخصوصا الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس واربعين سنة من هيمنة المحافظين. ولم يكن الدكتور اوربينو متفقا في ذلك: فرئيس ليبرالي لا يبدو له اقل او اكثر من رئيس محافظ، سوى انه اسوأ هندامـا. ومع ذلك، لم يشأ معارضة الاسقف. رغم انه رغب بان يلمح له ان احدا لم يدع لحضور الغداء من اجل افكاره وانما لشرف محتده، وان هذه كانت دائما فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب. واذا نظرنا بهذا المنظار، فليس هنالك اي خلل حقا.

توقف وابل المطر فجأة كما بدأ، والتهبت الشمس في السماء الصافية فورا، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الاشجار من جذورها، وتحول الماء المتجمع حول الفناء الى مستنقع راكد، اما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ، حيث اقيمت عدة مواقد من الطوب في القسم الخلفي من البيت، في العراء، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن المطر، حتى راحوا يضيعون وقتا ثمينا في نزح الماء من المطبخ الغارق واقامة مواقد جديدة على عجل في الرواق الخلفي، ولكن حالة الطوارىء انتهت في الواحدة ظهرا، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي كلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا، اللواتي وعدن بارسالها قبل الساعة الحادية عشرة. وكانت الخشية من ان تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيرا، كما يحدث عادة في فصول شتاء اقل قساوة، ففي هذه الحالة لا يمكن وضع الحلوى في الحساب قبل مرور ساعتين. ما ان توقف المطر حتى فتحوا النوافذ، فلطف الهواء المنقى بكبريت

(١) قائمة باصناف الطعام.

العاصفة جو البيت. ثم امروا بان تعزف الفرقة الموسيقية برنامجها على مصطبة الرواق، لكن ذلـك لم ينفـع سوى في زيـادة الجـزع، لان دوي النحاس داخل البيت كان يضطرهم لتبادل الحديث صراخا. فامرت اميتادي اوليفيا المنهكة من الانتظار، والتي كانت تبتسم وهي على حافة الدموع، بتقديم الطعام..

بدأت فرقـة مدرسـة الفنـون الجميلة الـوتـرية بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النغمات الاولى من معـزوفة لاتشاس لموزارت. ورغم الاصوات التي اخذت تعلو اكثر فاكثر وتصبح اشد اختلاطا، ورغم عرقلة خدم دون سانتشو الزنوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائد يكفي لمرورهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار، فقد تمكن الدكتور اوربينو من الاحتفـاظ بقنـاة مفتـوحـة على المـوسيقى حتى نهايـة الـبرنـامج. كانت قدرته على التركيز تتنـاقص سنـة بعـد اخرى، حتى انه كان يضطر الى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الـورق ليعـرف اين صار في اللعب. ومـع ذلـك، فهو ما زال قادرا على مواصلة محادثة جدية دون ان يفلت خيط الموسيقى، رغم انه لا يصل في ذلك الى الحد الذي يصله قائد اوركسترا المـاني، كان صديقـا حميـا له خلال فترة اقـامتـه في النمسـا، اذ كان يقرأ نوتة موسيقية لدون جيوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر.

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبية، لشوبرت، وبدا له انها تعزف بدرامية سهلة. وفيـما هو يستمـع اليهـا بمعـاناة شديدة، من خلال الجلبة الجديدة التي اثارتها ادوات الطعام في الصحون، كان يحتفظ بنظره معلقا بشاب ذي وجه وردي حياه بانحناءة من رأسه. لا شك انه رآه في مكان ما، لكنه لا يذكر اين. ان هذا يحدث له كثيرا مع الاسماء، فهو ينسى احيـانـا اسـماء اقـرب الناس اليه، وكذلك مع الحان زمن اخر، مما يثير فيه قلقا مخيفا، جعله يفضـل المـوت في احـدى الليـالي على الاحتمال حتى الفجر. وكان على وشك الوصول الى هذه الحـالـة عنـدما اضاء له بريق مشفق ذاكرته: الشاب هو احد تلاميذه من العام الفائت. وفـوجىء برؤ يتـه هنـا، في مملكـة الصفـوة، لكن الـدكتـور اوليفيا ذكره بانه ابن وزير الوقاية الصحية، وقد جاء الى هنا لتحضير اطروحة في الطب الشرعي. واشار له الدكتور خوفينال اوربينو بتحية سعيدة من يده، فوقف الشاب ورد على التحية باحترام. انما لم يخطر للدكتور اوربينو حينئذ، ولا فيما بعد، بانه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت جيرميا دي سانت ـ آمور.

مع احسـاسـه بالـراحـة لهذا الانتصـار الجـديد على الشيخوخة، غادر الغنائية الصافية المنسـابـة لاخـر مقطوعة موسيقية في البرنامج، لم يستطع تحديد هويتها. وقد اخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة، الذي رجع من فرنسا منذ وقت قريب، بان المقطوعة هي

الرباعية الوترية لغابرييل فاوريه، الذي لم يكن الدكتور اوربينو قد سمع باسمه رغم ترصده الدائم لكل جديد من اوروبا. فيرمينا داثا، المنتبهة اليه، كعادتها، وخصوصا عندما تراه ساهما وسط الناس، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده، وقالت له: «لا تفكر في الامر اكثر». فابتسم لها الدكتور اوربينو من الضفة الاخرى للغيبوبة، وكان ان عاد حينئذ للتفكير فيما كانت هي تخشاه. تذكر جيرميا دي سانت ـ آمور، موسدا في هذه الساعة في التابوت بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة، تحت نظر اطفال الصور المتهمة. التفت نحو الاسقف ليطلعه على خبر الانتحار، لكنه كان عارفا به. كان قد تحدث مطولا في هذا الامر بعد القداس الكبير، بل انه تلقى طلبا من الكولونيل جير ونيمو ارغوتي، باسم لاجئي الكاريبي، لدفنه في الارض الطاهرة. قال: «ان الطلب بحد ذاته برأيي هو قلة احترام» ثم، بلهجة اكثر ادمية، سأله ان كان يعرف سبب الانتحار. ورد عليه الدكتور اوربينو بكلمة صحيحة ظن انه اخترعها في تلك اللحظة: خوف الشيخوخة. الدكتور اوليفيا، الذي كان منصرفا باهتمامه الى اقرب الضيوف منه، تركهم لبرهة ليشارك في الحوار مع استاذه. قال: «من المؤسف اننا ما زلنا نلتقي بمنتحر دافعه للانتحار ليس الحب». ولم يفاجأ الدكتور اوربينو من التعرف على افكاره في آراء تلميذه النجيب. فقال:

ـ بل الاسوأ من ذلك ان الانتحار تم بسيانور الذهب. ما ان قال ذلك حتى احس بان الشفقة قد عادت لتتغلب على مرارة الرسالة، ولم يرجع الفضل في ذلك الى زوجته وانما الى معجزة من معجزات الموسيقى، حينئذ حدث الاسقف عن القديس الملحد الذي تعرف هو نفسه عليه في امسيات الشطرنج البطيئة، وحدثه عن تكريسه لفنه من اجل اسعاد الاطفال، وعن سعة اطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا، وعن عاداته الاسبارطية، وقد فوجيء هو نفسه بنقاء الروح الذي مكنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه. ثم حدث العمدة عن اهمية شراء ارشيف مسودات الصور لحفظ صور جيل ربما لن يعود للشعور بالسعادة خارج صوره، جيل في يديه مستقبل المدينة. لقد ذعر الاسقف لان كاثوليكيا مواظبا ومطلعا تجرأ على التفكير بقدسية منتحر، لكنه وافق على المبادرة الى ارشفة مسودات الصور، واراد العمدة ان يعرف ممن عليه ان يشتريها. فكوى الدكتور اوربينو لسانه بجمرة السر، لكنه استطاع احتمالها دون الكشف عن وارثة الارشيف السرية، وقال: «انا سأتولى الامر». واحس بانه افتدى بوفائه المرأة التي تركها قبل خمس ساعات. لاحظت فيرمينا داثا ذلك، وجعلته يعاهدها بصوت واطىء على حضور الدفن. طبعا سأفعل ـ قال مفرجا عن نفسه ـ كل شيء الا هذا.

كانت الخطب قصيرة وبسيطة، وبدأت فرقة الآلات النفخية بعزف موسيقى غوغائية، غير مقررة في البرنامج، وانتقل المدعوون الى الشرفات بانتظار ان ينتهي رجال فندق دون سانتشو من نزح الماء المتجمع في الفناء، ليروا ان كان هنالك من سيتحمس للرقص. والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعوو طاولة الشرف، الذين كانوا يحتفلون باحتساء الدكتور اوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب اخير. ليس هناك من يذكر انه فعل ذلك قبل اليوم، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر، مع وجبة خاصة جدا في مناسبات قليلة، لكن قلبه طلب هذا في ذلك اليوم، وكان ضعفه حسن الاثابة: اذ احس مجددا، بعد سنوات وسنوات، برغبة في الغناء. وكان سيفعل ذلك دون شك، بناء على طلب عازف الكمان الشاب الذي تطوع لمرافقته، لولا ان سيارة من السيارات الجديدة اجتازت اوحال الفناء بسرعة، ملوثة الموسيقيين بالوحل ومثيرة طيور البط في الاقفاص بنفيرها الذي كصوت البط، وتوقفت امام مدخل البيت. نزل الدكتور ماركو اوريليو اوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقماش مخرم. وكانت هناك صوان اخرى مماثلة في المقاعد الخلفية، وعلى ارضية السيارة الى جنب السائق ايضا. انها الحلوى المتأخرة. وبعد ان توقف التصفيق وصفير السخرية الودود، شرح الدكتور اوربينو داثا بجدية كيف ان الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل ان تبدأ العاصفة، لكنه رجع من الطريق العام لان احدهم قال له بان بيت والديه يحترق، اصاب الذعر الدكتور خوفينال اوربينو دون ان ينتظر انتهاء ابنه من الحكاية. لكن زوجته ذكرته بانه هو نفسه قد امر باستدعاء رجال الاطفاء للامساك بالببغاء، وقررت امينتا دي اوليفيا، المتألقة بهجة، ان تقدم الحلوى على الشرفات، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة، لكن الدكتور اوربينو وزوجته انصرفا دون تذوقها، لان الوقت المتبقي لا يكاد يكفيه لنوم قيلولته المقدسة قبل ان يذهب الى الجنازة.

نام قيلولته، انما لوقت قصير وبشكل سيء، لانه عندما عاد الى البيت، وجد ان رجال الاطفاء قد تسببوا باضرار تقارب بخطورتها اضرار حريق، ففي محاولتهم لافزاع الببغاء، اسقطوا احدى الاشجار بخراطيم الضغط المرتفع، وذخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة اضرارا لا مجال لاصلاحها في الاثاث وفي صور الاجداد المجهولين المعلقة على الجدران. وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الاطفاء، معتقدين ان حريقا قد شب. واذا كانت لم تحدث قلاقل اسوأ، فلأن المدارس كانت مغلقة لان اليوم هو يوم احد، وعندما ايقنوا انهم لن يتمكنوا من الوصول الى الببغاء حتى باستخدام السلالم ذات الاجزاء الإضافية، اخذ رجال الاطفاء يحطمون الاغصان

بالفؤوس، وكان ظهور الدكتور اوربينو داثا هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة. فتوقفوا بعد ان وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليروا ان كانوا يخولونهم بتقليم الشجرة. وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا داثا، فكانت كارثة بلا طائل. اضافة الى ان الرأي السائد كان القائل بان الببغاء قد انتهزت فرصة الفوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة، وقد بحث عنها الدكتور اوربينو فعلا بين اوراق الشجرة، ولم يتلق ردا باية لغة، ولا حتى بالصفير والغناء، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة وقبل ذلك تلذذ بمتعة بوله المصفى بالهليون الدافىء.

ايقظه الاسى. ليس الاسى الذي احسه صباحا وهو امام جثة صديقه، وانما الغمامة اللامرئية التي كانت تضمخ روحه بعد القيلولة، والتي اعتبرها اخطارا الهيا بانه يعيش اخر امسياته، لم يكن يعي حتى بلوغه سن الخمسين حجم اووزن اوحالة احشائه. وشيئا فشيئا، وفيما هو يرقد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية، بدأ يشعر باحشائه في جوفه، جزءا جزءا، بدأ يحس حتى بشكل قلبه المسهد، وكبده الغامض، وبنكرياسه الكتيم، وراح يكتشف ان جميع الناس، بما فيهم اولئك الاكبر منه سنا، كانوا اصغر منه، وانه الوحيد على قيد الحياة من بين ابناء صور جيله النائي. وعندما تنبه الى حالات نسيانه الاولى، سارع لاستخدام طريقة سمعها من احد اساتذته في مدرسة الطب: «من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق». لكنها لم تكن سوى وهم زائل، اذ وصل الى اقصى درجات النسيان بنسيانه ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه، وصار يذرع البيت بحثا عن نظارته التي يضعها على عينيه، ويعيد ادارة المفتاح بعد ان يكون قد اقفل الباب، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين او اوصاف الشخصيات. لكن اكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرته العقلية ذاتها: وشيئا فشيئا، في غرق محتم، كان يشعر بانه يضيع معنى العدالة.

ومن خلال التجربة وحدها، وذلك دون مرتكزات علمية، كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف ان معظم الامراض القاتلة لها رائحة خاصة، لكن ايا منها ليس محدد الرائحة كما هو داء الشيخوخة. كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على طاولة التشريح، ويتعرفه حتى في اكثر المرضى اتقانا في اخفاء سنهم الحقيقي، وفي عرق ثيابه بالذات، وفي التنفس الاعزل لزوجته النائمة. ولولا انه كان في اعماقه، مسيحيا على الطريقة القديمة، فربما كان قد اتفق مع جيرميا دي سانت ـ آمور بان الشيخوخة هي حالة تردد يجب تفاديها مسبقا. ان العزاء الوحيد، حتى بالنسبة لمن كان رجلا جيدا في السرير مثله، هو الانطفاء البطيء والرؤوف للرغبة: السلام الجنسي. لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بوعي يجعله يدرك انه مشدود الى هذا العالم بخيوط واهية قد تنقطع دون الم بمجرد حركة بسيطة اثناء النوم، واذا

. كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لخوفه من الا يجد الرب في ظلمات الموت.

كانت فيرمينا دائما قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاش فيها رجال الاطفاء، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت الى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسر، وذكرته بان عليه ان يرتدي ملابسه ليذهب الى الجنازة. كان تحت متناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان: الانسان، ذلك المجهول لالكسيس كاريل، وتاريخ سان ميشيل لاكسيل مونث. ولم يكن الكتاب الاخير قد فتح بعد، فطلب من ديغنا باردو، الطاهية، ان تأتيه بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم. ولكن عندما جاؤوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب الانسان ذلك المجهول في الصفحة المعلمة بمغلف رسالة: كانت لا تزال امامه بضع صفحات قليلة لانهاء الكتاب. قرأ بتمهل، شاقا الطريق عبر منعطفات نقطة الم في الرأس عزاها الى نصف كأس البراندي الذي شربه في النخب الاخير. وفي وقفاته عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة، اويتمهل في قضم قطعة من الثلج، كان لابسا جوربيه، وقميصه دون وضع الياقة المنفصلة، فيما حمالتا البنطال المطاطيتان بخطوطها الخضراء تتدليان على جانبي خصره، وكان يزعجه مجرد التفكير بان عليه استبدال ملابسه من اجل الجنازة. ما لبث ان توقف عن القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الاخر، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز، متأملا من خلال الاسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء، وشجرة المانغا منتوفة الاغصان، ونمل ما بعد المطر الطيار، والضياء الفاني لمساء اخر ينقضي الى الابد. كان قد نسي انه كان يملك ببغاء في احد الايام وانه احبها كما يحب كائنا بشريا، عندما سمعها فجأة: «ببغاء ملكي». سمعها قريبا جدا منه، الى جواره تقريبا. ثم رآها في الحال على أوطأ اغصان شجرة المانغا. فصرخ بها:

ـ عديمة الحياء.

وردت الببغاء بصوت مطابق تماما:

ـ عديم الحياء هو انت يا دكتور.

تابع الحديث معها دون ان يرفع نظره عنها، ريثما لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يخيفها، ودس يديه في حمالتي البنطال، ونزل الى الفناء الذي ما زال موحلا متلمسا الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث. بقيت الببغاء دون حراك. وكانت تقف على ارتفاع منخفض جدا، لدرجة انه مد لها العكاز لتقف على قبضته الفضية، كما تفعل عادة، لكن الببغاء اعرضت عنها. قفزت الى غصن مجاور، اعلى قليلا لكن الوصول اليه اسهل، حيث كان السلم الخاص بالبيت مسندا قبل مجيء رجال الاطفاء. قدر الدكتور

اوربينـو الارتفـاع ، وفكر انه بارتقاء عارضتين من عوارض السلم سيتمكن من الامساك بها . صعـد الـدرجـة الاولى ، مغنيا اغنية يعرفها كلاهما ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر الكلمات دون المـوسيقى ويبتعـد على الغصن بحـركـات جانبية . صعد العارضة الثانية دون مشقـة وهـو يمسـك السلم بكلتـا يديـه ، ويـدأت الببغاء بترديد الأغنية كاملة دون ان تبدل مكـانهـا . ارتقى العـارضـة الثـالثـة ، ثم الرابعة في الحال ، اذ انه اساء تقدير ارتفاع الغصن ، وحينئـذ تشبث بيـده اليسـرى بالسلم وحـاول امسـاك الببغـاء باليمنى . كانت ديغنـا باردو ، الخـادمـة العجـوز قادمـة لتنبيهـه الى انـه يكـاد يتأخـر عن موعد الجنازة ، فرأت ظهر الرجل الصاعد على السلم ، ولم تكن لتصدق انه هو لولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البنطال المطاطية .

صرخت :

ـ يا ربنا القدس ! سيقتل نفسه ! .

امسـك الـدكتـور اوربينو بعنق الببغاء وهو يتنهد ظافرا : انتهى الامر ، لكنه افلتها فورا ، لإن السلم انزلق تحت قدميه وبقي هو معلقا لبرهة في الهواء ، فادرك حينئذ انه قد مات دون قربـان ربـاني ، ودون ان يتـاح له الوقت ليندم على شيء او ليودع ايا كان ، في الساعة الرابعة وسبع دقائق من مساء يوم احد العنصرة .

كانت فيرمينـا داثـا في المطبـخ تتذوق حساء العشاء ، عندما سمعت صرخة الرعب التي اطلقتهـا ديغنـا باردو وجلبـة خدم البيت ثم خدم البيـوت المجـاورة . القت بملعقـة التـذوق وحـاولت الـركض بقـدر ما استطـاعت مع ثقـل سنهـا الـذي لا سبيل الى هزيمته ، صارخة كمجنـونـة ، دون ان تعـرف حتى الآن حقيقـة ما جرى تحت اوراق شجرة المانغا ، وقفز قلبها مفتتـا عنـدمـا رأت رجلهـا مطـروحا على ظهره في الوحل ، ميتا في الحياة ، لكنه ما زال يقاوم ضربة الموت الاخيرة ريثما تصل هي . تمكن من التعرف عليها وسط الحشد ومن خلال دموع الالم التي لا تتكرر لموته من دونها ، وتطلع اليها لآخر مرة والى الابد بعينين اشد بريقا ، واكثر حزنا ، واعظم امتنانا مما رأته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة ، واستطاع ان يقول لها مع النفس الاخير :

ـ الله وحده يعلم كم احببتك .

كانت ميتـة مشهـودة ، وليس ذلك من فراغ ، فما ان انهى دراسته التخصصية في فرنسا ، حتى ذاع صيت الـدكتـور خوفينـال اوربينو في البلاد بانه من درأ مسبقا ، باساليب مستحدثة وصـارمـة ، اخطـار جائحة الكوليرا الاخيرة التي تعرض لها الاقليم . فالجائحة السابقة ، التي جاءت وهـو ما يزال في اوروبـا ، تسببت في موت ربـع عدد السكـان على الاقـل خلال ثلاثة

شهور، بما في ذلك ابوه، الذي كان طبيبا بارزا ايضا. بهذه الشهرة السريعة وبراعة من الارث العائلي، اسس المؤسسة الطبية، وهي المؤسسة الاولى والوحيدة في اقاليم الكاريبي لسنوات طويلة، وكان رئيسا لها مدى الحياة، ثم انشأ اول تمديدات لمياه الشرب بعد ذلك، واول نظام للصرف، ودعا لاقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطىء لاس اينماس صحيا بعد ان كان مجمعا للنتانة. كما كان رئيسا لاكاديمية اللغة واكاديمية التاريخ. وقد نصبه بطريرك القدس فارسا من مرتبة سانتو سيبولكرو لخدماته التي قدمها للكنيسة، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من مرتبة فارس. كما كان محركا فعالا في جميع الجمعيات الدينية والمدنية التي اقيمت في المدينة، وخصوصا الجمعية الوطنية، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بافكار متنورة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظرف التاريخي. من هذه الافكار، واكثرها جدارة بالذكر، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الاول رسالة الى بلدة سان خوان دي لاثييناغا، قبل زمن طويل من التفكير بالبريد الجوي كوسيلة عقلانية، ومن افكاره ايضا اقامة المركز الفني، الذي اسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي ما زالت تحتله حتى الان، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الزهور في نيسان.

وهو وحده تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلا خلال قرن من الزمن: اعادة افتتاح مسرح الكوميدي، الذي تحول الى ملعب لصراع الديكة ومربي ديوك منذ العهد الاستعماري. كان ذلك تتويجا لحملة مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء، في تحرك حاشد اعتبره الكثيرون جديرا بقضية اهم. ومع ذلك، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميدي في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح، وكان على الحضور ان يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيؤون به في الاستراحات بين الفصول. وفرضت آداب الاتيكيت القائمة في اعظم مسارح اوروبا، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء في حر الكاريبي الخانق، انما كان لا بد من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح، وكذلك بعض الاطعمة التي كانوا يرون انها ضرورية لاحتمال البرامج الطويلة التي لا تنتهي، والتي استمر احدها حتى ساعة صلاة الفجر الاولى. وافتتح الموسم بفرقة اوبرا فرنسية كان الجديد لديها استخدام قيثارة في الاوركسترا، وكان مجدها التليد في الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم ذات احجار كريمة في اصابع قدميها. ومنذ الفصل الاول لم تعد مرئية تقريبا وفقد المغنون اصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه العوائق الصغيرة وتعظيم ما هو جدير بالذكر. وقد كانت هذه دون شك

اكثر مبادرات الدكتور اوربينو انتشارا، اذ انتقلت عدوى حمى الاوبرا الى قطاعات في المدينة لا تخطر على بال، وكانت منطلقا لجيل كامل من الاسولدات والعطيلين، ومن العايدات بالسيجفريدين[1]، لكن ذلك كله لم يصل الى الحد الذي تمناه الدكتور اوربينو، الا وهو رؤية انصار الموسيقى الايطالية وانصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضا بالعكاكيز اثناء الاستراحات.

لم يقبل الدكتور اوربينو مطلقا اي منصب رسمي من المناصب التي كثيرا ما كانت تعرض عليه دون شروط، وكان ناقدا قاسيا للاطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا المناصب السياسية. ورغم انه اعتبر ليبراليا دوما، واعتاد على التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب، فربما كان كذلك اخر ابناء الاسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الاسقف. وكان يعرف نفسه كنصير طبيعي للسلام، ونصير للصلح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من اجل مصلحة الوطن. لكن سلوكه العام كان ذاتيا لدرجة ان احدا لم يعتبره مواليا له: فالليبراليون يرون فيه قوطيا من قوطيي الكهوف، والمحافظون يقولون ان ما ينقصه هو ان يكون ماسونيا فقط، ويبتعد عنه الماسونيون باعتباره كاهنا متخفيا يعمل في خدمة الكرسي البابوي. واقل نقاده دموية كانوا يفكرون بانه ليس سوى ارستقراطي غارق في ملذات العاب عيد الزهور، فيما الأمة تنزف في حرب اهلية لا تنتهي.

عملان وحيدان قام بهما فقط وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة. الاول هو انتقاله الى بيت جديد في حي محدثي الثراء، بدلا من قصر الماركيز دي كاسالدويرو القديم، والذي كان بيت العائلة لاكثر من قرن. والعمل الاخر هو زواجه من آية جمال شعبية، بلا القاب ولا ثروة، تلك التي كانت تسخر منها سرا السيدات ذوات الالقاب الطويلة الى ان اقتنعن بالقوة انها قادرة على اللف بهن سبع لفات برشاقتها وطبعها. وقد كان الدكتور اوربينو يضع في اعتباره دوما هذه العثرات وغيرها مما يحيط بصورته العامة، ولم يكن هناك من هو اكثر منه وعيا لحالته كآخر رجل من ابناء لقب آخذ في الانقراض. فابناه كانا نهاية سلالة لا بصيص امل لها في الاستمرار. ابنه الذكر، ماركو اوريليو، طبيب مثله ومثل كل اسلافه في كل جيل، لم يفعل شيئا يستحق الذكر، حتى انه لم ينجب ابنا، رغم تجاوزه الخمسين من العمر. واوفيليا، ابنته الوحيدة، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بينو اورليانز، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات دون اي مولود ذكر. مع ذلك، ورغم ان انقطاع رحمه في ينبوع التاريخ كان يسبب له الاسى، فان اكثر ما كان يقلقل الدكتور اوربينو من الموت هو الحياة

(١) صيغة جمع لاسماء: اسولدة، عطيل، عايدة، سيجفريدو، وهي شخصيات درامية مشهورة.

المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا داثا بدونه.

لقد اثارت المأساة على كل حال قلقا، ليس بين ذويه فحسب، بل انها انتقلت بالعدوى الى عامة الشعب، الذي خرج الى الشوارع على امل التعرف ولو على بريق الاسطورة. اعلنت ثلاثة ايام من الحداد، ونكست الاعلام على الدوائر العامة، وقرعت نواقيس جميع الكنائس دون توقف الى ان ختم الضريح في مدفن العائلة. وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامها كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي، ولكن تم التخلي عن المشروع لان احدا لم ير تقاطيع الوجه امينة بعد التحول الذي اصابه اثر رعب اللحظة الاخيرة، ثم رسم فنان شهير مر من هنا مصادفة، وهو في طريقه الى اوروبا، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة، يظهر فيها الدكتور اوربينو متسلقا السلم في اللحظة القاتلة التي مد فيها يده للامساك بالببغاء. والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو انه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحمالتي السروال المخططتين بالاخضر، وانما القبعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صورة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا. وقد عرضت هذه اللوحة بعد شهور قليلة من المأساة كي يراها الجميع بلا استثناء، في صالة السلك الذهبي الفسيحة، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمها سكان المدينة بأسرها. بعد ذلك علقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت انه من الواجب تقديم فروض الاحترام لذكرى نبيل شهير، ونقلت اخيرا في جنازة ثانية لتعلق في مدرسة الفنون الجميلة، حيث اخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات لاحراقها في ساحة الجامعة كرمز لجمالية وازمنة مكروهة.

منذ اللحظة الاولى في حياتها كأرملة، بدا ان فيرمينا داثا ليست بائسة كما خشي زوجها. فقد اتخذت موقفا متصلبا بالاصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل اية قضية، كما اتخذت موقفا مماثلا من برقية رئيس الجمهورية، الذي امر بعرض الجثمان في الحجرة الخانقة في صالة الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية، وعارضت بنفس الصرامة ان يجري السهر على الجثمان في الكتدرائية، كما طالب الاسقف شخصيا، ووافقت على نقله الى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية. ورغم توسط ابنها، المذهول لكثرة هذه المطالب وتنوعها، حافظت فرمينا داثا باصرار على فكرتها الريفية القائلة بان الموتى لا ينتمون الى احد سوى عائلاتهم، وبانه سيجري السهر على الجثة في البيت مع تقديم القهوة المرة وكعك الجبن والدقيق، وافساح المجال لكل من يشاء لان يبكيه كما يرغب. لم يجر السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال، بل اغلقت الابواب بعد الدفن ولم تعد تفتح الا لزيارات حميمة.

وضع البيت تحت نظام الموت . كل شيء ذي قيمة نقل الى مكان آمن ، ولم يبق على الجدران العارية سوى اثار الصور المنزوعة من مكانها . وصفت الكراسي الخاصة وتلك المستعارة من الجيران بمحاذاة الجدران في الصالة ، وحتى في غرف النوم ، وبدت المساحات الفارغة فسيحة جدا ، وكان للاصوات رنين خاص ، لان قطع الاثاث الكبيرة قد ابعدت ، ما عدا بيانو الكونشيرتو القابع في ركنه تحت شرشف ابيض . وفي وسط المكتبة ، فوق طاولة والده ، كان ممددا في التابوت من كان خوفينال اوربينو دي لاكايي ، وقد تصلبت على وجهه حالة الرعب الاخيرة التي احسها ، ومعه في التابوت العباءة السوداء وسيف فرسان سانتو سيبولكرو الحربي . بينما فيرمينا داثا الى جانبه ، مرتعشة ولكن مسيطرة على نفسها تماما ، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية ، ودون ان تتحرك تقريبا ، حتى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي ، عندما ودعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعا بمنديل في يدها .

لم يكن من السهل عليها ان تتماسك هكذا مذ سمعت صرخة ديغنا باردو في الفناء ، ووجدت شيخ حياتها يحتضر في الوحل ، وقد كانت ردة فعلها الاولى مشبعة بالامل ، لان عينيه كانتا مفتوحتين وفيهما بريق ضوء مشع لم تره في حدقتيه ابدا من قبل . رجت الله ان يمنحه لحظة من الحياة على الاقل ، كي لا يمضي دون ان يعرف كم احبته فوق شكوكهما كليهما ، واحست باستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله ، ولتفعل على احسن وجه كل شيء كانت قد اساءت صنعه في الماضي . ولكنها اضطرت للاستسلام امام عناد الموت ، لقد تحلل المها الى غضب اعمى ضد العالم ، بل وضد نفسها بالذات ، وهذا ما رسخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة . لم تجد هدنة منذ ذلك الحين ، لكنها حاذرت من الاتيان باية حركة قد يبدو فيها ما ينم عن المها . واللحظة الوحيدة التي احست فيها بشيء من التأثر ، وكان تأثرا لا إراديا ، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الاحد ، عندما حملوا التابوت الذي ما زالت تنبعث منه روائح كروائح السفن ، بمقابضه النحاسية وتنجيده الحريري الوثير . لقد امر الدكتور اوربينو داثا باغلاقه فورا ، فجو البيت كان مخلخلا بروائح كل تلك الزهور في الحر الخانق ، واحس بانه قد رأى اول الظلال البنفسجية على عنق ابيه . وفيما هي ساهية ، سمعت في الصمت : «ان المرء ليصبح شبه متعفن وهو حي في مثل هذه السن» . وقبل ان يغلقوا التابوت ، نزعت فيرمينا داثا خاتم الزواج من يدها ووضعته في يد زوجها الميت ، ثم غطت يده بيدها كما كانت تفعل دائما كلما فاجأته شاردا وسط الناس . وقالت له :

ــ سنلتقي قريبا جدا .

احس فلورينتينو اريثا، المختفي بين جموع الوجهاء والاعيان، بحربة تخترق خاصرته، لم تكن فيرمينا دائما قد ميزته وسط صخب التعزيات الاولى، مع ان احدا لم يكن اكثر حضورا ولا اكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة. فهو الذي نظم العمل في المطابخ الغاصة حتى لا تنقص القهوة. وحصل على كراس اضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية، وامر بوضع الاكاليل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لاكليل اخر. وتولى امر عدم انقطاع البراندي من اجل ضيوف الدكتور لاثيديس اوليفيا، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهم في اوج الاحتفال باليوبيل الفضي، فجاؤوا فزعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا. وكان هو وحده من احسن التصرف حين ظهرت الببغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها، مما اشاع قشعريرة ذهول في البيت، اذ كانت تبدو وكانها تقدم عرض توبة وتكفير. امسكها فلورينتينو اريثا من عنقها دون ان يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء، وحملها الى الاصطبل في قفص مغطى. لقد فعل كل تلك الامور بصمت كامل وفعالية فائقة، لم تتيحا مجالا لاحد كي يفكر بان ما يفعله هو تدخل في شؤون الاخرين، وانما مساعدة لا تثمن في ساعة الشؤم التي يمر بها البيت.

كان يبدو عليه انه شيخ هرم خدوم وجدي. جسده عظمي ومعتدل، بشرته بنية ومرداء، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الاطار المعدني الابيض، له شارب رومنسي طرفاه المدببان مثبتان بمادة مثبتة، بطريقة متخلفة بعض الشيء عن العصر. وكان اخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مسرحا الى اعلى ومثبتا بمثبت شعر في وسط رأسه اللامع، كحل اخير لصلعة متكاملة. ان مروءته الطبيعية واساليبه الهادئة تسلب اللب في الحال، ولكن كان هناك امران يثيران الشكوك في عازب متماد في عزوبيته: لقد انفق مالا كثيرا، وحيلة واسعة وتصميما شديدا كي لا تظهر اثار السنوات الست والسبعين التي اتمها في شهر اذار الاخير، وكان مقتنعا في عزلة روحه بانه قد احب بصمت اكثر بكثير من اي كان في هذا العالم.

في ليلة موت الدكتور اوربينو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجأه الخبر، وقد كانت نفس الملابس التي يرتديها دائما بالرغم من حر حزيران الجهنمي: بدلة من القماش الاسود مع صدرية، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية، وقبعة من اللبد، ومظلة من مخمل اسود كان يستخدمها كعكاز ايضا: ولكن ما ان بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين، عاد بعدهما مع اول اشعة الشمس بمظهر طازج، فقد حلق ذقنه جيدا وتطيب بمستحضرات تجميل، وارتدى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تستخدم

الا في الجنازات اوفي مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة ، وياقة ذات ربطة عنق مع شريطة الفنان بدلا من الكرافتة ، وقبعة مستديرة . كما كان يحمل المظلة ، وليس ذلك بفعل العادة وحدها ، وانما لانه كان متأكدا من ان المطر سيهطل قبل الثانية عشرة ، وقد اخبر بذلك الدكتور اوربينو داثا ليرى ان كان بالامكان تقديم موعد الدفن ، وحاولوا ذلك فعلا ، لان فلورينتينو اريثا ينتمي الى عائلة ملاحين وهو نفسه يرأس شركة الكرايبي للملاحة النهرية ، مما يسمح بالافتراض انه يفهم بالارصاد الجوية . لكنهم لم يتمكنوا من اخطار السلطات المدنية والعسكرية في الوقت المناسب ، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة ، والفرقة الموسيقية الحربية وفرقة موسيقى الفنون الجميلة ، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على الساعة الحادية عشرة ، وهكذا فان الجنازة التي كان مقررا لها ان تكون حدثا تاريخيا انتهت شذر مذر بفعل وابل المطر المدمر . وكان قليلا عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل للوصول الى مدفن العائلة الذي تظلله شجرة ثيبيا استعمارية تمتد ايكتها الى ما فوق جدار المقبرة . وتحت هذه الايكة بالذات ، انما في المنطقة الخارجية المخصصة للمنتحرين ، كان لاجئو الكاريبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميا دي سانت ـ آموّر ، وكلبه بجواره ، تنفيذا لمشيئته .

كان فلورينتينو اريثا احد القلائل الذين واصلوا لحين الانتهاء من الدفن . لقد ابتلت حتى ملابسه الداخلية ، ووصل الى بيته مذعورا من تعرضه للاصابة بنزلة صدرية بعد كل هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة . اعد لنفسه ليمونادة دافئة مع قليل من البراندي ، وتناولها في السرير مع قرصين من الاسبرين وتعرق عرقا غزيرا وهو متدثر بحرام صوفي الى ان استعاد جسده حرارته العادية . وعندما رجع الى بيت العزاء احس بالحماس الكامل . كانت فيرمينا داثا قد تولت من جديدة قيادة البيت المكنوس والمهيأ لاستقبال المعزين ، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها الميت مرسومة بالباستل ، وعلى اطارها شريط حداد . في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من الناس وكان الحر خانقا كما في الليلة السابقة ، ولكن بعد قداس الصباح بث احدهم رجاء يطلب الى الناس الانصراف باكرا كي تستريح الارملة للمرة الاولى منذ عصر يوم الاحد .

ودعت فيرمينا داثا معظم المعزين وهي الى جانب المذبح ، لكنها رافقت المجموعة الاخيرة من الاصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي ، لتغلقه بنفسها ، كما اعتادت ان تفعل دائما ، وكانت تستعد لعمل ذلك باخر نفس متبق في صدرها عندما رأت فلورينتينو اريثا مرتديا ملابس الحداد في وسط الصالة الخاوية . احست بالسعادة ، لانها كانت قد محته من

حيـاتهـا منذ سنوات طويلة ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه فيها بوعي طهره النسيان . ولكن قبـل ان تتمكن من شكـره لهذه الـزيارة ، وضع قبعته فوق موضع القلـب ، وشق الدمل الذي كان قوام حياته ، بان قال لها بصوت مرتعش ووقور:

ـ فيرمينا . . لقد انتظرت هذه الفرصة لاكثر من نصف قرن ، لاكرر لك مرة اخرى قسم وفائي الابدي وحبي الدائم .

ظنت فيرمينـا داثـا انهـا تقف امـام معتـوه ، ولم تكن لديها الاسباب لـفكر بان فلورينتينو اريثا كان ملهما في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس . وكان رد فعلها الاولي ان لعنته لانتهاك حرمة البيت فيما جثة زوجها ما زالت ساخنة في القبر . لكن الوقار منعها من الغضب ، فقالت له : «انصرف . ولا تدعني اراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة» ثم اعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعد ان كانت قد بدأت باغلاقه ، واختتمت قائلة :

ـ وارجو ان تكون سنوات قليلة .

عنـدمـا سمعت خطواته تنطفىء في الشارع المقفر ، اغلقت الباب ببطء شديد ، واقفلته بالقفـل والـرتـاجـات ، وواجهت قدرها وحيدة ، لم تكن تعي تماما ، حتى اليوم ، وزن وحجم المأساة التي اثارتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، والتي ستلاحقها حتى موتها . بكت لاول مرة منذ مساء المصيـبة ، دون شهود ، وكانت هذه هي طريقتها الوحيدة في البكاء . بكت لموت زوجهـا ، لعـزلتها وغضبها ، وعندما دخلت مخدعها الخاوي بكت نفسها ، لانها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها الا مرات قليلة . كل اشياء زوجها كانت تستثير بكاءها : الخف ذو الشـرابـة ، البيجـامـا التي تحت الـوسـادة ، مكـانـه الفارغ في خوان الزينة ، رائحته الشخصيـة على بشـرتهـا بالـذات ، وهـزها خاطر مبهم : «على الناس اللذين يحبهم المرء ان يمـوتـوا مع كل اشيـائهم» . لم تكن بحاجة لمساعدة احد كي تنام ، ولم ترغب باكل شيء قبل النـوم . ورجت الله ، وهي مثقلة بالاسى ، ان يبعث لها المـوت في هذه الليلة بالـذات وهي نائمة ، وعلى هذا الامل نامت . نامت دون ان تدري بانها نائمة ، لكنها كانت تدري انها حية في نومهـا ، وان لديهـا نصف سريـر فائض عن حاجتهـا ، وانهـا ترقـد على جنبهـا في الطرف الايسـر ، كما هي عادتهـا ، انما ينقصها توازن الجسد الاخر على الطرف المقابل من السرير . وفيـما هي نائمـة تفكـر ، فكـرت بانها لن تستطيع النوم ابدا بهذا الحال ، وبدأت تنتحب وهي نائمـة ، ونـامت منتحبـة دون ان تغـير وضعهـا على حافـة السرير ، الى ما بعد انتهاء صياح الديكة بكثير . وايقظتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه . وحينئذ فقط ادركت بانها قد

نامت طويلا دون ان تموت، منتحبة في الحلم، وفيما هي تنام منتحبة كانت تفكر بفلوريتينو اريثا اكثر من تفكيرها بزوجها الميت.

اما فلورنتينو اريثا فلم يتوقف عن التفكير بفيرمينا داثا للحظة واحدة منذ أن رفضته بلا استئناف إثر غراميات طويلة متناقضة، وقد انقضت منذ ذلك الحين احدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام. لم يكن عليه حمل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانة، لانه لم يكن يمر يوم إلا ويحدث شيء يذكره بها. كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة وكان يعيش وحيداً مع أمه، ترانسيتو اريثا، في نصف بيت مُستأجر في شارع لاس بينتاناس، حيث كانت لامه منذ سنوات شبابها تجارة خردوات وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطن لجرحى الحرب.وكان هو ابنها الوحيد، انجبته من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيو الخامس لوايثا، أكبر الاشقاء الثلاثة الذين اسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية، مقدمين بذلك دفعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا.

لقد مات دون بيو الخامس لوايثا عندما كان ابنه في العاشرة من العمر. ورغم انه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً، فانه لم يعترف به أبداً كابن له أمام القانون، ولم يترك له ما يضمن مستقبله، وهكذا بقي فلورينتينو اريثا يحمل لقب امه فقط، مع ان حقيقة نسبه كانت معروفة للجميع. وبعد موت الوالد، كان على فلوريتينو اريثا ان يترك المدرسة ليعمل كمتمرن في وكالة البريد، حيث كانوا يكلفونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد المرسل فوق باب المكتب.

ولقد لفتت حصافته انتباه عامل التلغراف، المهاجر الألماني لوتاريو توغوت، الذي كان يعزف الارغن أيضاً في حفلات الكتدرائية الكبيرة ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت. وعلمه لوتاريو توغوت منهاج رموز المورس وطريقة استخدام جهاز التلغراف، وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليتابع فلورينتينو اريثا العزف السماعي كمحترف. عندما تعرف على

فيرمينا داثا، وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان اكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي، فهو أفضل من يرقص على انغام الموسيقى الدارجة ويلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب، كما كان دوماً رهن طلب اصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كمان منفرد تحت شرفات خطيباتهم. كان نحيلاً منذ ذلك الحين، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدة مظهره المخذول. واضافة إلى قصر النظر، كان يعاني من امساك مزمن اضطره إلى استخدام الحقن الشرجية الملينة طوال حياته. كانت لديه بذلة احتفالية واحدة، ورثها عن ابيه المتوفى، لكن ترانسيتو اريثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد. وبالرغم من هزاله، وعزلته، وطريقة لبسه الكئيبة، فان فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه، وكان هو نفسه يلعب ليبقى معهن، حتى اليوم الذي تعرف فيه على فيرمنيا داثا وانتهت براءته.

لقد رآها للمرة الأولى في عصر يوم كلفه فيه لوتاريو توغوت بايصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لورينثو داثا، وجده في منطقة حديقة البشارة، في واحد من أقدم البيوت، شبه مهدم، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير، فيه شجيرات كثيفة في الاجزاء المزروعة ونافورة حجرية بلا ماء. لم يشعر فلورينتينو اريثا بأي صوت ادمي وهو يتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر، حيث كانت توجد صناديق امتعة لم تفتح بعد، ومواد بناء بين بقايا الجص والاسمنت المتراكم، لقد كانوا يقومون باصلاح شامل للبيت. وفي نهاية الممر كانت توجد غرفة مكتب مؤقت، حيث كان ينام القيلولة وهو جالس وراء الطاولة رجل بدين جداً له سوالف طويلة مجعدة تختلط بشاربيه. وكان اسمه فعلاً لورينثو داثا، ولم يكن معروفاً تماماً في المدينة لانه وصلها منذ أقل من سنتين، ولم يكن رجلاً ذا صداقات كثيرة.

تلقى البرقية كما لو انها استمرار لحلم مشؤوم، ولاحظ فلورينتينو اريثا العينين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد بنوع من الشفقة الرسمية، والاصابع المرتعشة تحاول تفتيت شمع الختم، وخوف القلب الذي رآه مرات كثيرة على وجوه الذين يتلقون البرقيات ممن لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون ان يربطوها بالموت. عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه. تنهد: «أخبار حسنة». ومنح فلورينتينو اريثا خمس ريالات، موضحاً له بابتسامة مطمئنة انه ما كان سيعطيه النقود لو ان الاخبار كانت سيئة. ثم ودعه مصافحاً، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزع البرقيات، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع، ليس ذلك لارشاده بقدر ما هو لمراقبته. سارا في نفس الطريق باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر، لكن فلورينتينو اريثا أدرك هذه المرة بان هناك أحداً في البيت، لان ضوء البهو كان مفعماً

بصوت امرأة تردد درس قراءة، ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية، تجلسـان على مقعـدين متجـاورين، وكـلاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المـرأة مفتـوحـاً في حضنهـا. بدا له الأمـر كرؤيـا غريبة: الابنة تعلم امها. كان تقديره خاطئاً جزئيـاً، لان المرأة هي عمـة الصبية وليست أمها، رغم انها ربتها كما لوكانت أمها. لم يتـوقف الـدرس، لكن الصبيـة رفعت نظـرهـا لترى من الذي يمر عبر النافذة، وكانت هذه النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان.

الشيء الـوحيـد الـذي استطـاع فلورينتينو اريثا ان يتحراه عن لورينثو داثا هو انه قدم من سان خوان دي لا ثييناغـا مع ابنتـه الـوحيـدة وشقيقتـه العـزباء بغد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا، والذين رأوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بانه قد جاء ليقيم، اذ كان يحضر معه كل ما يحتـاجـه بيت حسن التجهيـز. كانت زوجتـه قد توفيت فيها ابنته لاتزال طفلة صغيرة. واسم اختـه اسكـولاستيكـا، ولها من العمر اربعين سنة وهي تفي نذراً بلبس مسوح القديس سان فرانشيسكـو عنـد خروجها إلى الشـارع، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصرها فقط حين تكون في البيت. أما الصبية فعمرها ثلاث عشرة سنة وتدعى باسم امها الميته نفسه: فيرمينا.

كان يُفـترض ان لورينثـو داثـا رجـل ذو موارد، لانـه يعيش في بحبـوحة دون ممارسة مهنة معـروفـة، وقـد اشـترى نقـداً بيت البشارة غير المكتمل، والذي كان اصلاحه يتطلب على الأقـل ضعف المـائتي بيـزو ذهبيـة التي دفعهـا ثمناً له. وكانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة، حيث كانت تتعلم آنسات المجتمع الراقي منذ قرون فن ومهنة التحول إلى زوجات مدبرات ومطيعات. في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى كانوا لا يقبلون في المدرسة إلا وارثات الألقاب الكبيرة فقط. ثم اضطرت العائلات القديمة المنهارة بفعـل الاستقـلال إلى الخضـوع لوقـائـع الازمنـة الجـديـدة ففتحت المـدرسـة ابوابها لجميع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها، دون الاهتمام بانسابهن، والشرط الوحيد الجوهري الـذي بقي قائـاً هو ان يكن بنـات شرعيـات لزواج كاثـوليكي. لقـد كانت مدرسـة غاليـة التكاليف على أية حال، ومجرد كون فيرمينا داثا تدرس هناك هو بحد ذاته مؤشر على الوضع المـادي للعـائلة، وان لم يكن مؤشـراً على وضعهـا الاجتـماعي. لقـد شجعت هذه الأخبـار فلورينتينـو اريثـا، اذ اوضحت له ان الصبيـة الجميلة ذات العينين اللوزيتين كانت في متناول أحلامه. ولكن سرعان ما ظهر نظام ابيها الصارم كعائق لا سبيل إلى تجاوزه. فعلى العكس من التلميـذات الاخـريـات، اللواتي كن يذهبن إلى المـدرسـة في مجموعات أو برفقة خادمة متقدمة في السن، كانت فيرمينا داثا تمضي دوماً مع عمتها العزباء، وكان سلوكها يشير الى

انه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو.

وهكذا كان أن بدأ فلورينتينو اريثا حياته الصامتة بقلب مكبوت. كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً وحيداً على اقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان، متظاهراً بقراءة ديوان شعر في ظل أشجار اللوز، إلى ان يرى مرور الصبية المستحيلة بزيها المدرسي ذي الخطوط الزرقاء، وجرابها ذي الرباط الذي يصل حتى الركبتين، وحذائها الرجالي برباطه المتقاطع، وبضفيرة وحيدة ثخينة مربوطة في طرفها بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها. كانت تمشي بكبرياء طبيعي، رأسها مرفوع، ونظرها ثابت، وخطوتها سريعة، وانفها شامخ، وحقيبة كتبها المدرسية مضغوطة بيديها المتصالبتين على صدرها، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة. والى جانبها، تمضي شادة خطواتها بصعوبة، عمتها بمسوحها البني وحزام طائفة سان فرانثيسكو، بحيث لا تترك ادنى ثغرة للاقتراب. كان فلورينتينو اريثا يراهما تمران في الذهاب والاياب أربع مرات في اليوم، ومرة واحدة أيام الآحاد عند الخروج من القداس الكبير، وكانت رؤية الصبية تكفيه. وشيئاً فشيئاً، أخذ يرسم لها في مخيلته صورة مثالية، بمشاعر خيالية، وبعد مرور اسبوعين لم يعد يفكر بأي شيء سواها. وهكذا فكر بان يبعث لها رسالة مكتوبة على ورقة بخطه الرائع كخطاط. لكنه احتفظ بها عدة أيام في جيبه، مفكراً بطريقة لتسليمها اليها، وفيما هو يفكر كان يكتب عدة ورقات جديدة قبل ان ينام، بحيث أخذت الرسالة الاصلية تتحول إلى معجم في الغزل المتأثر بالكتب التي حفظها غيباً لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة.

وفي بحثه عن وسيلة لايصال الرسالة، حاول التعرف على بعض تلميذات المدرسة، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه. كما بدا له بعد تفكير طويل انه ليس من الحكمة اطلاع أحد على نواياه. ورغم ذلك، توصل لان يعرف ان فيرمينا داثا كانت قد دعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت بُعيد مجيئها إلى البلدة، وان أباها لم يسمح لها ان تذهب متعللاً بعبارة حاسمة: «كل شيء في وقته المناسب». أصبحت الرسالة تضم اكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلورينتينو اريثا احتمال ضغط سره اكثر. ففتح قلبه دون تحفظ لأمه، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيح لنفسه مفاتحتها ببعض اسراره. انفعلت ترانسيتو اريثا حتى الدموع لسذاجة ابنها في شؤون الحب، وحاولت توجيهه بأنوارها. بدأت باقناعه بعدم تسليم المجلد الغنائي، الذي لن يتوصل من خلاله إلا إلى افزاع فتاة أحلامه، التي يُفترض بانها ليست ذات خبرة في أمور القلب مثله. وقالت له ان الخطوة الأولى هي جعلها تنتبه إلى اهتمامه بها، حتى لا يأخذها بالتصريح لها عن حبه على حين غرة ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير.

وقالت له :

ـ ومن عليك الوصول اليها أولاً وقبل كل شيء هي العمة وليس الفتاة.

كلا النصيحتين كانت حكيمة دون شك، لكنهما جاءتا متأخرتين. فالواقع انه منذ اليوم الذي أهملت فيه فيرمينا داثا لبرهة قصيرة درس القراءة الذي كانت تلقنه لعمتها، ورفعت بصرها لترى من الذي يمر في الرواق، كان فلورينتينو اريثا قد أثر فيها بمظهره المخذول. وفي الليل، اثناء تناول الطعام، تحدث والدها عن البرقية، وهكذا كان ان عرفت ما الذي جاء يفعله فلورينتينو اريثا في البيت، وما هي مهنته. وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها، اذ كان اختراع التلغراف بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لاناس كثيرين في تلك الحقبة، أمراً له علاقة بالسحر. وهكذا تعرفت على فلورينتينو اريثا منذ المرة الأولى التي رأته فيها يقرأ تحت أشجار الحديقة، ورغم انه لم يثر فيها أي نوع من القلق إلى ان لفتت العمة نظرها إلى انه كان يجلس هناك منذ عدة اسابيع. وعندما رأتاه فيما بعد اثناء الخروج من القداس، ترسخت قناعة العمة بان كل هذه اللقاءات لا يمكن ان تكون مصادفة، وقالت: «ليس من أجلي يحتمل هذا الازعاج». اذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفة التي تتسربل به، كانت العمة اسكولاستيكا تحمل غريزة الحياة وتميل إلى المشاركة فيها، وهما أفضل صفتين فيها. وبمجرد الفكرة بان هناك رجلاً مهتماً بابنة اخيها كان يثير فيها انفعالاً لا يقاوم. أما فيرمينا داثا فكانت ما تزال بمنجى حتى من مجرد الفضول بشأن الحب، الشيء الوحيد الذي اثاره فيها فلورينتينو اريثا هو قليل من الاسى، اذ بدا لها عليلاً. لكن العمة قالت لها انه لا بد من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للرجل، وكانت مقتنعة ان ذاك الذي يجلس في الحديقة ليراهما تمران، لا يمكن إلا ان يكون مريضاً بداء الحب.

كانت العمة اسكولاستيكا ملجأ تفهم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب. لقد ربتها منذ موت امها، وبالمقارنة مع لوريثو داثا، كانت تتصرف كشريكة اكثر منها كعمة. وهكذا كان ظهور فلورينتينو اريثا بالنسبة لهما تسلية جديدة تضاف الى التسليات الكثيرة التي تبتدعانها لتمضية وقتهما الميت. أربع مرات في اليوم، كلما اجتازتا حديقة البشارة، كانتا تسرعان للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر، الخجول، ضئيل الشأن، والذي يرتدي بشكل شبه دائم ملابس سوداء، رغم الحر، ويتظاهر بالقراءة تحت الاشجار. «ها هو هناك»، تقول التي تكتشفه اولاً، كاتمة ضحكتها، قبل ان يرفع نظره ويرى المرأتين الصارمتين، البعيدتين عن حياته، وهما تجتازان الحديقة دون ان تنظرا اليه.

قالت العمة في احدى المرات:

ـ يالمسكين. لا يجرؤ على الاقتراب لانني معك، لكنه سيحاول ذلك يوماً اذا كانت نواياه جدية، وعندها سيسلمك رسالة.

واحتياطاً لاي نوع من المصائب علمتها التواصل بحروف يدوية، وكانت تلك وسيلة ضرورية للغراميات المحرمة. وقد اثارت المشاوير العرضية، وشبه الصبيانية، فضول فيرمينا داثا إلى الجديد، ولكن لم يخطر لها أبداً طوال عدة شهور ان تمضي إلى أبعد من ذلك. لم تعرف أبداً متى بدأت تسليتها تتحول إلى قلق، ويتحول دمها إلى زبد للاسراع برؤيته، وقد استيقظت في احدى الليالي مذعورة لانها رأته يتأملها في الظلام من طرف السرير. عندئذ تمنت من اعماقها ان تتحقق تكهنات العمة، وصارت تدعو الله في صلواتها ان يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة، لتعرف فقط ما الذي سيقوله فيها.

لكن دعواتها لم تُستجب، وكانت الوقائع معاكسة لذلك. حدث هذا في الفترة التي صارح فيها فلورينتينو أريثا امه وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل، وهكذا كان على فيرمينا داثا ان تتابع الانتظار بقية تلك السنة. أخذ قلقها يتحول إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية، اذ أخذت تتساءل عما ستفعله لتراه ويراها، خلال الشهور الثلاثة التي لن تذهب خلالها إلى المدرسة، وقد ألحت عليها الشكوك دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد، حين هزها احساس بانه ينظر اليها بين جموع المصلين في القداس، ولقد اثار هذا القلق في قلبها. ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها، وكان عليها ان تكبح نفسها كي لا يلاحظا اضطرابها. ولكنها أحست به في فوضى الخروج قريباً جداً منها، وواضحاً جداً وسط الحشد، ودفعتها قوة لا تقاوم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط، ورأت حينئذ على بعد شبرين من عينيها العينين الاخريين الجليديتين، والوجه الملوح، والشفتين المتحجرتين برعب الحب. اضطربت لجسارتها، وتشبثت بذراع العمة اسكولاستيكا كي لا تسقط على الأرض، فأحست هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرم، وشجعتها باشارة موافقة لا مشروطة خفية. ووسط دوي الألعاب النارية والطبول، وسط أعمدة الانارة الملونة المنصوبة أمام الأبواب، وصخب الجموع المتعطشة للسلام، هام فلورينتينو اريثا كمن يسير وهو نائم حتى الفجر مراقباً الاحتفال من خلال دموعه، ومذهولاً في التخيل بانه هو، وليس الرب، من ولد في تلك الليلة.

ازداد هذيانه في الاسبوع التالي، حين مر وقت القيلولة ببيت فيرمينا داثا دون أمل. ورآها تجلس مع عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء. كان المشهد تكراراً للوحة التي رآها في مساء اليوم الأول في حجرة الخياطة: الصبية تلقن العمة درس القراءة. لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي بدون زيها المدرسي، اذ كانت ترتدي عباءة من الكتان الأبيض بها ثنايا

كثيرة تنسدل من كتفيها وكأنها رداء اغريقي، وعلى رأسها اكليل من ازهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوجة. جلس فلورينتينو اريثا في الحديقة، حيث تأكد انه سيكون مرئياً، ولم يلجأ عندئذ إلى اسلوب التظاهر بالقراءة، وانما جلس، والكتاب مفتوح، مركزاً بصره على الآنسة السامية، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة.

ظن في البدء ان الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارىء، ربما بسبب الاصلاحات التي لا تنتهي في البيت، لكنه أدرك في الايام التالية ان فيرمينا داثا ستكون هناك، تحت نظره، في مساء كل يوم وفي الساعة ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة، وألهمه هذا اليقين حماسة جديدة. لم يشعر بانها رأته، ولم يلمح أية علامة تدل على اهتمام أو اهمال. ولكن في لامبالاتها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة. وفجأة، في عصر يوم من أيام كانون الثاني، وضعت العمة شغلها على الكرسي وتركت ابنة اخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز. ومدفوعاً باعتقاده المتهور بانها الفرصة المناسبة، اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا داثا، قريباً جداً منها بحيث شعر بشهقتها وبتنفسها الوردي الذي سيميزها فيه طوال حياته المتبقية. حدثها برأس مرفوع وبتصميم لن يصل اليه ثانية إلا بعد نصف قرن ولنفس السبب.

قال لها:

ـ الشيء الوحيد الذي اطلبه منك هو أن تتقبلي رسالة مني.

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا داثا منه: كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له باساليبه الخاملة. ودون ان ترفع نظرها عن التطريز، اجابته: «لا استطيع قبولها دون اذن والدي». ارتعش فلورينتينو اريثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفىء طوال حياته. لكنه استمر على ثباته، ورد في الحال: «احصلي على الاذن». ثم رقق من لهجة الأمر برجاء: «انها مسألة حياة أو موت». لم تنظر فيرمينا داثا اليه، ولم تتوقف عن التطريز، لكن قرارها فتح له باباً يتسع للعالم بأسره، حين قالت له:

ـ عد مساء كل يوم وانتظر إلى ان أبدل مقعدي.

لم يفهم فلورينتينو اريثا ما عنته حتى يوم الاثنين من الاسبوع التالي، عندما رأى وهو على مقعده في الحديقة نفس المشهد الذي يراه كل يوم مع تبدل وحيد: حين دخلت العمة اسكولاسيكا إلى البيت، نهضت فيرمينا داثا وجلست على المقعد الآخر. عندئذ اجتاز فلورينتينو اريثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته، وانتصب امامها. قال: «هذه هي اعظم لحظة في حياتي». لم ترفع فيرمينا داثا نظرها اليه، وانما تفحصت الجوار بنظرة دائرية ورأت الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزوبعة أوراق ميتة تتقاذفها الريح.

فقالت:

ـ اعطني اياها.

كان فلورينتينو اريثا قد فكر بان يحمل اليها الورقات السبعين التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكتفاء بنصف ورقة مختصرة وواضحة يعاهدها فيها على ماهو جوهري فقط: وفاؤه تحت أية ظروف، وحبه الابدي. أخرجها من جيب سترته الداخلي، ووضعها أمام عيني المُطَرِزة الحزينة التي لم تتجرأ حتى ذلك الحين على النظر اليه. رأت المغلف الأزرق يرتعش في يد جمدها الرعب، ورفعت طارة التطريز ليضع الرسالة، اذ انها غير قادرة على السماح له برؤية ارتعاش أصابعها. وحدث حينئذ ان ارتعش عصفور بين أوراق أشجار اللوز، وأفلت في الوقت ذاته ذرقة على التطريز. فأبعدت، فيرمينا داثا الطارة، وخبأتها وراء المقعد كي لا ينتبه لما حدث، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجه ملتهب. فقال فلورينتينو اريثا المتجمد والرسالة في يده: «ان هذا فأل خير». شكرته بابتسامتها الأولى اليه، وانتزعت منه الرسالة، ثم طوتها واخفتها في صدريتها. قدم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كنت في عروته، فرفضتها: «انها زهرة التزام». وعادت فوراً للاختباء في رصانتها، وقد وعت ان الوقت قد نفد.

قالت:

ـ اذهب الآن ولا ترجع إلي أن أخبرك.

عندما رآها فلورينتينو اريثا لأول مرة، اكتشفت امه ذلك قبل ان يخبرها، لانه فقد النطق والشهية وراح يقضي الليالي مسهداً يتقلب في الفراش. لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى، تضاعف الجزع وتحول إلى اختلاطات مترافقة مع برازوقيء أخضرين، وفقد القدرة على التوجه وعانى من اغماءات مفاجئة، ففزعت أمه لان حالته لا تنتمي إلى اضطرابات الحب وانها إلى اختلاطات الكوليرا. وكذلك عراب فلورينتينو اريثا، وهو طبيب مثليّ عجوز، وامين اسرار ترانسيتو داثا مذ كانت عشيقة سرية، فزع أيضاً للوهلة الأولى من حالة المريض، لان نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحباً كحالة المحتضرين. لكن الفحص كشف له عدم وجود حمى، ولا آلام في أي موضع، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للموت. فاكتفى باستجواب مخاتل، للابن أولاً ثم للأم، ليتأكد مرة اخرى ان أعراض الحب هي نفس اعراض الكوليرا. فوصف له نقيع ازهار الزيزفون لتتماسك أعصابه واقترح عليه تغيير الجو للبحث عن العزاء في البعد، لكن ما كان يشتاقه فلورينتينو اريثا هو عكس ذلك تماماً: الاستمتاع بعذابه.

كانت اتسبترا اريثا امرأة اربعينية حرة، لديها ميل محبط إلى السعادة بفعل الفقر، وكانت

تشارك في آلام ابنها كما لو انها آلامها، فهي تقدم له المشروبات المهدئة حين تلاحظ انه أخذ يهذي أو تدثره بأغطية صوفية لتخدع القشعريرة التي تنتابه، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على التسلية بانهاك نفسه، فهي تقول له:

ـ انتهز الفرصة لتتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة.

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعاً. اذ كان فلورينتينو اريثا يهمل في عمله، ويمضي ساهياً فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد، ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول، وكان يرفع في اي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع ان السفينة القادمة تتبع لشركة جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سانت ـ نازير. وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيراً في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور، واذا كان فلورينتينو اريثا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريو توغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذه ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكتدرائية. كانا يرتبطان بحلف عصي على الفهم بسبب فارق السن بينهما، اذ كان بالامكان اعتبارهما جداً وحفيداً، لكن علاقتهما كانت حسنة جداً سواء في العمل أم في حانات الميناء، حيث يلتقي محبو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل دون وساوس طبقية، اعتباراً من سكارى الصدقات وحتى الشبان الراقين ذوي الملابس البروتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع ارز جوز الهند. لقد اعتاد لوتاريو توغوت الذهاب إلى هناك بعد وردية التلغراف الاخيرة، وكان يدركه الصباح في معظم الاحيان وهو ما يزال يشرب البنوتش الجمايكي ويعزف الاوكورديون مع طواقم ملاحي سفن جزر الانتيل الحمقى. كان بديناً، يشبه السلحفاة، له لحية مذهبة ويضع لدى خروجه ليلاً طاقية من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية، ولم يكن ينقصه إلا درع مضيء ليصبح مشابهاً تماماً للقديس نيقولا. وكان يجهز مرة واحدة كل اسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل، كما اعتاد تسمية اولئك اللواتي يبعن الحب الطارىء في فندق للعابرين من البحارة. وكان اول ما فعله بشيء من اللذة المتقنة، حين تعرف على فلورينتينو اريثا، هو تعريفه على اسرار فردوسه. كان يختار له العصفورات اللواتي يبدون له أفضل من سواهن، ويساومهن في السعر والطريقة، ثم يعرض عليه ان يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدمنها. لكن فلورينتينو اريثا لم يكن يوافق: كان في عذريته، ولقد قرر ان يبقى كذلك مالم يفعل ذلك عن حب.

كان الفندق عبارة عن قصر استعماري متهاو، قسمت صالوناته الكبيرة وغرف المرمر فيه إلى مخادع صغيرة بورق مقوى مليء بثقوب أحدثتها المطاوي، وكانت تؤجر لممارسة الحب أو للتفرج على من يمارسه. وثمة احاديث تدور عن متلصص سملوا له عينه بمسلة حياكة، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هو يتلصص، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزي بائعات خضار ليغرقوا انفسهم مع العسكريين العابرين، وعن حوادث اخرى حول متلصصين ومتلصص عليهم، مما جعل مجرد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مرعباً بالنسبة لفلورينتينو اريثا. ولم يتمكن لوتاريو توغوت من اقناعه بان الرؤية والسماح للاخرين بالمشاهدة هي من آداب امراء اوروبا.

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدانته، كانت للوتاريو توغوت دوامة شاروبيم تبدو وكأنها برعم وردة، ويبدو ان هذا كان عيباً حسن الطالع، لان اكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه، وكانت صراخاتهن المذبوحة تهز ادراج القصر. وتبعث رعشة الرهبة في اشباحه. كان يقال بانه يستخدم مرهماً محضراً من سم الثعابين يلهب به ارحام النساء، لكنه كان يقسم بانه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبه الله اياها. كان يقول منفجراً بالضحك: «انه الحب وحده». وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة ليدرك فلورينتينو اريثا بانه ربما كان يقول الصدق. ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربيته العاطفية في زمن متأخر، حين تعرف على رجل يعيش حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته. كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر، ذليلات عند قدميه ليغفر لهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله الاضطجاع مع من تأتيه بأكبر قدر من المال. وكان فلورينتينو اريثا يعتقد بان الخوف وحده قادر على ايصالهن إلى مثل هذا الذل. لكن احدى الفتيات الثلاث فاجاته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له:

ـ ان هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب.

ولم يكن السبب في توصل لوتاريو توغوت لان يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره، بقدر ما كان ظرافته الشخصية. ولقد كسب فلورينتينو اريثا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صموتاً ومرناً، وقد اعتاد في اقسى مراحل كربه ان يحبس نفسه ليقرأ الاشعار وكتيبات الدموع في الحجرات الخانقة، وكانت احلامه تخلف أعشاش سنونوات سوداء على الشرفات وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الظهيرة. وفي المساء، حين يخف الحر، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى أحاديث الذين يأتون لاغراق انفسهم من العمل في حب سريع، وهكذا أصبح فلورينتينو اريثا يعرف خيانات زوجية كثيرة، بل وبعض اسرار الدولة، من الزبائن المرموقين، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانوا يأتمنون عشيقاتهم العابرات دون ان

يحتاطوا كي لا يسمعهم من هم في الغرف المجاورة. وكان هكذا ان علم أيضاً بانه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافينتو ترقد غارقة، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر، سفينة اسبانية محملة بأكثر من خمسمئة ألف مليون بيزو من الذهب الخالص والاحجار الكريمة. لقد اذهلته القصة، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدة شهور، عندما اثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا داثا تستحم في أحواض من الذهب.

بعد سنوات من ذلك، حين كان يحاول ان يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسيمياء الشعر، لم يكن يستطع تمييز ملامحها وسط امسيات تلك الازمنة المؤثرة، وحتى حين كان يلمحها دون ان تراه، في أيام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسائله الأولى، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور السنة. كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال، وذلك ليرى كيف تتموج عباءتها بنسيم الانشاد. لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه، اذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه، مما جعله يحاول الهابها بفالسات حب، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال. وكان ان استسلم في هذه الفترة لأكل ازهار الياسمين التي كانت تزرعها ترانسيتو اريثا في احواض الفناء فتعرف بهذه الطريقة على طعم فيرمينا داثا. وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع احد صناديق أمه زجاجة تحتوي لتراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهربة بحارة شركة هامبورغ اميركان لاين، ولم يقاوم اغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحبوبة. وتابع شرب الزجاجة حتى الفجر، منتشياً بفيرمينا داثا من خلال رشفات كاوية، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك وهو غائب عن الوعي فوق ملطم الامواج حيث يتعزى العشاق الذين لا سقف لديهم بممارسة الحب، إلى ان راح في غيبوبة. انتظرته ترانسيتو اريثا حتى الساعة السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط، ثم مضت تبحث عنه في المخابيء التي لا تخطر ببال احد، وبعيد منتصف الليل وجدته يتخبط في بركة من القيء المعطر في احدى تعرجات الشاطيء حيث يقذف البحر الغرقى.

انتهزت فترة النقاهة لتؤنبه على سلبيته في انتظار الرد على الرسالة. ذكرته بانه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب، لانها مملكة قاسية وصارمة، وان النساء لا يستسلمن إلا للرجال المصممين، لانهم يبعثون فيهن الطمأنينة التي يتعطشن اليها لمواجهة الحياة. وربما استوعب فلورينتينو اريثا الدرس اكثر مما ينبغي. فلم تستطع ترانسيتو اريثا اخفاء احساسها بالفخر،

كقـوادة اكثـرة منهـا كأم ، حين رأتـه يخرج من دكان الخردوات بالبدلة السوداء والقبعة القاسية وربطـة الشـاعـر على اليـاقـة الصلبـة ، فسألته مازحة ان كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تتقدان : «يكاد الامر يكون سواء» . وقد انتبهت إلى انه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف ، لكن تصميمـه كان حاسـماً . قدمت له النصـائـح النهـائيـة ، وباركته ، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة اخرى من ماء الكولونيا ليحتفلا معاً بانتصاره .

مذ سلم الـرسـالـة ، قبـل شهـر ، نقض عدة مرات الـوعـد الـذي قطعه بعدم العودة إلى الحـديقـة ، لكنـه كان حذراً جداً في التخفي . كل شيء كان يسـير على حالـة : ينتهي درس القـراءة تحت الاشـجـار في حوالي الثـانيـة ظهـراً ، حين تستيقـظ المدينة من القيلولة ، ثم تتابع فيرمينـا داثـا التطـريـز مع عمتها حتى انخفاض الحر. لم ينتظر فلورينتينو اريثا إلى ان تدخل العمة إلى البيت ، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية اتاحت له تجاوز ارتعاش ركبتيه . لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا داثا وانما الى العمة .

قال لها :

ـ تفضلي واتركيني على انفراد مع الآنسة للحظة ، فلدي شيء هام أود ان أقوله لها .

فقالت العمة :

ـ وقح ! لا يوجد أمر من أمورها لا أستطيع سماعه .

قال :

ـ لن أقول شيئاً اذن ، لكنني أحذرك بانك ستكونين المسؤولة عما سيحدث .

لم يكن هذا هو الاسلوب الـذي انتظرتـه اسكـولاستيكـا داثـا من العريس المثالي ، لكنها نهضت مرتعبة ، لانها أحست لأول مرة باحساس مفاجيء ان فلورينتينو اريثا انما كان يتكلم بوحي من الروح القدس . وهكذا دخلت الى البيت لاستبدال ابر التطريز ، وتركت الشابين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت .

لم تكن فيرمينا داثا تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق الصامت الذي ظهر في حيـاتهـا مثـل سنونوة شتوية ، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا توقيعه على الرسالة . ولقد استقصت حينئذ وعرفت انه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدة وجدية ، لكنها موسومة بوسم ناري لاشفـاء منـه لخطيئتهـا الـوحيـدة وهي شابـة . وقـد علمت انـه ليس صبي التلغـراف ، كما افـترضت ، وانـما هو مسـاعد جيد التأهيل وذو مستقبل واعد ، وفكرت بانه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراها فقط . وقد فتنها هذا الافتراض . كما كانت تعرف انه واحد من موسيقي الكورال ، رغم انها لم تتجرأ أبداً على رفع بصرها لتتأكد من وجوده اثناء القداس ، إلا انها في

أحد أيام الآحاد وفيها مجموعة الآلات تعزف للجميع، أحست بان الكهان يعزف لها وحدها. لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره. لكن نظارته وزيه الكهنوتي، واساليبه الغامضة اثارت فيها فضولاً من الصعب مقاومته، لكنها لم تتصور ابداً ان يكون الفضول هو أحد مصائد الحب الكثيرة.

هي نفسها لم تستطع ان تفهم كيف قبلت الرسالة. لم تؤنب نفسها، لكن وعدها الملح برد الجواب أخذ يتحول إلى عائق أمام الحياة. ان كل كلمة من ابيها، وكل نظرة عابرة، وادنى حركة يقوم بها كانت تبدو لها مصيدة لكشف سرها. على هذا الحال من الذعر كانت، فهي تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلة تفضحها، واصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع العمة اسكولاستيكا، رغم ان هذه كانت تشاطرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها. وصارت تحبس نفسها في الحمام في أي وقت، دونما حاجة، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف رموز سرية، أو معادلة سحرية مخبأة في واحد من الثلاثمئة واربعة عشر حرفاً في الثماني وخمسين كلمة، على أمل ان تجد فيها اكثر مما تقوله. لكنها لم تجد شيئاً اكثر مما فهمته في القراءة الاولى، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمام بقلب مجنون، ومزقت المغلف آملة برسالة مطولة ومحمومة، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطرة أفزعها اقتضابها.

لم تفكر أول الامر جدياً بانها مجبرة على الرد، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم تكن هناك وسيلة لتصريفها. وفي اثناء ذلك، ووسط اضطراب شكوكها، فاجأت نفسها وهي تفكر بفلورينتينو اريثا اكثر وباهتمام اكبر مما تريده لنفسها، بل وكانت تتساءل مكدرة لماذا لم يأت إلى الحديقة في موعده المعتاد، دون ان تتذكر انها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى ان تفكر بالرد. وهكذا صارت تفكر به بشكل لم تتصور يوماً انها ستفكر فيه بأحد، كانت تهجس به حيث لا يكون، متمنية وجوده حيث لا يمكن ان يكون، مستيقظة فجأة يراودها احساس بانه يراقبها وهي نائمة في الظلام، لدرجة انها حين سمعت وقع خطواته الحاسمة فوق نثارة اوراق الحديقة الصفراء، لم تستطع ان تصدق انها ليست سخرية اخرى من خيالها. ولكن عندما طالبها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته، تمكنت من السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة: انها لاتعرف بماذا ترد عليه. ومع ذلك فان فلورينتينو اريثا لم ينج من هاوية ليتردد أمام التي تليها، فقال لها:

ـ اذا كنت قد قبلت استلام الرسالة، فمن قلة الذوق عدم الرد عليها.

كانت هذه هي نهاية المتاهة. فقد اعتذرت فيرمينا داثا، التي سيطرت على نفسها، عن تأخرها ووعدته رسمياً بانه سيحصل على الرد قبل انتهاء العطلة المدرسية. ووفت بوعدها. ففي يوم الجمعة الاخير من شهر شباط، وقبل ثلاثة أيام من اعادة افتتاح المدارس، ذهبت

العمـة اسكـولاستيكـا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولـير، التي لا يـرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلورينتينو داثا، متظاهرة بانها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تعمدت ان تنسى على الطـاولـة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة.

أمضى فلورينتينـو اريثـا، الـذي اختـل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورود ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد اخرى، وكلما قرأ اكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيراً جعل امه تشده من اذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنـة الحب العنيف. ولم يكن في حيـاة اي منهـما شيء سوى التفكـير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهذيان، ولا في السنة التالية ان اتيحت لهما فرصة للتواصل بصوت عال. بل واكثر من ذلك: منذ ان رأيـا بعضهـما لأول مرة وإلى ان كرر عليهـا قراره بعـد نصف قرن، لم يحصلا أبداً على فرصة للقـاء منفـردين ولا لتبـادل الحـديث عن حبهـما. ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الاولى دون ان يتبـادلا الـرسـائـل، بل كان يكتبـان لبعضهـما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات، الى ان فزعت العمة اسكولاستيكا لشراهة النار التي ساهمت هي نفسها في اضرامها.

بعد ان حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد ان تثأر من حظها بالذات، راحت تسـهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الازقة، ولكن لم تكن تملك الشجـاعـة لرعـاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم ادركت بعد مرور ثلاثة شهور ان ابنة اخيها ليست مؤهلة لغرام فتي، كما بدا لها أول الامر، واصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة اخرى للمعيشة سوى احسان اخيها، وكانت تعلم ان طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهـذا بالثقـة التي منحهـا اياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة اخيها لمحنـة قاسيـة كالتي رعتهـا هي منـذ شبـابهـا، فسمحت لها باستخـدام وسيلة تمنحهـا وهم الاحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرمينا دثا رسالتها في مخبأ في طريقها اليومي بين البيت والمـدرسـة، وفي هذه الـرسالة تخبر فلورينتينو اريثا عن المكان الذي ستجد الجواب فيـه. ثم يفعـل فلورينتينـو اريثـا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق انقاض الحصون الاستعـماريـة، كانـا يجدان الـرسـائـل مبللة بالمطـر أحياناً، او ملوثة بالوحل، او ممزقة لضيق

الفجورة، كما فُقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة، لكنهما كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال.

كان فلورينتينو اريثا يكتب كل ليلة دون ان تأخذه رحمة بنفسه، متسمماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات، وكانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تُنشر اعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد اجزائها في ذلك الحين إلى اكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حثته على التمتع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصيح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة: «ستستنزف دماغك. ليس من امرأة تستحق كل هذا.» فهي لا تذكر انها عرفت أحداً بمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً دون ان يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد ان يكون قد اودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات اثناء الدرس. وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط، انما بسبب طبعها أيضاً، كانت رسائلها تتجنب اية اشارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية باسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع. لقد كانت في الواقع رسائل لهو، تسعى الى الاحتفاظ بالجمر متقداً ولكن دون ان تضع يدها في النار، فيما فلورينتينو اريثا يحترق ويتحول الى رماد في كل سطر يخطه. وفي سعيه لينقل اليها عدوى جنونه، كان يرسل لها ابيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، من تجرأ على وضع خصلة من شعره في احدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة، ألا وهي تيلة من ضفيرة فيرمينا داثا. انما تمكن من جعلها تخطو خطوة اخرى على الأقل، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس، واجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم انها اهدته في عيد ميلاده سنتمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الايام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها ان تدفعه. وفي احدى الليالي، ودون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالساً محدداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر ان كل نغمة انما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به اكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرأ ان تصدق بان فلورينتينو اريثا قادر على اقتراف مثل هذا التهور.

في صباح اليوم التالي، واثناء تناول الفطور، لم يستطع لورينثو داثا مقاومة الفضول. أولاً، لانـه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرناد، وثانياً، انه رغم اهتمامه في الاصغاء لم يستطع ان يحدد في أي بيت كان العزف. واكدت العمة اسكولاستيكا، بهدوء أعصاب أعاد النفس إلى ابنة الأخ، انها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها ان عازف الكمان المنفرد كان في الجانب الاخر من الحديقة، وقالت ان معزوفة وحيدة على اية حال هي ابلاغ بالقطيعة. وفي رسالته لهذا اليوم، اكد فلورينتينو اريثا انه هو صاحب السيرناد، وان هذا الفالس من تأليفه وانه أطلق عليه نفس الاسم الذي يطلقه على فيرمينا داثا في قلبه : الربة المتوجة. لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة، لكنه كان يختار الليالي المقمرة ليعزفه في أماكن منتقاة بحيث تسمعه دون ان يتولاها الذعر في مخدعها. وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء كانت طيور الرخمة تتخذها مكاناً للنوم، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصداء ما ورائية. ثم تعلم فيها بعد التعرف على اتجاه الريح، وبهذا صار يتأكد ان صوته يصل إلى حيث يريده ان يصل.

في شهر آب من هذه السنة، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي خربت البلاد منذ اكثر من نصف قرن، وكانت تهدد بالاتساع لتشمل البلاد بأسرها، ففرضت الحكومة قوانين الطوارىء وحظر التجول منذ الساعة السادسة مساء في ولايات ساحل الكاريبي. ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوات العسكرية لجميع انواع التنكيل التعسفي، استمر فلورينتينو اريثا في غيبوبته غير عابيء بحال الدنيا، وفاجأته دورية عسكرية في فجر أحد الايام وهو يقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية. ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أولي بتهمة انه جاسوس يبعث الاخبار باشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض.

قال فلورينتينو اريثا :

ـ أي جاسوس وأية لعنة. أنا لست سوى عاشق بائس.

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية. وحين أطلقوا سراحه أحس بانه قد غُبن لقصر مدة الحبس، وبقي حتى ايام شيخوخته، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب اخرى كثيرة، يفكر بانه الرجل الوحيد في المدينة، وربما في البلاد، الذي جر بقدميه اصفاداً زنتها خمسة ارطال من اجل قضية حب.

كادت تنقضي سنتان على بريدهما المحموم عندما عرض فلورينتينو اريثا في احدى رسائله الزواج رسمياً على فيرمينا داثا. كان قد بعث اليها عدة مرات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء، لكنها كانت تعيدها اليه في الرسالة التالية، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها

اليـه، انـها دون مخاطر الالتزام. والحقيقة انها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا ومجيئها مداعبة غرامية، ولم يخطر لها يوماً ان تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها. اما عندما وصلها عرض الـزواج الـرسمي، فقـد أحست انهـا تتمـزق بأول مخالب المـوت. وروت الأمر للعمة اسكـولاستيكـا وهي هلعة، فتناولت العمة الاستشارة بالشجاعة والفطنة التي لم تمتلكها وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها ان تقرر مصيرها.

قالت لها:

ـ أجيبيه بنعم، حتى ولو كنت تموتين فزعاً، وحتى لو ندمت فيما بعد، لانك على أية حال ستندمين طوال حياتك ان أنت أجبته بلا.

ولكن فيرمينا داثا كانت مشوشة رغم هذه النصيحة، فطلبت مهلة لتفكر في الأمر. طلبت شهـراً في البـدء، ثم شهـراً آخـر وآخر، وعندما اتمت الشهر الرابع دون ان تعطي ردها عادت تتلقى زهـرة الكـاميليـا البيضاء ولكن ليس الزهرة وحدها كما في مرات سابقة، وانما هي مرفقة باخطار حازم انها ستكون المرة الاخيرة: اما الآن واما القطيعة النهائية. حينئذ كان فلورينتينو اريثـا هو الـذي رأى وجـه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات حين تلقى مغلفاً به قصاصة ورقة طويلة منتـزعـة من هامش دفـتر مدرسي، كتب عليهـا الـرد في سطـر واحـد بقلم رصاص: **حسناً، أوافق على الزواج منك ان أنت وعدتني بألا تجبرني على أكل الباذنجان.**

لم يكن فلورينتينو اريثا مهيئاً لمثل هذا الرد، لكن امه كانت كذلك. فمذ كلمها لاول مرة، قبـل ستـة أشهـر، عن نيتـه بالزواج، بدأت ترانسيتو اريثا بمشاوراتها لاستئجار كامل البيت الـذي كانت تتقـاسمـه حتى ذلـك الحين مع عائلتين اخريين. لقد كان البيت بناء مدنياً من القـرن السـابـع عشـر، مؤلفـاً من طابقـين، حيث كانت توجـد ادارة التبـغ ابـان السيطـرة الاسبانية، وقد افلس مالكوه واضطروا لتأجيره مجزءاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمـل. قسم من البيت كان يطـل على الشـارع، حيث كانت صالة البيع سابقاً، وقسم آخـر في نهايـة باحـة مرصـوفـة حيث كان المعمـل، وهنـالـك اسطبـل واسـع جداً يستخدمه المستأجـرون الحـاليـون جميعهم لغســل المـلابس ونشرها. كانت ترانسيتو اريثا تشغل القسم الأول، وهو الاكثر ملاءمة والأفضل حالاً، رغم كونه الاضيق أيضاً. في صالة البيع القديمة أقامت دكان خردواتها، ببوابة تطل على الشارع، والى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيـه لايـة فتحـة تهوية سوى كوة السقف، وفيه كانت تنام ترانسيتو اريثا. وما وراء الدكان هو نصف الصـالـة الآخـر، المقسـوم بباب خشبي ثلاثي المصاريع، كانت توجد فيه طاولة حولها أربـع كراس تستخـدم للطعـام والكتـابـة في الـوقت ذاته، وهناك كان يعلق فلورينتينو اريثا

ارجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب. كان المكان مناسباً لهما، لكنه غير كاف لشخص آخر معهما، وخصوصاً اذا كان هذا الشخص احدى آنسات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، التي رمم ابوها انقاض بيت مهدم حتى أعاده وكأنه جديد، بينها العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار اسقف المنازل فوقها اثناء النوم، وقد تمكنت ترانسيتو اريثا من الحصول على وعد من صاحب البيت بالسماح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات، على ان ترمم البيت وتجعله في حالة حسنة.

كانت تملك الموارد اللازمة. فالى جانب دخلها الحقيقي من دكان الخردوات ومن نسالات النسيج موقفة النزف، الذي كان يكفيها لعيش حياتها المتواضعة، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديمها القروض لزبائنها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة لكتمانها الاسرار. كانت سيدات لهن مظهر الملكات ينزلن من العربات الفاخرة أمام باب دكان الخردوات، دون وصيفات أو خدم مزعجين، فيتظاهرن بانهن يردن شراء مطرزات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك، ثم يرهن بين دمعتين آخر مصاغ فردوسهن المفقود. وتخرجهن ترانسيتو اريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصلهن النبيل، لدرجة ان معظمهن كن ينصرفن وهن يحمدن الشرف اكثر من حمدهن المعروف. وخلال أقل من عشر سنوات كانت من ممتلكاتها الحلي المستردة مرات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب والمدفونة في جرة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج. حينئذ راجعت حساباتها. واكتشفت انها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب، بل ربما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ ان تشتريه لاحفادها الاثني عشر الذين كانت ترغب ان ينجبهم ابنها. وكان فلورينتينو اريثا قد عُيِّن مُعاوناً أول لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقته، وكان لوتاريو تورغوت يريد تسليمه ادارة المكتب حين يذهب هو لتولي ادارة مدرسة التلغراف والمغنطة المنتظر افتتاحها في العام التالي.

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً. ومع ذلك، رأت ترانسيتو اريثا ضرورة الاهتمام بشرطين نهائيين. الأول هو الاستعلام عن حقيقة لورينثو داثا، الذي لا تترك لهجته أية شكوك حول أصله، أما هويته ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خبراً يقيناً. والثاني هو ان الخطوبة يجب ان تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وان يُحفظ أمر الخطوبة طي الكتمان الصارم إلى ان يتأكدا كلاهما من عواطفهما. واقترحت ان ينتظرا حتى تنتهي الحرب. وقد وافق فلورينتينو اريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة، سواء للاسباب التي عرضتها أمه أو لطبعه المحب للكتمان. وكان موافقاً كذلك على اطالة مدة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية، لأن البلد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال

يوماً واحداً من السلام الأهلي. فقال :

- سنشيخ بهذا ونحن ننتظر.

ولم يكن عرابه، الطبيب التجانسي، والذي كان يشارك مصادفة بالحديث، يعتقد بان الحروب عائق. وكان يرى انها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكو الأرض كالجواميس، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة. وقال:

- الحرب في الجبل. ومذ أدركت أنا بأنني أنا، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وانما بالقرارات.

لقد حُلّت على اي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الاسبوع التالي. ووافقت فيرمينا داثا، بناء على نصيحة العمة اسكولاستيكا، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلى الكتمان المطلق، واقترحت ان يطلب فلورينتينو اريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد. وان يتفقا في الوقت المناسب على طريقة اعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من ابيها. وحتى ذلك الحين، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماس ونفس الكثرة، ولكن دون المخاوف السابقة. وأخذت رسائلها تميل الى لهجة عائلية وتبدو كأنها رسائل زوجين. ولم يكن هناك ما يعكر احلامهما.

ولقد طرأ تبدل على حياة فلورينتينو اريثا. اذ منحه الحب المتبادل اماناً وقوة لم يعرفهما أبداً، وأصبح دؤوباً في العمل مما سمح للوتاريو توغوت تعيينه نائباً له في السلطات دون بذل اي مجهود. وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغنطة قد فشل في ذلك الحين، فكرس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً، ألا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الاوكورديون وتناول البيرة مع البحارة، ثم الانتهاء من كل ذلك في فندق العابرين. وقد انقضى زمن طويل قبل ان يعرف فلورينتينو اريثا ان تأثير لوتاريو توغوت في مكان اللذة ذاك انما هو عائد إلى امتلاكه المحل، وكونه رب عمل عصفورات الميناء. لقد اشتراه شيئاً فشيئاً، بمدخراته خلال سنوات طويلة، لكن من كان يدير الفندق، لأ منه هو رجل قصير، نحيل وأعور، رأسه كالفرشاة، وقلبه طيب وأليف لدرجة ان أحداً لم يكن يفهم كيف بامكانه ان يكون وكيلاً مناسباً. لكنه كان كذلك. أو على الاقل هذا ما بدا لفلورينتينو اريثا عندما قاله له الوكيل، دون ان يكون هو قد طلب منه، بانه هيأ له غرفة دائمة في الفندق لا ليحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط، حين يقرر ذلك، بل ليجد مكاناً اكثر هدوءاً لمطالعته ولرسائل الحب التي يكتبها. وفيما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي، أخذ يتضي في الفندق وقتاً أطول مما يقضيه في المكتب والبيت، وجاءت فترات لم تعد ترانسيتو اريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه.

صارت المطالعة رذيلة لا يرتوي منها. فمنذ علمته أمه القراءة، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشماليين المزينة بالرسوم، والتي كانت تباع على انها حكايات للأطفال، لكنها في الواقع كنت أقسى وأفسد ما يمكن قراءته في جميع الاعمار. كان فلورينتينو اريثا يسردها عن ظهر قلب وهو في الخامسة، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة، لكن تآلفه معها لم يهدىء من رعبه. بل على العكس، كان يفاقمه. وهكذا فقد كان لتحوله إلى الشعر مفعول المسكِّن. فما ان بلغ سن الرشد حتى كان قد استهلك حسب ترتيب صدورها، جميع كتيبات المكتبة الشعبية التي كانت تشتريها له ترانستواريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتبة العموميين، حيث توجد جميع انواع الكتب، ابتداء من هوميروس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة. ولم يكن يميز ما يقرأه: كان يقرأ الكتيب الذي يأتيه، كما لو كان شأناً من شؤون القدر. ولم تكفه كل سنوات القراءة ليعرف الغث من السمين في العالم الذي قرأه. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو انه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر، ومن بين الاشعار يفضل أشعار الحب، التي كان يحفظها غيباً دون قصد منذ القراءة الثانية، وبسهولة اكبر حين تكون مقفاة وموزونة جيداً، وعندما تكون مؤثرة كثيراً.

كان هذا هو المنهل الاساسي لرسائله الأولى إلى فيرمينا داثا، حيث كان يورد مقاطع كاملة دون طهي من أشعار الرومنسيين الاسبان، وبقيت رسائله كذلك إلى ان اضطرته الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية اكثر من الاهتمام بشجون القلب. وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة اخرى نحو قصص الدموع المسلسلة وانواع اخرى اكثر دنيوية من نثر عصره. وكان قد تعلم البكاء مع أمه وهو يقرأ الشعراء المحليين الذين يباعون في الساحات وتحت القناطر في كتيبات بسنتافين لكل منها. لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على القاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب. وعموماً كان يقرأ كل ما يقع بين يديه، وحسب ترتيب وقوعه بين يديه، حتى انه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك، وعندما لم يعد شاباً، قرأ من أول صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين، ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جارنير هنس المترجمة، والاعمال الاكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانيث في سلسلة الواعدون.

ولم تكن فترة فتوته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة، وانما ادخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب دون حب. كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن امهاتهن، وهكذا كان فلورينتينو اريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات

عاريـات، يعلقن صارخـات على اسـرار المـدينـة، التي يطلعن عليهـا بوشـايـات اصحابها بالذات. وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهن اثاراً من الماضي ندوب طعنات خناجر في البطن، أو اثـار أعـيرة نارية تبدو كالنجوم، أو اخاديد ضربات بسكاكين الحب. أو خياطات عمليـات قيصـرية يجريها الجزارون. وتحضر بعضهن خلال النهار ابنائهن الصغار، ابناء مرارة الشبـاب وتهـوره التعسـاء، وينـزعن عنهم ملابسهم فور دخـولهم حتى لا يشعر الصغار بانهم مختلفـون في جنـة العـراة. وقد كانت كل منهن تطهو طعامها وحدها، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلورينتينـو اريـثا عنـدمـا يدعـونـه، لانـه يختار أفضل ما لدى كل منهن. كان ذلك احتفـالاً يوميـاً يستمـر حتى المسـاء، حين تصطف العاريات لدخول الحمام وهن يغنين، بينما يستعرن من بعضهن الصابون، أو فرشاة الاسنان، أو المقصات، وكانت بعضهن تقص شعر الاخـريـات، ثم يرتـدين ملابسهن سهلة الخلع، ويطلين وجـوههن كمهـرجـات مبكيات، ويخرجن لاصطيـاد أول طرائـدهن الليليـة. وحينئـذ تصبـح حيـاة البيت غامضة ولا انسانية وتصبح المشاركة فيها مستحلية دون دفع الثمن.

لم يكن لفلورينتينو اريثا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته مذ تعرف على فيرمينا دائا، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة. بل واكثر من ذلك: انه المكان الوحيد الذي صار يشعـر وهـو فيـه بانـه معهـا. وربـما لهذه الاسبـاب نفسها كانت تعيش هناك امرأة متقدمة في السن، أنيقة، ذات رأس مفضض بديع، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية، ويكنن لها جميعهن احتراماً قدسياً. لقد حملها إلى هناك خطيب ما وهي شابة، وبعد ان تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصيرها. وقد توصلت رغم وصمتها إلى زواج سعيد، وعندما أصبحت كبيرة في السن، ووحيدة، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم، أما هي فلم يخطر لها مكان اكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الحنونات ذاك. وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلورينتينو اريثا، الذي كانت تقول عنه انه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره، لانه قادر على اغناء روحه بالمطالعة في جنة الشبق. وقد أبـدى لها فلورينتينـو اريثـا من جانبـه عطفـاً شديـداً، فكـان يسـاعدها في شراء حاجاتها من السـوق، واعتـاد ان يمضي بعض الامـاسي متحـدثـاً اليهـا، وكـان يفكر بانها امرأة عالمة في الحب، اذ قدمت له اضاءات كثيرة حول حبه، دون ان يكشف لها عن سره.

واذا كان لم يسقـط في الاغـراءات الكثـيرة التي في متنـاول يده قبـل ان يعرف حب فيرمينا دائـا، فانـه لن يفعـل ذلـك بعـد ان أصبحت خطيبته الرسمية. وهكذا كان فلورينتينو اريثا يعيش مع الفتيات، يقاسمهن الافراح والاتراح، دون أن يخطر بباله أو ببالهن المضي إلى ما هو أبعـد من ذلـك. وقـد جاء حادث طارىء ليؤكد صرامة قراره. ففي الساعة السادسة من

مساء أحد الايام، وفيها الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل، دخلت إلى حجرته العاملة المكلفة بتنظيف الأرضية: امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة، ترتدي ملابسها كئيبة في مملكة العاريات. وكان يراها يومياً دون أن يشعر بانها تراه. كانت تتنقل بين الحجرات حاملة المكانس، وسطل القمامة وممسحة خاصة تلتقط بها عن الارض مانعات الحمل المستخدمة. دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينو اريثا يقرأ كعادته، وكنست الأرض بحذر شديد كعادتها، كي لا تزعجه وفجأة مرت بمحاذاة السرير، وأحس باليد الدافئة والطرية فوق صليب بطنه، وأحس بها تبحث عنه، أحس بها تجده، وأحس بها تحلّ الازرار فيما تنفسها يملأ الغرفة. وتظاهر بانه يقرأ إلى ان لم يعد قادراً على الاحتمال، فاضطر للاعراض عنها بجسده.

فزعت المرأة، بالتحذير الأول الذي اعطوها اياه لمنحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن. ولم يكن عليهن ان يقلن لها ذلك، لانها كانت ممن يفكرن بان الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال، وانما في مضاجعة الغرباء. كان لها ابنان، كل منهما من زوج مختلف، وليس ذلك في مغامرات عرضية، وانما لانها لم تتمكن من حب رجل يرجع اليها بعد المرة الثالثة. لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها، وكانت مهيأة بطبعها للانتظار دون يأس، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت اقوى من عفتها. كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة الى اخرى، كانسة الأرض بأربع ضربات من مكنستها، جامعة موانع الحمل المستخدمة، ومستبدلة شراشف الاسرة. ولم يكن سهلاً تصور كمية الاشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب. انهم يتركون قيئاً ودموعاً، وهذا كان يبدو لها مفهوماً. لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من ألغاز العلاقات الجنسية: بقع دم، لطخات براز، عيون زجاجية، ساعات ذهبية، اسنان اصطناعية، علب تحتوي على خصل شعر ذهبية، رسائل حب، رسائل تجارية، رسائل تعزية.. رسائل من كل صنف. وكان بعضهم يعود بحثا عن اشيائه المفقودة، لكن معظم الاشياء كانت تبقى هناك، وكان لوتاريو توغوت يحفظها تحت قفل، مفكراً بان ذلك القصر الساقط في المحنة، مع آلاف الاشياء الشخصية المنسية، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب.

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً، لكنها كانت تقوم به على أحسن وجه. أما مالم تكن قادرة على احتماله فهو التنهدات، والتأوهات، وصرير نوابض الأسرة التي كانت تترسب في دمها بحرقة وألم شديدين، وما ان يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن احتمال تلهفها للاضجاع مع أول شحاذ تلتقي به في الشارع، أو مع أي سكير مبدد يقدم لها هذه الخدمة دون مطالب أو أسئلة اخرى. كان ظهور رجل بلا امرأة، كفلورينتينو اريثا، فتي ونظيف، بمثابة هدية من

السماء بالنسبة لها. ذلك انها لاحظت منذ اللحظة الأولى انه مثلها: معوز للحب. أما هو، فلم يكن يحس بما تعانيه. لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يثنيه عن عزمه.

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لاعلان الخطوبة، عندما ظهر لورينثو داثا في الساعة السادسة صباحاً في مكتب التلغراف، وسأله عنه. وبما انه لم يكن قد حضر بعد، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، ناقلاً من أصبع إلى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية، وعندما رآه يدخل عرفه فوراً على انه موظف التلغراف، فأمسكه من ذراعه وقال له:

ـ تعال معي أيها الشاب. لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمس دقائق حديث رجل لرجل.

وانقاد فلورينتينو اريثا، الذي صار لونه أخضر مثل ميت.. لم يكن مهيئاً لهذا اللقاء، لان فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لانذاره. والقضية هي انه في يوم السبت الفائت، دخلت الاخت فرانكا دي لا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، إلى درس المعرفة الكونية بصمت أفعى، وفيما هي تتجسس على التلميذات، من فوق اكتافهن، اكتشفت ان فيرمينا داثا تتظاهر بانها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي في الواقع تكتب رسالة حب. كانت هذه الخطيئة، حسب قوانين المدرسة، سبباً كافياً للطرد. ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الادارة، اكتشف لورينثو داثا الثقب الذي كان يتسرب منه نظامه الحديدي. وقد اعترفت فيرمينا داثا، بقوة طبعها، بخطيئة الرسالة، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري. وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط، التي أقرت لهذا السبب حكم الطرد. ورغم ذلك، فقد قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدساً لا يجوز خرق حرمته، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات، مخبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها. لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ، لكن لورينثو داثا لم يستطع ان يصدق حينئذ، ولا فيما بعد، ان ابنته لا تعرف عن خطيبها الخفي سوى مهنته في التلغراف وهوايته في عزف الكمان.

ولقناعته ان علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بتستر شقيقته، فانه لم يسمح لهذه حتى بنعمة الاعتذار، وانما اجبرها على الابحار دون استئناف في مركب إلى سان خوان دي لاثييناغا. ولم تسترح فيرمينا داثا إلى الابد من عذاب ذكراها الأخيرة، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تتقد بالحمى في مسوحها البني، ورأتها تختفي بعظامها البارزة وشحوبها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة: حقيبة العزباء، وبعض النقود، التي لا تكاد تكفيها للحياة شهراً، ملفوفة بمنديل في طرف كمها.

وما ان تحررت من سلطة والدها فيما بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي، سائلة عنها كل من قد تعرف اليها، ولم تجد أي خبر عن اثارها إلا بعد مرور حوالي ثلاثين سنة، عندما تلقت رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل، وفيها يخبرونها بانها ماتت في حوالي المئة من العمر في تحجر اغوا دي ديوس الصحي. لم يتنبأ لورينثو داثا بالشراسة التي سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمة اسكولاستيكا، تلك العمة التي كانت ترى فيها امها التي لا تكاد تتذكرها. لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة النوم، دون طعام أو شراب، وعندما تمكن اخيراً من جعلها تفتح الباب، بالتهديد أولاً ثم بالتوسلات المنافقة، وجدَ نفسهُ أمامَ لبوةٍ جريح لن تعود ابنة خمس عشرة سنة إلى الأبد.

حاول اغراءها بكل أنواع التملق. حاول افهامها أن الحب في سنها ما هو إلا سراب، وحاول اقناعها بالحسنى ان تعيد الرسائل وترجع إلى المدرسة لتطلب الصفح جاثية، ووعدها بكلمة شرف انه سيكون أول من سيساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم. لكنه كان كميت يحدث ميتاً. أحس بالهزيمة، وانتهى إلى فقدان أعصابه اثناء غداء يوم الاثنين، وفيما هو يشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان، تناولت سكين اللحم ووضعتها على عنقها، بلا دراماتيكية وبنبض ثابت، وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديهما. وكان ان قرر حينئذ المخاطرة بالحديث كرجل لرجل، لمدة خمس دقائق، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر انه رآه يوماً، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس. وبمحض العادة تناول المسدس قبل ان يخرج، لكنه حرص على حمله مخبأ تحت القميص.

لم يكن فلورينتينو اريثا قد استرد انفاسه عندما قاده لورينثو داثا من ذراعه عبر ساحة الكتدرائية حتى رواق الاقواس في مقهى الباروكية، ودعاه للجلوس على المصطبة الخارجية، لم يكن هناك زبائن اخرون في مثل هذا الوقت، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمغبرة، حيث كانت الكراسي ما تزال موضوعة بالمقلوب فوق الطاولات الرخامية. كان فلورينتينو اريثا قد رأى لورينثو داثا مرات كثيرة وهو يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوريي السوق العام، الذين يشتبكون في مشادات صارخة حول حروب مزمنة اخرى غير حروبنا. ولقد تساءل مرات كثيرة، وهو يعي قدرية الحب، كيف سيكون لقاؤه الذي سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل، ذلك اللقاء الذي لن تحول دونه قوة انسانية، لانه مكتوب منذ الازل في قدر كل منهما. لقد رأى في الأمر شجاراً لامتكافئاً، ليس لأن فيرمينا داثا لم تكن قد نبهته في رسائلها إلى طبع ابيها العاصف فحسب، بل لانه هو نفسه لاحظ من قبل ان له عينين غاضبتين حتى حين يقهقه ضاحكاً

على طاولـة اللعب. ان كل ما فيـه كان محصلة شراسـة: كرشـه اللئيم، وطريقتة المُفخّمة في الكـلام، وسـاقـاه اللتان كساقي وشَق، ويداه الغليظتان مع البنصر المختنق بفص الياقوت الشيء اللين الوحيد فيه، والذي تنبه اليه فلورينتينو اريثا مذ رآه يمشي لأول مرة، هو مشيته الغـزلانيـة التي كمشيـة ابنتـه. ومعـه ذلـك، فانـه لم يره فظـاً كما كان يظن حين اشـار له إلى الكرسي ليجلس، ثم انه استرد انفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمرة لها طعم اليانسون.

لم يكن فلورينتينـو اريثـا قد تنـاول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل لكنه وافق شاكراً، لانه كان بحاجة اليه وبسرعة.

لم يتأخر لورينثوداثا فعلاً اكثر من خمس دقائق في عرض غرضه، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمـر يختلط على فلورينتينـو اريثـا. لقـد وضع نصب عينيه، منذ وفاة زوجته، هدفاً وحيـداً، هو ان يجعـل من ابنتـه سيدة عظيمة. وكان السبيل الى ذلك طويلاً وشائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة، رغم ان سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بنفس درجـة انتشـارهـا في مقـاطعـة سان خوان ديَ لا ثيينـاغا. أشعل سيجار بغّال، وقال متحسراً: «الشيء الوحيد الذي اعتبره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة». ومع ذلك ـ قال ـ ان سر ثروتـه الحقيقي هو انـه لم يكن يجعـل اي من بغـالـه يعمل بقدر ما كان هو نفسه يعمل وبتصميمـه، حتى في اكثـر ازمـان الحرب مرارة، حين كانت القرى تستيقظ متحولة إلى ركام والحقول إلى هشيم. ورغم أن ابنته لم تطلع يوماً على مخطط مصيرها، إلا انها كانت تتصرف كشريكـة متحمسـة، فهي ذكية ومنظمة، حتى انها علمت اباها القراءة بالسرعة نفسها التي تعلمت هيَ بها. وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بشكل يؤهلها لتسيير شؤون البيت دون حاجة للعمة اسكولاستيكا. وتنهد: «انها بغلة ذهبية». وعندما انهت ابنته المدرسة الابتدائية، بدرجات قصوى في كل المواد، مع تنويه شرف في حفل الختام، أدرك ان بلدة سان خوان دي لا ثييناغـا أصبحت ضيقـة على احـلامـه. عنـدئـذ صفى ممتلكاته من الاراضي والمـواشي، وانتقـل بقـوى جديـدة وسبعين ألف بيزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة، ذات الامجاد المنخورة، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة على الطريقة القديمة ان تولـد من جديـد بزواج محظـوظ. لقـد كان اقتحام فلورينتينو اريثا حياتها عائقاً غير منتظر في ذلـك المخطـط الصـارم. «انني آت لا تقـدم منـك برجاء». قال لورينثو اريثا. ثم بلل عقب السيجار بخمر اليانسون، وأخذ منه نفساً بلا دخان، واختتم بصوت مغموم:

ـ ابتعد عن طريقنا.

كان فلورينتينـو اريثـا قد اصغى اليـه وهـو يتنـاول رشفات من خمر اليانسون، منذهلاً من اكتشـاف ماضي فيرمينا داثا، حتى انه لم يسأل نفسه عما سيقوله عندما سيتكلم. وما ان حان

وقت الكلام حتى انتبه الى ان تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله. فسأل:

ـ هل كلمتها ؟

قال لورينثو داثا :

ـ هذا ليس من اختصاصك.

وقال فلورينتينو اريثا :

ـ انني أسأل لانني أرى انها هي التي عليها ان تقرر.

فقال لورينثو داثا :

ـ لا شيء من هذا. فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال.

أصبحت نبرة صوته متوعدة، والتفت زبون على طاولة مجاورة لينظر اليهما. وتكلم فلورينتينو اريثا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم.

قال :

ـ لا استطيع اجابتك على اية حال دون ان أعرف رأيها، لان ذلك سيكون خيانة.

حينئذ شد لورينثو داثا نفسه إلى الوراء في المقعد، بأجفانه المحمرة والرطبة، ودارت عينه اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج. ثم خفض صوته أيضاً وقال:

ـ لا تجبرني على قتلك باطلاق النار عليك.

أحس فلورينتينو اريثا ان احشاءه قد امتلأت برغوة باردة، لكن صوته لم يرتعش، لانه أحس ايضاً بانه ملهم بوحي من الروح القدس. فقال ويده على صدره:

ـ اطلق.

كان على لورينثو داثا ان ينظر اليه مجانبة، كالببغاوات، ليراه بالعين المائلة. ولم ينطق الكلمات الثلاث، وانما بدا وكأنها يبصقها مقطعاً مقطعاً:

ـ يا ـ ابن ـ العا ـ هر ـ ة!

في ذلك الاسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان. لم يقدم لها أي تفسير، سوى انه اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار الممضوغ، وأمرها بان تجهز أمتعة السفر. سألته إلى أين سيذهبان، فأجابها: «الى الموت». وحاولت وهي فزعة من هذا الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً، مواجهته بشجاعة الأيام الماضية، لكنه نزع حزامه ذا الابزيم النحاسي، وطواه على قبضته، ثم هوى على الطاولة بجلدة دوت في ارجاء البيت كأنها طلقة بندقية. فعرفت فيرمينا داثا جيداً مدى قوتها ومناسبتها، وهكذا أعدت أمتعة السفر ولفتها ببساطين وارجوحة نوم، ووضعت كل ملابسها في صندوقين كبيرين، وهي متأكدة من انها رحلة بلا عودة. وقبل ان ترتدي ثيابها، حبست نفسها في الحمام وتمكنت من كتابة رسالة

وداع قصيرة إلى فلورينتينو اريثا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي . ثم قصت ضفيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم ، ولفتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبعثت بها مع الرسالة .

كانت رحلة مجنونة . مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بغّالي الانديز، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سييرا نيفادا الوعرة ، وقد امضوها وهم مخدرون بالشموس اللاهبة أو مبللين بأمطار تشرين الافقية ، وبأنفاس مخدرة في معظم الأحيان بفعل الروائح المنومة التي تنبعث من الجروف . وفي اليوم الثالث للرحلة انزلقت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساحبة معها مجموعة البغال المربوطة واياها كلها ، واستمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم مربوطة إلى بعضها تتردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة ، وبقيت تطن في ذاكرة فيرمينا داثا لسنوات وسنوات . لقد هوى كل متاعها مع البغال ، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقها السقوط إلى ان انطفأت صرخة البغال في القاع ، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت ، وانما كانت ترى الكارثة في ان بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع البغال الاخرى .

كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة ، ولكن رعب الرحلة وآلامها التي لا حصر لها ماكانت لتبدو لها بهذه المرارة لولا قلقها من كونها لن ترى فلورينتينو اريثا بعد اليوم ولن تتعزى برسائله . منذ بدء الرحلة لم تبادل والدها الحديث ، وهذا كان قلقاً بدوره حتى انه لم يكلمها إلا في بعض الأمور الضرورية ، او اكتفى بارسال بعض التعليمات اليها مع البغالين . وحين كان الحظ يحالفهم ، يجدون نزلاً على الطريق يُقدم فيه طعام جبلي ترفض تناوله ، ويؤجرونهم فراشاً متسخاً بعرق وبول زنخين . أما غالبية الليالي فكانوا يقضونها في اكواخ هنود ، أو في منامات عامة في الهواء الطلق مشادة على حافة الدروب في صفوف من اكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل ، حيث لكل من يصل الحق بالبقاء حتى الفجر . لم تتمكن فيرمينا داثا من النوم ليلة كاملة وهي تتعرق خوفاً ، وتحس في الظلام بحركة المسافرين الرشيقة وهم يربطون دوابهم في الاكواخ الخشبية ويعلقون اراجيح نومهم حيث يستطيعون .

في المساء ، وعند وصول أول المسافرين ، يكون المكان بهياً وهادئاً ، لكنه يتحول عند الصباح إلى ساحة مهرجان ، مليئة بحشد من أراجيح النوم المعلقة على عدة مستويات ، وهنود ارواكو الجبليين الذين ينامون مقرفصين ، وتململ الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية ، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدربة على عدم النباح خوفاً من مخاطر الحرب . لقد كانت تلك الاجواء مألوفة للوريثو داثا ، الذي عمل تاجراً في المنطقة

خلال نصف حياته، وكان يلتقي بشكل شبه دائم مع اصدقاء قدماء عند الفجر. أما بالنسبة للابنة فكان احتضاراً مؤبداً. ان نتانة شحنات السمك المملح، مضافة إلى فقدانها الشهية شوقاً، توصلا إلى اتلاف عادة الأكل لديها، واذا كان لم يصبها مسّ من اليأس فلأنها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورنتينو اريثا. ولم تشك للحظة في ان تلك الأرض هي أرض النسيان.

وكان هناك رعب دائم آخر هو رعب الحرب. فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة، وقد دربهم البغالون على مختلف الاساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون اليها ليتصرفوا بما يتلاءم مع ذلك. وكثيراً ما كانوا يلتقون بارسالية جند على الخيول، تحت امرة ضابط، تقوم بحملة تجنيد اجباري لمجندين جدد وذلك بربطهم كالعجول واجبارهم على الجري. ومثقلة بكل هذه المخاوف، نسيت فيرمينا داثا ذاك الذي بدا لها اكثر خرافية من الامور الوشيكة الحدوث، إلى ان اختطفت دورية بلا انتماء معروف مسافرين من القافلة في احدى الليالي وشنقتهما على شجرة كابلي على بعد فرسخ واحد من المنامة. لم يكن للورينثو داثا أية علاقة بهما، لكنه انزلهما عن الانشوطة ودفنهما كمسيحيين وذلك بدافع الحمد لكونه لم يلق المصير نفسه. وكان هذا أقل ما يمكن عمله. لان المهاجمين كانو قد ايقظوه وفوهة بندقية مصوبة إلى بطنه، واقترب منه قائد بأسمال، وجهه مطلي بسناج أسود، وصوب نحوه ضوء مصباح يدوي، وسأله ان كان ليبرالياً أم محافظاً. فقال لورنيثو داثا:

ـ لست هذا ولا ذاك. أنا مواطن إسباني.

فقال الكومندان:

ـ يا لك من محظوظ! ـ ثم ودعه رافعاً يده إلى أعلى وقال: ـ فليحيا الملك!

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع، حيث تقبع بلدة فاييدوبار السعيدة. كانت تقام هناك مصارعات ديكة في الباحات، وتعزف موسيقى اوكورديون في المنعطفات، كما كان هناك فرسان يمتطون صهوات جياد كريمة، وألعاب نارية وقرع نواقيس. وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة من الاسهم النارية. لكن فيرمينا داثا لم تعر اي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية. استضافهما الخال ليسيماكو سانتشيث، شقيق امها، الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقه كوكبة من الفرسان الاقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل سلالات المقاطعة، وقادوهما عبر شوارع البلدة وسط فرقعة الألعاب النارية. كان البيت في نطاق الساحة الكبرى، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرممة عدة مرات، والتي كانت أشبه بمستودع محصولات بحجراتها الفسيحة والمظلمة، وممرها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافىء، مقابل بستان أشجار مثمرة.

ومـا ان ترجلوا في الاصطبـلات، حتى امتلأت صالات الاستقبـال باعـداد من الاقارب المجهـولـين الـذين كانـوا يزعجـون فيرمينـا داثا بسيل عواطفهم الذي لا يطاق، لانها كانت عاجـزة عن حب أحـد آخـر في هذا العـالم، اضـافـة إلى تسلخ بشرتها من امتطائها البهيمة، وانهـاكهـا من النعـاس والاسهـال، والشيء الوحيد الذي كانت تتشوق اليه هومكان منعزل وهـادىء لتبكي فيـه. وكـانت ابنـة خالهـا هيلديـبرانـدا، التي تكبرها بسنتين ولها كبرياؤها الامبراطوري ذاته، هي الوحيدة التي تفهمت حالتها مذ رأتها لأول مرة، لانها كانت تكتوي كذلـك بجمـرات حب متهـور. رافقتهـا عنـد المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتتقاسمها وايـاهـا، ولم تستطـع ان تفهم كيف ما زالت على قيـد الحياة بهذه القروح النارية في اليتيها. وبمساعدة أمها، وهي امرأة عذبة وشبيهة جداً بزوجها حتى ليبدوان وكأنهما توأمان، أعدت لها مغطساً وخففت لها حرارة الحمى بكمادات من ازهار جبلية، فيما كانت اسهم قلعة البارود النارية تهز أعماق البيت.

انصرف الزوار عندّ منتصف الليل، وتفرقت الحفلة العامة إلى جذوات مبعثرة، وأعارت ابنـة الخـال هيلديـبرانـدا قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا داثا، وساعدتها على الاستلقاء في سرير ذي شراشف نظيفة ووسادة ريش أوحت لها بغتة برعب السعادة المفاجىء. وعندما بقيتا وحـدهما أخـيراً، أغلقت الباب بالمزلاج وأخرجت من تحت فرشة سريرها مغلفاً مختوماً بشعار التلغـراف الـوطني. وكـانـت رؤ ية تعابير المكر المشعة من وجه ابنة الخال تبرعم في ذاكرة قلب فيرمينا داثا رائحة أزهار الياسمين البيضاء، قبل ان تفتت باسنانها خاتم الشمع الاحمر وتبقى حتى الفجر متخبطة في بركة دموع البرقيات الاحدى عشر الخارقة.

وعرفت حينئذ كل شيء. فقبل الانطلاق بالرحلة، ارتكب لورينثو داثا خطيئة اخطار حماه ليسياكو سانتشيث بالتلغراف، وبعث هذا بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة، المنتشـرة في عدد كبـيرٍ من قرى ودروب المقـاطعـة. وهكـذا لم يتمكن فلورينتينو اريثا من معرفة طريق السفر كله فقط، وانما أقام كذلك جمعية واسعة من عاملي التلغراف لاقتفاء اثار فيرمينا داثا حتى آخر قرية في كابو دي لافيلا. وقد اتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ وصولها إلى فييدوبار، حيث اقامت ثلاثة شهور، وحتى نهاية الرحلة في ريوهاتشا، بعد سنة ونصف، حين هُيء للورينثو داثا ان ابنته قد نسيت، وقرر الرجوع إلى بيته. ربما لم يكن هو نفسه واعياً مدى تراخي مراقبته، في انشغاله بمداهنات انسبائه السياسيين، الذين تخلوا بعد كل هذه السنـين عن اوهـامهم القبليـة وقبلوه بقلب مفتـوح كواحـد منهم. لقـد كانت زيارة مصـالحـة متأخـرة، رغم ان الغـرض الاسـاسي منهـا لم يكن كذلـك. كانت عائلة فيرمينـا سانتشيث قد عارضت فعـلاً، وبكـل اصـرار زواجهـا من مهـاجـر بلا اصل، متوحش،وكثير

الكلام، كان يمضي عابراً في كل الاماكن، بتجارة بغال شبقة تبدو شديدة البساطة حتى ليُشك في نظافتها. كان لورينثو داثا يلعب لعبة كبيرة، لان محبوبته هي افضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة: قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد، الذين يهيجون إلى حد الجنون في مسائل الشرف. ومع ذلك، فقد أصرت فيرمينا سانتشيث بكبر يائها على قرار حبها الاعمى، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة واسرار كثيرة، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب وانما لاخفاء زلة مبكرة بغطاء مقدس.

وبعد خمس وعشرين سنة، دون ان ينتبه لورينثو داثا إلى ان عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته، كان يشكو بلواه أمام أحمائه الذي عارضوا زواجه، كما شكا هؤ لاء في حينهم أمام أحمائهم. ولكن الوقت الذي كان يضيعه في حسراته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها. وفيما هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض احمائه السعيدة، كانت هي تمضي مُفلّتة الأعنة مع فوج من بنات خؤولتها تقودهن هيلديبرانذا سانتشيث، أجملهنّ وأسرعهن في تقديم الخدمات، والتي كانت تكتفي بنظرات مختلسة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة، متزوج وأب لأولاد.

بعد اقامة طويلة في فاييدوبار، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حالمة، واستقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الاول، مع الموسيقى والمفرقعات، وبنات خؤولة جديدات متواطئات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف. وسرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى ان وصولها إلى فاييدوبارو لم يكن مختلفاً، وان جميع أيام الاسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد. كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع، فالبيوت مشرعة الابواب فيها دائماً ارجوحة نوم معلقة وطبيخ به بضع قطع من اللحم يغلي على موقد، تحسباً لقدوم أحد قبل وصول برقية الاعلان عن مجيئه، كما كان يحدث بشكل شبه دائم. رافقت هيلديبرانذا سانتشيث ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة، وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع أصلها. وتعرفت فيرمينا داثا على ذاتها، وأحست بانها سيدة نفسها للمرة الأولى، أحست بانها مرافقة ومحمية، وان رئتيها ممتلئتان بهواء حرية أعاد لها الطمأنينة وارداة الحياة. وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الاخيرة، وتشعر بها اقرب عهداً في ذاكرتها، مع صحوات الحنين المضللة.

وفي احدى الليالي رجعت من جولتها اليومية مصعوقة لاكتشافها أن المرء لا يمكن ان يكون سعيداً دون الحب فحسب بل وضده أيضاً. وقد افزعها هذا الاكتشاف لان احدى بنات

اخـوالهـا استمعت مصـادفة الى حديث بين ابائهن ولوريثوداثا ، لمح هذا الاخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية . كانت فيرمينا داثا تعـرفـه . فقد رأته وهويذرع الساحات على متن جياده الكريمة ، ذات السروج الفاخرة التي تبـدو وكأنهـا زينـة القـداس ، وكان أنيقاً وجذاباً ، له رموش حالمة تجعل الاحجار تتنهد ، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينو اريثا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة ، بائساً وضامراً ، مع كتاب الاشعار في حضنه ، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك .

كانت هيلديبراندا سانتشيث تمضي في تلك الايام مهووسة بالاحلام بعد زيارة قامت بها لعـرافـة اذهلتهـا دقـة بصـيرتهـا . فذهبت فيرمينـا داثـا ، المرتعبة من نوايا أبيها ، لاستشارتها كذلك . وقد أنبأها الورق بانه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل وسعيد ، وقد اعادت لها تلك النبوءة انفاسها ، لانها لم تكن تتصور بانه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد ان يكـون مع رجـل آخـر سوى الـذي تحبـه . وتـولت حينـئـذ مقـاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين . وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينو اريثا مجرد كونشيرتو من النوايا والوعود الخيالية ، بل عادت لتصبـح منهجيـة وعمليـة ، وأكثـر زخمـاً من كل ما سبق . حددا المـواعيـد ، وأقـرا الاسـاليب ، ورهنـا حيـاتهـما بقرارهما المشترك في الزواج دون الرجوع إلى أحد ، في اي مكان وبأية طريقة ، وذلك فور لقائهما من جديد . كانت فيرمينا داثا تعتبر هذا الوعد حاسماً ، لدرجة انـه في الليلة التي سمـح لها فيهـا ابـوهـا حضـور الحفلة الـراقصـة الأولى كراشـدة ، في بلدة فونسيكـا ، لم تر انـه من الـوقـار القبـول بالـذهـاب دون موافقة خطيبها . وفي تلك الليلة كان فلورينتينـو اريثـا يلعب الـورق مع لوتـاريـو توغـوت في فنـدق العـابرين ، عندما اخبروه بانه مطلوب في اتصال برقي مستعجل .

كان المتصـل هوموظف التلغـراف في فونسيكـا . الذي عشّق سبع محطات وسيطة لتطلب فيرمينـا داثـا الاذن بحضـور الحفلة الراقصة . ولكنها حين حصلت على التصريح ، لم تكتف بمجرد الرد الايجابي ، وانما طلبت ما يثبت ان فلورينتينو اريثا هو من يضرب مفاتيح الارسال في الطرف الآخر من الخط فعلاً . فصاغ هومذهول اكثر منه مغازلاً عبارة تحدد هويته : قل لها أنني اقسم بالـربـة المتـوجـة . وهكـذا تعـرفت فيرمينـا داثا على الاشارة ، وبقيت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً ، عندما اصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القداس .

كانت تملك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات اكبر من تلك التي انتزعها ابـوهـا منهـا . وكـانت قد تعلمت ان تسلك سلوك النسـاء المتزوجات . وقد اعتبر لوريثو داثا تلك التبدلات التي طرأت على سلوكها بانها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها أوصلها اليه

البعد والزمن، لكنه لم يطرح عليها ابداً مشروع الزواج المتفق عليه. وأصبحت علاقتها بابيها اكثر انسياباً، ضمن التحفظات الشكلية التي فرضتها منذ طردالعمة اسكولاستيكا، مما أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح ما كان لأحد ان يشك بانه ليس قائماً على المحبة.

وكان ان قرر فلورينتينو اريثا في هذه الفترة اخبار فيرمينا داثا في رسائله بانه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة. كان يفعل ذلك حقاً، ولقد خطر له الأمر كنفحة الهام، ذات مساء منير بينما البحر يبدو وكأنه مرصوف بالألمنيوم، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل ازهار البارباسكو. كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة، بينما تولى الصيادون أمر افزاعها بالمجاذيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة. فاستخدام البارباسكو، الذي يخدر الاسماك فقط، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضح النهار بين صيادي الكاريبي، الى ان استبدل بالديناميت. ان احدى متع فلورينتينو اريثا، اثناء رحلة فيرمينا داثا، كانت مشاهدة الصيادين، من فوق حائل الامواج، وهم يملؤون زوارقهم بالشباك المترعة بالاسماك المخدرة. كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسماك القرش ويطلبون من الفضوليين القاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء. انهم اولئك الذين ينطلقون سابحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات، والذين كُتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحالة كثيرة في الولايات المتحدة واوروبا، لمهارتهم في فن الغوص. لقد كان فلورينتينو اريثا يعرفهم منذ الازل، بل وقبل ان يعرف الحب، ولكن لم يخطر بباله يوماً انهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة. وقد فكر بذلك مساء هذا اليوم، ومنذ يوم الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا، بعد حوالي سنة، كان لديه سبب آخر للهذيان.

لقد فُتن اوكليديس، أحد الصبية السباحين، كثيراً كما فتن هو بفكرة الاستكشاف تحت الماء، بعد محادثة لم تتجاوز عشر الدقائق. لم يكشف له فلورينتينو اريثا عن حقيقة مشروعه، بينما استفسر منه بالتفصيل عن امكاناته كغواص وبحار. سأله ان كان يستطيع النزول دون هواء الى عمق عشرين متراً، وقال له اوكليديس نعم. سأله ان كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة، دون أية ادوات اخرى سوى غريزته، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً إلى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في ارخبيل سوتافينتو، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان قادراً على الابحار ليلاً والتوجه مهتدياً بالنجوم، وقال له اوكليديس اي نعم. سأله ان كان مستعداً للعمل معه بالاجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد، وقال له اوكليديس اي نعم، انما مع اضافة خمس ريالات في أيام

الآحاد. سأله ان كان يحسن حماية نفسه من اسماك القرش، وقال له اوكليديس اي نعم، وان لديه تعاويذ سحرية لافزاعها. سأله ان كان قادراً على كتمان السر حتى ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش، وقال له اوكليديس اي نعم. لم يقل له «لا» عن أي شيء أذن، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى اليها الشك. ثم عرض عليه اخيراً حساب النفقات: استئجار الزورق، استئجار المجداف، استئجار عدة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم. اضافة إلى حمل الطعام، وقربة ماء عذب، ومصباح زيت، وحزمة شموع من الشحم، وقرن صياد لطلب النجدة في حالة الطوارىء.

كان عمره حوالي اثني عشر عاماً، وكان سريعاً وماكراً، ومتحدثاً لا يمل الكلام، له جسد حَنكليس يبدو وكأنه قد تكوّن ليمر بخفة من نافذة سفينة. وكانت عوامل الجو قد دبغت بشرته بحيث اصبح مستحيلاً معرفة لونها الاصلي، وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان اكثر بريقاً. وقرر فلورينتينو اريثا على الفور بانه الشريك المناسب لمغامرة بمثل هذا الحجم، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي دون أية اجراءات اخرى.

ابحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر، ممونين جيداً وعاقدين العزم اكثر. كان اوكليديس شبه عار، لا يكاد يغطي جسده سوى المئزر الذي يضعه دوماً حول وسطه. وكان فلورينتينو اريثا يرتدي السترة الرسمية، والقبعة القاتمة، وجزمته الصقيلة، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه، ويحمل الكتاب الذي سيشغل نفسه به اثناء الرحلة إلى الجزر. ومنذ يوم الأحد الأول انتبه الى ان اوكليديس كان بحاراً حاذقاً كما هو غواص ماهر، وان له قدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطىء. فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدأ بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال، ويعرف عمر كل جسم طافٍ ومنشأ كل حطام، وعدد حلقات السلسلة التي كان الاسبان يغلقون بها الخليج. وخشية ان يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة، وجه اليه فلورينتينو اريثا بعض الاسئلة المراوغة، وعرف من خلالها انه لا تراود اوكليديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة.

مذ سمع حكاية الكنز لاول مرة في فندق العابرين، جمع فلورنيتينواريثاكل ما امكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن. وعرف ان السفينه سان خوسيه ليست السفينه الوحيده في الأعماق المرجانيه. لقد كانت بالفعل سفينة القيادة في اسطول تيرا فيرميه، وقد جاءت هنا بعد شهر ايار من عام ١٧٠٨، قادمة من مهرجان بورتوبيلو الخرافي في بناما، حيث حملت جزءاً من كنزها: ثلاثمئة صندوق من فضة البيرو وفير اكروث ومئة وعشر لآلىء جمعت واحصيت في جزيرة كونتا دورا. وخلال اقامتها التي دامت لاكثر من شهر هنا، كانت ايامها

ولياليها عبارة عن مهرجانات شعبية ، قاموا بتحميلها ببقية الكنز المرصود لاخراج مملكة اسبانيا من الفقر: مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثو وسوموندوكو، وثلاثين مليون مسكوكة ذهبية.

كان اسطول تيرا فيرميه مؤلفاً مما لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة متنوعة الاحجام. وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها اسطول فرنسي حسن التسليح، لم يستطع رغم ذلك حماية الحملة من مدافع الاسطول الانكليزي الصائبة، بقيادة القمندان كارلوس واغير، الذي كان ينتظر في ارخبيل سوتا فينتو، عند مخرج الخليج. وهكذا لم تكن سان خوسيه هي السفينة الوحيدة الغرقة، مع انه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الانكليز. لكن الذي لا شك فيه هو ان سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة، وانها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة.

لقد تعرف فلورينتينو اريثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل قباطنة السفن في ذلك العصر، وظن بانه حدد مكان الغرق أيضاً. خرجا من الخليج ما بين حصني بوكاتشيكا، وبعد أربع ساعات من الابحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الارخبيل، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية، حيث بالامكان امسناك اسماك جراد البحر النائمة باليد. كان الهواء خفيفاً، والبحر هادئاً وصافياً، حتى ان فلورينتينو اريثا رأى نفسه معكوساً في الماء. وبعد التجديف لمدة ساعتين من الجزيرة الكبرى، وصلا إلى موقع الغرق.

أشار فلورينتينو اريثا المحتقن بالشمس الجهنمية في ملابسه المأتمية على اوكليديس ان يحاول النزول إلى عمق عشرين متراً وجلب أي شيء يجده في القاع. لقد كان الماء صافياً لدرجة انه رآه وهو يتحرك في الأسفل، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي تمر إلى جانبه دون ان تمسه. ثم رآه يختفي في عرق مرجاني، وعندما فكر بانه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره. كان اوكليديس واقفاً في القاع ويداه مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره. وتابعا البحث على هذا المنوال عن أماكن أعمق، متوجهين دائماً نحو الشمال، ومبحرين فوق أسماك الماتاراتا الدافئة، والحباري الهيابة، وورود الظلمات، إلى ان أدرك اوكليديس بانهما يضيعان وقتهما. فقال له:

- اذا لم تقل لي ما الذي تريدني ان أجده، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه.

لكنه لم يخبره. عندئذ اقترح عليه اوكليديس نزع ملابسه والنزول معه، ولو لمجرد رؤية هذه السماء الاخرى للكون التي في الاعماق المرجانية. لكن فلورينتينو اريثا اعتاد على القول بان الله انما خلق البحر لنراه من النافذة، ولم يحاول يوماً ان يتعلم العوم: بعد ذلك بقليل أصبح المساء غائماً، وصار الهواء رطباً وبارداً، وأظلمت الدنيا بسرعة مما اضطرهما للاسترشاد

بالفنار ليصلا إلى المرفأ. وقبل ان يدخلا الخليج، رأيا عابرة المحيطات الفرنسية تمر قريباً جداً منهما وجميع انوارها مضاءة، كانت ضخمة وبيضاء، وخلفت وراءها اثراً من رائحة لحم طازج مطبوخ وقنبيط يغلي.

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على هذا الحال، وكانا سيضيعان جميع أيام الآحاد لو لم يقرر فلورينتينو اريثا مشاركة اوكليديس في سره. فقام هذا عندئذ بتعديل خطة البحث كلها، ومضيا للابحار في القنال القديم الذي كانت تسلكه السفن، والذي كان يبعد اكثر من عشرين فرسخاً بحرياً إلى الشرق من المكان الذي خمنه فلورينتينو اريثا. وقبل انقضاء شهرين، في مساء يوم بحري ماطر، بقي اوكليديس وقتاً طويلاً في القاع، وكان الزورق قد انحرف كثيراً مما جعله يسبح حوالي نصف ساعة للحاق به، حيث ان فلورينتينو اريثا لم يستطع تقريبه بالمجداف. وعندما تمكن من الامساك بالزورق اخيراً، أخرج من فمه قطعتي حليّ نسائية وعرضهما باحساس المثابر الفائز.

ان ما رواه حينئذ كان أخاذاً، مما جعل فلورينتينو اريثا يقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة، والغوص إلى حيث يستطيع، ليتأكد من ذلك بعينيه فقط. روى انه توجد في ذلك المكان، وعلى عمق ثمانية عشرمتراً فحسب، أعداد من السفن الشراعية القديمة جاثمة بين الصخور المرجانية، وانه يستحيل عليه حصر عددها، وانها موزعة في مجال فسيح لا يحيط به البصر، وروى ان اكثر ما فاجأه هو انه لا يوجد قارب واحد بين القوارب الكثيرة الطافية في الخليج، أحسن حالاً من السفن الغارقة. روى ان هناك عدة سفن شراعية ما زالت أشرعتها في حالة جيدة، وان السفن الغارقة كانت تبدو للنظر في الاعماق كما لو انها غرقت بمكانها وزمانها، حتى انها ما زالت مضاءة بشمس الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت التاسع من حزيران، الذي غرقت فيه. وروى، مختنقاً باندفاع خياله، ان أسهل سفينة يمكن تمييزها هي سان خوسيه، التي يبدو اسمها للعيان مكتوباً على مقدمتها بحروف من الذهب، لكنها في الوقت ذاته السفينة التي لحق بها اكبر ضرر من مدافع الانجليز. وروى انه رأى بداخلها أخطبوطاً عمره اكثر من ثلاثة قرون، تخرج ملامسه من فتحات المدافع، وانه قد تضخم كثيراً في صالة الطعام لدرجة ان اخراجه يستوجب تفكيك السفينة. وروى انه رأى جسد قبطان السفينة بزيه الحربي طافياً على جانبه في الحوض المائي المتشكل في مقصورة القيادة، وقال انه اذا كان لم ينزل الى عنابر الكنز فلأن هواء رئتيه لم يكفه لذلك. وها هي الادلة: قرط به زمردة، وميدالية عليها صورة العذراء مع سلسلتها المتآكلة بفعل الاملاح.

هكذا ذكر فلورينتينو اريثا الكنز لأول مرة في رسالة موجهة إلى فيرمينا داثا بعثها اليها في فونسيكا قبل عودتها بقليل. لقد كانت قصة السفينة الغارقة مألوفة لديها، اذ سمعت بها عا

مرات من لورينثوداثا، الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لاقناع مؤسسة غواصين ألمان للتعاون معه في استخراج الكنز الغارق. وكان سيلح على المهمة، لولا ان عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بان اسطورة السفينة الغارقة ابتدعها أحد حكام المستعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة على ثروات التاج. وكانت فيرمينا داثا تعرف، على اية حال، ان السفينة تجثم على عمق مئتي متر، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول اليها، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينو اريثا. لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشاعرية لدرجة انها احتفلت بمغامرة السفينة على انها واحدة من أكبر شطحات خياله. ولكنها حين توالي تلقيها لرسائل اخرى تتضمن تفاصيل اكثر غرابة، مكتوبة بجدية تضاهي جدية وعوده في الحب، اضطرت للاعتراف امام هيلديبراندا بمخاوفها من ان يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله.

كان اوكليديس قد خرج في هذه الايام بأدلة عديدة على اسطورته، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب باقراط وخواتم مبعثرة ما بين الصخور المرجانية، وانما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها. حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، اذ طلب فلورينتينو اريثا من امه ان تساعده للوصول بمغامرته إلى نهايتها الطبيعية، واكتفت هي بعضّ معدن الحلي باسنانها، والتمعن في الاحجار الزجاجية أمام الضوء لتدرك ان هناك من يتعيش على سذاجة ابنها. وأقسم اوكليديس لفلورينتينو اريثا وهو جاث على ركبتيه انه لا وجود لأية شائبة تشوب أعماله، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينو اريثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفنار. كان قد وصل إلى هناك في الزورق مع اوكليديس، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث مع عامل الفنار حول عجائب البر والبحر التي لا حصر لها، والتي كان عامل الفنار يعرفها. وكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبدلات الكثيرة التي طرأت على الدنيا. وتعلم فلورينتينو اريثا هناك تغذية ضوء الفنار بشحنات من الحطب أول الأمر، ثم ببراميل الزيت، قبل ان تصلنا الطاقة الكهربائية. كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا، وكان يحرس ليل البحر من اعلى البرج حين يحول عائق دون قيام عامل الفنار بعمله. فتعلم التعرف على السفن من اصواتها، ومن حجم انوارها في الافق، وصار يحس بان شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات الفنار.

أما المتعة اثناء النهار فكانت شيئاً آخر، وخصوصاً أيام الآحاد. ففي حي البيريّس حيث كان يعيش اثـريـاء المـدينة القديمة، كان الشاطىء المخصص للنساء مفصولاً عن الشاطىء المخصص للرجـال بجـدار من الطـين؛ شاطىء إلى يمين الفنار وآخر الى يساره. وقد نصب عامـل الفنـار منظاراً يمكن بواسطته، وبدفع سنتافو واحد، مراقبة شاطىء النساء. ودون ان يعلمن بانهن مراقبـات، كانت آنسـات المجتمـع الـراقي يعـرضن خير ما لديهن في ملابس الاستحـمام ذات الكشـاكش الكبـيرة مع أحـذيـة خفيفة وقبعات تخفي الاجساد كما ملابس الخروج تقريباً، اضافة إلى كونها أقل جاذبية. وكانت الامهات تقمن بالحراسة من الشاطىء وهن جالسات على كراسي الخيزران الهزازة تحت الشمس بنفس الملابس، وقبعات الريش، والمظـلات التي يذهبن بها إلى القـداس الكبـير، خوفـاً من ان يغوي بناتهن رجال الشاطىء المجاور من تحت الماء. والحقيقة انه لم يكن ممكناً من خلال المنظار رؤية أي شيء اكثر اثارة مما يمكن رؤيتـه في الشـارع. لكن زبـائن كثـير ين كانـوا يتهافتون كل يوم أحد متنازعين المنظار لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو غريب ومحرم.

وكان فلورينتينو اريثا واحداً منهم، دافعه إلى ذلك الملل اكثر ما هو اللذة، دون ان يكون هذا الدافع الاضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفنار. فالسبب الحقيقي هو انه بعـد صدّ فيرمينـا داثـا، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبداله، لم يعش أسعد السـاعـات في أي مكـان آخـر سوى الفنار، ولم يجد عزاء أفضل منه لمحنته. كان الفنار مكانه الاثير، حتى انه حاول خلال سنوات اقناع امه أولاً، ثم عمه ليون الثاني عشر، لمساعدته في شرائـه. اذ كانت فنـارات الكـاريبي في ذلـك الحين ملكية خاصة، وكان أصحابها يتقاضون حق العبـور إلى المينـاء بحسب حجم السفينة. فاعتقد فلورينتينو اريثا بانها الوسيلة الشريفة الوحيدة لاداء عمل مناسب إلى جانب الشعر. أما أمه، وعمه أيضاً، فلم تكن لتفكر بشيء من هذا، وعنـدمـا أصبح بامكانه شراء الفنار من موارده الخاصة، كانت الفنارات قد انتقلت إلى ملكية الدولة.

ومع ذلك، لم يضع أي من هذه الاحلام سدى. فاسطورة السفينة الغارقة، ثم قصة الفنار فيـما بعـد، خففت عنـه من غياب فيرمينا داثا، وعندما لم يعد يفكر في ذلك كثيراً، جاءه خبر عودتها. وفعلاً، كان لورينثو داثا قد قرر العودة بعد اقامة طويلة في ريوهاتشا. لم يكن الوقت الانسب للسفـر في البحـر، بسبب رياح كانون الأول الموسمية. فالسفينة الشراعية التاريخية، الـوحيـدة التي تتجرأ على مثل هذه الرحلة، قد تجد نفسها عند الفجر عائدة إلى المرفأ الذي خرجت منه، مدفوعة برياح معاكسة. وكان هذا ما حدث. كانت فيرمينا داثا قد أمضت ليلة من الاحتضار، متقيئة الصفراء، ومقيدة إلى سرير قمرة تبدو وكأنها مرحاض حانة، لا بسبب

ضيقها الخانق فقط، وانما بسبب النتانة والحر أيضاً. وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيل اليها عدة مرات ان احزمة السرير ستتقطع، وكانت تصلها من سطح المركب نتف من صرخات محزونة تبدو وكأنها صرخات غرقى، وشخير والدها في السرير المجاور، الذي يشبه شخير النمر، كان عنصراً آخر من مكونات الرعب. وللمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاث سنوات، أمضت ليلة كاملة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلورينتينو اريثا، بينما كان هو مؤرقاً في ارجوحة النوم في الفناء الخلفي، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة فدقيقة. وعند الفجر، توقفت الرياح فجأة، وعاد الهدوء الى البحر، وتنبهت فيرمينا داثا إلى انها قد نامت رغم آلام الدوار، اذ أيقظها صخب سلاسل المرساة. نزعت عنها الاحزمة حينئذ وتطلعت من خلال الطاقة آملة برؤية فلورينتينو اريثا في فوضى الميناء، لكن ما رأته كان عنابر الجمارك بين اشجار النخيل الذهبية بفعل أول أشعة الشمس، ورصيف ميناء ريوهاتشا ذي العوارض الخشبية المنخورة، الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية.

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودعوهم، ويتحدثان معهم في الامور نفسها، وذهلت لاحساسها بانها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت قد عاشته. وبعثت تلك الاعادة الامنية للاحداث قشعريرة في فيرمينا داثا لمجرد تفكيرها بان رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً، لان ذكراها كانت تسبب لها الهلع. لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة إلى البيت هو في قضاء اسبوعين على متن بغلة فوق نتوءات الجبال، وفي ظروف أشد خطورة من المرة الاولى، لان حرباً اهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الانديز، وأخذت تتسع منتشرة في مقاطعات الكاريبي. وهكذا انطلقت ثانية الى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه، وبدموع الوداع نفسها، والصرر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الاخيرة والتي لا تتسع لها القمرات. وفي لحظة الابحار، ودع رجال العائلة السفينة باطلاق النار في الهواء معاً، فرد عليهم لورينثو داثا من سطح السفينة باطلاق رصاصات مسدسه الخمس. وما لبث قلق فيرمينا داثا ان تبدد سريعاً، لان الريح كانت مواتية طوال الليل، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً دون أحزمة الأمان. حلمت بانها ستعود لرؤية فلورينتينو اريثا، وان هذا قد نزع الوجه الذي رأته فيه دوماً، لانه كان قناعاً في الحقيقة، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً. استيقظت باكراً، مفكرة باحجية الحلم، ووجدت اباها يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان، وقد حرف الكحول عينه، انما بقدر قليل لا يشير إلى وجود شك في العودة.

كانوا يدخلون الميناء، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر متاهة القوارب الشراعية الراسية

في خليج السوق العام، الذي تصل رائحته النتنة إلى عدة فراسخ في البحر، وكان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث ان تحول إلى وابل غزير. تعرف فلورينتينو اريثا، الذي كان قابعاً على شرفة مكتب التلغراف، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيمس بأشرعة أخمدها المطر وترسو مقابل مرفأ السوق. لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشر صباحاً، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً. وتابع الانتظار دون ان يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل إلى الشاطىء قلة من المسافرين قرروا النزول الى البر رغم العاصفة. وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة، والوصول إلى الرصيف متخبطين في الوحل. وفي الساعة الثامنة، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر، تقدم حمال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطىء، لكنها كانت مبتلة الى الحد الذي لا يستطع معه فلورينتينو اريثا التعرف عليها.

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة، إلى ان دخلت البيت المقفل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لاعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالا بلاثيديا، الخادمة الزنجية، التي عادت إلى موقعها السابق كعبدة بمجرد ان أعلموها بالعودة. لم تعد فيرمينا داثا هي الابنة الوحيدة، مدللة ابيها وضحيته في الوقت ذاته، بل أصبحت ربة وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن انقاذها إلا بقوة حب عصي على الهزيمة. لم تخف، لانها أحست بانها ملهمة بروح صعود كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم. وفي ليلة العودة بالذات، وفيما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على طاولة المطبخ، فوضها ابوها السلطات لادارة البيت. وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي، قائلاً لها:

ـ اني اسلمك مفاتيح البيت.

تولت المسؤولية بحزم، مع اكمالها السبعة عشر عاماً من العمر، واعية ان كل شبر من الحرية المكتسبة انما حصلت عليه بقدرة الحب. وفي اليوم التالي، بعد ليلة من الاحلام الكابوسية، عانت للمرة الأولى كآبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورأت من جديد رذاذ الحديقة الحزين، وتمثال البطل مقطوع الرأس، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلورينتينو اريثا الجلوس مع كتاب الاشعار. ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل، انما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً. واحست كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها، وكم يكلفها بقاؤها على قيد الحياة من جهد، وكم من الحب يلزمها لتحب رجلها كما يشاء الله. فوجئت بانه ليس في الحديقة، كما كان يفعل في احيان كثيرة غير عابىء بالمطر، وبانها لم تتلق أية إشارة منه بأي

وسيلة، ولا حتى بالايحاء. وفجأة فكرت ان يكون قد مات. لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال، لانها في احتدام برقيات الأيام الاخيرة، وامام اقتراب موعد العودة، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود.

والحقيقة ان فلورينتينو اريثا كان يظن موقناً بانها لم ترجع بعد، إلى ان أكد له عامل التلغراف في ريوهاتشا بانها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تصل في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية. وهكذا أمضى نهاية الاسبوع مترصداً أية علامة حياة في بيتها، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متنقلاً ما لبث ان انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المطلة على الشرفة. لم ينم تلك الليلة، وطاردته الاشواق الهائجة نفسها التي أقلقت ليالي حبه الأولى. نهضت ترانسيتو اريثا مع الديوك الأولى، مذعورة لان ابنها قد خرج الى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل، ولكنها لم تجده في البيت. لقد مضى يتسكع هائماً على حائل الامواج، وراح يلقي أشعار الحب على الريح، ويبكي طرباً حتى مطلع الفجر. وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الباروكية، وقد أفقده السهر توازنه، محاولاً ابتداع طريقة يوصل بها إلى فيرمينا داثا ترحيبه بقدومها، حين أحس بهزة مزلزلة تمزق احشاءه.

كانت هي، تجتاز ساحة الكتدرائية برفقة غالا بلاثيديا، التي كانت تحمل سلال المشتريات، وللمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي، وتبدو أطول مما كانت عليه عند ذهابها، واكثر كمالاً ونضوجاً، وبجمال مصفى بمقدرة امرأة واعية. كانت ضفيرتها قد نمت مجدداً، لكنها لم تكن تسدلها على ظهرها وانما تتنكبها فوق كتفها الايسر، ولقد نزع عنها ذلك التغيير الطفيف كل اثر للطفولة. وقف فلورينتينو اريثا في مكانه مصعوقاً، الى ان اجتازت مخلوقة الحلم الساحة دون ان ترفع بصرها عن طريقها. ولكن القوة التي جمدته هي نفسها التي دفعته بعد ذلك للاسراع في اثرها حين انعطفت عند زاوية الكتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم.

لاحقها دون ان تراه، مستكشفاً الحركات اليومية، والنضج المبكر، وظرافة اكثر الكائنات محبة في هذا العالم، والتي كان يراها لأول مرة وهي منطلقة على سجيتها. اذهلته السهولة التي تشق بها طريقها وسط الجموع. فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس، وسلالها تتشابك وتضطر للركض كي لا تضيع اثرها، كانت هي تبحر في فوضى الشارع بجو خاص بها وزمن مختلف، دون ان تصطدم بأحد، وكأنها خفاش في الظلام. لقد خرجت مرات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمة اسكولاستيكا، ولكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالمؤن، وليس بالاثاث والمأكولات فحسب، بل

وبالملابس النسائية ايضاً. ولهذا كان خروجها الأول ذاك مغامرة أخاذة تمثلتها احلامها كطفلة.

لم تعر اهتماماً لتسرع المشعوذين الذين كانوا يقدمون لها اكسيراً للحب الابدي، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة، ولا للهندي المزيف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً. لقد قامت بجولة واسعة ومفصلة، دون مسار مدروس، وبتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرع في روح الاشياء. ودخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع، وفي كل مكان وجدت شيئاً غذى رغبتها في الحياة. تمتعت بحفيف أزهار الاقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة، ولفت نفسها بالحرير المزين بالرسوم، وضحكت لضحكتها ذاتها وهي ترى نفسها متشحة بالملابس الشعبية مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي. وفي دكان البحريات رفعت غطاء برميل يحتوي اسماك رنكة في ماء مملح ذكرها بليالي الشمال الشرقي، وهي طفلة صغيرة، في سان خوان دي لاثييناغا. وقدموا لها سجقاً من اليكانتي لتتذوقه فكان له طعم عرق السوس، فاشترت قطعتين منه لفطور يوم السبت، كما اشترت بضع شرائح من سمك القد وقطرميز كشمش مع الخمر. وفي دكان البهارات، ومن اجل التمتع بالرائحة فقط، عصرت بين كفيها أوراق مريمية وصعتر، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة، وحفنة يانسون مطحون، وحفنات اخرى من الزنجبيل والعرعر، وخرجت مبللة بدموع الضحك لكثرة ماعطست من روائح فلفل كايينا. وفي البوتيك الفرنسي، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي، وضعوا لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها، واهدوها حبة مزيلة للرائحة تستعمل بعد التدخين.

كانت تلعب لعبة الشراء حقاً، لكنها كانت تشتري ماهي بحاجة اليه فعلاً بلا مواربة، وبمقدرة لا تسمح بالظن بانها انما تفعل ذلك للمرة الأولى، فقدكانت مدركة انها لاتشتري لنفسها فقط وانما له كذلك. . اثنتي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتهما معاً، ونسيجاً قطنياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكهما معاً عند الصباح، ومن كل صنف ما هو اكثر روعة ليتمتعا به معاً في بيت الحب. كانت تطلب تخفيضاً وتتقن طلبه، وتجادل بظرافة ووقار حتى تحصل على أفضل الاصناف، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بسماع رنينها فوق مرمر الطاولة.

كان فلورينتينو اريثا يراقبها مبهوراً، ويلاحقها مقطوع الانفاس، فاصطدم عدة مرات بسلال الخادمة التي كانت ترد بابتسامة على اعتذاراته، وقد مرت هي نفسها قريباً جداً منه حتى انه شم نسيم رائحتها، واذا كانت لم تره حينئذ فليس لعجزها عن ذلك وانما لشموخ

طريقتها في المشي. كانت تبدو له جميلة جداً، فاتنة جداً، ومختلفة جداً عن الناس العاديين، بحيث لم يدرك كيف لا يختل الاخرون مثله بصناجات كعبيها على بلاط الشارع، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيرتها، وطيران يديها، وجنين ضحكتها. لم يضيع حركة واحدة من حركاتها، ولا علامة واحدة من علامات طبعها، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من ان يُفسد السحر. ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين تنبه إلى انه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوق لها خلال سنوات.

كانت فيرمينا داثا تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة السائدة بان زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضياع، وأرض محرمة، على الانسات المحترمات طبعاً. كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير حيث تتوقف عربات الاجرة وطنابر الشحن التي تجرها الحمير، وحيث تصبح التجارة الشعبية اكثر زخماً وصخباً. اسمه موروث من أيام المستعمرة، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهرون ذوو السترة الكتانية والاكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين، والذين كانوا يكتبون جميع انواع الوثائق باسعار بائسة: مذكرات اتهام أو استرحام، واستدعاءات قانونية، وبطاقات تهنئة أو تعزية، ورسائل حب في اي سن كان. وليسوا هم، بكل تأكيد، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصاخب، وانما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع انواع الحيل الغامضة التي تصل تهريباً في السفن القادمة من اوروبا، ابتداء من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيجة، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الاعراف العظائية التي تتحرك أثناء العملية، أو تلك التي تنتهي بازهار تتفتح اوراقها حسب مشيئة المتنفع. لقد ولجت فيرمينا داثا، عديمة الخبرة في الشوارع، ذلك الزقاق دون ان تنتبه إلى اين هي ماضية، باحثة عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة.

غرقت في ضجة ماسحي الاحذية وبائعي العصافير، عارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداوي ومناديات الحلوى اللواتي يعلن بصراخ اعلى من الضجة عن حلوى كوكادا الاناناس للصبايا، وحلوى جوز الهند للحمقى، وحلوى السكر بالعجين لميكائيلا. ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب، وفتنها على الفور ورّاق كان يقدم عرضاً لانواع من حبر الكتابة السحري: حبر أحمر له لون الدم، وحبر ذو بريق حزين لبطاقات التعزية، وحبر فوسفوري لقراءته في الظلام، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء. كانت تريد من كل الانواع لتلعب مع فلورينتينو اريثا، وتذهله باستنباطها، ولكنها بعد عدة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي، بعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية

الكبيرة، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف، مشيرة الى ماتريد بإصبعها من وراء الزجاج لانها لم تكن لتتمكن من اسماعهن ما تريده بسبب الضوضاء: ست قطع من شعر الملاك، وستة قوالب صغيرة من حلوى الحليب، وستة مكعبات سمسمية، وست قطع من كعكة اليكة، وستة اقراص من الشوكلاته، وست قطع من البسكويت المحشي، وست من لقمة الملكة، وستة من هذا وستة من ذاك، وستة من كل شيء، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تقاوم، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربى، وغير مبالية بالتعفن المتواصل، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلمع في الحر القاتل. ايقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على رأسها المكور والبديع، قدمت لها قطعة اناناس مغروسة في رأس سكين جزار. فتناولتها ودستها كاملة في فمها، تذوقتها، وكانت تتذوقها ونظرها شارد في الجموع، عندما سمرتها اختلاجة اضطراب في مكانها. فوراءها. وقريباً جداً من اذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها:

ـ ليس هذا بالمكان المناسب لربة متوجة.

التفتت ورأت على بعد شبرين من عينيها العينين الاخريين الجامدتين، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد، والشفتين المتصلبتين خوفاً، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها لأول مرة، ولكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرة السابقة وانما بهاوية خيبة الأمل. وبلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي اوقعت نفسها فيها، وتساءلت مذعورة كيف استطاعت ان تحتضن طوال هذا الوقت وبكل هذه القسوة حرقة قلب كتلك. وبالكاد استطاعت ان تفكر: «رباه، ياللرجل البائس!». ابتسم فلورينتينو اريثا، وحاول ان يقول شيئاً، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له:

ـ لا، ارجوك، انس كل شيء.

في مساء ذلك اليوم، وبينما والدها ينام قيلولته، بعثت اليه مع غالا بلاثيديا رسالة في سطرين: **عندما رأيتك اليوم، ادركت ان ماكان بيننا ليس الا وهماً**. وحملت اليه الخادمة كذلك برقياته، واشعاره، وازهار كاميلياه الجافة، وطلبت منه ان يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها اليه: كتاب صلوات العمة اسكولاستيكا، واوراق النباتات المجففة، والسنتمتر المربع من مسوح سان بيدرو كلافير، وميداليات القديسين، وضفيرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزي المدرسي الحريري. فكتب في الايام التالية، وهو على حافة الجنون، عدداً كبيراً من الرسائل اليائسة، وحاصر الخادمة لتحمل تلك الرسائل، لكن هذه نفذت التعليمات الصارمة بعدم استلام اي شيء سوى الهدايا المعادة. واصرت على ذلك بحسم جعل

فلورينتينو اريثا يعيد كل شيء ما عدا الضفيرة، التي لم يشأ اعادتها ما لم تستقبله فيرمينا داثا شخصياً ليتحدثا معاً ولو للحظة واحدة. ولم يتمكن من ذلك. ونزلت ترانسيتو اريثا عن كبر يائها، خشية ان يتخذ ابنها قراراً قاتلاً، وطلبت من فيرمينا داثا ان تمنحها خمس دقائق من وقتها، فاستقبلتها للحظة واحدة في دهليز البيت، واقفة، دون ان تدعوها إلى الدخول، وبلا ذرة وهن. بعد يومين من ذلك، ومع انتهاء مشادة مع أمه، نزع فلورينتينو اريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة حيث كان يعلق الضفيرة كانها ايقونة مقدسة، واعادتها ترانسيتو اريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية. ولم تتح لفلورينتينو اريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد، ولا التحدث اليها اثناء لقاءاتها الكثيرة في حياتيهما الطويلتين، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعة أيام، عندما كرر لها يمين الوفاء الابدي والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة.

كان خوفينال اوربينو، العازب المرغوب وهو في الثامنة والعشرين، قد عاد من اقامة طويلة في باريس، حيث اجرى دراسات عليا في الطب والجراحة، منذ نزوله إلى البر قدم أدلة قاهرة على انه لم يضيع لحظة واحدة من وقته. لقد رجع اكثر تجملاً مما كان عليه عند ذهابه، واكثر تحكماً بطبائعه، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو اكثر صرامة منه واكثر معرفة بعلومه، كما لم يكن اي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة اويعزف راجلاً أفضل منه على البيانو. وكانت فتيات وسطه الاجتماعي، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية، يقترعن سراً ليلعبن أيهن ستبقى معه، وكان هويلعب كذلك للبقاء معهن، لكنه تمكن من الحفاظ على نفسه في حالة الملاحة، صحيحاً ومغرياً، إلى ان سقط دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا داثا العاميّة.

كان يحب ان يقول ان ذلك الحب هوثمرة تشخيص طبي خاطيء. ولم يكن ليصدق بان ذلك قد حدث، خصوصاً في تلك الفترة من حياته، حين كان كل احتياطيه من الهوى منصباً على مصير مدينته، التي كثيراً ما قال عنها دون تردد انه لامثيل لها في العالم. ففي باريس، وفيها هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبة عرضية في خريف متأخر، كان يرى انه من المستحيل تخيل سعادة اكثر صفاء من سعادة تلك الامسيات الذهبية الباريسية، المختلطة برائحة حبات الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر، وأنغام الاكورديونات الخافتة، والعشاق الذين لا يرتوون من قبلات متصلة لاتنتهي على الشرفات المفتوحة، ورغم ذلك، فقد قال هونفسه، ويده على قلبه، انه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان. كان ما يزال شاباً لا يعرف ان ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخم

الذكريات الطيبة، واننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من احتمال الماضي. ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات، حينئذ فقط أدرك إلى أي حد كان ضحية سهلة لأحابيل الحنين الخادعة.

شقت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة النتنة. نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من الألبكة، مع صدرية وواقية من الغبار، بلحية كلحية باستور شاب وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح وشاحب، ويسيطرة كافية لاخفاء عقدة الحنجرة التي لم يكن سببها الحزن، وانما الرعب. كان الميناء شبه خاو، يحرسه جنود حفاة بلا زي عسكري، وكانت شقيقتاه وامه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه. وجدهم شاحبين وبلا مستقبل، رغم مظهرهم الدنيوي، وكانوا يتحدثون عن الازمة وعن الحرب الأهلية كأمر بعيد وغريب، ولكن اصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة، وحدقات عيونهم بلمعة يقين تخون كلماتهم. وكانت أمه هي اكثر من اثار أشجانه، تلك المرأة التي فرضت نفسها على الحياة وهي لا تزال فتية بأناقتها واندفاعها الاجتماعي، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة. ولا بد أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها، فسارعت تسأله وكأنها تدافع عن نفسها، لماذا هو عائد بهذه البشرة الشفافة كالبارفان.

وقال لها:

- انها الحياة يا أماه. فالمرء يتحول أخضر في باريس.

بعد ذلك، وفيما هو إلى جانبها يغرق في حر العربة المغلقة، لم يعد يحتمل قسوة الواقع الذي ينفذ اليه غلياناً من النافذة. كان البحر يبدو وكأنه من رماد، وقصور النبلاء القديمة كانت على وشك الانهيار أمام تكاثر المتسولين، وكان العثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء ابخرة المجارير المكشوفة مستحيلاً. كل شيء بدا له أضأل مما كان عليه عند ذهابه، وأشد فقراً وكآبة، وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع تجعل حصاني العربة يجفلان فزعين. وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء الى البيت، في حي البريّس، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملأه. رأى نفسه مهزوماً، فأدار وجهه كي لا تراه أمه، وأطلق لبكائه الصامت العنان.

لم يكن قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، ومقر الاقامة التاريخي لآل اوربينو دي لا كايه، بالقصر الذي مازال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار. وقد اكتشف الدكتور خوفينال اوربينو ذلك وقلبه يتفتت مذ عبر الدهليز المظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المغبرة،

والاعشاب البرية التي بلا أزهار تعيث بها السحالي، وانتبه الى نقص عدد كبير من بلاط المرمر، اضافة الى تهشم عدد من درجات السلم الرخامي الفسيح ذي الدرابزين النحاسي الذي يقود الى الحجرات الرئيسية. لقد مات والده، الذي كان طبيبا متفانيا اكثر منه عالما، في جائحة الكوليرا الاسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات، ومعه ماتت روح البيت. فدونيا بلانكا، الام، المختنقة بحداد أبدي، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية لذكرى الزوج المتوفى. وتحولت الشقيقتان رغم طبيعتيهما وميلهما الاحتفالي الى وقود للدير.

لم يغفل الدكتور اوربينو لحظة واحدة في ليلة وصوله، مرتعبا من الظلمة والصمت. وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدرء الرزايا والانهيارات وانواع المصائب الليلية الاخرى، فيما دخل كروان الى حجرة النوم من النافذة غير المحكمة، وأخذ يصدح كل ساعة، عند تمام الساعة بالضبط. وعذبته صرخات الهذيان التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الالهية للمجاذيب، والقطرة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرة الفخارية الى الجفنة ويملأ صداها جو البيت، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم، وخوفه الخِلْقي من الظلمة، والحضور اللامرئي للأب الميت في البيت الرحب الهاجع. عندما صدح الكروان في الساعة السادسة، مرافقا بذلك ديكة الجوار، أسلم الدكتور اوربينو نفسه جسداً وروحا الى كنف العناية الالهية، لانه لم يعد يشعر بالحماس للحياة يوما اخر في وطنه المنهار أنقاضا. ولكن عطف ذويه، وأيام الاحاد الريفية، وتملقات عازبات طبقته الجشعة خففت كلها من مرارة الوهلة الاولى. واخذ يعتاد شيئا فشيئا على قيظ تشرين الاول، وعلى الروائح الحادة، وعلى اراء اصدقائه المبكرة: غداً نرى يا دكتور، فلا تبال، الى ان انتهى للاستبسلام الى شعوذة العادة. ولم يتأخر طويلا في وضع تبرير بسيط لخذلانه. وقال ان هذه هي دنياه، دنياه الكئيبة والجائرة التي منحه الرب اياها، وهو مدين لها.

أول ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه. احتفظ بالاثاث الانكليزي نفسه في مكانه، ذلك الاثاث الصلب والصارم، الذي تتنهد أخشابه مع برودة الفجر، لكنه بعث الى حجرة المهملات مؤلفات العلوم من زمن الحكام الاستعماريين وكتب الطب الرومنطيقي، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة. وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازع الموت مريضة عارية، وقسم أبقراط

المكتوب بحروف قوطية، وعلق مكانها، الى جانب شهادة والده الوحيدة، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوربية مختلفة.

حاول ان يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة، ولكن الامر لم يكن بالبساطة التي ظنها وهو في اندفاع الشباب. فبيت الطب القديم المتمسك بخرافاته الموروثة، مثل وضع قوائم الاسرة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الامراض اليها، أو المطالبة بارتداء ملابس الاتيكيت وقفازات الشمواة في صالة الجراحة، اذ كان الاعتقاد السائد حينئذ هو ان الاناقة شرط جوهري للتعقيم. وما كانوا يطيقون تذوق الطبيب الشاب القادم حديثا، بول المريض ليكتشف وجود السكر، او استشهاده بأراء شاركوت وتروسو كما لو كانا زميلاه في الحجرة، وتحذيره الصارم في درسه من مخاطر اللقاحات القاتلة وايمانه مقابل ذلك ايمانا مريبا بالاختراع الجديد المدعو تحاميل. لقد كان يتعثر بكل شيء: روحه المجدده، تحضره الجنوني، وميله البطيء لفهم المزاح في أرض المزاح السرمدي. وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار وسخرية المنافقين من الشباب.

كان وضع المدينة الصحي هو هاجسه الدائم. فلجأ الى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة منذ العهد الاستعماري، والتي تشكل مرتعا رحبا للجرذان، واقامة مجاري مغلقة بدلا منها لا تصب بقاياها في خليج السوق، كما هو الحال منذ الازل، وانما في مجمع ناء للفضلات. كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات، أما ثلثا الاهالي المكدسين في اكواخ على ضفاف المستنقعات فكانوا يقضون حاجتهم في العراء. فكان البراز يجف تحت الشمس، متحولا الى غبار، يتنفسه الجميع ببهجة فصح مع نسمات كانون الباردة السعيدة. لقد حاول الدكتور خوفينال اوربينو ان يفرض في المجلس الاداري اقامة دورة تأهيل اجبارية، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة. وناضل دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار، التي تحولت منذ قرون الى مستودعات عفونة، ولجمع تلك النفايات مرتين في الاسبوع على الاقل واحراقها في مكان مهجور.

لقد كان واعيا لشرك مياه الشرب القاتل. لكن مجرد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون ابارا تحت الارض يخزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الاخضرار الطحلبي. ومن بين ابرز قطع اثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخوابي. ولمنع أي كان من شرب الماء بطاسة الالمنيوم التي يخرجون بها الماء، كانوا يسننون حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك المساخر. كان الماء رائقا وبارداً

في عتمـة الفخـار، يترك في الفم طعـما كطعم الـزهـر. لكن الـدكتور خوفينال اوربينو لم يكن لينسـاق وراء خدع النقـاء هذه، لانـه يعـرف ان قاع الخـوابي، رغم كل الاحتياطات، كان هيكـلا لكـل انواع الدويبات. لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهويتأملها باندهاش شبه صوفي، مقتنعـا مثـل معظم النـاس حينئذ ان الدويبات هي الارواح، وانها مخلوقات ماورائية تزف الى الانسات من رواسب المياه الراكدة، وانها قادرة على الاتيان بانتقامات حب حانقة. لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازار كوندي، معلمة المدرسة التي تجرأت على صد الارواح، ورأى نتف الزجاج المنثور في الشارع وأكوام الحجارة التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النـوافـذ. ولقـد انقضى وقت طويـل قبـل ان يتعلم ان تلك الـدويبات هي في الحقيقة يرقات ذباب الزنكودو، لكنه تعلم ذلك كي لاينساه ابدا، لانه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدويبات وحده، وانما أرواح شريرة اخرى كثيرة، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة.

لقـد عزي فتق كيس الخصيـة خلال زمن طويـل وبفخر شديد الى مياه آبار الجمع، ذلك الفتق الـذي يصـبر على احتـمالـه عدد كبـير من رجال المدينة ليس دون خجل فحسب، بل وبنـوع من الكـبر يـاء الـوطنية أيضا. وعندما كان خوفينال اوربينو طفلا يذهب الى المدرسة الابتـدائيـة، لم يكن يستطيـع كبـح اختـلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون امام ابواب بيوتهم في الامسيات الحارة، ويهوون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفـلا ينـام بين افخـاذهم. وكـان يشـاع ان الفتق يحاكي تغـريـد عصفـور حزين في الليـالي العاصفة، وانه يتلوى بألم لايطاق حين يحرقون قريبا منه ريشة طائر رخمة، لكن احدا لم يكن يتذمر من تلك المحن، لان فتقا كبيرا ومحتملا بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء، عندما رجـع الـدكتـور خوفينال اوربينو من اوربا كان يعرف جيدا التفسير العلمي لهذه المعتقدات، ولكنها كانت متأصلة في الايمان الخرافي المحلي الى حد دفع الكثيرين لمعارضة اغناء مياه الابار بالمعادن خوفا من ان ينزعوا منها خاصية تسبيب فتق مشرف.

وكقلقـه من تلوث الميـاه، كان الـدكتـور خوفينـال اوربينـو قلقا كذلك للحالة الصحية في الســوق العـام، ذلـك الامتـداد الفسيـح مقـابل خليج لاس ايناس، حيث ترسو سفن جزر الانتيـل الشـراعيـة. والـذي وصفه أحد الرحالة الشهيرين بانه واحد من اكثر الاسواق غنى وتنـوعـا في العـالم. وقـد كان غنيـا ووافـراً وصاخبا حقا، ولكنه ربما كان كذلك اكثر الاسواق مدعـاة للقلق. كان يقـوم فوق مزبلتـه ذاتها، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليـج تعيـد الى اليـابسة نفايات المجاري. وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطـوعـة، واحشاء متعفنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع

من الدماء. وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم، وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على افاريز العنابر، وخضروات ارخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الارض. وكان الدكتور اوربينو يريد جعل المكان صحيا بنقل المسلخ الى مكان اخر، وتشييد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى ان اكلها يثير الحسرة. ولكن هذا جعل اكثر اصدقائه مجاملة يضيقون ذرعا باحلامه الخيالية. فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد، وبمزايا المدينة التاريخية، وقيمة اثارها الدينية، وبطولتها وجمالها، لكنهم لايرون سوس السنين الذي ينخرها. أما الدكتور اوربينو بالمقابل، الذي يكن لها حباً عظيما يجعله يراها بعيني الحقيقة، فكان يقول:

- كم هي نبيلة هذه المدينة التي مافتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة، ولم نتوصل الى ذلك بعد.

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها. فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق. تسبب خلال أحد عشر اسبوعا بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا. كان بعض الموتى البارزين يدفنون تحت بلاط الكنائس، الى جوار الاساقفة والمستشارين، والاخرون الاقل ثراء يدفنون في فناء الاديرة، أما الفقراء فيمضون بهم الى المقبرة الاستعمارية، على الرابية التي تصفعها الرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة، لجسرها الطيني لوحة بمظلة نحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين: Lasciate ognisperanza. voichentrate في الاسبوعين الاولين للكوليرا فاضت المقبرة، ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس، رغم انهم نقلوا الى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الاعيان الذين ضاعت اسماؤهم. ولقد اختلط هواء الكتدرائية بابخرة سراديب الدفن غير المحكمة الاغلاق، مما اضطرهم الى عدم فتح أبواب الكتدرائية الا بعد ثلاث سنوات، في الحقبة التي رأت فيها فيرمينا دانا للمرة الاولى عن قرب فلورينتينو اريثا في صلاة الفجر. وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور التي وصلت الى الممرات بين اشجار الحور في الاسبوع الثالث، وكان لابد من تحويل بستان الدير، الذي كان اوسع من الرواق بمرتين، الى مقبرة. وحفروا هناك قبورا عميقة ليدفنوا فيها على ثلاث مستويات، على عجل وبلا توابيت، ولكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الارض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الاقدام دماً فاسداً كريه الرائحة. عندئذ تقرر متابعة عمليات الدفن في لامانو دي ديوس، وهي مزرعة لتسمين الابقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة، والتي كرست فيما بعد باسم المقبرة الكونية.

مذ اذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية باطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، ايماناً بالخرافة الحضارية القائلة ان البارود يطهر الجو. ولقد كانت الكوليرا أشد فتكا بين السكان الزنوج، لانهم الاكثر عددا وفقرا، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الاصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت، دون ان يعرف عدد ضحاياها، ليس لان حصرهم كان مستحيلا، وانما لان احدى فضائلنا السائدة هي الحشمة أمام المصائب الخاصة.

لقد كان الدكتور ماركو اوريليو اوربينو، والد خوفينال، بطلا مدنيا في تلك المرحلة المشؤومة، وأبرز ضحاياها أيضا. فاستناداً الى قرار رسمي، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصيا على تنفيذها، لكن مبادراته دفعته للتدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي، حتى صار يبدو في أحرج لحظات الوباء انه لا وجود لسلطة فوق سلطته. وعندما راجع الدكتور خوفينال اوربينو، بعد عدة سنوات، وقائع تلك الايام، ثبت له ان منهج ابيه كان يعتمد على العاطفة اكثر من اعتماده على العلم، وانه كان مناقضا للعقل في احيان كثيرة، وبهذا افسح المجال واسعا امام شراهة الوباء. وتأكد له ذلك في عاطفة الابناء الذين حولتهم الحياة شيئا فشيئا الى آباء لابائهم، فتألم للمرة الاولى لانه لم يكن الى جوار ابيه في عزلة اخطائه. لكنه لم يتعرض لجدارة والده . . فبنشاطه وتفانيه، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء، استحق التشريفات الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة، وبقي اسمه بجدارة محفوظا الى جانب اعداد من أبطال حروب اخرى أقل نبلا.

لم يعش ليرى مجده. فعندما اكتشف في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورق لها في الاخرين، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها، وانما ابتعد عن الجميع كي لاينقل العدوى الى أحد. وفي وحدته في احدى غرف الخدمة بمستشفى الرحمة، صاماً اذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه، غير عابىء بهلع الموبوئين المحتضرين في الممرات الغاصة، كتب لزوجته وابنائه رسالة حب محمومة، يمتن فيها لانه جاء الى الوجود، ويكشف لهم كم أحب الحياة وبأي نهم أحس بذلك الحب. كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة، ولم يكن ضروريا معرفة لمن كتبت تلك الاوراق لادراك ان التوقيع قد وضع عليها مع النفس الاخير. ووفقا لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة، دون أن يراه أحد ممن أحبوه.

تلقى الدكتور خوفينال اوربينو برقية الاشعار بالوفاة بعد ثلاثة أيام في باريس، اثناء تناوله العشاء مع اصدقائه، فرفع نخب شمبانيا لذكرى ابيه قائلا: «لقد كان رجلا طيبا». وكان عليه بعد ذلك ان يؤنب نفسه لقلة نضجه . . لانه بذلك انما تجنب الواقع لكي لا يبكي. ثم

تلقى بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة ابيه، وحينئذ استسلم للواقع. لقد انكشفت له دفعة واحدة وبعمق صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رجل سواه، الذي رباه وعلمه، والذي نام وزنى مع امه طوال اثنتين وثلاثين سنة، والذي لم يكن يبدو له مع ذلك جسدا وروحا قبل هذه الرسالة، وذلك لمجرد الاستحياء وحده. لقد كان الدكتور خوفينال اوربينو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الاخرين، آباء الاخرين، واشقاء الاخرين وازواجهم، لكنها لاتقرب ذويهم. فهم ذوو حيوات بطيئة، لا يبدو ان الشيخوخة تلحق بهم، ولا المرض أو الموت كذلك، وانما هي حيوات تضمحل شيئا فشيئا في زمانها، متحولة الى ذكريات وضباب زمن اخر، الى ان يبتلعها النسيان. لقد وضعته رسالة ابيه، أكثر من برقية الخبر المشؤوم، وجهاً لوجه مع يقين الموت. رغم ان احدى أقدم ذكرياته، حين كان في التاسعة، أو ربما في الحادية عشرة، هي نوع من المؤشر المبكر الى الموت من خلال ابيه. كانا وحيدين في مكتب البيت مساء يوم ماطر، وكان يرسم قبرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الارضية، فيما والده يقرأ موليا ظهره لضوء النافذة، وصدريته مفتوحة الازرار وعلى كمي قميصه اربطة مطاطية. وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها. وحين لم يستطع، طلب من ابنه ان يحك له باظافره، ففعل ذلك يراوده شعور غريب بانه يحس بجسده وهو يحك. واخيرا تطلع اليه ابوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له:

ـ اذا ما مت الآن فانك لن تكاد تتذكرني حين تصبح في مثل سني.

قال ذلك دون أي سبب ظاهر، وطاف ملاك الموت للحظة في ظلمة المكتب البارد، وعاد للخروج من النافذة تاركا وراءه نثارة ريش، لكن الطفل لم يرها. لقد انقضت اكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين، وقريبا سيصل خوفينال اوربينو الى السن التي كان فيها ابوه في ذلك اليوم. كان يعرف انه يشبهه تماما، ولوعيه بانه كذلك، ارتقى الآن الى الوعي المرعب في انه سيفنى مثله أيضا.

صارت الكوليرا هي هاجسه. لم يكن يعرف عنها شيئا اكثر مما يتعلمه بشكل روتيني في دورة هامشية، ولم يكن ليصدق بان هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط في فرنسا، بما في ذلك باريس، اكثر من مئة واربعين الف وفاة. أما بعد موت ابيه فقد تعلم كل ما يمكن ان يتعلمه حول مختلف اشكال الكوليرا، بشكل اشبه بعقاب النفس لتهدئة ذاكرته، وكان طالبا من طلاب ابرز علماء الاوبئة في ذلك الزمان، ومبتدع الاحزمة الصحية، البروفسور ادريان بروست، والد الروائي الكبير. وبهذا فانه لدى عودته الى وطنه، واحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنه، ثم رؤيته الجرذان في المجاري المكشوفة والاطفال الذين يتمرغون عراة

في مستنقعات الشوارع ، لم يدرك ان الكارثة قد وقعت بالفعل فقط ، بل وأيقن انها ستتكرر في اية لحظة .

ولم يمض وقت طويل . فقبل ان يمر العام طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة ان يساعدهم بشأن مريض احسان تغطي كل انحاء جسده بقع زرقاء غريبة . وكانت رؤية الدكتور خوفينال اوربينو للمريض من الباب كافية ليتعرف على العدو. لكن الحظ حالفهم : فالمريض وصل منذ ثلاثة أيام على متن سفينة قادمة من كوراثاو، وقد حضر بنفسه الى العيادات الخارجية في المستشفى ، وليس هناك احتمال بان يكون قد نقل العدوى الى سواه . وعلى كل حال ، حذر الدكتور خوفينال اوربينو زملاءه ، وتمكن من جعل السلطات تنقل الانذار الى الموانيء المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوثة واجراء الحجر الصحي عليها ، وكان عليه ان يهديء من اندفاع القائد العسكري للموقع ، الذي اراد اعلان حالة الطواريء وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال .

وقال له بألمعية عالية :

ـ اقتصد بالبارود الى ان يأتي الليبراليون . فنحن لم نعد في العصور الوسطى .

مات المريض بعد أربعة ايام ، مختنقا بقيء حبيبي أبيض ، انها لم تظهر اية حالة اخرى خلال الاسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم . بعد ذلك بقليل ، نشرت صحيفة دياريودي كومير يشو خبرا عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة . ثم تأكد ان احدهما كان مصابا بالديزنطاريا العادية ، اما الاخر ، وهي طفلة في الخامسة ، فيبدو انها كانت مصابة بالكوليرا فعلا . فتم الحجر على ابويها واخوتها الثلاثة وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي ، كما اخضع الحي بأسره الى رقابة طبية صارمة . كان أحد الاطفال مصابا بعدوى الكوليرا ولكنه استعاد عافيته بسرعة ، وعادت الاسرة كلها الى البيت عندما زال الخطر . وخلال ثلاثة شهور سجلت احدى عشرة حالة اخرى ، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس ، ولكن ما ان انتهت السنة حتى اعتبر انه قد تم تجاوز مخاطر الوباء . ولم يشك احد في ان صرامة الدكتور خوفينال اوربينو الصحية ، اضافة الى مقدرة مناديه الجوالين ، هي التي جعلت تحقيق المعجزة ممكنة . ومنذ ذلك الحين ، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي ، اصبحت الكوليرا داء مستوطنا ليس في المدينة فقط وانما في ساحل الكاريبي كله تقريبا وفي حوض نهر ماجدلينا ، ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولا الى جائحة . لقد افادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال اوربينو بجدية اكبر من جانب السلطات العامة . ففرضت شعبة أجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب ، وجرى الاسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيدا عن المزبلة . ولكن الدكتور اوربينو لم يكن يعبأ حينئذ باعلان

انتصاره كما لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية، لانه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين، مذهولا ومشتتا، ومستعدا لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من اجل بارقة حب فيرمينا داثا.

لقد كان ذلك الحب فعلا ثمرة تشخيص طبي خاطيء. اذ ان طبيبا صديقا ظن انه لمح اعراض الكوليرا الاولية على مريضة في الثامنة عشرة، وطلب من الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لعيادتها. ذهب مساء ذلك اليوم بالذات، مذعورا من احتمال ان يكون الوباء قد دخل هيكل المدينة القديمة، فجميع الأصابات حتى ذلك الحين اقتصرت على الاحياء الهامشية، وكانت كلها تقريبا بين الزنوج. ووجد هناك مفاجآت اخرى ليست أقل جحودا. كان البيت الغارق في ظلال اشجار لوز حديقة البشارة يبدو مخربا من الخارج كغيره من البيوت ذات الاسوار الاستعمارية، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدوان وكأنهما من عصر آخر من عصور العالم. كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة الى بهو اشبيلي، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث، وفيه اشجار برتقال مزهرة وأرضية مرصوفة ببورسلين كبورسلين الجدران. كان هناك خرير ماء متواصل لامرئي، واصص قرنفل على الافاريز وأقفاص عصافير نادرة بين قناطر الرواق. واكثر تلك الطيور غرابة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جدا، تضمخ جو البيت برائحة عطر مبهم حين تحرك اجنحتها. وبدأت عدة كلاب مقيدة في مكان ما من البيت بالعواء فجأة، وقد أطارت رائحة الغريب صوابها، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكت تماما، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات واختبأت بين الازهار، مرتعدة من سلطة ذلك الصوت. حينئذ ساد صمت شفاف، جعل انفاس البحر الكئيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر.

وفكر الدكتور خوفينال اوربينو، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسديا، ان بيتا كهذا يجب ان يكون عصيا على الوباء. لحق بغالا بلاثيديا عبر رواق القناطر، ومر مقابل نافذة حجرة الخياطة حيث رأى فلورينتينو اريثا لأول مرة فيرمينا داثا حين كان البهو ما يزال مليئا بالانقاض، ثم صعد الادراج الرخامية الجديدة الى الطابق الثاني، وانتظر نقل خبر وصوله قبل ان يدخل مخدع المريضة. لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها:

ـ تقول الانسة انه لايمكنك الدخول الان لأن والدها ليس في البيت.

وهكذا كان عليه ان يعود ثانية في الخامسة مساء، حسب تعليمات الخادمة، وفتح له الباب حينئذ لورينثو داثا شخصيا وقاده الى حجرة نوم ابنته، وبقي جالسا في عتمة الركن مقاطعا ذراعيه ومحاولا دون جدوى السيطرة على انفاسه المتسارعة، خلال الوقت الذي استغرقه الفحص. لم يكن من السهل معرفة من هو الاكثر ارتباكا، أهو الطبيب بلمسه الخجول، أم

المريضة بخفر العذراء في قميص نومها الحريري ، لكن أيا منهما لم ينظر في عيني الاخر، وانما كان يسألها بصوت مبهم وتجيبه بصوت مرتعش، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتمة. واخيرا طلب الدكتور خوفينال اوربينو من المريضة ان تجلس، وفتح قميص نومها حتى الخصر بحرص لذيذ: تلألأ صدرها الشامخ غير الممسوس، ذو الحلمتين الطفوليتين، للحظة وكأنه وميض برق في ظلالة المخدع، قبل ان تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين. فأزاح الطبيب ذراعيها بحزم دون ان ينظر اليها، وقام باجراء الفحص المباشر بوضع اذنه على الجلد، بادئا بالصدر أولا ثم الظهر.

وقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو ان يقول بانه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته. كان يتذكر قميص النوم السماوي ذي التطريز المخرم، والعينين المحمومتين، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين، ولكنه كان مبهورا من اقتحام الوباء للسور الاستعماري، فلم يتمعن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة، وانما انصب اهتمامه على ادنى قدر من الوباء قد يكون لديها. بينما كانت هي اكثر وضوحاً: لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيرا ما سمعت باسمه اثناء الحديث عن الكوليرا، متحذلقا عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه. وكانت نتيجة التشخيص انها مصابة بالتهاب معوي ذي منشأ غذائي برئت منه باستخدامها علاج بيتي لمدة ثلاثة ايام. اطمأن لوريثو داثا للتأكيد بان ابنته ليست مصابة بالكوليرا، فرافق الدكتور خوفينال اوربينو حتى باب العربة، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جدا حتى بالنسبة لطبيب يعالج الاثرياء، لكنه ودعه بامتنان مفرط. كان مبهوراً ببريق كنيته والقابه، ولم يفعل شيئا لمداراة ذلك الانبهار، بل انه كان مستعدا للاقدام على عمل اي شيء للالتقاء به ثانية، في ظروف اقل رسمية.

كان لابد من اعتبار المسألة منتهية. لكن الدكتور خوفينال اوربينو رجع ثانية بلا مناسبة في الثالثة من ظهر يوم الثلاثاء التالي، دون ان يستدعيه أحد ودون ان ينبيء أحدا بقدومه. كانت فيرمينا داثا في حجرة الخياطة، تتلقى درسا في الرسم الزيتي مع صديقتين اخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً، وأشار لها بان تدنو. وضعت ادوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس اصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرها على الارض. كانت تضع اكليلا مثبتا على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم لبريقه لون أشم كلون عينيها، وكان كل ما فيها ينفث برودة. وقد لفت انتباه الطبيب انها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج الى حفلة. جس نبضها من خارج النافذة، وطلب منها ان تخرج لسانها، وفحص حلقها مستخدما خافضة لسان من

المنيوم، ونظر الى ما تحت جفنها الاسفل، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتياح. كان أقل ارتباكا من الزيارة السابقة، بينما كانت هي اكثر ارتباكا لانها لم تفهم سببا لهذا الفحص الطاريء، اذا كان هو نفسه قد قال بانه لن يعود الا اذا استدعوه لاي شيء يستجد. بل اكثر من ذلك: لم تكن راغبة في رؤيته الى الأبد. عندما انتهى الفحص، خبأ الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالادوات وقناني الدواء، وأغلقها بضربة قوية، ثم قال لها:

ـ انك كزهرة متفتحة لتوها.

ـ شكراً.

ـ الشكر لله ـ قال لها، واستشهد استشهادا خاطئا بسان توماس ـ: تذكري ان كل ما هو طيب، مهما كان منشؤه، انما هو من الروح القدس. اتحبين الموسيقى؟

سأل ذلك عرضا، مع ابتسامة ساحرة، لكنها لم تجبه. بل سألت بدورها:

ـ ماقصدك من هذا السؤال؟

فقال:

ـ الموسيقى مهمة للصحة.

كان يؤمن بذلك أحيانا، وستعرف هي عما قريب، وحتى نهاية حياتها، ان الموسيقى كانت اشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لاقامة صداقة، ولكنها فهمت الامر في ذلك الحين على انه سخرية. ثم ان صديقتيها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما تتحدثان أفلتتا ضحكات فئران وخبأتا وجهيهما بحاملة الالوان، وهذا ما أفقد فيرمينا داثا صوابها، فصفقت النافذة بقوة وقد اعماها الغضب. حاول الطبيب الحائر امام مصراع النافذة المخرم ان يجد طريقه الى البوابة الخارجية، لكنه أخطأ الاتجاه، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية، فأطلقت هذه زعقة صماء، وخفقت بأجنحتها مرتعبة، مضمخة ملابس الطبيب بعطر نسائي. جمده صوت لورينثو داثا الراعد في مكانه.

ـ دكتور.. انتظرني حيث انت.

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي، فنزل الدرج وهو يزرر قميصه متغطرسا ومتوردا، وسوالفه الطويلة ما تزال مشعثة بعد حلم قيلولة سيء. حاول الطبيب ان يتغلب على الحرج:

لقد قلت لابنتك انها تبدو كزهرة.

فقال لورينثو داثا:

انها كذلك، ولكنها زهرة كثيرة الاشواك.

مر من جانب الدكتور اوربينو دون ان يحيه . ودفع مصراعي نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة :

ـ تعالي واعتذري من الدكتور.

حاول الطبيب ان يتوسط ليحول دون ذلك ، لكن لورينثو داثا لم يعره اهتماما . وأصر: «أسرعي». نظرت الى صديقتيها بتوسل خفي لتتفهما، وردت على ابيها بانه لايوجد ما يستوجب الاعتذار، وبانها أغلقت النافذة لتمنع استمرار دخول الشمس فقط . حاول الدكتور اوربينو تأييد حججها، ولكن لورينثو داثا أصر على الامر. حينئذ رجعت فيرمينا داثا الى النافذة، شاحبة من الغضب، وقدمت قدمها اليمنى فيما هي ترفع تنورتها بأطراف اصابعها ، وانحنت للطبيب انحناءة مسرحية وقالت :

ـ أقدم لك اخلص اعتذاري أيها السيد المبجل.

جاراها الدكتور خوفينال اوربينو بمزاج رائق، رافعاً قبعته العالية بحركة كحركات الفرسان ، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها . دعاه لورينثو داثا بعد ذلك ليتناولا في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجاً، حتى لا تبقى اية شكوك في انه ازال من روحه كل اثر للضغينة .

الحقيقة ان الدكتور خوفينال اوربينو لم يكن يشرب القهوة، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام ، ولم يكن يتعاطى الكحول أيضاً، ما عدا كأساً من النبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة . لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها اليه لورينثو داثا فحسب، بل ووافق كذلك على شرب كأس من خمر اليانسون . ثم قبل فنجاناً آخر من القهوة وكأساً اخرى من الخمر، ثم اخرى واخرى ، رغم انه سيزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد . استمع أول الأمر إلى الاعتذارات التي تابع لورينثو داثا تقديمها باسم ابنته ، التي وصفها بانها طفلة ذكية وجدية ، جديرة بأمير من هنا أو من أي مكان آخر، وعيبها الوحيد، حسب زعمه، هو طبعها الذي يشبه طبع بغلة . لكنه بعد الكأس الثانية ظن بانه يسمع صوت فيرمينا داثا يأتي من طرف الفناء ، ومضى خياله في اثرها ، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيما هي تشعل اضواء الممر، وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات ، وتكشف الغطاء عند الموقد عن قدر الحساء الذي ستتناوله هذه الليلة مع ابيها ، هو وهي وحدهما على المائدة دن ان يرفعا بصرهما، ودون ان يرشفا الحساء بصوت مسموع كي لا يحطما سحر الغضب، إلى ان يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته هذا المساء .

كان الدكتور اوربينو يعرف النساء جيداً، فأدرك ان فيرمينا داثا لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه ، لكنه تأخر على أية حال ، لانه كان يحس ان كبرياءه الجريح لن يتيح له

العيش بسلام بعد اهانة هذا المساء. ويبدو ان لورينثو داثا، الذي نال منه السكر، لم يلاحظ عدم اهتمامه به، اذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كابح لها. كان يتكلم طويلاً وهو يمضغ عقب سيجاره المنطفيء، ويسعل بصوت عال، ويتف، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تئن نوابضه كأنين حيوان متهيج. لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما انتبه إلى ان كلاً منهما لم يعد يرى الآخر، فنهض ليشعل المصباح. تأمله الدكتور خوفينال اوربينو من الأمام على نور الضوء الجديد، ورأى ان احدى عينيه مائلة كعين سمكة وان كلماته لا تتفق مع حركة شفتيه، وفكر بانها تخيلات تراوده لاسرافه في الكحول. حينئذ نهض واحساس اخاذ يسيطر عليه بانه في جسد ليس جسده، وانما جسد شخص ما يزال على المقعد حيث كان. واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لورينثو داثا. كان القمر بدراً. وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي، والاقفاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها اشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لازهار البرتقال الجديدة، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضيء، بينما اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض. «أين أنت أيتها الغائبة»، قال الدكتور اوربينو لدى مروره، لكن فيرمينا داثا لم تسمعه، ولم يكن بمقدورها ان تسمعه، لانها كانت تبكي غيظاً في مخدعها، وهي منبطحة على بطنها فوق السرير بانتظار والدها لتقاضيه على اذلالها هذا المساء. لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها، لكن لورينثو داثا لم يعرض عليه ذلك. لقد حَن الى براءة نبضها، والى لسانها الذي كلسان قطة، ولوزتيها الطريتين، ولكنه فقد الحماس حين فكر بانها لم تعد ترغب برؤيته أبداً ولن تسمح له بان يحاول ذلك. عندما دخل لورنيثو داثا في الدهليز، أطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرشف صرخة جنائزية، فقال الطبيب بصوت عال: «ستقلع عينيك»، وكان يفكر بها، فالتفت اليه لورينثو داثا ليسأله ما الذي قاله.

فأجاب :

ـ لست أنا الذي قلت، وانما هي الخمرة.

رافقه لورينثو داثا حتى العربة محاولا اقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية، لكنه لم يقبله. أعطى الحوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما، وصعد إلى العربة دون مساعدة، لكنه بدأ يشعر بالاعياء بفعل اهتزاز العربة فوق

الشوارع المرصوفة بالاحجار، فما كان منه إلا ان أمر الحوذي بتغيير الاتجاه. نظر لبرهة في المرآة ورأى ان صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرمينا داثا، فهز كتفيه. واخيراً أطلق جُشأة رملية، أسند رأسه على صدره وأغفى، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحداد. سمع نواقيس الكتدرائية أولاً، ثم نواقيس جميع الكنائس، بما فيها اجراس كنيسة سان خوان هوسبتاليريو المكسرة.

فدمدم وهو نائم :

ـ خراء، لقد مات الموتى.

كانت أمه وشقيقتاه يتناولن عشاء مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على طاولة المآدب في صالة الطعام الكبيرة، عندما رأينه يظهر في الباب بوجه منهك ورائحة مخزية تفوح منه هي رائحة عطر الومسات التي نفثتها الغربان. كان الناقوس الكبير في الكتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت. سألته امه مذعورة اين كان، لانهم بحثوا عنه في كل الانحاء ليعالج الجنرال اغناسيو ماريا، آخر أحفاد المركيز دي خاريث دي لافيرا، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي. ومن اجله كانت تقرع الاجراس. انصت الدكتور خوفينال اوربينو لامه دون ان يسمعها، وأمسك باطار الباب، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قيء خمر مدو.

صرخت أمه :

ـ يا مريم المقدسة. لا بد ان أمراً غريباً جعلك تجيء إلى بيتك في مثل هذه الحالة.

لكن الاكثر غرابة لم يكن قد حدث بعد. فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف روميو لوسيتش، الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت بعد ان انتهى حداد المدينة على الجنرال اغناسيو ماريا مباشرة. فحمّل الدكتور خوفينال اوربينو بيانو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها البغال، وأحيا لفيرمينا داثا سيرناداً أصبح مضرب المثل. استيقظت هي مع النغمات الأولى، ولم تكن بحاجة للنظر من تخريمات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم الفريد. والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الآنسات المجربات اللواتي يفرغن محتويات المبولة فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه. أما لورينثو داثا فقد ارتدى ملابسه على عجل اثناء عزف السيرناد، ودعا الدكتور خوفينال اوربينو وعازف البيانو للدخول وهما ما يزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي.

سرعان ما تنبهت فيرمينا داثا إلى ان والدها يحاول ان يلين قلبها. ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة : «تصوري شعور امك لو انها عرفت بانك مرغوبة من أحد آل

أوربينـو دي لا كايي». فردت عليـه بجفاء : «كانت ستموت ثانية وهي في التابوت». وروت لها صديقاتها اللواتي يرسمن معها ان لورينثو داثا قد ذهب إلى النادي الاجتماعي بدعوة من الـدكتـور خوفينـال اوربينـو، وان هذا الاخير كان محط تنبيه صارم لمخالفته تعليمات النادي. وحينئذ فقط علمت أيضاً أن أباها قد طلب عدة مرات الانضمام إلى النادي الاجتماعي، وان طلبـه رفض في كل مرة بعـدد من الكـرات السـوداء لا يتيح المجال للتفكير بمحاولة اخرى. لكن لورينثـو داثـا كان يبتلع الاهـانة بكبد سكير، ويتابع استنباط الوسائل للالتقاء مصادفة بالدكتور خوفينال اوربينو، دون ان يلاحظ بان خوفينال اوربينو هو الذي كان يفعل المستحيل ليجعله يلتقي به. كانا يقضيان أحياناً عدة ساعات وهما يتبادلان الحديث في المكتب، فيبقى البيت حينئذ وكأنه غارق على هامش الزمان، لان فيرمينا داثا لم تكن تسمح لشيء بان يتابع خط حيـاتـه المعتـاد قبـل انصرافه. وكان مقهى الباروكية ملجأ وسطاً لا بأس به. وهناك علّم لورينثو داثا أول دروس الشطرنج لخوفينال اوربينو، وكان هذا تلميذاً مجداً، وأصبح الشطرنج داء آخر لاشفاء منه عذبه حتى يوم مماته.

في احـدى الليـالي، بعـد مدة قصـيرة من سيرنـاد البيـانو المنفرد، وجد لورينثو داثا رسالة مختومـة بالشمـع في مدخل بيته، موجهة إلى ابنته وقد طبعت على الشمع حروف: خ. او. ك. فدسهـا من تحت البـاب لدى مروره أمـام مخدع فيرمينـا، ولم تستطـع هي ان تدرك كيف وصلت الى هناك، اذ رأت انه من غير المعقول ان يكون ابوها قد تغير إلى حد ايصال رسائل عاشقهـا اليهـا. تركتهـا فوق الكـوميـدينو، دون ان تدري ما تفعله بها حقاً، وبقيت الرسالة هنـاك مغلقـة عدة أيـام، حتى مسـاء يوم ماطر حلمت فيه فيرمينا داثا ان خوفينال اوربينو قد رجع الى البيت ليهـديهـا خافضة اللسان التي فحص بها حلقها. ولم تكن خافضة الحلم من الألمنيـوم وانـما من معـدن آخر شهي كانت قد تذوقته بلذة في أحلام اخرى، رأت انها كسرتها إلى جزئين غير متساويين وأعطته القطعة الصغرى.

عنـدمـا استيقظت، فتحت الـرسـالة. كانت قصيرة ومهذبة، والشيء الوحيد الذي كان يرجـوه خوفينـال اوربينـو منهـا هو السماح له بان يطلب من ابيهـا الاذن بزيارتها. لقد تأثرت ببساطته وجديته، والغيظ الذي رعته بالحب خلال تلك الايام خمد فجأة. خبأت الرسالة في علبـة مهملة في قاع الصنـدوق، لكنها تذكرت انها كانت تخبيء هناك ايضاً رسائل فلورينتينو اريثـا المعطـرة؛ فأخـرجتهـا من العلبـة لتضعهـا في مكان آخر، وقد هزتها موجة من الخجل. عندئذ رأت ان خير ما تفعله هو ان تعتبر الرسالة لم تصلها، فأحرقتها بلهب المصباح، وهي ترى قطـرات الشمـع تنتفـخ في فقـاعـات زرقـاء فوق اللهب. تنهدت «ياللرجل المسكين». وفجأة تذكرت انها المرة الثانية التي تقول فيها ذلك خلال اكثر بقليل من سنة، وفكرت لهنيهة

بفلورينتينو اريثا، وقد فوجئت هي نفسها كم أصبح بعيداً عن حياتها: ياللرجل المسكين.

في تشـرين الأول، ومـع الأمطـار الاخيرة، وصلتها ثلاث رسائل اخرى، مع الأولى منها علبة أقراص بنفسج من دير فلافيغني. اثنتان منها سلمها عند مدخل البيت حوذي الدكتور خوفينال اوربينو، الذي حيا غالا بلاثيديا من نافذة العربة، وذلك كي لا تكون هناك شكوك في ان الرسائل ليست منه أولاً، وحتى لا يستطيع أحد الادعاء بان الرسائل لم تصل ثانياً. ثم ان الـرسـالتـين كانتـا مختومتين بنفس الحروف على الشمع الأحمر، ومكتوبتين بالخط الرديء الذي كانت فيرمينا داثا تعرفه: خط طبيب. وكلتا الرسالتين تقولان من حيث الجوهر ما جاء في الرسالة الاولى، وهما مصاغتان بروح الخنوع ذاتها، ولكن في اعماق لياقته بدأ يشع اشتياق لم يكن ليظهر أبداً في رسائل فلورينتينو اريثا الرصينة. وقد قرأتها فيرمينا دثا فور استلامها، بفـارق اسبـوعـين بينهـا. وعندما كانت على وشك القائها للنار، غيرت رأيها دون ان تفسر الامر لنفسها. ولكنها رغم ذلك لم تفكر أبداً بالرد عليها.

الرسالة الثالثة من رسائل شهر تشرين الأول دُست من تحت باب البيت الخارجي، وكانت مختلفة في كل شيء عن الرسائل السابقة. فالخط كان صبيانياً لدرجة لا تدع مجالاً للشك في انها كتبت باليد اليسرى، لكن فيرمينا داثا لم تفكر بشيء من هذا إلا عندما كشف لها النص بالـذات عن مجهـول لئيم. فكـاتب الـرسـالـة يضـع كأمـر واقـع ان فيرمينـا داثا قد سحرت بأكـاسـيرهـا الـدكتـور خوفينـال اوربينو، ومن هذا الافتراض يستخلص النتائج المشؤومة. وينتهي بتهـديـد: اذا لم تتراجـع فيرمينا داثا عن محاولتها الاستيلاء على الرجل المرغوب اكثر من أي رجل آخر في المدينة، فانها ستعرض نفسها للفضيحة العامة.

أحست بانها ضحيـة ظلم مجحف، لكن ردة فعلهـا لم تكن انتقـامية، وانما على العكس تمامـاً: كانت ترغب في الكشف عن الفـاعـل المجهـول لصـرفـه عن خطته بكل التفسيرات المنـاسبـة، اذ كانت موقنـة بانهـا لن تتأثـر أبـداً، ومهـما كانت الاسباب، بمغازلات خوفينال اوربينو. ثم تلقت في الأيام التالية رسالتين اخريين غفلين من التوقيع، فيهما من الحقد مثلما في تلك الأولى، ولكن لم يكن يبدو في أي من الرسائل الثلاث ان كاتبها هو الشخص نفسه. فاما انها وقعت ضحية مكيدة، او ان قصة حبها المزيف قد وصلت إلى أبعد مما تصورته. لقد اقلقتها فكرة ان كل ذلك انما هو نتيجة تهور خوفينال اوربينو ليس إلا. وخطر لها بانه قد يكون رجـلاً مختلفـاً عما يوحي به مظهـره الـوقـور، وان لسانه ربما ينطلق في زياراته فيتبجح بغزوات وهميـة، كما يفعـل الكثـيرون من امثـالـه. فكـرت بان تكتب له موبخة على اهانته شرفها، ولكنها تخلت عن الفكـرة، فقـد يكـون هذا ما يريـده. وحـاولت ان تستعلم من صديقـاتها اللواتي يأتين للرسـم معها في غرفة الخياطة، لكن الشيء الوحيد الذي سمعته هي تعليقات

سليمـة العـاقبـة حول سيرنـاد البيـانـو المنفـرد. أحست بالغضب، والعجز، والذل. وعلى العكس من البداية، حين رغبت بالعثور على العدو الخفي لاقناعه باخطائه، أصبحت تريد فرمـه الآن بمقص تشـذيب الحديقة. صارت تمضي الليالي مستيقظة، محللة تفاصيل وتعابير الـرسـائـل المجهـولة، على أمل العثور على بارقة عزاء. وكان ذلك وهماً باطلاً: ففيرمينا داثا بطبعها كنت غريبة عن عالم آل اوربينو دي لاكابي الداخلي، وكانت تمتلك الاسلحة لمواجهة فنونهم الخيرة، أما الشريرة فلا.

وأصبحت هذه القناعة أشد مرارة بعد رعب الدمية السوداء التي وصلتها في تلك الأيام بلا أيـة رسـالـة، ولكن بدا لها انـه من السهـل تصور مصدرها: فالدكتور خوفينال اوربينو وحده يمكن ان يكـون مرسلهـا. انهـا مشـتراة من المارتينيك، حسب بطاقة المنشأ، وترتدي فستاناً محكـماً، لها شهـر اجعـد به خيـوط ذهبيـة، وهي تغمض عينيهـا عند تمديدها. لقد رأت فيها فيرمينـا داثـا تسليـة جعلتهـا تتغلب على وسـاوسهـا، فكانت تمددها على مخدتها في النهار. واعتـادت على النـوم معهـا في الليـل. وبعـد فترة من الـزمن، اثر حلم منهك، اكتشفت ان الدمية كانت تكبر: فالثياب الاصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذيها، والحذاء تمزق بضغط نمو القدمين. كانت فيرمينا داثا قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية افريقية مشؤومـة، ولكن أيـاً منهـا لم يكن رهيباً كهذه. ولم تستطع، من جهة اخرى، تصور ان يكون رجـل كخـوفينـال اوربينـو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة. وكانت محقة: فالدمية لم يوصلها الحوذي، وانما بائع قريدس عابر، لم يستطع أحد ان يقدم لها خبراً يقيناً عنه. وفي محاولة لحل اللغز، فكرت فيرمينا داثا للحظة بفلورينتينو ارثا، الذي كانت تجهمه يثير فزعها، لكن الحياة تكفلت باقناعها بخطئها. ولم يتضح الـسر أبداً وكان مجرد تذكره يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زواجها بكثير، وانجابها أولاداً، واعتقادها بانها مختارة القدر وأسعد النساء.

المحاولة الاخيرة للدكتور اوربينو كانت توسط الاخت فرانكاديلوث، رئيسة راهبات ظهور العـذراء المقـدسـة، التي لا تستطيـع رفض طلب من عائلة أيـدت طائفتهـا منذ استقرار هذه الطـائفـة في الامـريكيتين. حضرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً، وتسلتا كلتـاهما لمدة نصف ساعـة بأقفـاص العصـافير ريثما تنتهي فيرمينا داثا من الاستحمام. كانت ألمـانيـة رجـولية تتكلم بنبرة معدنية ولها نظرة آمرة لاعلاقة لها بعواطفها الصبيانية. ولم يكن في هذا العـالم ما تكـرهـه فيرمينـا داثا اكثر من كرهها لها ومما رأته على يديها، ومجرد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في احشائها. وما ان تعرفت عليها من باب الحمام حتى عادت تعيش دفعـة واحـدة جميـع عذابـات المدرسـة، وحلم القداس اليومي الذي لا يطاق، ورعب الامتحـانـات، ومسـاعي المستجـدات الـدنيئـة، وكـل الحيـاة المفسدة بموشور الفقر

الروحي. أما الاخت فرانكا دي لالوث بالمقابل، فقد حيتها بمرح بدا نزيهاً. وأبدت دهشتها لنموها ونضجها، وأطرت على حكمتها في تدبير شؤون البيت، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء، وفي مجمرة أزهار البرتقال. ثم أمرت المستجدة بانتظارها، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة اهمال، وبحثت عن مكان منعزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا. فدعتها هذه إلى الصالة.

كانت زيارة قصيرة وفظة. فالاخت فرانكا دي لالوث، ودون اضاعة الوقت في الديباجات، عرضت على فيرمينا داثا رد اعتبارمشرف. كما ان سبب الطرد سيمحى، ليس من المحاضر فقط، وانما من ذاكرة الطائفة أيضاً، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصول على الشهادة الثانوية في الآداب. أرادت فيرمينا داثا الحائرة ان تعرف السبب.

فقالت الراهبة:

ـ كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء، ورغبته الوحيدة هي إسعادك أو تعرفين من هو؟

حينئذ فهمت الأمر. وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة ان تقوم الآن بدور رسول الحب، لكنها لم تتجرأ على قول ذلك. وقالت بالمقابل انها عرفت الرجل المعني، وانها تعرف كذلك بانه لا يملك الحق للتدخل في حياتها.

فقالت الراهبة:

ـ الشيء الوحيد الذي يرجوه هو ان تسمحي له بالتحدث اليك لخمس دقائق. وأنا متأكدة ان أباك سيوافق.

أصبح غضب فيرمينا داثا اشد زخماً لفكرة ان اباها متواطىء في تلك الزيارة. فقالت:

ـ لقد رأينا بعضنا مرتين حين كنت مريضة. وليس من سبب يدعو للقاء الآن.

وقالت الراهبة:

ـ ان هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الالهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه اصبعان.

وتابعت الكلام عن فضائله، وعن ورعه، وانكبابه على خدمة المعذبين. وفيما هي تتكلم أخرجت من كمها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج، وهزتها أما عيني فيرمينا داثا. انها من آثار العائلة، وعمرها اكثر من مئة سنة، صاغها صائغ من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع.

ـ انها لك ـ قالت لها.

أحست فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في اوردتها، وتجرأت حينئذ على القول:

ـ لا استطيع ان أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه، اذا كنت ترين في الحب خطيئة.

تظاهرت الاخت فرانكا دي لالوث بانها لم تدرك مغزى الملاحظة، لكن اجفانها التهبت. وتابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها. وقالت:

ـ خير لك ان تتفاهمي معي، فقد يجيء بعدي نيافة الاسقف، وسيكون الحال معه مختلفاً.

فقالت فيرمينا داثا :

ـ فليأت.

خبأت الاخت فرانكا دي لالوث المسبحة الذهبية في كمها، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً، ومجعداً على شكل طابة، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها، ناظرة إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً بابتسامة حانية وتنهدت.

ـ مسكينة أنت يا بنيتي، ما زلت تفكرين بذلك الرجل.

مضغت فيرمينا داثا الاهانة وهي تنظر إلى الراهبة دون ان يرمش لها جفن، وحدقت في عينيها، دون ان تتكلم، وهي تمضغ بصمت، إلى ان رأت بسعادة لانهائية عينيها الرجوليتين تغرورقان بالدموع. ومسحتهما الأخت فرانكا دي لالوث بالمنديل المكور، ونهضت واقفة وهي تقول:

ـ لقد صدق والدك حين قال بانك بغلة.

لم يأت الاسقف. وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم، لولا ان هيلديبرندا سانتشيث جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمتها، فتبدلت الحياة لكلتيهما. استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً، وسط اضطراب مسافرين يحتضرون من الدوار، فيما نزلت هي من السفينة مشعة وناضجة، بروح هائجة بفعل الليلة البحرية السيئة. جاءت محملة بصناديق الديكة الرومية الحية وبكل انواع الثمار التي تطرحها بساتينهم الزاهرة، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها. وبعث والدها ليسياكو سانتشيث يسأل ان كانوا بحاجة إلى موسيقين من أجل حفلة الفصح، لأن أفضل الموسيقيين متوفرين تحت تصرفه، ويعد بانه سيبعث فيما بعد بشحنة من الألعاب النارية. ويعلن أيضاً بانه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر اذار، وهذا يعني ان لديهما متسعاً من الوقت تعيشانه معاً.

بدأت الفتاتان في الحال. استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول، عاريتين، وطهرتا بعضهما بماء البركة. تعاونتا على ذلك جسديهما بالصابون، وأخرجت كل منهما الصيبان من شعر

الاخـرى، وقـارنتـا اردافهما، ونهودهما الصلبة، وتأملت كل منهما في مرآة الاخرى لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأتا بعضهما عاريتين اخر مرة. كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة، ذات بشرة ذهبيـة، لكن شعـر جسمهـا بأسـره كان شعـر مولـدة، قصير ومفتول وكأنه رغوة أسلاك. أما فيرمينا داثـا فكـانت ذات عري شاحب، خطـوطـه طويلة، وبشـرة صافيـة ناعمة الزغب. جعلتهما غالا بلاثيديا تضعان سريرين متماثلين في حجرة النوم. لكنهما كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد اطفاء النور حتى الفجر، وتدخنان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخنـه قطـاع الطـرق. كانت هيلديـبراندا قد احضرته معها مخبأ في بطانة الصندوق، وكان عليهـما ان تحرقـا بعـد التـدخـين أوراق ارمينـا لتنقيـة هواء الحجرة الذي يصبح كهواء اكواخ الرعاة. لقد دخنت فيرمينا داثا للمرة الأولى في فاييدوبار، وتابعت التدخين في فونسيكا، وفي ريوهاتشا، حين كانت تحبس نفسها مع عشر من بنات اخوالها في حجرة ليتحدثن عن الرجال ويـدخنّ في الخفـاء. وتعلمت التـدخـين بالمقلوب، وذلـك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمهـا، كما يدخن الرجـال في ليـالي الحرب كي لا تفضح جمرة السيجار. لكنها لم تدخن أبداً منفـردة. وأصبحت تفعـل ذلـك مع هيلديـبرانـدا في بيتهـا كل ليلة قبل ان تناما. ومنذ ذلك الحـين اكتسبت عادة التـدخـين، رغم انهـا كانت تدخن في الخفـاء دومـاً، وحتى بالخفاء عن زوجها وأولادها، ليس ذلك لانه كان يُنظر إلى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى، وانما لان متعتها كانت تكتمل في السرية.

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرضت عليها كذلك من جانب ابويها في محاولة لابعادها عن حبهـا المستحيـل، رغم انهم اقنعـوهـا بانهـا مسافرة لمساعدة فيرمينا داثا على حسم أمرها في وجهـة حسنـة. وقـد وافقت هيلديبراند على أمل السخرية من النسيان، واتفقت مع موظف التلغراف في فونسيكـا ليـوصـل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان. ولذا كان يأسها مريراً حين علمت ان فيرمينـا داثـا قد صدت فلورينتينـو اريثـا لان هيلديـبراندا كانت تملك رؤية كونية للحب، وتفكـر ان ما يطـرأ على حبٍ يؤثـر على جميع غراميات العالم بأسره. ولكنها لم تتخل عن مشـروعهـا. ذهبت، بجـرأة سببت لفـيرمينا داثا أزمة رعب، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلورينتينو اريثا.

ماكـان لها ان تتعـرف عليـه، اذ لم يكن فيه اي ملمح من الصورة التي رسمتها له في خيالها من خلال فيرمينـا داثـا. وللوهلة الأولى رأت انّـه يستحيـل ان تكون ابنة عمتها قد اوشكت على الجنـون في سبيـل ذلـك المـوظف الـذي لا يكـاد يلفت الانتباه، والذي له ملامح كلب مضـروب بالعصـا، بمـلابسـه التي كمـلابس حاخام منكوب وأساليبه غير القادرة على اثارة قلب أحد. لكنها ما لبثت ان ندمت لهذا الانطباع الأول، عندما وضع فلورينتينو اريثا نفسه

في خدمتهـا بلا أيـة شروط وحتى دون أن يعـرف من تكـون . . ولم يعـرف ذلك أبداً . ما كان لأحد ان يفهمها مثله ، فلم يطلب منها الافصاح عن هويتها كما لم يطلب أي عنوان . ووضع حلاً بمنتهى البساطة : عليها ان تمر بمكتب التلغراف مساء كل اربعاء ليسلمها الردود باليد ، ولا شيء سوى ذلك وعندما قرأ رسالة هيلديبراندا المكتوبة سألها إن كانت توافق على تعديل يقترحه ، فوافقت . فكتب فلورينتينو اريثا بعض التعديلات بين السطور ، ثم شطبها ، واعاد كتـابتهـا ، حتى لم يعـد لديـه فراغ بين السطـور ، واخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة . وعندما خرجت هيلديبراندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع .

وقد قالت لفيرمينا داثا :

ـ انه قبيح وكئيب . لكنه ينضح حباً .

وكان اكثر ما لفت انتباه هيلديبراندا هو عزلة ابنة عمتها . وقد قالت لها بانها تبدو كعانس في العشرين من العمر . فهيلديبراندا المعتادة على اسرة كثيرة العدد وموزعة ، في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة ، لم تستطع ان تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة . وهكذا كانت فيرمينا داثا : فمنذ استيقاظها في السادسة صباحاً ، والى ان تطفىء نور حجرة النوم ، كانت تكرس نفسها لاضاعة الوقت . فالحياة تُفرض عليها من الخارج : أولاً ، ومع صياح الديكة الأولى ، يوقظها بائع الحليب بمقـرعـة البـاب . ثم تدق بائعة السمك على صندوق اسماك الأبْرميس التي ما زالت تحتضر فوق فرشـة من الاعشـاب البحـريـة ، وتأتي التشكيلة الفـاخرة من خضـروات بسـاتـين ماريـا السفلى وفواكه سان خاثينتو . بعد ذلك ، وطوال النهار ، يقرع الجميع الباب : المتسولون ، بائعات اليانصيب ، راهبات الاحسان ، المجلخ بنايه ، ومُشتري القناني الفارغة ، ومُشتري الذهب المكسر ، ومشتري ورق الجرائد ، والغجريات المزيفات اللواتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب ، وفي خطـوط الكف ، وفي بقـايـا القهوة ، وفي ماء الجفنة . كان الاسبوع يمر على غالابلاثيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا ، عد في يوم آخر ، أو لتصرخ من الشرفة بمـزاج معكـر ان توقفـوا عن الازعاج ، اللعنة ، لقد اشترينا كل ما نحتاجه . كانت قد حلت محل العمـة اسكـولاستيكـا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة ، حتى ان فيرمينا داثا كانت تخطىء فتظنهـا العمـة وتحبهـا على انها كذلك . كانت مسكونة بهواجس عبدة . فما ان تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفـة الاشغـال لتكـوي المـلابس البيضـاء ، وتـتركهـا على أحسن حال ، وتحفظها في الخزائن مع ازهار الخزامى ، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وانما كذلـك المـلابس التي فقـدت رونقهـا لقلة الاستخـدام . وبـالاهتـمام ذاته كانت تحافظ على ملابس فيرمينـا سانتشيث ، والـدة فيرمينـا ، المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً خلت . لكن فيرمينا

دائما هي التي كانت تتخذ القرارات. فهي من يأمر باعداد ما يجب للطعام، وما يجب إعداده شراؤه، وما يجب عمله في كل حالة، وبهذا كانت تقرر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع ما يجب تقريره. فبعد ان تنتهي من تنظيف الأقفاص ووضع الطعام للعصافير، والتأكد من ان الازهار ما عادت بحاجة لشيء، تصبح دون اتجاه. وبعد طردها من المدرسة، كثيراً ما كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي. ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة مسلية اخرى لاضاعة الوقت.

كانت علاقاتها بابيها خالية من العواطف منذ نفي العمة اسكولاستيكا، لكنهما وجدا سبيلاً الى العيش معاً دون عراقيل. فحينما تستيقظ، يكون قد خرج إلى أعماله. ونادراً ما كان يتخلف عن طقس الغداء، مع انه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً، اذ كان يكتفي بالمقبلات والاصناف الجيليقية الخفيفة التي تقدم في مقهى الباروكية. ولم يكن يتناول العشاء أيضاً: كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة، في صحن واحد مغطى بصحن آخر، رغم معرفتهم بانه لن يأكلها حتى اليوم التالي بعد اعادة تسخينها على الفطور.- وكان يعطي ابنته النقود اللازمة للنفقات مرة كل اسبوع، ويحسب تلك النقود جيداً، وكانت تتصرف بها بصرامة، لكنه كان يلبي عن طيب خاطر اي طلب تطلبه لنفقات طارئة. لم يساومها على قرش في يوم من الأيام، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً، لكنها كانت تتصرف وكأنها ستقدم كشفاً بالحساب أمام محكمة قدسية. لم يحدثها أبداً عن طبيعة اعماله وحالتها، كما لم يرافقها لتتعرف على مكاتبه في الميناء، تلك التي في موقع محظور على الآنسات دخوله حتى وهن بصحبة آبائهن. ولم يكن لورينثو دازا يرجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً، وهي ساعة حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً. وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى الباروكية، يلعب كل شيء، لانه كان متخصصاً في جميع ألعاب الصالونات، ومعلماً جيداً لهذه الألعاب أيضاً. وكان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي، دون أن يوقظ ابنته، رغم انه كان يتناول أول كأس من خمر اليانسون عند استيقاظه ويتابع مضغ عقب سيجاره المنطفىء وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار. لكن فيرمينا دازا أحست بدخوله في احدى الليالي. سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقيّ على الدرج، ولهاثه الضخم في ممر الطابق الثاني، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم. ففتحت له الباب، وفزعت للمرة الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة.

قال لها:

ـ لقد انهرنا. انه الانهيار الكامل، وها انتذي قد علمت.

كان ذلك هو كل ما قاله، ولم يعد لقول ذلك أبداً، ولم يحدث ما يشير إلى انه قال الحقيقة،

لكن فيرمينا داثا وعت بعد تلك الليلة انها وحيدة في الدنيا. كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع، فصديقاتها القديمات في المدرسة كن في سماء محرمة عليها، وقد أصبح الامر اكثر صعوبة بعد فضيحة طردها، لكنها لم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً، لان هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماض وبزي مدرسة ظهور العذراء المقدسة، أما عالم ابيها فكان عالم التجار وحمالي السفن، عالم لاجئي الحروب في وكر مقهى الباروكية العام، عالم رجال متوحدين. لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الاخيرة، لان المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية وقد اعتادت ان تأتي معها بتلميذات اخريات إلى حجرة الخياطة، لكنهن فتيات من اوساط اجتماعية مشوشة وغير محددة. لم يكنّ بالنسبة لفيرمينا داثا اكثر من صديقات مستعارات ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس. أرادت هيلديبراندا ان تفتح البيت، ان تهويه، ان تأتي بالموسيقيين والالعاب النارية وقلاع البارود من عند ابيها واقامة حفلة رقص كرنفالية يقوض عصفها حالة ابنة عمتها المعنوية المنخورة، لكنها سرعان ما تنبهت إلى أن نواياها غير مجدية. والسبب بسيط: لا يوجد من يشارك في الحفلة.

وكانت هيلديبراندا على اي حال هي التي وضعتها في الحياة. ففي المساء، وبعد دروس الرسم، كانت ترافقها إلى الشارع للتعرف على المدينة، وقد ارتها فيرمينا داثا الطريق الذي كانت تقطعه يومياً مع العمة اسكولاستيكا، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتينو اريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها، والازقة التي كان يلاحقها فيها، ومخابيء الرسائل، والقصر المشؤوم الذي كان سجن السانتو افيثيو فيما مضى وتحول إلى مدرسة ظهور العذراء المقدسة، التي تكرهها من أعماق روحها. صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء، حيث كان فلورينتينو اريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الريح لتسمعه وهي في الفراش، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها، والسقوف المهشمة والجدران المتآكلة، وانقاض الحصون بين الاجمات، والجزر المتناثرة في الخليج، واكواخ البؤس حول المستنقعات، والكاريبي الرحب. في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القداس في الكتدرائية، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتينو اريثا على أحسن وجه، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأول مرة عن قرب عينيه المرتعبتين في ليلة كهذه الليلة. وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين، واشترتا الحلوى، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية، وأرت فيرمينا داثا ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة ان حبها لم يكن اكثر من سراب. ولم تنتبه هي نفسها إلى ان كل خطوة خطتها من البيت الى المدرسة، وكل مكان في المدينة، كل لحظة من ماضيها القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتينو اريثا. ولفتت هيلديبراندا انتباهها إلى ذلك، لكنها لم توافق على الأمر، لانها لم تقبل يوماً حقيقة ان فلورينتينو اريثا، بخيره أوشره، هو الشيء الوحيد

الذي حدث لها في الحياة .

في هذه الايام جاء المدينة مصور فوتوغرافي بلجيكي ، وأقام استوديو تصويره في اعالي زقاق الكتبة ، وانتهز كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة . وكانت فيرمينا وهيلديبراندا من الأوائل . أفرغتا خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث ، واقتسمتا ازهى الملابس ، والمظلات ، واحذية الاحتفالات ، والقبعات ، وارتدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن . ساعدتهما غالا بلاثيديا على شد أحزمة الخصر ، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الاسلاك ، وكيف تلبسان القفازات ، وتزرران الاحذية ذات الكعوب العالية . وفضلت هيلديبراندا قبعة عريضة الحواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها . ووضعت فيرمينا قبعة اكثر حداثة ، مزينة بفواكه جصية ملونة وأزهار كرينولينا . ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرآة انهما تشبها صور الجدات ، وانطلقتا سعيدتين ، ضاحكتين ، لتلتقطا صورة عمرهما . رأتهما غالا بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما ، مستندتين كيفما اتفق على كعوب احذيتهما ، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدهما كله في مشية كمشية الأطفال ، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما .

كانت هناك جلبة مقابل استوديو البلجيكي ، اذ كان يلتقط صوراً لبيني ثيتينو ، الذي كسب في تلك الأيام بطولة الملاكمة في بناما . كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه ، ولم يكن تصويره بالامر السهل ، اذ كان عليه ان يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة ، وان يتنفس أقل ما يمكن ، لكنه ما ان يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق انصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف ، فلا يستطيع مقاومة اغراء اسعادهم بعرض فنونه . وعندما جاء دور الفتاتين كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وبدا أن المطر سيهطل حتماً ، لكنهما سمحتا للمصور بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي ، وتمكنتا من الوقوف دون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير . وكانت صورة خالدة . عندما توفيت هيلديبراندا ، وهي على مشارف المئة من عمرها ، في مزرعتها المسماة فلوريس دي ماريا ، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثنايا شراشف معطرة ، الى جانب بقايا رسالة محتها السنون . وقد احتفظت فيرمينا دائما بنسختها لسنوات طويلة في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي ، حيث اختفت دون ان يعرف أحد كيف ، أو متى ووصلت إلى يدي فلورينتينو اريثا اثر سلسلة من المصادفات التي لا تُصدق ، بعد ان تجاوزا كلاهما السبعين .

كانت الساحة المقابلة لزقاق الكتبة تغص بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلديبراندا من استوديو البلجيكي . لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته ، وان ملابسهما لاتناسب الساعة ولا الحقبة الحالية . واستقبلهما

الشارع بفيض من السخرية. فانزوتا وحاولتا الهرب من الاستهزاء العام، حين شقت العربة التي يقودها جوادان اشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد. فتوقفت السخرية وتفرقت الجموع المعادية. لن تستطيع هيلديبراندا ان تنسى أبداً رؤيتها الأولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربة، بقبعته الملساء، وسترته البروكار وحركاته الماهرة، وعذوبة عينيه، وسلطة حضوره.

ورغم انها لم تكن قد رأته من قبل، الا انها عرفته في الحال. كانت فيرمينا داثا قد حدثتها عنه، فعلت ذلك مصادفة وبلا أية مصلحة، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيز دي كاسالدويرو لان عربة الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب. واخبرتها من هو صاحب العربة وحاولت ان تشرح لها سبب نفورها، دون ان تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها. كانت هيلديبراندا قد نسيته. ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربة وكأنه طيف من حكاية خيالية، احدى قدميه على الارض والأخرى على ركاب العربة، لم تستطع ان تفهم أسباب نفور ابنة عمتها منه.

ـ اصعدا من فضلكما ـ قال لهما الذكتور خوفينال اوربينو ـ سأوصلكما حيث تأمران.

بدأت فيرمينا داثا القيام بحركة مبهمة، لكن هيلديبراندا كانت قد وافقت. أنزل الدكتور رفينال اوربينو قدمه إلى الأرض وساعدها على الصعود إلى العربة بأطراف اصابعه، وهو لا يكاد يلمسها. وحين لم تجد فيرمينا مخرجاً صعدت وراءها، بوجه يتقد حرجاً.

كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط، ولم تنتبه الفتاتان إلى ان الدكتور اوربينو قد اتفق مع الحوذي، ولكن لا بد أن الأمر كذلك، لأن العربة استغرقت اكثر من نصف ساعة في الوصول. كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربة. التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ. أما هيلديبراندا، فكانت مفتونة، وكان الدكتور اكثر فتنة بافتتانها. وما ان انطلقت العربة حتى أحست برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة، وحميمية العربة من الداخل، فقالت انها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه. وسرعان ما أخذا يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعين. كانا يتظاهران بالاعتقاد ان فيرمينا لا تفهمهما، رغم معرفتهما بانها ليست فاهمة فحسب، بل ومنصتة اليهما أيضاً، ولذا كانا يتابعان اللعب. وبعد هنيهة من الوقت، وكثير من الضحك، اعترفت هيلديبراندا بانها ماعادت تحتمل الآلام التي يسببها لها الحذاء فقال الدكتور اوربينو:

ـ الامر في غاية البساطة. هلمي لنر من ينتهي أولاً.

وبدأ بحل رباط حذائه، وقبلت هيلديبراندا التحدي. لم يكن الأمر سهلاً لأن مشد الاسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء، لكن الدكتور اوربينو تأخر متعمداً، إلى ان أخرجت

حذاءهـا من تحت التنـورة بضحكـة ظافـرة، وكأنهـا اصطادت الحذاء لتوها من بركة راكدة.

عنـدئـذ نظـرا معـاً إلى فيرمينـا، ورأيا بروفيل وجهها اكثر حدة من أي وقت آخر على خلفية المسـاء القـائـظ. لقـد كانت غاضبـة ثلاثـاً: للوضـع غير الـلائق الـذي هي فيـه، ولسلوك هيلديبرانـدا الشـائن، وليقينهـا بان العـربـة تجول على غير هدى لتأخـير الـوصول. لكن هيلديبراندا كانت منفلتة من عقالها. وقد قالت:

ـ لقد ادركت الأن ان ما يزعجني ليس الحذاء وانما هذا القفص من الاسلاك.

وأدرك الـدكتـور اوربينو انها تعني التنورة الداخلية، فأمسك بالسانحة على الفور، وقال: «الامـر في غايـة البساطة. اخلعيها.» وبحركة شعوذة سريعة اخرج منديلاً من جيبه وعصب عينيه قائلاً:

ـ أنا لا أرى.

أبـرزت العصـابـة نقاء شفتيه بين اللحية المستديرة السوداء والشارب ذي الطرفين المدببين وأحست هي بارتعـاشـة ذعـر تهز كيانهـا. فنظرت إلى فيرمينا، ولم تجدها غاضبة الآن، وانما مرتعبـة من ان تكـون هي على استعـداد لخلع تنـورتهـا. فاتخـذت هيلديـبراندا وضعاً جدياً وسألت باشـارات من يديهـا «ماذا نفعل؟». واجابتها فيرمينا داتا بالطريقة ذاتها بانها ستلقي بنفسها من العربة اذا هم لم يذهبوا الى البيت مباشرة.

قال الطبيب :

ـ انني أنتظر.

فقالت هيلديبراندا:

ـ بامكانك ان ترى.

عنـدمـا نزع الـدكتـور خوفينال اوربينو العصابة عن عينيه، وجدها قد تغيرت، وأدرك أن اللعب قد انتهى، وانـه أنتهى بصـورة سيئـة. وبـاشـارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة، ودخـل في حديقـة البشـارة في اللحظـة التي كان فيهـا مشعل الانوار يشعل المصابيح العامة، وقـرعت جميـع الكنـائس نواقيسهـا داعيـة إلى صلاة التبشير. نزلت هيلديـبرانـدا مسرعة ومضطـربـة بعض الشيء لانهـا أغضبت ابنـة عمتها، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية. وفعلت فيرمينـا مثلهـا، ولكن حين حاولت سحب يدهـا بالقفـاز الأملس. ضغـط الـدكتور اوربينو بقوة على اصبعها الوسطى قائلاً:

ـ مازلت انتظر ردك.

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة، وبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد الطبيب، لكنها لم تنتظر لاستعـادتـه. وذهبت إلى النـوم دون أن تأكـل. أما هيلديبراندا، فبعد ان تناولت العشاء في

المطبخ مع غالا بلاثيديا، دخلت الى حجرة النوم وكأن شيئاً لم يحدث، وعلقت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء. ولم تخف حماسها للدكتور اوربينو، وأطرت على اناقته ولطفه، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة. واعترفت هيلدبراندا انها في لحظة معينة، حين عصب الدكتور اوربينو عينيه ورأت بريق اسنانه المنتظمة بين شفتيه الورديتين، أحست برغبة لاتقاوم لأكله بالقبلات. فانقلبت فيرمينا داثا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث دون رغبة في الاساءة، بل انها كانت تضحك، ومن أعماق قلبها، وقالت:
— يالك من عاهرة !

نامت متقافزة، وكانت ترى الدكور اوربينو في كل مكان، رأته يضحك، ويغني، ويطلق شرر كبريت من اسنانه، وعيناه معصوبتان، ويسخر منها برطانة لا قواعد لها في عربة مختلفة كانت تصعد نحو مقبرة الفقراء. واستيقظت قبل الفجر بكثير منهكة، وبقيت مستيقظة وعيناها مغمضتان تفكر بالسنوات الطويلة التي ما زال عليها ان تعيشها. بعد ذلك، وفيما هيلدبراندا تستحم، كتبت رسالة بأقصى سرعة، وطوتها بأقصى سرعة، ودستها بأقصى سرعة في مغلف، وقبل ان تخرج هيلدبراندا من الحمام بعثتها مع غالا بلاثيديا إلى الدكتور خوفينال اوربينو. كانت واحدة من رسائله. وقد كتبت له عليها: أجل يا دكتور، كلم والدي. دون اي حرف اكثر أو أقل.

حين علم فلورينتينو اريثا أن فيرمينا داثا ستتزوج من طبيب نبيل وثري، متعلم في أوروبا وذي شهرة فريدة في مثل سنه، لم تكن هنالك قوة قادرة على اخراجه من مذلته. وقد فعلت ترانسيتو اريثا اكثر مما هو ممكن لتعزيته بأساليب كأساليب عروس عندما رأت انه فقد النطق والشهية وانه يقضي الليل مسهداً يبكي دون راحة، إلى ان تمكنت بعد اسبوع من جعله يأكل. حينئذ تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايثا، الحي الوحيد من الاخوة الثلاثة، ورجته دون ان توضح الاسباب، ان يقدم عملاً لابن اخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية، على ان يكون ذلك في أي ميناء منسي وسط الغابات من موانىء نهر مجدلينا، حيث لا وجود لبريد ولا لتلغراف، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل له شيئاً عن مدينة الضياع هذه. لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوجة اخيه، التي لم تكن تحتمل مجرد وجود البندوق، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فيّا دي ليفا، مدينة الاحلام الواقعة على بعد اكثر من عشرين مرحلة، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس.

لم يع فلورينتينو اريثا أبداً تلك الرحلة العلاجية. وسيتذكرها دوماً مثل كل ماحدث له في تلك الفترة، من خلال زجاج محنته المغبش. عندما استلم برقية التعيين في المنصب لم يفكر باخذها على محمل الجد، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج ألمانية ان مستقبلاً باهراً ينتظره في

الادارة العـامـة. وقال له : «ان التلغراف مهنة المستقبل». واهداه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفـرو مجربـاً في شهور كانون الجليدية في بافيرا. وأهداه العم ليون الثاني عشـر بدلتـين وجـزمـة واقية من المطر كانت لشقيقه الاكبر، وقدم له بطاقة الرحلة مع قمرة في السفينـة التـاليـة. قيفت ترانسيتو اريثا الملابس على مقاس ولدها، الذي كان أقل بدانة من أبيـه وأقصـر بكثـير من الألمـاني، واشـترت له جوارب صوفيـة وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصـه شيء لمواجهـة قسـوة السهب. وكـان فلورينتينـو اريثـا، المتصلب من شدة المعـاناة، يسـاعـد في الاعـداد للرحلة كما بامكـان ميت أن يسـاعد في مراسم جنازته. لم يقل لأحد انه ذاهب، ولم يودع أحـداً، واحتفـظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى امه سر عاطفته المقهورة، ولكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية اخيرة كان يمكنها ان تكلفه حياته. ارتدى في منتصف الليل بدلة الأحد، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعـه لها، والـذي لا يعـرفـه احد سواهما الاثنين، وكان خلال ثلاث سنوات شعار توافقهما المتناقض. عزفه مدمدماً بكلمات الاغنية، على الكمان الغارق بالدموع، وبالهام زخم جعل كلاب الشـارع تبـدأ بالعـواء منـذ النغمـات الأولى، ثم تلتهـا كلاب المـدينة باسرها، ولكنها أخـذت تصمت بعـد ذلـك شيئـاً فشيئـاً في افق الموسيقى، الى ان انتهى الفالس بصمت ما ورائي. لم تُفتح الشرفة، ولم يطل أحد الى الشارع، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفـانـوسـه، محاولاً التحضر بالاستماع الى فتات موسيقى السيرنادات الليلية. لقد كان ذلك الفصـل رقيـة تفـريـج عن فلورينتينو اريثا، لانه ما ان خبأ الكمان في علبته وابتعد في الشوارع الميتة دون ان يلتفت إلى الوراء، حتى فقد الشعور بانه سيغادر في صباح اليوم التالي، وانتابه احساس بانه قد غادر منذ سنوات طويلة وبقرار قاطع ألا يعود أبداً.

كان قد أعيـد تعميـد السفينة، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية، باسم مؤسس الشركة: بيوس الخامس لوائيا. كانت عبارة عن بيت عائم من طابقـين خشبيـين فوق هيكـل من الحديد، عريض ومستو، ويغاطس حده الأقصى خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه. السفن الأقدم كانت بنيت في سينسينـاتي في منتصف القـرن، حسب النمـوذج الخرافي للسفن التي كانت تقـوم بالعبور من نهر اوهيو إلى الميسيسبي، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب. ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية، ففي الطبقة السفلية، وعلى مستوى الماء تقريباً، هناك الآلات البخارية والمطابخ، والحظائر الكبيرة حيث كان البحارة يعلقون شباك نومهم، متقاطعة على عدة مستويات. أما الطابق العلوي فكانت مقصـورة القيـادة وقمـرات القبطان وضباطه، وصالة اللهو وصالة الطعام، حيث كان يدعى

المسافرون المرموقون مرة واحدة على الاقل للعشاء ولعب الورق. أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الاولى على جانبي ممر يستخدم كصالة طعام عادية، وهناك في المقدمة صالة جلوس مفتوحة فوق النهر، لها شرفة خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلاً وخلافاً للنماذج القديمة، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين، وانما عجلة واحدة في المؤخرة، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخانقة. لم يتكلف فلورينتينو اريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده إلى متنها، في الساعة السادسة صباحاً من يوم أحد حزيراني، كما يفعل عادة من يسافرون لأول مرة بدافع الغريزة. وقد وعى الحالة التي هو فيها عند الظهيرة فقط، وبينما كانت السفينة تبحر مقابل دسكرة كالامار، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدمية بقعقعة بركانية وزبد وبخار ملتهبين.

لم يكن قد سافر أبداً من قبل. كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب، والروايات المصورة التي كان يشتريها في اجزاء شهرية، وكان يخيطها بنفسه مع اغلفة من الورق المقوى، وكتب أشعار الحب التي يحفظها ويلقيها عن ظهر قلب، والتي توشك ان تتحول إلى رماد لكثرة ما أعاد قراءتها. كان قد خلف الكمان الذي يرتبط إلى حد بعيد بنكبته، لكن أمه أجبرته على حمل صرة السفر التي تضم عُدة نوم شعبية وعملية: وسادة، ودثار، ومبولة من التوتياء، وكلّة مخرمة للحماية من البرغش، كل هذا ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارىء، لم يكن فلورينتينو اريثا يريد حملها، فقد ظن انها لن تفيده بشيء في قمرة مزودة بأسرة مستوية، ولكن كان عليه ان يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى. وفعلاً، فقد صعد في اللحظة الاخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من اوروبا، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً. وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته، وكذلك خادمه الذي يرتدي زيّ الخدم والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلالم. وتمكن القبطان، وهو مارد من كوراساو، من اثارة الشعور الوطني بين الكريوليين لتأمين راحة المسافر الطارىء. وشرح لفلورينتينو اريثا بمزيج من القشتالية والبابيامنتو[1] ان الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوض الجديد لانكلترا المسافر إلى عاصمة الجمهورية، وذكره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة

(١) لهجة محلية شائعة في كوراساو، وهي مزيج من الاسبانية والهولندية. (م)

الاسبانية، وبناء عليه فان أية تضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل ان تشعر عائلة رفيعة المقام وهي في بيتنا بانها أحسن حالاً من بيتها. وطبعاً تخلى فلورينتينو اريثا عن قمرته.

لم يأسف لذلك في البدء، اذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة، وكانت السفينة تبحر دون عوائق في الليلتين الأوليين. كان افراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء، في الخامسة مساء، نوعاً من الاسرة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع، ويجهزه بالخرق التي في صرة سفره ثم ينصب فوقه الكلة المخرمة. أما الذين يملكون أراجيح نوم فكانوا يعلقونها في الصالون، والذين لايملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاولات التي لم تستبدل إلا مرتين خلال الرحلة. كان فلورينتينو اريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً انه يسمع صوت فيرمينا داثا في نسيم النهر البارد، راعياً الوحدة بذكرياته، مستمعاً غناء في لهاث السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخم في الظلمات، إلى ان تظهر اولى البقع الوردية في الافق وينشق النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب. وكانت الرحلة تبدو له حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه، وأحس بحماسة لتجاوز النسيان.

بعد ثلاثة ايام من المياه المواتية، أصبح الابحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة وتعكر الماء الذي يخفي مدى عمق النهر. أصبح النهر عكراً وصار يضيق اكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الاشجار المتشابكة، حيث كان يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب اكوام الحطب المعدة لمراجل السفن. ويبدو ان لغط البيغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قيظ الظهيرة. أما في الليل، فكان لابد من ربط السفينة للنوم، فيصبح مجرد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق. فاضافة للحر والبرغش تأتي روائح شرائح اللحم المملح المنشورة على دربزينات السفينة لتجف. فكان معظم المسافرين، وخاصة الاوربيين منهم، يغادرون نتانة القمرات ويقضون الليل وهم يذرعون سطح المركب، ويهشون جميع انواع الهوام بنفس المناشف التي يمسحون بها العرق المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع.

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحروب الاهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين، فاتخذ القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين. وفي محاولة لمنع وقوع الاخطاء والاستفزازات، حظر ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان، ألا وهي اطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف. وفيما بعد، حين انقسم المسافرون إلى فريقين متعاديين اثناء احدى المناقشات،

قام بمصادرة أسلحة الجميع واعداً بكلمة شرف ان يعيدها عند انتهاء الرحلة. كان صارماً في هذا الامر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملابس الصيد، حاملاً غدارة احتياطية وبندقية صيد بسبطانتين من تلك المستخدمة في صيد النمور. ثم أصبحت القيود اكثر تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء، هي علامة الوباء. ولم يحصل القبطان على أية معلومات حول تلك العلامة المرعبة، لان السفينة الاخرى لم تجب على اشارتهم. لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة اخرى محملة بمواش من جامايكا، واعلمتهم هذه بان سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا، وان الوباء كان يُحدث اضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الابحار فيه، عندئذ مُنع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانىء التالية فحسب، بل وفي الاماكن غير المأهولة حيث كانوا يتوقفون للتزود بالحطب. وهكذا اعتاد المسافرون فيما تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية، والتي استمرت ستة أيام اخرى، على عادات السجون. ومن هذه العادات، المشاهدة الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجنسية الهولندية التي كانت تنتقل من يد إلى اخرى دون ان يعلم أحد علم اليقين من أين أتت، مع أن أي مجرب للسفر في النهر لم يكن ليجهل انها لا تكاد تشكل إلا عينة من مجموعة القبطان الخرافية. ولكن حتى هذه التسلية التي لا امل فيها انتهت إلى مضاعفة السأم.

احتمل فلورينتينو اريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيظ اصدقاءه. لم يخالط أحداً. وكانت الايام بالنسبة له تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرابزين، يراقب التماسيح الجاثمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات، ويتأمل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات، والأطم[1] التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية الضخمة وتفاجىء المسافرين ببكائها النسوي. وفي أحد الأيام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو في الماء، كانت منتفخة وخضراء، وفوق كل منها عدد من طيور الرخمة. مر أولاً جسدا رجلين، احدهما بلا رأس، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت كشعر ميدوزا يتموج متلوياً من اثر مخور السفينة في الماء. لم يعرفوا أبداً، لانه لا سبيل إلى معرفة، ان كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب، لكن الرائحة النتنة لوثت ذكرى فيرمينا داثا في ذاكرته.

هكذا كان دائماً: فأي حدث، خيراً كان أم شراً، يذكره بها. في الليل، حين كانوا

---

(١) الأطم: جمع أطوم وهو حيوان لبون، يأوي إلى الماء، مؤخره يشبه السمك، له يدان وليس له رجلان وطوله نحو ثماني أقدام. يعرف كذلك ببقر الماء.

يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين دون عزاء على السطح، كان هو يراجع عن ظهر قلب تقريباً الروايات المصورة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح. وكانت المآسي التي قرأها مرات ومرات تستعيد سحرها حين يستبدل ابطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية، ويحتفظ لنفسه ولفيرمينا داثا بأدوار الحب المستحيل. وفي ليال اخرى كان يكتب لها رسائل مكروبة، ما تلبث مقاطعها أن تتبدد في المياه الجارية دون توقف نحوها. وهكذا كانت تمر أقسى الساعات عليه متقمصاً شخصية أمير خجول أو فارس عاشق أحياناً، وملتحماً في أحيان اخرى بجلده المكوي كعاشق في رحلة نسيان، إلى ان تهب أولى النسمات فينصرف الى النوم جلوساً على مقاعد الشرفة.

توقف عن القراءة في احدى الليالي أبكر من المعتاد، وكان يتجه ساهياً إلى دورات المياه حين فُتح بابٌ لدى مروره في صالة الطعام المقفرة، وأمسكت يد صقر بكم قميصه وادخلته إلى القمرة. أحس بالكاد بجسد غير محدد السن لامرأة عارية في الظلام، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم. دفعته على ظهره فوق السرير، وفكت ابزيم حزامه، وحلت الازرار وامتطته كفارس، وجردته من عذريته دون أمجاد. سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريدس. وبقيت جاثمة فوقه لهنيهة بعد ذلك وهي تلهث دون هواء، ثم لم يعد لها وجود في الظلام.

قالت له:

ـ انصرف الآن وانس كل شيء. فهذا لم يحدث أبداً.

كان الهجوم مباغتاً وناجحاً لا يمكن تصنيفه كحماقة مفاجئة مبعثها الضجر، وانما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها. وضاعف هذا اليقين الجذاب من تلهف فلورينتينو اريثا، الذي أحس وهو في ذروة اللذة باكتشاف لايمكن تصديقه، بل نه رفض قبوله، وهو ان حب فيرمينا داثا الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية. وهكذا كان أن صمم على كشف هوية مغتصبته الماهرة، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجاً لمحنته. لكنه لم يتوصل اليها. بل على العكس. فكلما تعمق في التحري كلما شعر بانه يبتعد عن الحقيقة.

لقد حدث الهجوم في القمرة الاخيرة، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الاخيرة بباب داخلي، بحيث تصبح القمرتان معاً جناح نوم عائلي فيه أربع اسرة. وهناك كانت تسافر امرأتان شابتان، واخرى متقدمة في السن إلا انها ذات مظهر حسن، ومعهم طفل عمره بضعة شهور. كنّ قد التحقن بالرحلة من برانكودي لويا، وهو الميناء الذي يحملون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس مذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب

أهواء النهر، وكان فلورينتينو اريثا قد دقق بهن لكونهن يحملن الطفل في قفص عصافير ضخم.

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة، ببطانات تحت التنانير الحريرية، وياقات مخرمة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كريتولينا، وكانت الشابتان تستبدلان زينتهما وملابسهما كلها عدة مرات في اليوم، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوهن الربيعي، بينما المسافرون الاخرون يختنقون في الحر. وثلاثتهن كن يساريات في استخدام المظلات ومراوح الريش. لم يستطع فلورينتينو اريثا ان يحدد حتى نوع العلاقة التي تربطهن، رغم كونهن دون شك من أسرة واحدة. لقد فكر أول الأمر بان الكبرى هي أم الاخريين، لكنه أدرك فيما بعد انها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك، ثم انها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها اياه الاخريان. ولم يتصور ان تكون احداهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين، والافتراض الوحيد المعقول هو انها استغلت فرصة عارضة، أو مدبرة، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة. وتحقق من اثنتين منهن تخرجان أحياناً للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل، لكنهن في احدى الليالي القائظة خرجن ثلاثتهن معاً برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف.

ورغم اختلاط كل هذه المؤشرات، فقد تعجل فلورينتينو اريثا الى استبعاد ان تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم، ثم برأ في الحال ساحة الصغرى أيضاً، التي كانت اجملهن وأجرأهن. فعل ذلك دون مبررات مقنعة، ولأن مجرد رصده المتلهف للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في ان العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيس في القفص. ولقد فتنه هذا الافتراض إلى الحد الذي جعله يفكر بها اكثر من تفكيره بفيرمينا داثا، دون ان يهتم بما كان يبدو واضحاً في ان تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب. لم يكن لها من العمر اكثر من خمس وعشرين سنة، وكانت نحيلة ومذهبة، ذات أجفان برتغالية تجعلها اكثر بعداً، وكان لأي رجل ان يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها. فمنذ تناول طعام الفطور وحتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونه في الصالة، فيما زميلتاها الاخريان تلعبان الدمينو الصيني، وحين توفق إلى تنويمه، تعلق القفص من سقفه في اكثر الاماكن برودة على شرفة السفينة. لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد ان ينام، وانما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس، فيما أفكارها تطير مبتعدة عن مصاعب الرحلة. تشبث فلورينتينو اريثا بانها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً ولو من خلال ايماءة بسيطة. وصار يراقب حتى تبدلات تنفسها من خلال ايقاع القلادة الدينية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة، مدققاً فيها

دون تستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته، وارتكب الوقاحة المدروسة باستبداله مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها. لكنه لم يحصل على أدنى مؤشر يدل على انها هي حقاً من تملك النصف الآخر من سره. والشيء الوحيد الذي بقي له منها، عندما نادتها زميلتها الصغرى، هو اسمها: روسالبا.

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة بالغة عبر مضيق عكر محصور بين جرفين من صخور رخامية، وبعد الغداء رست في بويرتو ناريه، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا، وهي احدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة. كان الميناء مؤلفاً من نصف دزينة من أكواخ السعف وحانة خشبية سقفها من التوتياء، تحرسه عدة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح، اذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعدها المتمردون للسطو على السفن. وفيها وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية. لم ينم أحد ممن على ظهر المركب نوماً مطمئناً، لكن الهجوم المنتظر لم يحدث اثناء الليل، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي، حيث الهنود الذين يبيعون تمائم مصنوعة من عاج نباتي واكاسير للحب، ووسائط للقوافل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحلبيات في سلسلة الجبال المركزية.

كان فلورينتينو اريثا قد سها وهو يتأمل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزنوج، رأى انزال صناديق الخزف الصيني، وآلات البيانو التي تباع لعازبات افيغادو، ولم يدرك إلا متأخراً ان جماعة روسالبا هي بين المسافرين الذين سيبقون على البر. لقد رآهن يمتطين البهائم من جانب واحد، منتعلات جزمات امازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية، وعندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرأ عليها في الايام الماضية: حيا روسالبا بيده مودعاً، فردت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة، وبألفة آلمت أحشاءه لجسارته المتأخرة. رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة، تتبعهن البغال المحملة بالصناديق، وعلب القبعات وقفص الطفل، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمال البغلية، واختفين من حياته. حينئذ أحس انه وحيد في الدنيا، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا داثا، التي بقيت كامنة خلال الأيام الاخيرة.

كان يعلم انها ستتزوج يوم السبت القادم، في حفلة زفاف صاخبة، وكونه أحبها، وسيحبها إلى الأبد اكثر من أي كان، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها. والحسد الذي كان يغرقه حتى ذلك الحين بالدموع، أصبح سيد روحه. فأخذ يدعو الله ان ينزل صاعقة العدالة الالهية لتصعق فيرمينا داثا حين تهم بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريدها زوجة

له إلا لتكون حلية اجتماعية. وكان يستغرق في رؤيا العروس، عروسه هو أو عروسة لا أحد، ملقاة فوق بلاط الكتدرائية فيما ازهار البرتقال تهطل كالثلج مبلله بندى الموت، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجنائزي الذي يضم أربعة عشر مطراناً مدفونين مقابل المذبح الكبير. ولكن ما ان ينتهي الانتقام، حتى يندم لأفكاره الشريرة، وعندها يرى فيرمينا داثا وهي تنهض معافاة، لسواه ولكن حية، لانه غير قادر على تصور الدنيا بدونها. لم يعد ينام، واذا كان يلتقط بضع لقيمات أحياناً فانما يفعل ذلك لتوهمه بان فيرمينا داثا قد تكون معه على المائدة، أو كي لا يمنحها شرف الصوم من أجلها. وكان يعزي نفسه في بعض الأحيان بالاقتناع انه لابد لفيرمينا داثا في نشوة حفلة الزفاف، أو في ليالي شهر العسل المحمومة، من ان تعاني ولو للحظة، لحظة واحدة على الأقل، لحظة على أي حال، حين ترفع إلى وعيها شبح الخطيب المخدوع، المهان، المبصوق، فتنهار سعادتها.

عشية الوصول إلى ميناء كاراكولي، وهو المحطة النهائية للرحلة، أقام القبطان حفل الوداع التقليدي، بمشاركة اوركسترا آلات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة، وباطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة. كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز الاوديسه بصبر نموذجي، متصيداً بألة التصوير الحيوانات التي لم يتيحوا له قتلها ببندقية الصيد، ولم تكن تمر ليلة دون ان يظهر في صالة الطعام بملابس الايتكيت. لكنه خرج إلى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي، وعزف القرب بمرح، وعلّم كل من رغب رقصاته الوطنية، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولاً إلى قمرته. أما فلورينتينو اريثا الذي أضناه الألم، فقد اتخذ ركناً منعزلاً على سطح السفينة حيث لا تصله أخبار الحفلة، وغطى نفسه بمعطف لوتاريو توغوت محاولاً مقاومة قشعريرة عظامه. كان قد استيقظ في الخامسة صباحاً، كما يستيقظ المحكوم بالاعدام صباح يوم تنفيذ الحكم. ولم يكن قد فعل شيئاً طوال يوم السبت سوى تخيل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا داثا لحظة بلحظة. وفيما بعد، عند عودته إلى البيت، ادرك انه كان قد أخطأ في التوقيت وان كل شيء حدث بطريقة مختلفة عما تصوره، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من اوهامه.

لكنه كان على أي حال يوم سبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى، عندما هُيء له بانها اللحظة التي يحاول فيها العريسان الهرب خفية من حفلة الزفاف ليستسلما إلى لذائذ الليلة الأولى. وقد رآه احدهم وهو يرتعش من الحمى وأنذر القبطان بذلك، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية ان تكون اصابة بالكوليرا، وبعثه الطبيب احتياطاً إلى قمرة الحجر الصحي بعد اعطائه جرعة لا بأس بها من البرومور. وعندما بانت لهم انوار كاراكولي

في اليــوم التــالي، كانت الحمى قد تراجعت وكــان يتمتــع بمعنــويــات عاليــة، لانــه في خمود المسكنــات قرر فجأة ودون أيـة اجـراءات اخـرى بانه سيبعث بمستقبل التلغراف الباهر إلى الجحيم وسيرجع على السفينة نفسها إلى شارعه القديم، شارع لاس فينتاناس.

ولم يجد صعـوبـة في حملهم على اعــادتـه معهم مقــابل القمرة التي تنازل عنها لممثل الملكة فكتــوريـا. رغم ان القبطــان حاول ثنيـه عن عزمه أيضاً بحجج مفادها ان التلغراف هو علم المستقبــل. وقــال له ان الامـر كذلـك لدرجـة انهم يعملون لاختـراع جهاز خاص لتركيبه في السفن. لكنـه فنـد كل حجـة، وانتهى القبطــان إلى القبـول باعــادتـه معـه، ليس كرد دين القمرة، وانما لانه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية.

تمت رحلة النزول في أقل من ستة أيام، أحسن فلورينتينو اريثا بعدها انه في بيته ثانية منذ دخولهم فجراً في بحيرة لاس ميرثيديس، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع تيار السفينة. كان الوقت ما يزال ليلاً عندما رسوا في خليج نينيو برديدو، وهو آخر مرفأ للسفن البخــاريــة النهـريـة، على بعد تسع فراسخ من البحر، قبل ان يجرفوا قاع النهر ويعيدوا وضع الممـر الاسبــاني القـديم موضـع الاستخـدام. وكـان على المســافـرين الانتظار حتى الساعة الســادســة صبــاحــاً ليركبـوا مجمـوعـة من زوارق الاجـرة الصغيرة التي تحملهم إلى هدفهم النهائي. لكن فلورينتينو اريثا كان متشوقاً مما دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد، الذي تعرف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم. وقبل ان يغادر السفينة سمح لنفسه بالانقياد وراء اغراء حركة رمزية: ألقى بصرة السفر إلى الماء، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية، إلى ان خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط. كان متأكداً انه لن يحتاجها بقية حياته مطلقاً، لانه لن يغادر مدنية فيرمينا داثا إلى الأبد.

كان الخليـج حوض ماء راكـد عنـد الفجر. وفوق الضباب الطافي رأى فلورينتينو اريثا قبة الكتدرائية المذهبة بفعل الانوار الأولى، ورأى بيوت الحمام على السطوح، ومستدلاً بها حدد موقـع شرفـة قصـر المركيز دي كاسالدويرو، حيث افترض ان امرأة محنته ما زالت تنام مستندة على ذراع الزوج المشبع. وقد مزق هذا الافتراض قلبه، لكنه لم يفعل شيئاً لقهره، بل على العكس تمامـاً: كان يستمتـع بالألم. وحـين بدأت الشمس تبعث دفئهــا، كان مركب البريد يشـق طريقه وسط متاهة الزوارق الشراعية الراسية، حيث روائح السوق العام التي لا حصر لها، تختلط بعفـونـة الاعـماق لتخـرج بمـزيـج واحـد من النتــانة. كانت السفينة القادمة من ريـوهــاتشــا قد وصلت لتـوهــا، وجماعة الحمالين الغاطسـين في الماء حتى خصورهم يلتقطون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم إلى الشاطىء. وكان فلورينتينو اريثا هو أول من قفز من مركب الـبريـد إلى اليــابســة، ولم يعـد يشعر عندها بنتانة الخليج وانما برائحة فيرمينا داثا

الشخصية تفوح في جو المدينة. كل شيء كان يعبق برائحتها.

لم يعد إلى مكتب التلغراف. وبدا ان همه الوحيد هو كتيبات الحب واجزاء المكتبة الشعبية التي ما زالت أمه تشتريها له، والتي كان يقرأها ويعيد قراءتها وهو منبطح في ارجوحة النوم الى ان يحفظها في ذاكرته. ولم يسأل عن الكيمان مجرد سؤ ال. واعاد اتصالاته مع اصدقائه المقربين، وكان يلعب معهم البيليارد أحياناً ويتبادل واياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكتدرائية، لكنه لم يعد للذهاب إلى حفلات الرقص أيام السبت: لم يكن قادراً على تصور حفلات الرقص بدونها.

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل، علم ان فيرمينا داثا ذهبت لقضاء شهر العسل في اوروبا، فرأى قلبه المنفطر بانها ستبقى لتعيش هناك، ان لم يكن إلى الأبد، فلسنوات طويلة. ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى بالنسيان. أخذ يفكر بروسالبا التي اصبحت ذكراها تتقد اكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الاخرى. وفي هذه الفترة كان ان ترك شاربه ذا الطرفين المدببين والمثبتين، والذي لن يحلقه فيما تبقى من حياته، وتغيرت طريقته في الحياة، وادخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة، أخذت رائحة فيرمينا داثا تصبح أقل حضوراً وزخماً إلى ان بقيت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط.

كان يمضي مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته، حين لجأت ارملة ناثاريت إلى بيتهم في احدى ليالي الحرب، لان قذيفة مدفع أصابت بيتها، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان اوبيسو. وكانت ترانسيتو اريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة، فبعثت الارملة لتنام في حجرة الابن، بحجة انه لايوجد مجال في حجرتها، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بان يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش. لم يعد فلورينتينو اريثا لممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبا في قمرة السفينة، وبدا له طبيعياً، في ليلة طوارىء، ان تنام أرملة ناثاريت في السرير وينام هو في ارجوحة النوم. أما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه. وفيما هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلورينتينو اريثا مستلقياً دون ان يعرف ما عليه عمله، بدأت تحدثه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفى منذ ثلاث سنوات، واثناء ذلك كانت تنضو عن جسدها وترمي في الهواء ملابس الحداد، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج. خلعت بلوزة التفتا المزينة بتطريز مطعم بالخرز، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي في الركن، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير، وخلعت بسحبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة الداخلية ذات الكشكش، ومشد الساتان ذا الرباط، وجرابات الحداد الحريرية، ونثرت كل ذلك على الأرض، فأضحت الغرفة وكأنها مفروشة بآخر بقايا الحداد. فعلت ذلك بابتهاج، وبوقفات محسوبة باتقان، حتى بدت قذائف مدفعية

القوات المحاصرة، التي كانت تهز ركائز المدنية، وكانها احتفاء بكل حركة من حركاتها. حاول فلورينتينو اريثا مساعدتها على حَل مشبك المشد، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة، لانها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي ان تكتفي بنفسها في جميع اجراءات الحب، بما ذلك ديباجاته، دون مساعدة أحد. واخيراً نزعت سروالها الداخلي المخرم، جاعلة أياه ينزلق من ساقيها بحركة سريعة كحركات السباحة، وبقيت في عريها المتقد.

كان عمرها ثمان وعشرين سنة وقد انجبت ثلاث مرات، لكن عريها ما زال يحتفظ بدوار العزباء. ولم يستطع فلورينتينو اريثا ان يتصور أبداً كيف امكن لملابس التوبة ان تواري اندفاع تلك المهرة الجامحة التي عرته وهي مختنقة بحماها، وهوما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يظن بها الظنون، وحاولت ان تروي ظمأ صوم حدادها الصارم دفعة واحدة، ببلاهة وبراءة خمس سنوات من الولاء الزوجي. فقبل هذه الليلة، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها، لم تنم ولو بمجرد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفى.

لم تتح لتأنيب الضمير بان ينغص عليها. ففيما كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت، استمرت تلهج حتى الصباح بفضائل زوجها، دون ان تلومه على أية خيانة سوى موته من دونها، وخلصت إلى اليقين بانه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ، في صندوق خشبي مسمر باثني عشر مسماراً طول كل منها ثلاث بوصات، وتحت ثلاثة امتار من التراب. قالت:

ـ انني سعيدة. فقد علمت الآن علم اليقين أين كان يمضي عند خروجه من البيت.

لقد نزعت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة، دون المرور بمرحله الاسترخاء في البلوزات ذات الازهار الرمادية، وامتلأت حياتها باغنيات الحب والملابس المثيرة المزينة برسوم ببغاوات وفراشات ملونة، وبدأت توزع جسدها على كل من يشاء طلبه. وبعد هزيمة قوات الجنرال غايتان اوبيسو، اثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق حائل للامواج حيث يصطدم غضب الأمواج في الايام العاصفة. وكان هذا هوعش حبها، كما كانت تدعوه دون تهكم، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال، حين تشاء وكيفما تشاء، دون ان تتقاضى قرشاً واحداً من أي منهم، لانها كانت ترى ان الرجال هم الذين يسدون لها المعروف. وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا، شريطة ألا تكون من الذهب. وكانت تدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد معها اثبات حقيقة سلوكها الشائن بادلة قاطعة. وفي مرة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية، عندما راجت شائعة تقول ان الاسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام، وانما أكله وهو عارف، لانها هددته بذبح نفسها ان هو أصر على محاصرتها بنواياه

الدنسة. لم يسألها أحد ان كان ذلك صحيحاً، ولم تتحدث هي عنه، ولم يبدل أي شيء من حياتها. وكانت تقول منفجرة بالضحك بانها المرأة الوحيدة الحرة في المقاطعة.

لم تتخلف أرملة ناثاريت يوماً عن مواعيد فلورينتينو اريثا العرضية، ولا حتى في اكثر أوقاتها انشغالاً، وكانت تقابله دائماً دون الادعاء بانها تحبه ودون مطالبته بان يحبها، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب، انما دون مشاكل الحب. وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على البحر للابتلال بزبد ملح البارود، وتأمل شروق الدنيا كلها في الافق. وقد وضع كل جهده لتعليمها اساليب التهيج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقوب فندق العابرين، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريو توغوت في ليالي مرحهما. حدثها للموافقة على ان يريا بعضهما اثناء ممارستهما الحب، وعلى استبدال وضعية المبشر المعروفة بوضعية الدراجة البحرية، أو الفروج المشوي، أو الملاك المعلق، وكادا ان يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق ارجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الارجوحة. ولكنها كانت دروساً عقيمة. فالحقيقة انها كانت طالبة جسورة، لكنها تفتقر إلى ادنى موهبة في الزنى الموجه. لم تفهم أبداً مفاتن الصفاء في السرير. ولم تكن لها لحظة الهام، بل كانت تهيجاتها الجنسية جلدية خارجية تأتي في غير اوانها: ياله من جماع كئيب. وقد عاش فلورينتينو اريثا زمناً طويلاً وهو مخدوع بانه الوحيد، وكانت تشارك في بثه هذا الاعتقاد، إلى ان جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة. وشيئاً فشيئاً، أخذ يستجمع وهو يسمعها اثناء نومها، اجزاء تصريح ابحار أحلامها، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة. وهكذا علم انها لا تسعى إلى الزواج منه، ولكنها تشعر بانها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لانه هو الذي افسدها. وقد قالت ذلك كثيراً:

- انني اعبدك لانك جعلتني قحبة.

ولم تكن تنقصها المبررات لذلك. فقد جردها فلورينتينو اريثا من عذرية زواج عادي، هي أشد وبالاً من العذرية الخَلْقيّة ومن زهد الترمل. وعلمها انه لا شيء مما يمارس في السرير هو لا أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب. وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مبرر وجودها: اقنعها ان الانسان يأتي الى الحياة بعدد محدد من الضروب، وان تلك التي لا تستنفد، لسبب ذاتي أو خارجي، ارادي أو جبري، تضيع إلى الأبد. وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره. ومع ذلك، فان فلورينتينو اريثا، الذي يظن بانه يعرفها اكثر من أي كان، لم يستطع ان يفهم كيف تكون مرغوبة إلى هذا الحد، امرأة ذات أساليب

شديدة الصبيانية، اضافة إلى انها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميت. والتفسير الوحيد الذي خطر له، ولم يستطع أحد نقضه، هو ان أرملة ناثاريت كانت تعوض برقتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية. أصبحا يلتقيان أقل فيما هي توسع من نطاق ممتلكاتها، ويتفحص هو ممتلكاته عساه يجد مهدئاً لآلامه القديمة في قلوب مبددة اخرى، ثم نسيا بعضهما في نهاية الأمر دون آلام.

كان ذلك هو أول حب سريري لفلورينتينو اريثا. ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً، كما كانت تحلم أمه، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة. فقد طور فلورينتينو اريثا أساليب بدت بعيدة عن التصديق، بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله، متسربل بملابس كملابس شبح من زمن آخر. ومع ذلك، كانت هناك نقطتان لصالحه. احداهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنتظره، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس، ولكنه حتى في هذه الحالة كان يغازلها بتحفظ، لانه كان يشعر انه لا شيء يسبب العار والذل اكثر من الصد. والنقطة الثانية هي انهن كنّ يميزنه فوراً كمتوحد بحاجة إلى الحب، وكمعوز من الشارع بذلٍ كلب مضروب يقدم خدماته دون شروط، وبلا أية مطالب، ودون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الضمير في اسداء المعروف اليه. وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان، وبهما خاض معارك تاريخية، لكن في سرية مطلقة، وسجلها بصرامة مدون عقود في دفتر مُشفّر، من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينم عن كل شيء: هن. وأول سجل في دفتره كان سجل الأرملة ناثاريت. وبعد خمسين سنة من ذلك، وعندما تحررت فيرمينا داثا من حكمها القدسي، كان لديه خمسة وعشرون دفتراً تضم ستمائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة، عدا المغامرات العابرة التي لا تحصى والتي لا تستحق ولو مجرد ملاحظة احسان صغيرة.

وبعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثاريث، اقنع فلورينتينو اريثا نفسه بانه قد اجتاز عذاب فيرمينا داثا. ولم يعتقد بذلك فحسب بل انه طرحه عدة مرات مع ترانسيتو اريثا خلال السنتين اللتين دامتهما رحلة الزواج، وتابع الايمان به بشعور من التحرر اللامحدود، إلى ان رآها فجأة ودون ايحاء سابق من قلبه، في يوم أحد من أيام نجمه المنحوس، وهي خارجة من القداس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الجديد. فالسيدات النبيلات اللواتي كن يحتقرنها أول الأمر ويسخرن من كونها دخيلة بلا لقب، رحن يتهافتن لتشعر بانها واحدة منهن، فيما تسكرهن هي بسحرها. لقد تسنمتْ وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلورينتينو اريثا يحتاج للحظة من التفكير للتعرف اليها. كانت امرأة اخرى: رصانة الشخصية الكبيرةُ، الحذاء العالي، القبعة الرقيقة المزينة

بريشة طائر شرقي ملونة كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطاً، كما لو كان فيها منذ نشأتها. وجدها اكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى، ولكنها أبعد من أن تكون له اكثر من أي وقت مضى، ولم يدرك سبب ذلك إلى ان رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض: لقد كانت حاملاً في شهرها السادس، لكن اكثر ما أثر فيه هو أنها تشكل معْ زوجها ثنائياً محترماً، وانهما يتصرفان بالدنيا بسيولة تجعلهما يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صخور الواقع. لم يشعر فلورينتينو اريثا بالحسد ولا الغضب، وانما باحتقار شديد لنفسه. أحس بانه بائس، وقبيح، ووضيع، وانه ليس غير جدير بها فقط، بل وبأية امرأة اخرى فوق وجه الارض.

لقد عادت اذن. عادت دون اي سبب لتندم على الانقلاب الذي احدثته في حياته. ولكن على العكس: كان جزءه يتناقص، خصوصاً بعد ان اجتاز السنوات الأولى. أما بالنسبة لها فالأمر اكثر من ذلك، هي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة في مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا. ففي فاييدوبات فهمت اخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات، وشاهدت طقوس الحمير البهيمية، ورأت ولادة العجول، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة ما زالوا يمارسون الحب، وعن سبب وكيف توقف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً. وكان حينئذ ان بدأت ممارسة الحب منفردة، يراودها احساس غريب بانها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل، فعلت ذلك في السرير أولاً، وهي تكتم انفاسها كي لا تفضح نفسها في حجرة النوم التي تتقاسمها مع نصف دزينة من بنات الخؤولة، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على ارضية الحمام دون هم، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرها الأولى. لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع بعض شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلا بعد زواجها، وكان تفعله بسرية مطلقة، بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب، بل وبشكل وحجم اعضاءهن أيضاً. ومع ذلك، ورغم سحر تلك الطقوس الأولية. فقد استمرت على اعتقادها بان فقدان العذرية هو تضحية دموية.

حتى ان حفلة زفافها، وهي واحدة من أضخم حفلات اواخر القرن الماضي، جرت بالنسبة لها على أعتاب الرعب. وقد اثر فيها كرب شهر العسل اكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لاثاني له في تلك السنوات. فمنذ الاعلان عن الزفاف في القداس الكبير في الكتدرائية، عادت فيرمينا دائما تتلقى رسائل مغفلة التوقيع، بعضها يتوعدها بالموت، لكنها لم تكن لتشعر بها، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيكة. لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة ـ رغم انها لم تفعل ذلك عن وعي ـ في معاملة الرسائل المغفلة من أبناء طبقة عودتها سخرية التاريخ على احناء رأسها

أمـام الـوقائع الناجزة. وهكذا بدأ تحول جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الـزفـاف أمـراً لا رجعة فيه. وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتوددات، اللواتي انزلهن التهاب المفاصل والحقد من مقامهن، واللواتي اقتنعت يوماً بعدم جدوى مكائدهن، فظهرن دون سابق انذار في حديقة البشارة، وكأنهن في بيتهن، محملات بوصفات للمطبخ وبهدايا العرافة. كانت ترانسيتو اريثا تعرف ذلك العالم، رغم انها عانت منه بنفسهـا هذه المـرة فقـط، وكـانـت تعلم ان زبـونـاتهـا سيأتينها في الايام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها اخراج جرارها المدفونة واعارتهن مجوهراتهن المرهونة، لمدة أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع نائدة اضافية. ولم يحدث، منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرة، اذ فرغت الجـرار كيـما تخرج السيـدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن مشعات، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة، في حفلة زفاف لن يتاح لهن رؤية حفلة بعظمتها في ما تبقى من القـرن، والتي كان مجدهـا الأخـير هو ان عرابهـا كان الـدكتـور رافـائيـل نونيث، رئيس الجمهـوريـة لثـلاث مرات، الفيلسـوف والشـاعر وواضع كلمات النشيد الوطني، كما جاء في بعض المعـاجم الحـديثـة حينئـذ. وصلت فيرمينا داثا إلى المذبح الكبير في الكتدرائية ممسكة بذراع ابيهـا، الـذي منحتـه بدلة الاتيكيت مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد. وتزوجت إلى الأبـد مقـابل مذبح الكتدرائية الكبير في صلاة تكليل شارك فيها ثلاثة اساقفة في الساعة الحـاديـة عشـرة من صبـاح يوم جمعة ترنيبداد المقدسة المجيد، ودون أي خاطر من شفقة نحو فلورينتينـو اريثـا، الـذي كان يعـاني حينهـا الحمى، ويميت نفسه من أجلها، في مركب لن يحمله إلى النسيـان. وقـد احتفظت اثنـاء المراسم الدينية، ثم اثناء الحفلة فيما بعد، بابتسامة بدت وكأنهـا مثبتـة بالاسبيـداج، لمحة بلا روح فسرها بعضهم بانها ابتسامة الفوز السـاحرة، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمدارة خوفها كعذراء تزوجت لتوها.

ولحسن الحـظ ان بعض المصـادفـات، اضـافـة إلى تفهم الـزوج، حلت مسألـة لياليها الثلاث الأولى دون ألم. لقد كان امراً صادراً عن العناية الألهية، ان سفينة الكومباني جنرال ترانساتلانتيك ببرنامج رحلاتها المتقلب رضوخاً لطقس الكاريبي السيء، أعلنت قبل ثلاث أيـام من الـرحلة عن تقـديم موعـد الانطـلاق اربعـاً وعشـرين ساعة، اي انها لن تبحر الى روشيـل في اليـوم التـالي للزفـاف، وانما في ليلة الزفاف نفسها. لم يصدق أحد أن ذلك التغيير ليس مفاجأة اخرى من مفاجآت هذا العرس السارة، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف الليلة على سطـح عابـرة المحيطـات المضاءة، بمرافقة فرقة اوركسترا من فيينا كانت تدشن في تلك الرحلة أحدث فالسات جوهان ستراوس. وهكذا جرى حمل العرابين المبليين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات، حين بدأوا يسألون النُدُل ان كانت هناك قمرات

غير محجـوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس. وقـد رأى آخـر الذين نزلوا لورينثو داثا يجلس على الأرض في عرض الطـريق مقـابـل الخمارات بيدلة الاتيكيت المتسخة، وهويتتحب بصرخات مولولة، كما يبكي العرب موتاهم، مستريحاً فوق بركة ماء آسن ربما هي بركة دموع.

لا في الليلة الأولى ذات البحر المائج، ولا في الليلة التالية ذات الابحار الهادىء، ولا في اية ليلة اخرى من ليالي حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينـا داثـا تخافهـا. فالليلة الأولى، ورغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات، كانت اعادة رهيبة للرحلة في سفينة ريوهاتشا، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة وأمضى الليل في مواسـاتهـا، وهـو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر. ولكن العـاصفـة هدأت في اليـوم الثـالـث، بعد الخروج من ميناء غوايرا، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيـا معـاً وقتـاً طويـلاً وتحدثا كثيراً حتى أصبحا يشعران بانهما صديقان قديمان. وفي الليلة الرابعة، عندما استعاد كل منهما عاداته المألوفة، فوجىء الدكتور اوربينو بان زوجته الشابة لا تصلي قبل النوم. وكانت صريحة معه: ان نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عداء للصلوات، لكن ايـمانهـا كان راسخـاً، وقـد تعلمت الحفـاظ عليه بصمت. قالت: «أفضل التفاهم مع الـرب مبـاشـرة». وتفهم هو مبرراتهـا، ومنـذ ذلـك الحـين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقتـه. لقـد كانت فترة خطـوبتهـما قصـيرة، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً، فالـدكتـور اوربينـو كان يزورهـا في بيتها، دون رقابة، مساء كل يوم. ما كانت لتسمح له بان يمس طرفاً من أطراف أصابعها قبل المباركة الاسقفية، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً. وفي الليلة الأولى من هدوء البحـر، وفيـما هما بمـلابسهما في السرير، بدأ أولى مداعباته، وقد فعل ذلك بحـذر شديـد، حتى بدا لها انـه من الطبيعي ان ترتـدي قميص نومهـا. مضت لاستبـدال ملابسهـا في الحـمام، ولكنهـا أطفأت انـوار القمـرة قبل ذلك، وعندما خرجت بقميص نومها دست خرقاً في شقوق الباب، لتعود إلى السرير في ظلام دامس. وفيما هي تفعل ذلك، قالت بمزاج رائق:

ـ ماذا تريد يادكتور. انها المرة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب.

أحس بها الدكتور اوربينو وهي تنزلق إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب، محاولة البقاء بعيـداً عنـه قدر المستطـاع في سريـر بحـري حيث من الصعب وجـود اثنين معاً دون ان يمسا بعضهـما. امسـاك يدهـا، البـاردة والمتشنجـة من الـرعب، وشبك الأصابع، ويبدأ يروي لها بصـوت هامس ذكـريـاته عن رحلات اخرى في البحر. كانت متوترة من جديد، لانها عندما رجعت إلى السـريـر انتبهت إلى انـه قد تعرى تماماً اثناء وجودها في الحمام، وهذا أحيا خوفها

من الخطـوة التـاليــة . لكن الخطـوة التـاليـة تأخـرت عدة ساعات ، فقد تابع الدكتور اوربينو الحـديث بتمهـل شـديـد ، فيـما هو آخـذ بنيـل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر . حدثها عن باريس ، عن الحب في باريس ، عن عشاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع ، وفي الامنيـوس ، وعلى مقـاهي الارصفـة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى اوكورديونات الصيف الخافتة ، ويمارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين دون أن يزعجهم أحد . وفيما هو يتحدث في العتمة ، داعبَ انحناءة عنقها برؤوس أصابعه ، وداعب زغب ذراعيها الحريري ، وبطنهـا المـراوغ ، وعنـدما أحس أن التوتر قد تراجع قام بمحاولته الأولى لرفع قميص نومها ، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها . وقالت : «أستطيع عمل ذلك وحدي» . نزعته عنها فعلاً ، ثم بقيت ساكنة ، بحيث كان بامكان الدكتور اوربينو ان يعتقد بانها ليست هناك ، لولا بريق جسدها في الظلام .

عاد بعد هنيهة للامساك بيدها ، فأحسها حينئذ دافئة ومتحررة ، لكنها ما تزال رطبة بندى طازج . بقيـا لحظـة اخـرى صامتين وساكنين ، هو يتحين الفرصة للخطوة التالية ، وهي تنتظر تلك الخطوة دون أن تدري من أين ستأتيها ، فيما الظلام يتسع مع ازدياد حدة تنفسها . أفلتها فجأة وقام بالقفزة في الفراغ : بلل طرف اصبعه الوسطى بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدها الغافل ، فأحست بشحنة موت ، كما لو مس فيها عصباً حياً . وفرحت لكونها في الظلام حتى لا يرى تورد وجنتيها الخارق الذي هزها حتى أعماق جمجمتها . وقال لها بهدوء : «اهدئي . ولا تنسي انني أعرفها . » أحس بها تبتسم ، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة :

ـ أذكر ذلك جيداً ، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ .

عرف حينئـذ بانهـما قد اجتـازا رأس الـرجاء الصالح ، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة ، وغمـرهـا بقبـلات يتيمـة ، بدأ بمشـط اليـد الغليـظ ، فالاصابع الطويلة المتبصرة ، والاظافر الشفـافـة ، ثم خطـوط حظهـا المتشابكة في الكف المتعرق . ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره ، واصطدمت بشيء لم تستطع تحديده . فقال لها : «إنها تعويذة» . داعبت شعر صدره ، ثم أمسكت اجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتنتزعها من جذورها . «بقوة اكبر» ، قال لها . حاولت ، إلى الحد الذي عرفت انها لا تؤذيه ، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده التائهة في الظـلام . لكنـه لم يمكنهـا من شبك أصابعها بأصابعه وإنما أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسـده بقـوة لا مرئيـة ولكنهـا متقنـة التوجيه ، الى ان أحسنت بلفحة ملتهبة من حيوان متقد ، بلا شكل مادي محدد ، لكنه متلهف ومنتصب ، وعلى العكس مما تصوره ، بل وعلى العكس مما كانت هي نفسهـا ستتصـوره ، لم تسحب يدهـا ، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها ، وإنما سلمت نفسـها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة ، وضغطت اسنانها خشية ان تضحك من

جنونها، وبدأت تتعرف باللمس على عدوها المشبوب، متعرفة على حجمه، وقوة رأسه، وامتداد اجنحته، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته، وممسكة به بفضول متقص بشكل لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن انها مداعبات. استعان بآخر قواه لمقاومة دوار هذه المبارزة القاتلة، إلى ان أفلتته بظرافة طفولية، وكأنها تلقي به إلى الزبالة، وقالت:

ـ لم أفهم أبداً كيف هو هذا الجهاز.

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كاستاذ، فيما هو يقود يدها على المواضع التي يذكرها، وهي تنقاد له بطاعة تلميذة مثالية. ولمح في لحظة مواتية إلى ان كل ذلك سيكون أسهل لو ان الضوء منار، ولكنها أوقفت ذراعه قائلة: «بيدي أرى أفضل». الحقيقة انها كانت تريد اشعال النور، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها دون أن يأمرها أحد، وهذا ما فعلته. عندئذ رآها في وضع جنيني، مغطاة بالشرشف، تحت الضوء المفاجىء. لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول دون تكلف، وتقلبه ظهراً وباطناً، وتتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي، وقالت مستنتجة: «يا لقباحته، انه أقبح منظراً مما للنساء». كان متفقاً معها في الرأي، وأشار إلى نقائص اخرى اكثر اهمية من القبح. قال: «انه كمثل الابن الاكبر، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله مضحياً بكل شيء في سبيله، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلو له». تابعت تفحصه، والسؤال عما يفيد هذا، وما فائدة ذاك، وعندما رأت انها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين، لتتأكد من ان وزنه كذلك لا يستحق الذكر، ثم افلتته باعوجاجة ازدراء، وقالت:

ـ وأرى كذلك ان فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها.

توقف حائراً. فالفكرة الاساسية في موضوع تخرجه هي هذه:

استحسان تبسيط الجهاز البشري. اذ كان جسم الانسان يبدو له طرازاً قديماً، ذا وظائف كثيرة مكرورة أو لا فائدة منها، كانت لازمة في عصور اخرى للجنس البشري، ولكن ليس لعصرنا. أجل: يمكن ان يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً. واختتم قائلاً: «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع، ولكن لا بأس من اقراره بشكل نظري». ضحكت سعيدة، بطريقة طبيعية جداً، فانتهز الفرصة لاحتضانها وقبلها القبلة الأولى من فمها. فردت عليه بقبلة مماثلة، وتابع قبلاته الخفيفة على الوجنتين، والأنف، والجفون، فيما يده تنزلق تحت الشرشف، وداعب عانتها المستديرة والسبطة: كعانة يابانية. لم تُبعد يده، لكنها احتفظت بيدها في حالة تأهب خوفاً من تقدمه خطوة اخرى.

قالت:

ـ لن نستمر في درس الطب.

فقال :

ـ لا . الدرس الآن سيكون في الحب .

عندئذ نزع الشرشف من فوقها، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض، بل قذفت الشرشف عن السرير بضربة من قدميها، لانها لم تعد تحتمل الحر. كان جسدها ملتوياً ومرناً، واكثر جدية مما يبدو عليه وهي بملابسها، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا. وفيما هي عزلاء تحت الضوء، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها، ولم يخطر لها لاخفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها، وتقبيله بعمق وقوة إلى ان استنفدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه.

كان واعياً انه لا يحبها. لقد تزوج منها لاعجابه بشموخها وجديتها وقوتها، وكذلك لشيء من كبريائه، لكنه وفيما هي تقبله للمرة الأولى تأكد من انه لن يجد أي عائق لاختراع حب جيد. لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر، ولن يتحدثا في ذلك أبداً. ولكن أيا منهما لم يخطىء على المدى البعيد.

عند الفجر، حين ناما، كانت ما تزال عذراء، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً. وفعلاً، فبعد ان علمها، في الليلة التالية، رقص فالسات فيينا تحت سماء الكاريبي النجمية، كان عليه ان يذهب إلى الحمام بعدها، وعندما رجع الى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير. وكانت هي حينئذ من اتخذ المبادرة، فاستسلمت له دون خوف، ودون ألم، وبسعادة الاقدام على مغامرة في عرض البحر، دون ان يخلف الطقس الدامي اثراً سوى وردة الشرف على شرشف السرير. كلاهما فعل ذلك جيداً، بشكل أشبه بمعجزة، وتابعا عمله جيداً ليلاً ونهاراً وفي كل مرة بشكل أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة، وعندما وصلا إلى لا روشيل كانا متفاهمين كعاشقين قديمين.

بقيا ستة عشر شهراً في اوربا، متخذين من باريس قاعدة لهما، ومنطلقين في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة. وقد مارسا الحب يومياً خلال هذه الفترة، ومارساه اكثر من مرة خلال أيام الآحاد الشتوية، حيث كانا يتداعبان في الفراش حتى ساعة الغداء. كان رجلاً مندفعاً اضافة إلى انه حسن التدريب، ولم تكن مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها، وهكذا كان عليهما ان يقبلا باقتسام السلطة في السرير. وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم، أدرك هو ان أحدهما مصاب بالعقم، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى سالبيتريير، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم. كانت فحوصات مضنية ولكن دون جدوى. ومع ذلك، وعندما تخليا عن التفكير بالامر، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية. وحين رجعا إلى الوطن في نهاية السنة التالية، كانت فيرمينا حبلى في الشهر السادس، وترى

انها أسعد امرأه على وجه الأرض. والابن الذي رغبا فيه كلاهما، والذي ولد تحت برج الدلو، عُمّد على شرف جده الميت بالكوليرا.

كان من المستحيل معرفة ان كانت أوربا أم الحب هوما غيرهما، لان الامرين حدثا في وقت واحد. كلاهما كان قد تغير، وبعمق، ليس في علاقتهما ببعضهما فقط، وانما كذلك مع الجميع، وهذا ما ادركه فلوريتينو اريثا حين رآهما خارجين من القداس بعد اسبوعين من عودتهما، في يوم أحد نكبته ذاك. عادا بمفهوم جديد للحياة، محملين بمستجدات الدنيا: هو بمستجدات الأدب والموسيقى، ومستجدات علمه قبل كل شيء، كما عاد باشتراك في لوفيغارو، كي لا يفقد خيط الواقع، واشتراك آخر في ريفيو دي دو موندس كي لا يفقد خيط الشعر. كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتزويده بجديد الكتّاب الأوسع انتشاراً، كاناتول فرانس وبيير لوتي، ومؤلفات مفضليه، كريمي دي غورمونت وبول بورجيه، أما أميل زولا فلا، فهويرى انه لا يطاق، رغم اقتحامه الجريء لمحاكمة دريفوس. وقد وعد المكتبي نفسه بان يرسل له بالبريد كل جديد ومغر في كاتالوج ريكورد، وخصوصاً من موسيقى الكاميرا، ليحتفظ باللقب الذي اكتسبه ابوه عن جدارة كأول داعية لموسيقى الكونشيرتو في المدينة.

أما فيرمينا داثا، المعارضة دائماً لصرامة الموضة، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول، اذ ان الماركات الشهيرة لم تقنعها. كانت قد ذهبت إلى توليرياس، في عز الشتاء، لحضور استعراض مجموعة ازياء وورث، طاغية الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشاء، والشيء الوحيد الذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحها في الفراش خمسة أيام. وبدا لها ليفيرير أقل غطرسة وطمعاً، لكنها اتخذت قرارها الحكيم بالحصول على مايعجبها من محلات التصفيات، رغم ان زوجها كان يقسم لها أغلظ الايمان بانها ملابس موتى. وهكذا أحضرت كميات من الاحذية الايطالية التي بلا ماركة، فضلتها على موديلات فيري الذائعة الصيت والشاذة، وجلبت مظلة من دوبوي، حمراء كنيران جهنم، كانت موضوعاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعنا المرتعدون. واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريبو، لكنها ملأت صندوقاً كاملاً بعناقيد الكرز الاصطناعي، وفروع مختلف انواع الزهور التي وجدتها، وكميات من ريش النعام، وريش الطواويس، وذيول ديكة أسيوية، وطيور تَدْرُج، وأفاع وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المحنطة ذات الاجنحة المفتوحة، أو الافواه الصارخة، أو العيون المحتضرة: كل هذه الاشياء جعلت القبعات نفسها تبدو وكأنها قبعات اخرى طوال السنوات العشرين الاخيرة. أحضرت مجموعة مرواح يدوية من بلاد العالم المختلفة، كل واحدة منها مخصصة لمناسبة. وأحضرت عطراً جذاباً انتقته من بين

أصناف كثيرة في محل عطورات بازار تشاريت، قبل ان تخربه رياح الربيع برمادها، لكنها لم تستخدمه سوى مرة واحدة، لانها لم تعد تتعرف على نفسها بهذا العطر المختلف. وأحضرت كذلك علبة مكياج كانت آخر صرعة في سوق الاغراء، وكانت أول أمرأة خرجت به إلى الحفلات، حين كان مجرد التجمل في مكان عام يعتبر عملاً منافياً للحشمة.

وحملت معها كذلك ثلاث ذكريات لا تمحى: الافتتاح الذي لم يسبق له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان في باريس، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جندولات البندقية تقريباً مقابل ساحة سان ماركوس، والذي شاهداه بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقهما، ورؤية اوسكار وايلد الخاطفة اثناء هطول أول الثلوج في كانون الثاني. ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير، احتفظ الدكتور خوفينال اوربينو بذكرى رغبة كان يأسف دوماً لانه لم يستطع تقاسمها مع زوجته، وتعود إلى الوقت الذي كان ما يزال فيه طالباً عازباً في باريس. انها ذكرى فيكتور هوغو، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته. ذلك ان احداً قال عنه بانه قال، دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع، بان دستورنا ليس لموطن بشر وانما لموطن ملائكة. فأصبحت له منذ ذلك الحين منزلة خاصة، وصار معظم مواطنينا الكثيرين الذين يسافرون إلى فرنسا يتهالكون لرؤيته. وقد قام ستة طلاب، بينهم الدكتور خوفينال اوربينو، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع ايليا، وفي المقاهي التي يقال بانه سيأتيها بالتأكيد، دون ان يأتي أبداً، ثم تقدموا آخر الامر بطلب خطي للقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور ريونغرو. ولم يتلقوا أي رد. وفي احد الأيام، وفيما خوفينال اوربينو يمر مصادفة مقابل حديقة اللوكسمبورغ رآه وهو يخرج من مجلس الشيوخ برفقة امرأة شابة تقوده من ذراعه. كان هرماً جداً، يتحرك بمشقة، لحيته وشعره أقل اشعاعاً مما هما عليه في صوره، ويرتدي معطفاً يبدو وكأنه لشخص أضخم منه جسداً. ولم يشأ افساد الذكرى بتحية وقحة: كانت تكفيه هذه الرؤيا شبه اللاواقعية كزاد للحياة كلها. وعندما عاد إلى باريس متزوجاً، في ظروف تمكنه من رؤيته بشكل شبه رسمي، كان فيكتور هوغو قد مات.

وكعزاء على ذلك، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لمساء يوم ثلجي، اختلطا فيه بجماعة كانت تتحدى العاصفة مقابل مكتبة صغيرة في بولفار لوس كابوتشينوس، وكان اوسكار وايلد في الداخل. وحين خرج اخيراً، أنيقاً حقاً، وربما واعياً جيداً انه كذلك، أحاطت به المجموعة تطلب منه التوقيع على كتبه. توقف الدكتور اوربينو لرؤيته فقط، لكن زوجته المندفعة أرادت اجتياز البولفار ليوقع لها على الشيء الوحيد الذي رأته مناسباً في غياب الكتاب: قفازها البديع الطويل الأملس، المصنوع من جلد الغزال، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة الزواج، كانت متأكدة ان رجلاً بهذه الرقة سيقدر عالياً لفتة كهذه. لكن الزوج

عارض بإصرار، وحين حاولت التقدم رغم حججه، لم يعد يشعر بانه سيكون قادراً على العيش متجاوزاً العار. فقال لها :

ـ اذا اجتزت الشارع، فستجديني ميتاً حين ترجعين.

كان سلوكاً طبيعياً فيها. فقبل زواجها بسنة واحدة كانت تتحرك في الدنيا بنفس الطلاقة التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثيناغا المميتة، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا، وكانت تتمتع بسهولة في معاملة الغرباء تاركة زوجها في حيرة من أمره، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان. وكانت تقول وهي تضحك ساخرة : «المرء يتعلم اللغات حين يريد ان يبيع، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما كان». من الصعب تصور أحد قادراً على تمثل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة، وعلى تعلم حبها في الذكرى رغم امطارها الدائمة. ومع ذلك، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة، منهكة من السفر وناعسة من الحبل، كان أول ما سألوها اياه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب اوربا، فلخصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية :

ـ انها الصخب قبل أي شيء.

يوم رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا دائما عند مدخل الكتدرائية، وهي حبلى في الشهر السادس ومتمكنة تماماً من مكانتها الجديدة كامرأة حياة، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها. لم يتر وليفكر حتى بالعائق الماثل في كونها متزوجة، لانه قرر في الوقت ذاته، وكأن الأمر بيده، ان الدكتور خوفينال اوربينو سيموت. لم يكن يعرف متى ولا كيف، لكنه طرح الأمر وكأنه حدث محتم، لا يحتاج إلا إلى الانتظار دون تسرع ولاهيجان، وحتى لو بقي إلى نهاية العصور.

بدأ من البداية. مَثلَ دون سابق اعلان في مكتب العم ليون الثاني عشر، رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وأبدى له استعداده لوضع نفسه تحت تصرفه. كان العم مستاء منه للطريقة التي تخلى بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيا دي ليفا، لكنه انساق مع قناعته بان البشر لا يولدون دوماً يوم تلدهم امهاتهم، وانما تجبرهم الحياة على ولادة انفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة. ثم ان ارملة الاخ كانت قد توفيت في السنة السابقة، مع احقادها المتقدة ولكن دون ان تنجب ورثة. وهكذا منح ابن اخيه التائه عملاً.

كان ذاك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لواثيا. فتحت قشرة التاجر القاسي، كان يختبيء عبقرياً مجنوناً، سيان لديه تفجير ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا، أو اغراق جنازة ترفع الصليب بالدموع باغنيته المؤثرة في هذا القبر المظلم، ولم يكن ينقصه برأسه المجعد وشفته السفلى سوى القيثارة* واكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لنيرون الخارق في الميثولوجيا المسيحية. اما ساعات فراغه ما بين ادارته لسفنه العاجزة، التي ما زالت تعوم بمحض غفلة من الهلاك، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم، فكان يكرسها لاغناء قائمته الغنائية. ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنازات. بصوته الذي يشبه

صوت مجدف في سفينة، والخالي من أي نظام اكاديمي، انما القادر على اداء نغمات شجية. وقد روى له أحدهم ان اتريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط، فحاول خلال سنوات عديدة ان يقلده بزجاج النوافذ. وكان اصدقاؤه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجدونها في رحلاتهم عبر العالم، وينظمون له احتفلات خاصة ليتمكن اخيراً من تحقيق حلمه. لكنه لم يتوصل إلى ذلك أبداً. ومع ذلك، فقد كان في اعماق صوته الراعد بصيصاً من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تتفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجية، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات. باستثناء جنازة واحدة، خطرت له فيها فكرة غناء When wake up in Glory، وهي اغنية جنائزية من لويزيانا، جميلة ومؤثرة، فأسكته القسيس الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسته.

وهكذا استطاع، وسط الاوبريهات والسيرنادات النابولية، ان يتبوأ بعبقريته الخلاقة وروحه العملية التي لا تلين، امارة الملاحة النهرية في عصره الزاهر. لقد بدأ من لا شيء، مثل شقيقيه المتوفيين، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين، لم يعترف بهم آباؤهم أبداً. لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ ارستقراطية منضدة التاجر، التي كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس. ومع ذلك، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالامبراطور الروماني الذي يشبهه، بقي العم ليون الثاني عشر يعيش في المدنية القديمة، لسهولة ممارسة أعماله، مع زوجته وابنائه الثلاثة، حياة تقشف في بيت صغير، مما ألصق به سمعة البخل ظلماً. وكانت رفاهيته الوحيدة اكثر بساطة: بيت على البحر، يبعد مسافة فرسخين عن مكاتب الشركة، لا اثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند، وخابية ماء، وارجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الآحاد للتفكير. ولم يصفه أحد خيراً مما وصف هو نفسه حين اتهمه احدهم بانه ثري، اذ قال:

ـ لست ثرياً.. أنا فقير يملك مالاً، وهو شيء مختلف. هذه الطريقة الغريبة في الحياة، التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحو جنوني، اتاحت له ان يرى على الفور ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلورينتينو اريثا. فمنذ اليوم الذي جاءه فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة، بمظهره الكئيب وسنوات عمره السبع والعشرين المبددة، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان. لكنه لم يتوصل إلى اخافته. وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هو ان شجاعة ابن اخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن ابيه، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوة في هذا العالم أو العالم الآخر ان تحطمه.

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى، حين عينوه كاتباً في الادارة العامة، والتي كانت

تبدو مكتباً مفصلاً على مقاسه. كان لوتاريو توغوت، استاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى، هو الذي نصح هذا الاخير بتعيين ابن اخيه في وظيفة كتابية، لانه مستهلك للأدب لا يكل، رغم ان ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد. لم يول العمل ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد عن نوعية الادب الرديئة التي يقرأها ابن اخيه، لان لوتاريو توغوت نفسه قال عنه دوماً انه أسوأ تلاميذه في الغناء، ومع ذلك فهو يُبكي حتى شواهد القبور. لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكر فيه. ففلورينتينو اريثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة، مما جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق حب، وكانت اذونات الابحار تخرج معه مقفاة رغم جهده لتفادي ذلك، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها. وهكذا جاءه العم بنفسه في أحد الايام برزمة من المراسلات التي لم تكن جديرة بان يضع توقيعه عليها، ومنحه الفرصة الأخيرة لانقاذ روحه.

قال له:

ـ اذا كنت عاجزاً عن كتابة رسالة تجارية فستتحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء.

قبل فلورينتينو اريثا التحدي، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة النثر التجاري الدنيوية، مقلداً نماذج من الأرشيف الموثق ومرصعاً رسائله بمقاطع منها كما كان يفعل باشعار الشعراء الرائجين من قبل. حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطرة، ليفضفض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية. لكنه بعد ستة شهور، ورغم جميع محاولاته، لم ينجح في ليّ عنق اوزانه المتمادية.

ـ الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحب.

فقال له العم:

ـ من المؤسف انه لا وجود للحب دون الملاحة النهرية.

نفذ تهديده بنقله لجمع القمامة من رصيف الميناء، لكنه وعد بترقيته خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى ان يجد مكانه المناسب. وهكذا كان. لم يستطع أي عمل، مهما كان قاسياً أو مذلاً، هزيمته؛ ولم يثبط بؤس الاجر من عزيمته، كما انه لم يفقد أعصابه للحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه. ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً: فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح، قادر على أي شيء، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه، وكما رغب العم

ليون الثاني عشر وخطط بجعله يتعرف على كل سر من أسرار المؤسسة، فقد مرّ على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات. وقد ادارها جميعاً بكفاءة تستحق التقدير، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصنعة الشعر، انما دون التوصل إلى احراز الميدالية الحربية التي طالما تاق اليها، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة. رسالة واحدة فقط. ودون أن يخطط لذلك، بل ودون ان يدريه، راح يثبت بحياته سداد رأي ابيه الذي ردد حتى النفس الاخير انه لا أحد اكثر عملية، ولا حجّارين اكثر اصراراً ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء. هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر، الذي اعتاد انه يحدثه عن ابيه اثناء اوقات الفراغ، وأعطاه عنه فكرة تصوره كحالم اكثر منه رجل أعمال.

روى له ان بيو الخامس لوائيا كان يستخدم المكاتب لأمور اكثر لطفاً من شؤون العمل، وانه رتب أموره ليخرج من البيت في جميع ايام الآحاد، متذرعاً بانه سيستقبل أو يودع سفينة ما. بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع، مع صفارة بخارية في فناء الخانات، حيث كان أحدهم يقوم باطلاق الصفارة برموز الابحار حتى تسمع الزوجة ان هي كانت مصغية. وبعد حسابات اجراها، ابدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بان أم فلورينتينو اريثا قد حبلت به فوق طاولة مكتب غير مغلق في مساء يوم أحد لاهب، فيما زوجة ابيه تسمع من بيتها صفير وداع يطلقه مركب لم يسافر أبداً. وعندما اكتشفت امره كان الوقت قد فات لجعله يدفع ثمن سلوكه المشين، لانه كان قد مات. لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطمة بمرارة عقمها، وطالبة من الله في صلواتها ان ينزل لعنته الابدية على البندوق.

لقد شوشت صورة الأب افكار فلورينتينو اريثا. كانت امه تحدثه عنه كرجل بلا ميول تجارية، وانه انتهى إلى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الاكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب. ايلبرس، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية. وانه واخواه كانوا ابناء طبيعيين لأم واحدة، تعمل طاهية، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم أحد البابوات الذي كانت تختاره لاعلى التعيين من سجل القديسين، باستثناء العم ليون الثاني عشر، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده. ومن يدعى فلورينتينو هو جدهم لأمهم، وبهذا وصل الاسم إلى ابن ترانسيتو اريثا قافزاً فوق جيل كامل من الاحبار العظام.

لقد احتفظ فلورينتينو بدفتر كان ابوه يدون فيه أشعار الحب، وكانت ترانسيتو اريثا هي ملهمة بعض تلك القصائد، وكانت اوراق الدفتر مزينة برسوم قلوب جريحة. وقد فوجيء بأمرين: احدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه، رغم انه اختار هذا الاسلوب في الكتابة من أحد مناهج تعليم الخط لانه أعجبه اكثر من سواه. والامر الثاني هو عثوره على عبارة كان

يعتقد انها من بنات افكاره، ووجد أن أباه قد دونها في دفتره قبل ان يولد هو بكثير: ما يؤلمني في الموت هو ألا أموت حباً.

كان قد رأى كذلك صورتي ابيه الوحيدتين. احداهما ملتقطة في سانتافي، وهو صغير، كما كان عمره هو حين رآه لأول مرة، يرتدي معطفاً سميكاً يبدو فيه وكأنه محشور في جوف دب، ويستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة. والطفل الذي يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر معتمراً قبعة ربان سفينة. وفي الصورة الثانية كان أبوه مع مجموعة من المحاربين، من يدري في أي من الحروب الكثيرة، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة وتفوح من شاربه في الصورة رائحة البارود. كان ليبرالياً وماسونياً، كما هما شقيقاه، ورغم ذلك كان يريد لابنه ان يدخل مدرسة الاكليروس، لم يشعر فلورينتينو اريثا بالشبه بينه وبين ابيه كما كانوا يدعون، ولكن استناداً إلى اقوال العمل ليون الثاني عشر، فانهم كانوا يؤنبون بيو الخامس أيضاً لاسلوبه الغنائي فيما يكتبه من وثائق. لم يكن يشبهه على اي حال كما هو في صورتيه، وهو لا يشبهه فيما يحفظه عنه في ذكرياته، ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه، وقد حسّن الحب منها، ولا في الصورة التي يشوهها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظريفة. ومع ذلك، فقد اكتشف فلورينتينو اريثا هذا الشبه بعد سنوات طويلة، فيما هو يسرح شعره أمام المرآة، وعندها فقط أدرك ان المرء يعرف انه قد بدأ يشيخ حين يبدأ بالتشابه مع أبيه.

لا يتذكر بانه رآه في شارع لاس بنتاناس. ويظن بانه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما، في بداية حبه لترانسيتو اريثا، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته. لقد كانت وثيقة العماد لسنوات طويلة خلت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية، ووثيقة تعميد فلورينتينو اريثا، المثبتة في خورانية سانتوتوريبيو، كانت تقول فقط انه ابن طبيعي لابنة طبيعية عازبة اخرى تدعى ترانسيتو اريثا. ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب، الذي واظب رغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الاخير في حياته. وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الاكليروس في وجه فلورنتينو اريثا، ولكنه نجا في الوقت ذاته من الخدمة العسكرية في الحقبة الاكثر دموية من حروبنا الاهلية، لكونه ابناً وحيداً لعزباء.

كان يجلس كل يوم جمعة، بعد العودة من المدرسة، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد يتمزق نتفاً لكثرة ما تصفحه. كان الاب يدخل دون ان ينظر اليه، مرتدياً السترة الكتانية التي كان على ترانسيتو اريثا ان تقيفها فيما بعد على مقاسه، وبوجه يشبه وجه سان خوان الانجليكي الذي يوضع فوق المذابح. وعند خروجه، بعد عدة ساعات، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لاسبوع، محاذراً ألا يراه أحد

حتى ولا حوذي عربتـه. ما كان يكلمـه، ليس لان الأب لم يحاول ذلـك فقـط، بل لانه كان يرهبـه أيضـاً. وفي أحـد الايام، وبعد ان انتظر وقتاً أطول مما اعتاد عليه، اعطاه الأب النقود قائلاً له:

ـ خذ ولا تعد هنا بعد اليوم.

كانت تلك هي آخر مرة يراه فيها. لكنه سيعلم بعد حين ان العم ليون الثاني عشر، الذي كان أصغر من أبيـه بعشـر سنـوات، سيـواصـل حمل النقـود إلى ترانسيتو اريثا، كما سيتولى شؤونهـا بعـد موت بيـو الخامس اثر مغص لم يعالج جيداً، دون ان يترك اثراً مدوناً، ودون ان يتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد: ابن الشارع.

كانت مأساة فلورينتينو اريثا اثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، تكمن في انـه لم يستطـع تفـادي غنـائيته لانه لم يكن قادراً على عدم التفكير بفيرمينا داثا، ولم يتعلم ان يكتب أبداً دون التفكير بها. وفيما بعد، حين نقلوه لاداء أعمال اخرى، كانت دواخله تفيض حبـاً لا يدري ما يفعـل به، فراح يهديـه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة بكتابة رسائل حب مجانيـة لهم في زقـاق الكتبـة العمـوميين، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل. كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلقها على مسند الكرسي، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصـه، ويحـل ازرار الصدرية ليفكر بشكل أفضل، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليـل، باعثـاً الأمـل في البـائسين برسائل حب تبعث على الجنون. وبين حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته، أو أحداً سُرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة، ولكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد، لانه لم يكن قادراً على اقناع أحد إلا في رسائل الحب. لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال، إذ كان يكتفي برؤيـة بيـاض عيـونهم ليعـرف حالتهم، فيملأ ورقـة بعـد ورقـة بكلمات حب خارقـة، وذلـك بمعـادلـة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بفيرمينا داثا، ولا شيء سواها. ومع انتهاء الشهر الأول أصبح عليه ان يضع نظام حجز مسبق، حتى لا تجعله اشراق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود.

ان أجمل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول، تكاد تكون طفلة، طلبت منه وهي ترتعش ان يكتب لها رداً على رسالة ملحة تلقتها لتوها، وعرف فلورينتينو اريثا بانه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق. رد عليها باسلوب مختلف، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنهـا، وبخـط يبدو كذلك وكأنه خطها، اذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة حسب طبيعة كل شخص. كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه فيرمينا داثا لو كانت تحبه كثيراً كما تحب تلك المخلوقـة المرتعـدة عاشقهـا. وبعـد يومين، طبعاً، كان عليه ان يكتب كذلك رد

الحبيب بالخط والاسلوب ونـوع الحب الـذي خصه به في الرسالة الأولى ، وهكذا وجد نفسه متــورطـاً في مراسلة محمـومـة مع نفسه . وقبل انقضاء شهر، جاءاه كلّ على انفراد ليشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه باخلاص في رد الفتاة : انهما سيتزوجان .

وحين انجبا ولـدهما الاول فقط ، واثناء حديث عرضي ، انتبها إلى ان رسائلهما قد كتبها الكـاتب العمـومي نفسه ، فذهبا لأول مرة معاً إلى الزقاق لتسميته عراباً لابنهما . ولقد تحمس فلورينتينو اريثا لتجلي اجلامه العملي ، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت ليؤلف كتاب سكرتير العاشقين وهو أشمل واكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تباع بعشرين سنتافو حتى ذلك الحين في الازقة ، والتي كان نصف أهل المدنية يحفظونها عن ظهر قلب . لقد تخيـل ورتب الحـالات التي قد يجد نفسـه فيها ، هو وفيرمينا داثا ، وكتب لكل حالة عدة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة واجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثـة اجـزاء مجلدة كتجليـد معجم كوفـاروبياس ، انما لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها ، فانتهت إلى احـد امـاكن المهمـلات في البيت ، مع أوراق اخـرى من الماضي ، لان ترانسيتو اريثا رفضت باصرار استخراج خوابيها المطمورة وتبديد مدخرات حياتها في حماقة نشر . وبعد عدة سنـوات ، حين أصبـح لدى فلورينتينـو اريثـا الموارد اللازمة لنشر الكتاب ، تكلف مشقة للاقتناع بان رسائل الحب أصبحت موضة قديمة .

فيما هو يخطو خطواته الاولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين ، كان اصدقاء صبا فلورينتينو اريثا يوقنون بانهم يخسرونه شيئا فشيئا وبلا عودة . وهكذا كان . فبعد عودته من الرحلة النهرية كان ما يزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا داثا ، فلعب معهم البليارد ، وذهب الى حفلات رقصه الاخيرة ، واهتم بان يكون محط اعجاب الفتيات ، وفعل كل ما بدا له مناسبا ليعود كما كان . وفيما بعد ، عنـدمـا اعتمـده العم ليـون الثـاني عشر موظفا ، صار يلعب الدومينو في النادي التجاري مع زمـلائـه في العمـل ، وبـدأ هؤلاء يعـترفون به كواحد منهم حين لم يعد يحدثهم الا عن شركة المـلاحـة ، والتي ما عاد يذكـر اسمها كاملا ، بل يكتفي للاشارة اليها بالحروف الاولى : ش . ك . م . ن . وغـير حتى طريقتـه في الاكـل . فبعـد ان كان لا مبـاليـا ومضطربا على المائدة ، أصبح منتظما ومتقشفا حتى اخر أيامه : فنجان قهوة كبير كفطور ، وقطعة سمك مسلوق مع الارز الابيض للغداء ، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم . وصار يشرب قهوة مرة في كل وقت ، وفي أي مكـان وتحت ايـة ظروف ، بكميـات تصل الى ثلاثين فنجانا في اليوم : كانت قهـوة أشبـه بالبـترول الخـام يفضـل تحضيرها بنفسه ، ويضعها دائما في ترمس بمتناول يده . لقد أصبح شخصا آخر ، رغم قراره الثابت وجهده المضني لمتابعة حياته كما كان قبل عشرة

الحب القاتلة.

الحقيقة انه لن يعود ابدا كما كان. فاستعادة فيرمينا داثا كان هدف حياته الوحيد، وكان متأكدا من انه سيصل اليه عاجلا ام آجلا، حتى انه اقتنع ترانسيتو اريثا بمتابعة اعداد البيت ليكون مناسبا لاستقبالها في اية لحظة تحدث فيها المعجزة. وعلى العكس من ردة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين، مضت ترانسيتو اريثا بعيدا جدا في هذا الامر: اشترت البيت نقدا، وبدأت عملية اصلاح شاملة. أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم، أقاما في الطابق العلوي مخدعا للزوجين وآخر للأولاد الذين سينجبونهما، كلاهما فسيح وحسن الاضاءة، ومكان مشغل السيجار القديم أقاما حديقة فسيحة فيها جميع انواع الزهور، كرس لها فلورينتو اريثا شخصيا فترة بطالته الصباحية. والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كامتنان للماضي، هو دكان الخردوات. اما القسم الخلفي من الدكان، حيث كان ينام فلورينتينو اريثا، فتركاه كما كان دوما، بأرجوحة النوم المعلقة وطاولة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب متراكمة بفوضى، بينما انتقل هو الى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي. وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت واكثرها برودة، لها شرفة داخلية من الممتع البقاء فيها ليلا لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورود، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب اكثر من سواها لرهبنة فلورينتينو اريثا الصارمة. كانت جدرانها ملساء وخاوية، مطلية بالكلس، وليس فيها من الاثاث سوى سرير سجن ضيق، وكوميدينو عليه شمعة مثبتة فوق فتحة قنينة، وخزانة ملابس قديمة وابريق لغسل الايدي مع صحنه وطشت لسكب ماء الغسل.

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة، وهي نفس العوامل التي كانت سبب عظمتها أثناء الحكم الاستعماري وحولتها خلال اكثر من قرنين الى بوابة اميركا. ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيتو اريثا أول أعراض مرضها الذي لا شفاء منه. أصبحت زبوناتها الدائمات يأتينها الى دكان الخردوات وهن اكثر هرما في كل مرة، واكثر شحوبا واكثر انحدارا، ولم تكن تتعرف عليهن بعد معاملة معهن استمرت نصف حياة، أو انها كانت تخلط شؤون بعضهن بشؤون اخريات. وكان هذا شيئا خطيرا في تجارة كتجارتها، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف، شرفها وشرف الاخرين، وكانت كلمة الشرف تعطى وتقبل كضمانة كافية. بدت أول الامر وكأنها آخذة بالصمم، ولكن سرعان ما تبين ان ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب، وهكذا صفت تجارة الرهونات، واصلحت البيت بكنز الخوابي المخبأة واثثته، ثم بقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة، والتي لم تتوفر لاصحابها الموارد اللازمة لاستردادها.

عندئـذ أصبح على فلورينتينو اريثا ان يتحمل في الوقت ذاته مسؤولية التزامات عديدة، لكن حماســه لم يضعف لزيـادة أعمالـه كصيـاد خفي. فبعـد تجربتـه غير المنتظمـة مع ارملة ناثاريت، التي شقت له طريق غراميات الأزقة، تابع اصطياد عصفورات الليل اليتيمات لعدة سنـوات، بحثـا عن مهـدىء من الآم فيرمينـا داثا. لكنه لم يعد قادراً فيها بعد على معرفة ان كانت عادته في الزنى دون آمال هي ضرورة للضمير أم مجرد ادمان للجسد. صار تردده على فندق العابرين أقل، ليس لان اهتماماته كانت في جهة اخرى وحسب، بل لانه لم يكن يرغب بان يروه في مسيرة مختلفـة جدا عن الصـورة المألـوفة التي عرفوها بها. ومع ذلك، فقد لجأ في ثلاث منــاسبــات مستعجلة الى الـوسيلة السهلة لفـترة لم يعشهـا : كان يجعـل صديقـاتـه المتخـوفـات من انكشـاف امرهن يتنكـرن بزي الرجال، ويدخل معهن الى الفندق بخيلاء سكـارى متأخـرين في السهـر. لكنـه لم يعـلم من يلاحـظ انه في مناسبتين على الاقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيف الى الحانة وانما الى الحجرة، فتعرضت بذلك سمعته التي كانت قد تهشمت الى الضـربـة القـاضيـة. الى ان توقف اخـيرا عن الذهاب الى هناك. وفي المرات القليلة التي ذهب فيهـا، لم يفعـل ذلـك للحاق ما فاته، وانما على العكس تماما: كان يبحث عن ملجأ ليستعيد انفاسه بعد الافراط.

وكان ذلك ضروريا. فهو يغادر المكتب في الخامسة مساء، ويمضي عندئذ متنقلا كباشق جوال. كان يكتفي في البدء بما يمده به الليل. فيصطاد خادمات في الحدائق، وزنجيات في السـوق، ومتأنقـات في الشواطيء، واميركيات شماليات في سفن نيواورليانز. فيأخذهن الى ملطم الامواج حيث نصف اهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس، يأخذهن حيث يستطيـع، واحيـانـا الى حيث لا يستطيـع، اذ لم تكن قليلة المرات التي اضطر فيها الى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لأحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيفما اتفق وراء البوابة.

كان برج الفنـار ملجأ محظـوظـا يذكـره بحنـين بعـد ان حلت جميع اموره وهوعلى اعتاب الشيخوخة، لانه كان مكانا جيدا للسعادة، وخصوصا في الليل، حيث كان يرى ان شيئا من غرامياته يصل الى المبحرين في السفن مع كل لفة من وميض الفنار. وقد تابع الذهاب الى هنـاك، اكثر من ذهـابـه الى اي مكان اخر، فيما صديقه عامل الفنار يستقبله سعيداً، بوجه أحمق كان أفضـل دليـل على الكتـمان بالنسبـة للعصفـورات المـرتعدات. كان هناك بيت في أسفـل الفنـار، حيث تزمجـر الامواج وهي تتحطم على الصخور، وحيث البحر اكثر زخما لان فيه شيئا من الاخفاق. لكن فلورينتينو اريثا كان يفضل برج النور بعد ساعات الليل الاولى، لانه يرى المدينة كلها واضواء زوارق الصيادين في البحر، وكذلك في المستنقعات النائية.

ومن هذه الحقبـة اتت نظـريـاته الاقرب الى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي

للنساء وكفاءتهن للحب. لم يكن ليثق بالصنف الحسي من النساء. اولئك اللواتي يبدون قادرات على التهام تمساح نيء. ويكن عادة الاكثر سلبية في الفراش، نموذجه المفضل كان النقيض: تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عناء النظر اليهن ثانية في الشارع، اللواتي يبدون وكأنهن لا شيء بعد نزع ملابسهن، ويثرن الشفقة بطقطقة عظامهن عند الصدمة الاولى، ولكنهن رغم ذلك قادرات على جعل اعتى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة. وكان قد سجل رؤوس أقلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنية تأليف ملحق عملي لكتاب سكرتير العاشقين، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعد ان قلبته اوسينثا سانتانـدير ظهرا وباطنا بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز . . . أوقفته على رأسه، رفعته وانزلته، واعادت ولادته كمخلوق جديد، وجعلته يمزق مهارته النظرية اربأً اربأً وعلمته الشيء الوحيد الذي عليه ان يتعلمه عن الحب، هو ان أحداً لا يستطيع تعليم الاخرين الحياة.

كانت اوسينثيا سانتانـدير قد تزوجت زواجا عاديا دام عشرين سنة، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة ابناء تزوجوا بدورهم وانجبوا ابناء، بحيث انها كانت تفاخر بانها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة. ولم يتضح أبداً ان كانت هي التي هجرت زوجها، أم انه هو الذي هجرها، أم انهما هجرا بعضهما في الوقت ذاته حين ذهب هو ليعيش مع عشيقته الدائمة، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضح النهار، ومن الباب الرئيسي، روسندو دي لا روسا، ربان السفينة النهرية، الذي كانت قد استقبلته ليلا مرات كثيرة من الباب الخلفي، وكان هو نفسه، ودون ان يفكر مرتين، من أخذ فلورينتينو اريثا اليها.

دعاه للغذاء عندها. وحمل معه دمجانة خمر بيتي قوي وأفخر نوعية من المواد لاعداد وجبة ملحمية لا يمكن تحضيرها الا بدجاج بيتي، ولحم طري العظام، وخنزير معلوف على المزبلة وبقول وخضروات قرى النهر. ومع ذلك، لم يبد فلورينتنو اريثا منذ البدء اهتماما بلذائذ المطبخ، ولا بكرم سيدة لبيت، كاهتمامه بجمال البيت. لقد اعجبه البيت بحد ذاته، بانارته وبرودته، بنوافذه الاربع المطلة على البحر، واطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة. اعجبته كمية ورونق الاشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً مشوشا وصارما في الوقت نفسه، والتي كانت تضم جميع انواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسيندو دي لاروسا في كل رحلة من رحلاته، حتى لم يبق مكان لمزيد. وعلى الشرفة المطلة على البحر، فوق منصة خاصة، كانت تقف ببغاء مالاسيه يغطيها ريش ناصع، بياضه لا يُصدق، وتطرق بسكينة تأملية تبعث كثيرا على التأمل: انها أجمل حيوان رآه فلورينتينو اريثا على الاطلاق.

تحمس القبطان روسيندودي لا روسا لحماسة الضيف، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الاشياء. وفيما هويفعل، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة انما دون فاصل بين جرعة واخرى. كان يبدووكأنه مبني من الاسمنت المسلح : ضخم، كثيف الشعر في كل انحاء جسده باستثناء رأسه، له شارب كفرشاة نقاش، وصوت رحوي لا يمكن الا ان يكون كذلك، وصاحب نخوة ممتعة، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتمال طريقته في الشرب. وقبل الجلوس الى المائدة كان قد انهى نصف الدمجانة، وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهدام بطيئة. وكان على اوسينثيا سانتانذير ان تطلب مساعدة فلورينتينو اريثا لسحب الجسد الخامد كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله الى السرير، ونزع ملابسه وهو نائم. بعد ذلك، وفي ومضة الهام شكرها كلاهما لاقتران برجيهما، تعريا معا في الحجرة المجاورة دون اتفاق فيما بينهما، بل ودون ايحاء بذلك، ودون أعداد له. وتابعا التعري بعدها كلما سنحت لهما الفرصة خلال اكثر من سبع سنوات، اثناء غياب القبطان في رحلاته. لم تكن ثمة مخاطرة بان يفاجئهم، اذ كان يتمتع بعادة بحار طيب، فهويطلق صافرة سفينته مخبرا بقدومه، حتى ولووصل فجراً، كان يطلق ثلاث صافرات حادة وطويلة لزوجته واولاده التسعة، ثم صافرتين متقطعتين وكئيبتين لعشيقته.

كان لاوسينثا سانتانذير حوالي خمسين سنة من العمر، وكان ذلك باديا عليها، ولكنها كانت تتمتع بغريزة خاصة جدا في الحب، ليس بوسع النظريات العملية او العلمية ان تشوشها. وكان فلورينتينو اريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها، وكان يذهب اليها دوماً دون اعلان مسبق ساعة يشاء، سواء في النهار او الليل، ولم يحدث مرة واحدة ان لم تكن في انتظاره. كانت تفتح له الباب كما ربتها امها حتى السابعة من عمرها: عارية تماماً، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون. لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل ان تنزع عنه ملابسه، لانها تعتقد ان وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم. وكان هذا سبباً لنزاع دائم مع القبطان روسيندودي لا روسا، لانه كان يؤمن بخرافة ان التدخين عاريا هو امر وخيم العواقب، كما انه يفضل أحيانا تأجيل الحب على ان يطفيء سيجاره الكوبي الاصيل. أما فلورينتينو اريثا، فكان محبا جدا لمفاتن التعري ؛ فكانت تخلع عنه ملابسه بلذة فور اغلاقها الباب، دون ان تتيح له الفرصة لتحيتها، ولا لنزع قبعته ونظارته، مقبلة اياه ومتلقية القبل المبعثرة، وحالة ازراره من أسفل الى اعلى، بادءة بأزرار فتحة السروال، واحدا بعد كل قبلة، ثم ابزيم الحزام، واخيرا ازرار الصديرية والقميص، الى ان تتركه كسمكة حية مشقوقة البطن. ثم تجلسه في الصالة وتنزع حذائه، وتشد بنطاله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله الى الكاحلين، واخيرا تفك اربطة واقية

الساق المطاطية وتنزع جوربيه، عندئذ يتوقف فلورينتينو اريثا عن تقبليها وعن السماح لها بتقبيله، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة: فك الساعة ذات السلسلة من عروة الصدرية ونزع النظارة ووضعهما معا في حذائه ليتأكد من انه لن ينساهما. لقد ثابر دوماً على اتخاذ هذا الاحتياط، دائما دون نسيان، كلما تعرى في بيت غريب.

ما ان ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه دون ان تتيح له الوقت لأي شيء، وتلقي به ولو على الكنبة التي انتهت من تعريته عليها. وفي أحيان قليلة على السرير. كانت تحشره تحتها، وتسيطر عليه كله لها كلها، محبوسة في ذاتها، مقدرة الابعاد بعينيها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة، متقدمة من هنا، متراجعة، ضابطة اتجاهها اللامرئي، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخما، طريقة اخرى للمشي دون غرق في مستنقع اللزوجة الذي يطفو من بطنها، سائلة ومجيبة بنفسها بأزيز ذبابة في رطانتها الخلقيه أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريده لها وحدها فقط، الى ان تخر دون انتظار أحد، وتهوي وحدها في هوتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش. ويبقى فلورينتينو اريثا منهكا، ناقصا، طافيا في بركة عرقهما، يسيطر عليه انطباع بانه ليس سوى اداة للذة. كان يقول لها «انك تعاملينني كما لو كنت واحدا زائدا» فتطلق ضحكة انثى حرة وتقول: «بل كانك واحد أقل». ويبقى على قناعة بانها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقررا عدم الرجوع. لكنه ما يلبث ان يستيقظ ناسيا، مع صحوة الوحدة الرهيبة وسط الليل، وتنكشف له ذكرى حب اوسيثا سانتانذير الشارد على حقيقته: مصيدة سعادة يملها ويحن اليها في الوقت ذاته، انها يستحيل عليه الفرار منها.

وفي يوم أحد، بعد سنتين من تعارفهما، كان أول ما فعلته عند وصوله، بدلاً من تعريته، ان نزعت نظارتيه لتقبله بشكل أفضل، وهكذا علم فلورينتينو اريثا انها بدأت تحبه. ورغم شعوره لأول مرة بأنه على أحسن حال منذ دخوله ذلك البيت الذي صار يحبه كبيته، فانه لم يبق فيه من قبل اكثر من ساعتين متواصلتين، ولم يبق للنوم فيه أبدا، بينما بقي مرة واحدة لتناول الطعام، لانها كانت قد وجهت اليه دعوة رسمية. والحقيقة انه لم يكن يذهب هناك الا لما كان يذهب من اجله، حاملا معه دوما هديته الوحيدة التي هي وردة منفردة، ثم يختفي الى ان تحين الفرصة التالية المعلومة لديه. أما في يوم الاحد الذي نزعت فيه نظارتيه، وبسبب هذه الحركة من جهة، ولانهما استسلما للنوم بعد حب مريح من جهة اخرى، أمضيا المساء كله عاريين في سرير القبطان الفسيح. وبعد الاستيقاظ من القيلولة، كان فلورينتينو اريثا ما يزال يحتفظ في ذاكراته بصرخات الببغاوات، التي كان صريفها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان. لكن الصمت كان صافيا في قيظ الساعة الرابعة، ومن نافذة غرفة النوم كان يظهر

جانب من المدينـة القـديمـة مع شمس الاصيل التي تلهب ظهرها، وقبابها المذهبة، وبحرها الملتهب حتى جامـايكـا. مدت اوسينثيـا سانتـانـدير يدها المغامرة باحثة باللمس عن الحيوان الراقد، لكن فلورينثيو اريثا ازاحها قائلا: «الآن لا .. أحس شيئا غريبا، وكأن هناك من يرانا»

عادت تهيج الببغـاء بضحكتهـا اللعـوب. وقالت: «هذه حجة لاتنطلي حتى على امرأة يونس». ولم تكن لتنطلي عليها كذلك، لكنها قبلت بها كحجة جيدة، وأحبا بعضهما بصمت لوقت طويل دون ان يعيدا ممارسة الحب. وفي الساعة الخامسة، حين كانت الشمس ما تزال مرتفعـة، قفـزت هي من السرير، عارية تماما وبعصابة النايلون على رأسها، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ. لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة.

ما كانت قادرة على التصـديق. كانت المصـابيـح المعلقـة هي الشيء الـوحيـد المتبقي في البيت. أمـا ما عداهـا، الاثـاث المحفـور، والسجـاد الهنـدي، والتـماثيل والتحف وترهات الـزجـاج والمعـادن الثمينـة التي لاحصـر لها، وكـل ما كان يجعل من بيتها أحد ألطف البيوت واكثرهـا زينـة في المـدينـة، كل شيء، حتى الببغـاء المقـدسة، كله قد تبخر. لقد حملوه من الشـرفـة المطلة على البحـر دون ازعـاج الحب. لم يبق سوى الصـالـون المقفر بنوافذه الاربع المفتـوحـة، وكتـابـة بفـرشـاة نقـاش على الجـدار المقابل تقول: هذا ما يحدث لمن ينشغلون بالشدّ. ولم يستطع القبطان روسيندودي لاروسا ان يفهم أبدا سبب امتناع اوسينثيا سانتاندير التبليـغ عن السـرقـة، أو عدم محاولتهـا الاتصـال بتجـار المسـروقات، وعدم سماحها بالعودة للحديث عن نكبتها.

تابع فلورينتينو اريثا زيارتها في البيت المنهوب، الذي اقتصر اثاثه على ثلاث كراس جلدية بلا مسند نسيها اللصوص في المطبخ، وحجرة النوم حيث كانا. لكن زياراته أصبحت أقل من السـابق، ليس بسبب كآبـة البيت، كما ظنت هي وقـالت له ذلك، وانما بسبب حافلة البغال الجـديـدة التي انشئت في مطلع القـرن الجـديـد، وكـانت بالنسبـة له عشـا مفعما وأصيـلا للعصفورات الطليقات. كان يركـب الحافلة أربع مرات في اليوم، مرتين للذهاب الى المكتب ومـرتـين للعـودة الى البيت. وفيها هويقرأ حقا في بعض الاحيان، اويتظاهر بالقراءة في معظم الاحيـان، يتمكن من اقـامـة أول الاتصـالات من أجل موعد لاحق. وحين وضع العم ليون الثاني عشر تحت تصرفه فيما بعد، عربة تجرها بغلتان بنيتان، ذهبيتا السروج، كبغلتي الرئيس رافـائيـل نونيث، أصبح يحن الى ايام الحافلة، كأكثر الايام ازدهارا في سيرته كصقر متصيد.

ولقد كان محقا : فليس من عدو للغراميات السرية أسوأ من عربة خاصة تنتظر أمام الباب. لدرجة انه كان يترك العربة مخبأة في بيته ويمضي مشيا على الاقدام في جولاته المتغطرسة، حتى لا يترك ولو مجرد اثار العجلات على التراب. ولهذا، كثيرا ما كان يذكر بحنين الحافلة القديمة ذات البغال الضامرة، المنتوفة الوبر، حيث كان يكفيه القاء نظرة سريعة بداخلها ليعرف أين هو الحب. ومع ذلك، فانه لم يستطع، وسط كل هذه الذكريات المثيرة، ان ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها، ولم يكد يمضي معها سوى نصف ليلة مجنونة، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته.

كانت قد لفتت انتباهه في الحافلة لمضيها وسط صخب الاحتفال العام بلامبالاة. لا بد انها كانت دون العشرين من العمر، ولم يكن يبدو عليها الحماس للكرنفال، اللهم الا اذا كانت متنكرة بهيئة اللامبالاة: كان شعرها فاتحا، طويلا وناعما، مفلتا على سجيته فوق كتفيها، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة. ولم تكن تعبأ أبداً بصخب الموسيقى في الشوارع، ولا بحفنات الرز، ولا بوابل عطر انيلين الذي يرشونه على الركاب لدى مرور الحافلة، التي كانت بغالها بيضاء مطلية بالنشاء وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زينتها خلال ايام الجنون الثلاثة تلك. انتهز فلورينتينو اريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول البوظة، لانه لم يكن يعتقد بانها ستستجيب لشيء اخر. فنظرت اليه دون ان تُباغت وقالت: «أوافق بكل سرور، لكنني أحذرك من انني مجنونة». ضحك لهذا الخاطر، ورافقها لمشاهدة استعراض العربات المزينة من شرفة محل البوظة. بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجرا، واندسا معا وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك، واستمتعا معاً وكأنهما عروسين ولدا لتوهما، اذ ان لامبالاتها وصلت الى اقصاها النقيض مع صخب الليل. كانت ترقص كمحترفة، وكانت واسعة المخيلة وجريئة للاحتفال، وذات سحر ماحق. وكانت تضحك ضحكة مجلجلة في حمى الكرنفال وتقول له:

ـ انت لا تعرف الورطة التي اوقعت بها نفسك معي. أنا مجنونة من مشفى المجاذيب.

لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلورينتينو اريثا بمثابة عودة الى مبالغات المراهقة الساذجة، حين لم يكن قد ابتلي بالحب بعد. لكنه كان يدرك بحسه المعذب، اكثر من ادراكه بفعل التجربة، ان سعادة بهذه السهولة لا يمكن لها ان تدوم طويلا. وهكذا فانه اقترح على الصبية، كما هي العادة دائما بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين، ان يذهبا لمشاهدة الفجر من الفنار. وافقت شاكرة، على ان يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز.

لقد بقي لفلورينتينو اريثا الايمان بان ذلك التأخير قد انقذ حياته. وفعلا، كانت الفتاة قد اشارت عليه بان ينطلقا الى الفنار، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الألهية

للامـراض العقليـة وألقـوا بانفسهم عليهـا . كانـوا يبحثـون عنهـا منذ هروبها ، في الثالثة بعد الظهـر، ليس هم وحـدهم ، وانـما القـوة العامة بأسرها . كانت قد قطعت رأس أحد الحراس وجرحت اثنين اخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجنائني ، لانها أرادت الخروج للرقص في الكـرنفـال . ولكن لم يخطـر ببـال أحد انها ترقص في الشارع ، وانما ظنوا بانها مختبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شيء فيها بها في ذلك الصهاريج .

لم يكن من السهـل حملهـا . فقد دافعت عن نفسها بمقص كانت تخبئه في صدريتها ، وقد احتـاجـوا لستة رجال لالباسها قميص التثبيت ، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفر بمرح ، معتقدا ان عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريجية الكثيرة . تأثر فلورينتينو اريثا جداً ، وأخذ يتردد منذ أربعاء الرماد على شارع الراعية الالهية حامـلا لها علبـة شوكولاته انكليزية . وكان يراقب السجينات اللواتي يطلقن عليه جميع انواع الشتـائم والمغـازلات من خلال النـوافـذ ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته ، عل الحظ يحالفه وتطل هي أيضا من بين القضبان المعدنية . لكنه لم يرها أبدا . وبعد عدة شهور ، وفيما هو ينزل من حافلة البغال ، طلبت طفلة كانت تسير مع ابيها قطعة شوكولاته من العلبة التي يحملها بيده . أنبها ابوها وطلب منها ان تعتذر لفلورينتينو اريثا . لكن هذا أهدى العلبة كلها للطفلة مفكراً بان تلك اللفتة قد تنجيه من المرارة ، وهدأ من روع الأب بان ربت على كتفه قائلا :

ـ كنت قد احضرتها لحب ذهب مع الشيطان .

وكتعـويض من القـدر ، تعـرف فلورينتينو اريثا في حافلة البغال أيضا على ليونا كاسياني ، التي كانت امـرأة حيـاتـه الحقيقيـة ، رغم انهما ، هووهي ، لم يعلما ذلك أبدا ، ولم يمارسا الحب مطلقـا . كان قد أحس بها قبـل ان يراهـا اثنـاء عودتـه الى البيت في حافلة الساعة الخامسة : كانت نظرة مادية قد لامسته وكأنها أصبع . رفع بصره ورآها في الطرف المقابل ، محددة تماما بين الركاب الاخرين . ولم ترفع نظرها عنه . بل على العكس : بقيت تنظر اليه بوقاحة لم تمكنه من الظن بشيء آخـر سوى ما ظنـه : زنجيـة ، شابة وجميلة ، لكنها عاهرة دون شك . أزاحها من حياته ، لأنه ما كان يتصور شيئا ابشع من دفع ثمن الحب : وهذا ما لم يفعله أبداً .

نزل فلورينتينـو اريثـا في ساحـة العربات ، وهي المحطة الاخيرة للحافلة ، وانسل بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لان أمه تنتظره في الساعة السادسة ، وعندما خرج من الجانب الاخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف ، فعاد ينظر ليتأكد مما كان يعرفه : انهـا هي . كانت ترتـدي ملابس كمـلابس العبيـد التي في الصـور ، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بحركة راقصة لتمر فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع ، وفتحة عنق تكشف عن كتفيهـا ، وعقـد ملون يلتف حول عنقهـا عدة لفـات وعمامة بيضاء . انه يعرف هذا النوع من

النســاء في فنـدق العـابـرين . وكثـيراً ما يحدث لاحـداهن ان تبقى بلا فطـور حتى السادسة مساء ، ولا يجدن حينئذ من وسيلة للحصول على الطعام الا باستخدام الجنس كخنجر قاطع الطريق ، فيضعنه على عنق أول من يلتقينه في الشارع : عضوك أو حياتك . وبحثا عن دليل نهائي ، بدل فلورينتينو اريثا اتجاهه ، ودخل في زقاق الكانديليخو المقفر ، فلحقت به مقتربة منه اكثر فأكثر . عندئذ توقف ، والتفت اليها ، وسد عليها الطريق فوق الرصيف مستندا على المظلة بيديه الاثنتين . ووقفت هي مقابله .

قال لها :

ـ انك مخطئة يا جميلتي . فأنا لست كذلك .

ـ بل أنت كذلك . وهو بادٍ في وجهك .

وتـذكـر فلورينتينـو اريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة ، عرابه ، معلقـا على امســاكـه المزمن : «العـالم مقسـوم الى من يتغوطون جيدا ومن يتغوطون بشكل سيء» . وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الانسانية التي يعتبرها اكثـر دقـة من التنجيم . ومـع تجارب السنين ، طرح فلورينتينو اريثا النظرية بطريقة اخرى : «العالم مقسوم بين الذين يشدون والذين لا يشدون» . وكان يرتاب بهؤلاء الاخيرين ، لانهم يعتـبرون خروجهم عن السكـة أمـرا خارقـاً ، فيتبجحـون بالحب وكأنهم هم الذين اخترعوه لتوهم . أمـا الـذين يمارسـونـه بكثـرة ، فانهم يعيشون له فقط . ويشعرون بانهم على أحسن حال ، حتى انهم يبـدون كأجـداث مغلقـة ، فهم يعلمون ان حياتهم تعتمد على التكتم . لا يتكلمـون أبـدا عن مآثـرهـم ، ولا يثقـون بأحـد ، ويتظـاهرون بالسهو حتى يوصمون بالعجز وبالضعف الجنسي ، وبانهم مخنثون رعاديد ، كما هو حال فلورينتينو اريثا . لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ ، لانه يؤمن لهم الحماية . انهم محفل مغلق ، يتعارف اعضاؤه على بعضهم في العالم بأسره ، دون الحاجة الى لغة مشتركة . ومن هنا لم يفاجيء رد الفتاة فلورينتينو اريثا : انها واحدة من جماعته ، وبالتالي فهي تعرف بانه يعرف انها تعرف .

كان هذا هو خطأ حياتـه الـذي سيتـذكره بوعيه كل ساعة في كل يوم ، وحتى آخر يوم . ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب ، وليس الحب المدفوع الاجر كذلك بالطبع ، وانما كانت تريد عمـلا ، أي عمـل كان ، وكيفـما كان وبأي اجر كان ، في شركـة الكاريبي للملاحة النهرية . أحس فلورينتينـو اريثـا بخجـل عارم لتصـرفـه معهـا دفعه لمرافقتها الى مدير التوظيف الذي منحهـا عمـلا من الـدرجـة الدنيا في القسم العام ، تولته بكل جدية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات .

كانت مكـاتب ش . ك . م . ن . تقـوم منـذ تأسيسهـا مقـابل الميناء النهري الذي لا يشبه

بشيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الاخر من الخليج، ولا مرسى السوق عند شاطيء لاس اينماس. وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى خشبي سقفه من التوتياء المضلع، وله شرفة طويلة متصلة تستند على دعائم خشبية من الجهة الامامية، وعدة نوافذ ذات شباك معدنية من الجهات الاربع، تبدو منها السفن في الميناء وكانها لوحات معلقة على الجدار. عندما بناه الألمان الأوائل، طلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الابيض البراق، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية. ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الازرق، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينو اريثا للعمل في الشركة كان المبنى قرميديا معفرا بلا لون محدد، وعلى السقف الصديء كانت توجد رقع من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الاصلية. ووراء المبنى، في فناء مرصوف ببلاط متآكل ومسيج بشبكة أسلاك كشباك اقنان الدجاج، كانت توجد حانتان كبيرتان حديثتا البناء، وفي نهاية الفناء ثمة انبوب تصريف مغلق، قذر ومنتن، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية: حطام سفن تاريخية، بدءا من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة، التي دشنها سيمون بوليفار، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات. وكان معظم تلك السفن مفككاً لاستخدام اجزاء منها في سفن اخرى، ولكن عددا لا بأس به منها كانت في حالة تبدو معها انها لا تحتاج الا لطلائها بوجه من الدهان واطلاقها للابحار، دون إخافة العظائيات او تقطيع الايائك ذات الازهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها اكثر تشويقا.

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الاداري، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز، كقمرات السفن، اذ انها لم تُصمم على يد مهندسين مدنيين وانما مهندسين بحريين. وفي نهاية الممر، كان العم ليون الثاني عشر، كأي موظف آخر، يصرف الاعمال في مكتب كالمكاتب الاخرى كلها، مع فارق وحيد هو انه كان يجد فوق منضدته صباح كل يوم مزهرية زجاجية فيها أي نوع من الزهور ذات الرائحة الذكية. وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة وطاولة لإصدار بطاقات السفر وتسيير الامتعة. واخيرا كان هناك القسم العام، ومجرد تسميته توحي بغموض اختصاصه، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى دون حل في بقية أقسام الشركة، لتموت فيه أسوأ ميتة. هناك كانت ليونا كاسياني، منسية وراء طاولة مدرسية صغيرة بين رزم من الاوراق التي لا حل لها، يوم ذهب العم ليون الثاني عشر بنفسه ليرى أية شياطين ستخطر له ليجعل القسم العام نافعا في شيء. وبعد ثلاث ساعات من الاسئلة، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المحددة مع جميع الموظفين في اجتماع موسع، رجع الى مكتبه معذبا ليس بيقين انه لم يجد أي حل لكل هذه المشاكل، بل على العكس تماماً: ثمة مشاكل جديدة

ومتنوعة لا حل لها.

وفي اليوم التالي، حين دخل فلورينتنو اريثا الى مكتبه، وجد مذكرة من ليونا كاسياني، مع رجاء بان يدرس المذكرة وان يعرضها على عمه فيما بعد، إن بدت له مناسبة. كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال جلسة التفتيش في مساء اليوم السابق. فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة، وذكرت في المذكرة بانها لم تفعل ذلك تهاونا واهمالا وانما احتراما لمسؤولي القسم. وكان حلها على جانب مثير من البساطة. كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح اعادة تنظيم جذرية، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس، انطلاقا من البديهية البسيطة بان القسم العام لا وجود له عمليا: انه مزبلة المشاكل المعلقة وعديمة الجدوي التي ترفعها الاقسام الاخرى عن كواهلها. وبالتالي فان الحل في الغاء القسم العام، واعادة المشاكل ليتم حلها في اقسامها الاصلية.

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر ادنى فكرة عمن هي ليونا كاسياني، ولم يذكر انه رأى أحداً يمكن ان يكونها في اجتماع مساء اليوم السابق، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها الى مكتبه وتحادث معها على انفراد لمدة ساعتين. تحدثا قليلا في كل موضوع، انسجاما مع منهجه في التعرف على الناس. كانت المذكرة بسيطة وعادية، وقد اعطى الحل النتائج المرجوة فعلا. لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا: كان مهتما بها. وكان اكثر ما لفت انتباهه ان دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة صناعة القبعات. كما انها كانت تتعلم الانكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً دون معلم، وانها تتلقى منذ حوالي ثلاثة شهور دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر، كما كان يقال فيما مضى عن التلغراف، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية.

ما ان خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ بمناداتها كما سيناديها دائماً: مثيلتي بالاسم ليونا. كان قد قرر الغاء القسم موضع الخلاف بجرة قلم وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسببيها انفسهم، مثلما إقترحت ليونا كاسياني، كما ابتدع لها منصباً بلا اسم وبلا مهمات محددة، وهو عملياً منصب معاونته الخاصة. وفي مساء هذا اليوم، بعد دفن القسم العام دون تكريم، سأل العم ليون الثاني عشر فلورينتينو اريثا من أين اتى بليونا كاسياني، فأجابه هو بالحقيقة.

فقال له العم ليون:

ـ عد اذن إلى الحافلة وائتني بمن هن مثلها. فباثنتين أو ثلاث من هذا النوع سنعوم مركبك.

فهم فلورينتينو اريثا الأمر كمزحة تقليدية من مُزَح العم ليون الثاني عشر، ولكنه وجد

نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي اعطيت له قبل ستة شهور، والتي انتزعوها من الآن ليتابع البحث عن المواهب المخبأة في الحافلات. أما ليونا كسياني فان ترددها الأولي ما لبث ان اختفى، واخرجت من اعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث. وبعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة، وفي السنوات الاربع التالية وصلت إلى ابواب الامانة العامة، لكنها رفضت الدخول لان درجة واحدة كانت تفصلها عن فلورينتينو اريثا. لقد كانت حتى ذلك الحين تحت امرته، وكانت تريد البقاء كذلك، رغم ان الحقيقة لم تكن كذلك: ففلورينتينو اريثا نفسه لم يكن واعياً إلى انه هو من كان تحت امرتها. فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الادارة العامة لمساعدته في الصعود أمام مكائد اعدائه الخفيين.

كانت ليونا كاسياني تتمتع بمواهب شيطانية في الوصول إلى الاسرار، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها ان تكون وفي الوقت المناسب. كانت ديناميكية، صامتة، وذات عذوبة حكيمة، ولكنها عند الضرورة، وبكل آلام روحها، تفلت الاعنة لطبعها الفولاذي. رغم انها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها. اذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن، وبالدم ان لم تكن ثمة وسيلة اخرى، ليصعد عليه فلورينتينو اريثا ويصل إلى حيث أراد الصعود دون ان يحسب مسبقاً قواه الذاتية. كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لميلها الجامح إلى السلطة، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية ان ما تفعله ليس إلا مجرد امتنان. لقد كان قرارها حاسماً، حتى ان فلورينتينو اريثا اختلطت عليه تكتيكاتها، وحاول في لحظة شؤم ان يغلق الطريق امامها معتقداً انها تحاول سد السبيل في وجهه. فوضعته ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له:

ـ لا تخطىء. أنا مستعدة للتخلي عن كلي هذا عندما تشاء، ولكن فكر بالامر جيداً.

وفلورينتينو اريثا، الذي كان قد فكر فعلاً، أعاد التفكير حينئذ على أحسن وجه استطاعه، وسلمها أسلحته. الحقيقة انه وسط تلك الحرب القذرة في مؤسسة تعاني ازمة دائمة، ووسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ، وحلم فيرمينا داثا الذي أصبح اكثر بعداً عن التحقيق، لم يتوصل فلورينتينو اريثا العصي على التأثر الى لحظة سلام داخلي أمام مرآى تلك الزنجية الباسلة، الملوثة بالبراز والحب في حمى الصراع. حتى انه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لانها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرف فيه عليها، لانه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حينئذ ويمارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللماع. لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة، بملابسها التي كملابس عبدة مشعثة هاربة، وعمائمها المجنونة، وأقراطها واساورها العظمية، ومجموعة عقودها وخواتمها

ذات الفصوص المزيفة في كل اصبع من اصابعها: لبوة شارع. والتبدل الوحيد الذي اضفته عليها السنون كان لصالحها: كانت تبحر في نضوج رائع، وصارت مفاتنها كامرأة اكثر اثارة، وجسدها الافريقي المتقد أخذ يصبح أشد زخماً مع نضجها. لكن فلورينتينو اريثا لم يعد ينتبه اليها مدة عشر سنوات، دافعاً بذلك كفارة خطأه الأول، ولقد ساعدته هي في كل شيء، سوى هذا.

وفي احدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه، رأى فلورينتينو اريثا وهو يخرج ان هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسياني. فتح الباب دون ان يقرعه، ووجدها أمامه: وحيدة وراء الطاولة، غارقة في التفكير وجدية، بنظارة جديدة تمنحها مظهراً اكاديمياً. وانتبه فلورينتينو اريثا بلفحة سعادة إلى انهما وحيدان في المبنى، كانت ارصفة الميناء مقفرة، والمدينة هاجعة، والليل السرمدي فوق البحر المظلم، والجؤار الكئيب لسفينة يحتاج وصولها لاكثر من ساعة. استند فلورينتينو اريثا على مظلته بكلتا يديه، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخو ليسد عليها الطريق، إلا انه اليوم فعل ذلك كي لا تلحظ ارتعاش ركبتيه، وقال لها:

ـ أخبريني يا لبوة روحي: متى سنخرج من هذا؟

رفعت نظارتيها عن عينيها دون ان تفاجأ، بسيطرة مطلقة، وأبهرته بابتسامتها الشمسية. ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل، وقالت:

ـ آه يا فلورينتينو اريثا، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر ان تسألني هذا السؤال.

لقد جاء متأخراً: كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه، أما الآن فقد مضت إلى الابد. والحقيقة انها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها من أجله، وبعد كل البذاءات التي احتملتها من اجله، كانت قد سبقته في الحياة، فصارت تبدو اكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها. كانت تحبه كثيراً، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من ان تخدعه، حتى ولو جعلته يدرك ذلك باسلوب قاسي.

قالت له:

ـ لا. سأشعر بانني أنام مع الابن الذي لم أنجبه أبداً.

بقي فلورينتينو اريثا وفي حلقه شوكة لانه لم يكن صاحب الكلمة الاخيرة. فكر بان المرأة حين تقول لا، فانها تنتظر الالحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي، لكن الأمر معها كان مختلفاً: لا يستطيع ان يغامر بالخطأ ثانية. انسحب عن طيب خاطر، بل وببعض الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه. ومنذ تلك الليلة، تبددت دون مرارة أية ظلال قد تكون بينهما، وفهم فلورينتينو

اريثا اخيراً انه يستطيع ان يكون صديقاً لامرأة دون ان يضاجعها.

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلورينتينو اريثا ان يكشف لها سر فيرمينا داثا. فالاشخاص القلائل الذين يعرفون السر بدأوا بنسيانه لاسباب قاهرة. فثلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر دون شك: أمه، وكانت قد محته من ذاكرتها قبل موتها بكثير. وغالا بلاثيديا، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت كابنة لها. وطيبة الذكر اسكولاستيكا داثا، التي حملت له في كتاب الصلوات أول رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لا يمكن لها ان تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين. ولورينثوداثا، الذي لم يكن يعرف حينئذ ان كان ميتاً أم حياً، ويمكن ان يكون قد كشف السر للاخت فرانكا دي لا لوث محاولاً الحيلولة بذلك دون طرد ابنته من المدرسة، ولكن احتمال اشاعته الأمر ضئيل جداً. يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلديبراندا سانتشيث النائية، الذين تداولوا فيما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينها الدقيقة، واخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخؤولة الجامحات.

ما كان يجهله فلورينتينو اريثا هو ما اذا كان عليه ضم الدكتور خوفينال اوربينو إلى القائمة. فهيلديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السر اثناء احدى زياراتها الكثيرة في السنوات الأولى. لكنها فعلت ذلك بشكل عرضي جداً وفي لحظة غير مناسبة، بحيث ان الخبر لم يدخل من احدى اذني الدكتور اوربينو ليخرج من الاذن الاخرى كما ظنت هي، وانما لم يدخل إلى أي من الاذنين أبداً. الواقعة هي ان هيلديبراندا ذكرت اسم فلورينتينو اريثا كواحد من الشعراء المغمورين المؤهلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور. وقد تذكره الدكتور اوربينو بصعوبة بالغة، وقالت له دون حاجة القول، ولكن دون ادنى نية للاساءة، بانه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا داثا بعلاقة قبل زواجها. قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً من انه قول بريء وعابر، آكثر مما هو مثير. ورد عليها الدكتور اوربينو دون ان ينظر اليها: «لم اكن أعلم ان هذا الشخص شاعر». ومحاه من ذاكرته في الحال، مثلما يمحو اموراً اخرى، لان مهنته قد عودته استخداماً اخلاقياً للنسيان.

ولاحظ فلورينتينو اريثا ان جميع المطلعين على السر، باستثناء أمه، كانوا ينتمون إلى عالم فيرمينا داثا. أما من جهته فلم يكن أحد سواه، وحيداً تحت وطأة حمل كثيراً ما احتاج إلى من يقاسمه اياه، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة. وكانت ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد، وكان يحتاج إلى الاسلوب والمناسبة فقط. كان يفكر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القائظ، حين صعد الدكتور خوفينال اوربينو درج ش. ك. م. ن. المائل، باستراحة على كل

درجـة لتجـاوز قيظ الساعة الثالثة، وظهر لاهثاً في مكتب فلورينتينو اريثا ومبللاً بالعرق حتى بنطاله، وقال بالنفس الاخير: «ارى ان اعصاراً سيدهمنا». كان فلورينتينو اريثا قد رآه هناك عدة مرات، باحثا عن العم ليون الثاني عشر، لكنه لم يشعر أبداً بوضوح كما شعر ذلك اليوم بان لتلك الزيارة وهذا المظهر الغريب علاقة ما بحياته.

كان ذلـك في الحقبـة التي تجاوز فيهـا الدكتور خوفينال اوربينو كذلك عثرات المهنة، وأخذ يمضي متنقـلاً من باب لبـاب كمتسول، حاملاً قبعته بيده، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيـع الفنـون. وقـد كان العم ليـون الثـاني عشـر دومـاً هو أحـد متـبرعيـه المـواظبـين والاسخيـاء، والـذي كان قد بدأ في تلك اللحظـة بالـذات قيلولته اليومية التي تستغرق عشر دقـائق، يغفـوهـا وهـو جالس على كرسي المكتب ذي النـوابض. طلـب فلورينتينـو اريثا من الدكتور خوفينال اوربينو التفضل بالانتظار في مكتبه، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر، والذي كان يُستخدم إلى حَد ما كصالة انتظار.

كانـا قد التقيـا في منـاسبـات عديـدة، لكنهـما لم يتقـابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم، وعانى فلورينتينـو اريثـا مرة اخـرى من احسـاسـه بالـوضـاعة. لقد كانت عشر دقائق ابدية، نهض خلالهـا ثلاث مرات آمـلاً أن يكـون العم قد استيقـظ قبـل موعـده. وتناول ترمساً كاملاً من القهـوة المـرة، لم يقبل الدكتور اوربينو فنجاناً واحداً منه. اذ قال: «القهوة سم». وتابع وصل موضـوع بآخـر دون ان يهتم ان كان يستمـع اليـه. لم يكن فلورينتينـو اريثا قادراً على احتمال وجـاهتـه الطبيعيـة، وانسياب كلماته ودقتها، ورائحة نَفَسه العميق المشبع بالكافور، وسحره الشخصي، واسلوبه البسيط والمرتب الذي يجعل أتفه العبارات تبدو جوهرية لمجرد انه هو من ينطق بها، وفجأة، غيرّ الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت.

ـ أتحب الموسيقى؟

أخذه على حين غرة. فالحقيقة ان فلورينتينو اريثا يذهب لحضور كل كونشيرتو أو عرض اوبـرا يقـام في المـدينـة، لكنه لم يكن يشعر بانه قادر على ادارة حوار نقدي ومطلع. كان ميالاً إلى المـوسيقى الـدارجـة، وخصـوصـاً الفـالسـات العـاطفيـة، التي لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعـزفهـا في مراهقتـه، أو بأشعاره السرية. وكان يكفيه سماعها لمرة واحدة بشكل عابر، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال. ولكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بهذه الجدية يطرحه متخصص.

قال:

ـ يعجبني غارديل.

تفهم الدكتور اوربينو الأمر بقوله: «أرى ذلك. انه منتشر كموضة.» وانطلق يعدد مشروعاته

الجديدة والمتنوعة، والتي عليه تحقيقها كالعادة بلا اعانة رسمية. ولفت نظره إلى مستوى الاستعراضات الهابط المثبط للعزيمة، التي يجري احضارها الآن، وروعة استعراضات القرن الماضي. وهكذا كان: فمنذ سنة وهويبيع سندات من اجل دعوة ثلاثي كورتوت ـ كاسالس ـ ثيباور إلى مسرح الكوميدي، وليس هناك في الحكومة من يعرف من هم هؤلاء، بينما نفدت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت، وفرقة دون مانوللو دي لابريسا للأوبريت الشعبي، وفرقة لوس سانتانيلاس الايمائية ـ الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب، والتي يبدل أعضاؤها ملابسهم على المنصة في لحظة خاطفة، وفرقة دانس دي التاين، التي يُعلن عنها بانها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر، بل وتنفد كذلك بطاقات استعراضات اورسوس الفظيعة، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده. ومع ذلك، فلا مجال للشكوى، لأن الاوربيين انفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثل باشعالهم نار حرب همجية، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب اهلية خلال نصف قرن، بالامكان، ، بعد حسابات جيدة؛ اعتبارها حرباً واحدة: الحرب ذاتها دائماً. واكثر ما لفت انتباه فلورينتينو اريثا في تلك الخطبة الساحرة، هو امكانية بعث مهرجان الزهور من جديد، والذي كان اكثر مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو شهرة وديمومة. وكان عليه ان يعض لسانه كي لا يقول له بانه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين، ليس في بقية انحاء البلاد وحسب، وانما كذلك في بلدان الكاريبي الاخرى.

ما كادت المحادثة تبدأ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة، وصفقت عاصفة رياح متقاطعة الابواب والنوافذ، بقوة، واهتزت المبنى وأنّت ركائه وكأنه زورق في مهب الريح. لم يبد على الدكتور خوفينال اوربينو أنه أحس بما يجري. اذ اشار بشكل عرضي إلى أعاصير حزيران المجنونة، ثم انتقل فجأة، وبلا مناسبة، للحديث عن زوجته. لم يكن يعتبرها مساعدة نشيطة في مبادراته فقط، بل وروح تلك المبادرات ذاتها. قال: «لست شيئاً يذكر دونها». استمع اليه فلورينتينو اريثا بلا تأثر، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه، دون ان يتجرأ على قول اي شيء خوفاً من ان يخونه الصوت. ومع ذلك، فان عبارتين او ثلاث عبارات اخرى كانت كافية لجعله يدرك ان الدكتور خوفينال اوربينو، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو، وقد اذهلته هذه الحقيقة. لكنه لم يستطع اتيان رد الفعل الذي شاءه، لان قلبه عاجله حينئذ بخاطر عاهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط: كشف له انه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي، ضحيتا المصير نفسه، وانهما يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة. بهيمتان مربوطتان

معاً إلى النير نفسه. وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين اللانهائية التي امضاها متنظراً، لم يستطع فلورينتينو اريثا مقاومة وخز الألم لاحساسه بانه لابد من موت ذلك الرجل الموقر ليتعم هو بالسعادة.

مر الاعصار سريعاً، لكن عواصفه خربت خلال خمس عشر دقيقة أحياء المستنقعات، وسببت دماراً في نصف احياء المدينة. ولم ينتظر الدكتور خوفينال اوربينو، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر، إلى ان يتوقف المطر نهائياً، وحمل معه سهواً مظلة فلورينتينو اريثا الخاصة التي اعاره اياها للوصول إلى العربة. لكن هذا الاخير لم يهتم. بل على العكس: أحس بالسعادة وهو يفكر بما ستفكر فيه فيرمينا داثا عندما تعرف من هو صاحب المظلة. كان ما يزال مضطرباً بانفعالات المقابلة حين مرت ليونا كاسياني من مكتبه، فرأى انها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السر لها دون مزيد من المواربة، والافضاء به كما يشق دملاً ينغص عليه حياته: الآن أو أبداً. بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال اوربينو. فاجابته دون ان تفكر بالامر تقريباً: «انه رجل يساهم بأعمال كثيرة، وربما هي كثيرة جداً، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكر به». ثم تروت قليلاً، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة والكبيرة، أسنان زنجية كبيرة، ثم هزت كتفيها لتصفي مسألة لا تهمها بشيء، وقالت:

ـ ربما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الاعمال: حتى لا يضطر للتفكير.

فقال:

ـ ما يؤلمني هو أنه يجب أن يموت.

قالت:

ـ جميع الناس سيموتون.

قال:

ـ أجل، انما هذا أكثر من جميع الناس.

لم تفهم شيئاً. وعادت تهز كتفيها دون ان تتكلم، وانصرفت. حينئذ عرف فلورينتينو اريثا انه في ليلة مستقبلية غير محددة، وفي سرير سعيد مع فيرمينا داثا، سيروي لها انه لم يكشف سر حبها حتى للانسانة التي اكتسبت حق الاطلاع عليه، لا . . لن يكشفه أبداً، حتى ولا لليونا كاسياني ليس لانه لا يريد فتح الصندوق الذي خبأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة، وانما لانه ادرك حينئذ فقط بانه قد أضاع المفتاح.

لم يكن هذا مع ذلك، هو اكثر ما أثر فيه يومذاك. لقد أعاد له اللقاء حنين أيام شبابه، وذكرى حية من مهرجان الزهور، الذي كانت اصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مالئة أجواء الانتيل. ولقد كان دائماً واحداً من أبطال المهرجان، انما كعادته في كل شيء

دوماً، كان بطلاً سرياً. شارك مرات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى، قبل اربع وعشرين سنة خلت، ولم ينل أبداً اية جائزة، بل ولا التنويه الاخير. لكنه لم يكن يبالي، لانه لا يشارك طمعاً بالجائزة، وانما لانه يجد في المسابقة جاذبية خاصة: ففيرمينا داثا تولت مسؤولية فتح المغلفات المختومة بالشمع واعلان النتائج في الدورة الأولى، وأقر منذ ذلك الحين ان تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية.

وفيما هو مختبىء في عتمة المقاعد في الصالة، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق، رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا داثا وهي تفتح المغلفات الثلاثة المختومة بالشمع الاحمر من فوق منصة المسرح لوطني القديم، ليلة المسابقة الأولى. تساءل ما الذي سيصيب قلبها حين تكتشف انه هو الفائز بالسحلبة[1] الذهبية. كان متأكداً انها ستتعرف على خطه، وانه ستتداعى إلى مخيلتها في تلك اللحظة امسيات التطريز تحت اشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل، وفالس الربة المتوجة، الذي يعرفه كلاهما، في الصباحات ذات الرياح. لكن ذلك لم يحدث. بل ان ما حدث كان أسوأ من اي تصور: فالسحلبة الذهبية، جائزة الشعر الوطنية المنشودة، خصصت لمهاجر صيني. والفضيحة العامة التي اثارها ذلك القرار العجيب وضع جدية المسابقة موضع الشك. لكن الخطيئة كانت عادلة، وكان لاجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوقها.

لم يصدق أحد ان يكون ناظمها هو الصيني الفائز. كان قد وصل إلى المدينة في اواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بينا اثناء مدّ السكة الحديد ما بين المحيطين، إلى جانب صينيين آخرين استقبروا هنا حتى موتهم، وكانوا يعيشون بالصينية، ويتناسلون بالصينية، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم. لم يتجاوزوا أول الأمر العشرة أشخاص، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها، ولكن ما ان انقضت عدة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد دون ان يتركوا اثراً في سجلات الجمارك. وقد تحول بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقرين بسرعة كبيرة جداً لم يدرك أحد معها كيف اتيح لهم الوقت ليشيخوا. وقد قسمتهم البديهة الشعبية إلى صنفين: الصينيون الاشرار والصينيون الاخيار. الاشرار هم أصحاب حانات الميناء الصغيرة الكئيبة. حيث يمكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فئران محضر مع عباد الشمس، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بانها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق ابيض.

(١) السحلبة: زهر نبتة السحلبية. وهي نبتة برية ازهارها ذات لون ارجواني.

وغيرها. أما الصينيون الأخيار فهم صينيو محلات كيّ الملابس، ورثة هذا العلم المقدس، الذي يعيدون القمصان أنصع مما كانت عليه وهي جديدة، جاعلين ياقاتها ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج. وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً.

لم يفهم أحد من الحضور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة ليس لانه كان اسماً غريباً وحسب، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي اسماء الصينيين أيضاً. لكنهم لم يفكروا بالأمر طويلاً، اذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يبتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر. لا بد انه جاء وهو متأكد من الفوز، فارتدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الاصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع. تلقى السحلية الذهبية من عيار اربعة وعشرين قيراطاً، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستنكرين الصاخب. لم يتأثر. وانتظر في منتصف المنصة. ثابت الجنان كرسول عناية الهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها، وانتهز أول لحظة صمت ليقرأ القصيدة. فلم يفهمها أحد. ولكن حين توقف تيار السخرية الجديد، أعادت فيرمينا داثا قراءتها دون تأثر، بصوتها الأبح اللماح، فسيطر الذهول على الجميع منذ البيت الأول. لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية، متقنة، ومخترقة بنفحة الهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها. التفسير الوحيد المقبول هو ان أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور، وان الصيني قد شارك فيها مقرراً كتمان السر حتى الموت. صحيفة دياريو ديل كوميرثيو، جريدتنا العريقة، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم حول عراقة تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي، وحقهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور. ولم يشك كاتب المقال في ان واضع السوناتة هو من يدعي ذلك فعلاً، وبرر الأمر دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان: **الصينيون كلهم شعراء**. مدبرو المؤامرة، ان كان لها من مدبرين، تعفنوا في قبورهم مع السر. وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي دون ان يعترف، وقد دُفن مع السحلية الذهبية في التابوت، وكذلك مع غصة انه لم يستطع ان يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق اليه، ألا وهو اعتماده كشاعر. وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كهان محدثة وبغناء فتيات متفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي، وانتهز الارباب القيمون على الشعر المناسبة ليضعوا الامور في نصابها: كانت السوناتة تبدو للجيل الجديد على درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في ان كاتبها هو الصيني الميت فعلاً.

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلورينتينو اريثا بذكرى متأنقة مجهولة كانت تجلس إلى جانبه: كان قد تأملها عند بدء الاحتفال. لكنه ما لبث ان نسيها في رعب الانتظار. لقد لفتت انتباهه لبياضها اللؤلؤي، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها، ولصدرها الضخم النديّ المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية. كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الاسود، شديد السواد كعينيها الدسمتين، وكان شعرها أشد اسوداداً، تثبته على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه الغجريات. كانت تضع اقراطاً متدلية، وعقداً من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدة أصابع، جميعها ذات طبعة براقة، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجنتها اليمنى. وفي ضجة التصفيق النهائي، نظرت إلى فلورينتينو اريثا بكآبة صريحة وقالت له:

ـ صدقني انني آسفة من أعماق روحي.

ذهل فلورينتينو اريثا، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً، وانما لاندهاشه بان هناك من يعرف سره. وأوضحت له: «ادركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك اثناء فتح المغلفات». أرته زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها، وفتحت له قلبها قائلة:

ـ لهذا السبب نزعت زهرتي.

كانت على وشك البكاء للهزيمة، لكن فلورينتينو اريثا أبدل مزاجها بغريزته كصياد ليلي حين قال لها:

ـ هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً.

أصطحبها إلى بيتها. وفيما هما أمام الباب، ونظراً لأن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لأحد في الشارع، فقد أقنعها بان تدعوه لتناول كأس من البراندي ورؤية ألبومات قصاصات وصور أحداث اكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة، أخبرته انها تملكها. انها خدعة قديمة جداً، ولكنها كانت لا ارادية هذه المرة لانها هي التي تحدثت عن البوماتها فيما هما قادمان من المسرح الوطني. دخلا. وأول ما لاحظه فلورينتينو اريثا هو ان باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً، وان سريرها كان فسيحاً وفخماً، عليه غطاء من البر وكاروله مسند علوي من البرونز المزخرف. لقد بلبله هذا المشهد. ولا بد انها انتبهت لذلك، اذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم. ثم دعته للجلوس على متكأ من اكريتون المزين برسوم أزهار حيث كان ينام هر، ووضعت على طاولة صغيرة أمامه مجموعة ألبوماتها. بدأ فلوريتنينو اريثا بتصفحها دون اسراع، مفكراً بخطواته التالية اكثر من تفكيره بما يراه، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع. فنصحها بان تبكي متى شاءت، دون خجل، ، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء، لكنه اشار عليها بان تحلّ الصديري لتبكي براحة. وسارع

لمساعدتها، لأن الصديري كان مثبتاً بقوة على الظهر بواسطة رباط متقاطع. ولكنه قبل ان ينتهي من حلّ الرباط، اذا بالصديري يفلت وحده بالضغط الداخلي، وتنفست الاثداء الفلكية براحتها.

فلورينتينو اريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرة الأولى، حتى في المناسبات الاكثر سهولة، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه، فتلوت بآهة طفلة مدللة دون ان تتوقف عن البكاء. عندئذ قبلها في الموقع ذاته، بنعومة، وكأنه يقبلها بأصابعه، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لانها التفتت اليه بكامل جسدها العظيم، الشره والدافىء، وتدحرجا معاً على الأرض. استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواء حاداً، وقفز فوقهما. بحثا عن بعضهما باللمس كمبتدئين متهورين ووجدا نفسيهما كيفما اتفق، منقلبين فوق الألبومات المنتزعة اغلفتها، بملابسهما، غارقين في العرق، واكثر انشغالاً بتفادي خرمشات القط الغاضبة من اهتمامهما بكارثة الحب التي يقترفانها. ولكنهما منذ تلك الليلة، بجراحهما التي ما زالت تنزف، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات.

عندما انتبه إلى انه بدأ يحبها، كانت قد أصبحت في أوج الاربعينات، وكان يكاد ان يكمل الثلاثين. اسمها سارا نوريغا، وقد نعمت بربع ساعة من الشهرة في شبابها، حين فازت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء، لم يجد طريقه إلى النشر أبداً. كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية، وتعيش على راتبها في بيت مستأجر في زقاق لوس نوفيوس المضطرب، في حي خيتثيماني القديم. لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين، دون ان تراود أياً منهم آمال الزواج منها، لانه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضاجعها. كما انها لم تعد تغذي هذا الأمل في نفسها بعد ان هجرها خطيبها الرسمي الأول، الذي أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وقد هرب من التزامه قبل اسبوع من الموعد المحدد للزفاف، وتركها ضائعة كعروس مخدوعة، أو كعزباء مستعملة، كما كان يقال في ذلك الحين. ورغم قسوة تلك التجربة وسرعة انتهائها، فانها لم تسبب لها أية مرارة، بل رسخت لديها قناعة طاغية بأن الحياة بالزواج أودونه، بدون رب أوقانون، لا تستحق ان تعاش ان لم تكن بوجود رجل في الفراش. واكثر ما كان يعجب فلورينتينو اريثا فيها هو انها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب لكي تصل إلى ذروة المجد. وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الاحجام والاشكال والألوان التي وجداها في السوق، وكانت سارا نوريغا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة لها.

ورغم انهـا كانت حرة مثله، وربـما انهـا ما كانت لتعـارض كشف علاقتها للملأ، إلا ان فلورينتينو اريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية. كان ينسل من باب الخدمة، في وقت متأخر من الليل دوماً، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل. وكان يعرف مثلما تعرف هي انه في بيت مشترك يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت، لابد للجيران في النهاية من أن يكونوا اكثر اطلاعاً مما يتظاهرون. ولكن فلورينتينو اريثا كان هكذا، حتى ولو كان الأمر مجرد معادلة نظرية، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته. لم يقترف أي خطأ أبداً، سواء معها أو مع أي واحـدة اخـرى، ولم يرتكب أبـداً أي خروج على هذا المبـدأ. لم يكن يبالغ. وفي مناسبة واحدة فقط ترك اثراً مشبوها أو دليلاً مكتوباً، كاد يكلفه حياته. والحقيقة انه تصرف دائماً كما لو كان الـزوج الابـدي لفـيرمينا داثا، زوج غير مخلص ولكنه متمسك بزوجته، يناضل دون هوادة ليتحرر من عبوديتها، ولكن دون ان يسبب لها غمّ الخيانة الزوجية.

لم يكن ممكنـاً لهذه السـريـة المحكمة ان توفق دونما خطأ. فحتى ترانسيتو اريثا توفيت وهي مقتنعة ان ابنها الذي حبلت به بالحب وترعرع للحب كان محصناً ضد أي شكل من اشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه، ومع ذلك، فان اناساً كثيرين أقل اريحية ممن هم قريبون منـه، ويعـرفـون طبيعتـه السـريـة وميله إلى المـلابس الزاهدة والمستحضرات الغريبة، كانوا يشـاركـون في الشكوك بانه ليس محصناً ضد الحب وانما ضد المرأة فقط. وكان فلورينتينو اريثا يعرف ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبة. كما ان الامر لم يكن يقلق سارا نوريغا، وغيرها من النسـاء الكثيرات اللواتي احبهن، بل وأولئـك اللواتي كن يمتعنـه ويستمتعن معـه دون ان يحببنه، ويقبلن به كما هو في الواقع: رجل عابر.

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت، وخصوصاً في صباحات أيام الآحاد، التي كانت أهدأ الأوقات. فكانت تترك ما تقوم به، مهما كان، وتكرس نفسها بكامل جسدها محاولة اسعاده في السرير التاريخي الفسيح الذي كانت متأهبة له دوماً، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية. ولم يكن فلورينتينو اريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخدام جسـدهـا الـدلفيني العذب بكل هذه الخفة وهذا الحنان كما لو انها تتحرك تحت الماء. وكانت تدافع عن نفسها بالقول ان الحب، قبل كل شيء، هو موهبة طبيعية. وتقول: «اما ان يولد الانسـان وهـو يعـرفه أو انه لن يعرفه أبداً». كان فلورينتينو اريثا يتلوى بغيرة تفكيره بانها ربما تكون اكثر استعمالاً مما تتظاهر به، وكان عليه ان يبتلع غيرته كلها، لانه كان يقول لها ما قاله للاخـريـات جميعهن، بانهـا عشيقتـه الوحيدة. ومن الاشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها، كان صبره على وجـود القـط الهـائـج في السـريـر، والـذي كانت سارا نوريغا تقلم مخالبه حتى لا

يمزقها بخرمشته اثناء ممارستها الحب.

ومع ذلك، وكفرحها في السرير حد الانهاك، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشعر. ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ أشعار عصرها العاطفية وحسب، تلك التي يباع جديدها في كتيبات بستافين في الأزقة، بل انها كانت تعلق بمسامير على الجدران قصائدها المفضلة، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت. وكانت قد نظمت في مقاطع احد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الاملاء حينئذ، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية باقرارها. لقد كان اندفاعها الخطابي يحملها أحياناً إلى مواصلة القاء الشعر باعلى صوتها اثناء ممارستها الحب، مما يضطر فلورينتينو اريثا لدس مصاصة في فمها، مثلما يفعلون بالاطفال لوقفهم عن البكاء.

كان فلورينتينو اريثا يتساءل وهما في أوج علاقتهما، أي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب. . هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملهما في أمسيات الآحاد الهادئة فتطمئنه سارا نوريغا بحجة بسيطة هي ان كل ما يفعلانه عاريين هو الحب. وكانت تقول: «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت». وقد بدالها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المقسوم، كتباها بأربعة أيد، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس، موقنة ان أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الاصالة. لكنها خسرت من جديد.

كانت ثائرة عندما اصطحبها فلورينتينو اريثا إلى بيتها. ولم تستطع تفسير سبب ثورتها. كانت مقتنعة ان ثمة مؤامرة تدبرها فيرمينا داثا ضدها، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة. لم يولها فلورينتينو اريثا اذناً صاغية. لقد كان مكتئب المزاج منذ تسليم الجوائز، فهو لم ير فيرمينا داثا منذ زمن بعيد، وقد أحس تلك الليلة بانها قد تغيرت تغيراً عميقاً: فللمرة الأولى تظهر جلية لأول وهلة حالتها كأم. لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه، فقد كان يعلم ان ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة. ولكن عمرها الامومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حد ما، أو في عثرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز.

وفي محاولة لتثبيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجانات الزهور فيها سارا نوريغا تعد شيئاً للأكل. رأى صوراً مأخوذة من مجلات، وبطاقات مصفرة من تلك التي تباع كتذكارات في الازقة، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات. فقد كان يرتكز حتى ذلك الحين على وهم ان الدنيا هي التي تتغير، فالعادات تتغير وكذلك الموضة. . كل شيء يتغير إلا هي. لكنه رأى في تلك الليلة، للمرة الأولى، وبشكل جليّ كيف كانت حياة فيرمينا داثا

تمضي، وكيف كانت حياته هو تمضي، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار. لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً، لانه يعرف انه عاجز عن نطق اسمها دون ان يظهر الشحوب على شفتيه. أما في هذه الليلة، وفيما هو يتصفح الالبومات كما يفعل في معظم سهرات الاحد المملة، حققت سارا نوريغا صدفة، اصابة من تلك التي تجمد الدم حين قالت:

- انها لعاهرة.

قالت ذلك لدى مرورها، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متنكرة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية، ولم يكن عليها ان تذكر اسماً ليعرف فلورينتينو اريثا عمن تتحدث. سارع إلى الدفاع بحذر، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يزعزع حياته. نبه إلى انه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد، وان معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية وانه لا يمتلك أية أخبار عن حياتها الخاصة، لكنه ابدى قناعته بانها امرأة محترمة، خرجت من لا شيء. وارتفعت بمواهبها الذاتية.

فقاطعته سارا نوريغا:

- بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه. انها أحط وسيلة للدعارة.

كانت أم فلورينتينو اريثا قد قالت له ذلك يوماً بفظاظة أقل، انها بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته. ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا، فحاول الهرب من الموضوع. لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل ان تفرج عن نفسها ضد فيرمينا داثا. وبضربة حدس لم تكن قادرة على تفسيرها، أبدت قناعتها بانها هي من دبر المؤامرة لحجب الجائزة عنها. لم يكن ثمة سبب لتصديق ذلك: فهما لا تعرفان بعضهما، ولم تلتقيا أبداً، وليس لفيرمينا داثا أية علاقة بقرارات المسابقة، هذا اذا كان لها أي اطلاع على اسرارها. وقالت سارا نوريغا بشكل قاطع: «اننا معشر النساء عرافات». ووضعت حداً للنقاش.

منذ هذه اللحظة، رآها فلورينتينو اريثا بعينين اخريين. فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها كذلك. وكانت طبيعتها الخصبة تذوي دون أمجاد، وصار حبها يتماطل في النحيب، وبدأت المرارات القديمة تظهر على اجفانها. انها زهرة الأمس. ثم انها، في فورة غضب الهزيمة، أهملت حساب كؤوس البراندي التي تجرعها. لم تكن في ليلها. وفيما هما يأكلان رز جوز الهند الذي اعادت تسخينه، حاولت ان تحدد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة، لتعرف كم ورقة من أوراق السحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منهما لو انهما فازا. ولم تكن المرة الأولى التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوه، واشتبكا في نزاع بائس أحيا احقادهما المتراكمة خلال خمس

سنوات من الحب المنقسم.

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتملأ ساعة البندول المعلقة، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً دون ان تنظر اليه، ربما كانت راغبة ان تقول بذلك دون ان تقوله بان وقت انصرافه قد حان. أحس فلورينتينو اريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها، وبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة، كما اعتاد ان يفعل دوماً. كان يدعو الله بان تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها ان لا، وان كل شيء قد انتهى بينهما، وطلب منها ان تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة. لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه، على كرسي من كراسي الزيارات. عندئذ مد لها فلورينتينو اريثا اصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمصها، كما كانت تحب ان تفعل قبل الحب في ازمان اخرى. فتجنبتها قائلة:

ـ ليس الآن. انني انتظر شخصاً.

منذ صدته فيرمينا داثا، تعلم فلورينتينو اريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الاخير. كان بامكانه الاستمرار بمحاصرة سارا نوريغا لو ان الظروف كانت أقل مرارة، متأكداً من انه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً معها على السرير، لانه يعرف ان امرأة ضاجعت رجلاً لمرة واحدة، ستتابع مضاجعته كلما شاء، طالما عرف كيف يلينها في كل مرة. لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة، ومر على كل شيء دون مبالاة، بما في ذلك أقذر أنواع الحب، حتى لا يتيح الفرصة لاي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي. لكنه أحس في تلك الليلة بانه ذليل جداً، فجرع البراندي دفعة واحدة، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه، ومضى دون ان يودعها. ولم يريا بعضهما بعدها.

كانت العلاقة بسارا نوريغا احدى أطول علاقات فلورينتينو اريثا واكثرها استقراراً، رغم انها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس. وعندما احس بانه يشعر بالراحة معها، وخصوصاً في الفراش، ودون ان يتوصل إلى احلالها محل فيرمينا داثا، استفحلت لياليه كصياد متوحد، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول. ومع ذلك، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت. واستطاع العيش على الأقل دون رؤية فيرمينا داثا، على العكس مما كان عليه من قبل، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تمليها عليه افكاره، وفي شوارع لا تخطر على بال، واماكن وهمية يستحيل وجودها فيها، هائماً على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو للحظة واحدة. لقد اثار قطع علاقته بسارا نوريغا اشواقه الكامنة، وأحس مجدداً بالاحساسيس التي كانت تنتابه في امسيات

الحديقة الصغيرة اثناء قراءته اللانهائية، ولكنه كان احساساً مثقلاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال اوربينو.

كان يعرف منذ زمن انه مرصود لاسعاد أرملة، وانها مرصودة لاسعاده، ولم يكن هذا ليقلقه. بل على العكس: كان مستعداً للأمر. ولكثرة ما عرف منهن في غزواته كصياد متوحد، أصبح فلورينتينو اريثا يعرف ان الدنيا مليئة بأرامل سعيدات. لقد رآهن يفقدن صوابهن أسىً أمام جثة الزوج، ويتوسلن دفنهن بالحياة في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه، ولكنهن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحيوية مخضوضرة. يبدأن الحياة كاشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيات خادماتهن، عاشقات وسائدهن، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجدب. يضيعن فائض الوقت في تثبيت الازرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على ثياب الميت، ويكوين ثم يعدن كيّ قمصانه ذات المعاصم والياقات البارافينية لتكون جاهزة دوماً. ويتابعن وضع الصابون له في الحمام، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير، وطبقه وادوات طعامه في مكانه على المائدة، فلربما عاد من الموت دون اشعار مسبق، كما كانت عادته في الحياة. ولكنهن في طقوس العزلة تلك، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيدات مصيرهن، بعد تخليهن ليس عن لقب اسرتهن فقط، بل وعن هويتهن ذاتها، كل ذلك مقابل أمان لم يكن اكثر من حلم آخر من احلامهن وهن عرائس. هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي احببن بجنون، والذي ربما احبهن، اذ كان عليهن ان يتابعن تربيته حتى النفس الأخير. كان عليهن ارضاعه، وتبديل حفاضاته الملوثة، وتسليته بخدع الأمهات لتهدئة مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع. ولكنهن ما ان يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهن، حتى يداخلهن الخوف من ألا يعود الرجل أبداً. هكذا كانت حياتهن. أما الحب، ان كان له من وجود فهو شيء آخر... حياة اخرى.

في بطالة الوحدة الشافية، تكتشف الأرامل أيضاً ان الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد، بالأكل حين يجعن فقط والحب دون نفاق، والنوم دون حاجة إلى تصنع النوم للافلات من الحب الرسمي، وسيادتهن اخيراً على سرير كامل لهن وحدهن لا يشاركهن أحد نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن ولا نصف ليلهن، وقدرتهن على النوم إلى ان يرتوي الجسد من الحلم باحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلو له. لقد كان فلورينتينو اريثا يلتقي بهن في صباحاته كصياد متخفٍ وهن خارجات من قداس الخامسة صباحاً، مكفنات بالأسود وبوم القدر على اكتافهن. وما ان يرينه في ضوء الفجر حتى يجتزن

الشارع وينتقلن إلى الرصيف الآخر بخطوات ضيقة ومتقطعة، كخطوات عصفور، لان مجرد مرورهن قريباً من رجل قد يلوث شرفهن. ولكنه كان موقناً رغم ذلك من أن أي ارملة حزينة تحمل في داخلها، اكثر من أي امرأة اخرى، بذرة السعادة.

أرامل كثيرات في حياته، ابتداء من ارملة ناثاريت، الحن له ان يرى كيف يمكن للمتزوجات ان يكن سعيدات بعد وفاة ازواجهن وما كان بالنسبة له مجرد خلم تحول بفضلهن الى احتمال يمكن لمسه باليد. ولم يجد اسباباً تحول دون ان تكون فيرمينا داثا أرملة مماثلة، دربتها الحياة على القبول به كما هو، دون اوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت، حاسمة امرها على اكتشاف السعادة الاخرى معه لتنعم بالسعادة مرتين، بحب جسدي يومي يتحول في كل لحظة إلى معجزة حياة، وحب آخر لها وحدها، محصن ضد اية عدوى بمناعة الموت.

ربما انه ما كان ليتحمس لو ارتاب مجرد ارتياب بان فيرمينا داثا بعيدة عن تلك الحسابات الحالمة، حين كان يلمح بالكاد افق عالم كل شيء فيه مهيأ مسبقاً باستثناء الخذلان. وقد كان لثراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة، وكذلك مضار كثيرة بالطبع، ولكن نصف الناس كانوا يتشوقون للثراء ويرون فيه الوسيلة الاكثر احتمالاً للخلود. وكانت فيرمينا داثا قد صدت فلورينتينو اريثا في ومضة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة؛ لكنها لم تشك للحظة في صواب قرارها. لم تكن قادرة للوهلة الاولى على تفسير الاسباب الخفية التي منحتها تلك البصيرة، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً، وهي على اعتاب الشيخوخة، اكتشفت تلك الاسباب فجأة ودون ان تدري كيف، وذلك اثناء حديث عرضي عن فلورينتينو اريثا. جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها، وجميعهم كانوا متأكدين من انهم قد رأوه مرات عديدة، بل ودخلوا معه في صفقة ما، لكن اياً منهم لم يستطع تحديد ملامحه في ذاكرته عندئذ انكشفت لفرمينا داثا الاسباب الكامنة في اللاوعي والتي منعتها من حبه. وقالت: «يبدو وكأنه ليس شخصاً وانما طيفاً». وهكذا كان: طيف شخص لم يره أحد من قبل. ولكن فيما هي تصد حصار الدكتور خوفينال اوربينو، الرجل النقيض، كانت تشعر بانها تتعذب بشبح الذنب، وهو الاحساس الوحيد الذي كانت تعجز عن احتماله. فحين تشعر به، يسيطر عليها نوع من الذعر لا تستطيع التحكم به إلا عندما تجد من يطمئن ضميرها. فمنذ طفولتها المبكرة، عندما كانت تكسر صحناً في المطبخ، أو عندما يقع أحد، أو حين تعصر أحد أصابعها بباب، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص كبير، وتسارع إلى اتهامه: «انت السبب». مع انها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالاقتناع ببراءتها. . كان يكفيها اقرار الامر هكذا.

كان شبح عقدة الذنب واضحاً وقد أدرك الدكتور اوربينو في الوقت المناسب مدى تهديده

لجو الانسجام في بيته، فكان كلما لمحه يسارع القول لزوجته : «لاتقلقي ياحبي، أنا السبب». اذ لم يكن يخيفه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة، وكان مقتنعاً ان منشأ كل ذلك في احساسها بالذنب. ومع ذلك، فان قلقها لصدها فلورينتينو اريثا لم يحُل بعبارة مواساة. والت فيرمينا داثا فتح الشرفة في الصباح لعدة شهور، وكانت تحن دوماً للشبح المتوحد الذي كان يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة، وتراقب الشجرة التي كان يجلس تحتها، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقرأ مفكراً بها، ومتألماً من اجلها، ثم تغلق النافذة من جديد، وتتنهد: «يا للرجل البائس». ولقد قاست من خيبة الأمل لانه لم يكن عنيداً ومثابراً كما ظنت، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي، ولم تتوان عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً. ولكنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال اوربينو وقعت في ازمة رهيبة، اذ ادركت انها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعد ان رفضت فلورينتينو اريثا دون مبررات ملائمة. والواقع انها ما كانت تحبه اكثر مما أحبت الآخر، اضافة إلى ان معرفتها به كانت أقل بكثير، ولم تكن تجد في رسائله تلك الحمى التي وجدتها في رسائل الآخر، كما انه لم يقدم لها ما يكفي من الادلة المؤثرة على قراره. فالحقيقة ان خوفينال اوربينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب، ومن المثير للفضول ان مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دنيوية : الأمن، النظام، السعادة، وهي أرقام ما ان تجمع إلى بعضها حتى تتحول مباشرة إلى شيء كالحب: الحبْ تقريباً. ولكنها ليست الحب، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها، لانها لم تكن مقتنعة كذلك بان الحب هو ما تحتاجه بإلحاح للحياة.

وعلى كل حال، فان العامل الاساسي ضد الدكتور خوفينال اوربينو كان في شبهه الاكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي كان يأمل فيه لورنيثو داثا كزوج لابنته. كان مستحيلاً عليها ألا تراه كشخصية خارجة من اسطورة ابوية، مع انه لم يكن كذلك في الواقع. لكن فيرمينا داثا كانت مقتنعة بانه كذلك منذ رأته يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يدعَ اليها. ثم جاءت احاديثها مع ابنة خالها هيلديبراندا لتزيد من بلبلتها. فبسبب احساس هذه الاخيرة بانها ضحية، كانت تجد نفسها في فلورينتينو اريثا، متناسية ان لورينثو داثا انما بعث بطلبها لتمارس تأثيرها لصالح الدكتور اوربينو. والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فيرمينا داثا لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتتعرف على فلورينتينو اريثا في مكتب التلغراف. فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهته بشكوكها، التحدث اليه على انفراد، ومعرفته بعمق للتأكد من ان قرارها المتهور لن يورطها في اتخاذ قرار آخر أشد خطورة، يكون استسلاماً في حربها الشخصية ضد ابيها. ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها، دون ان

تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم اليها الذكوري، ولا ثروته الخرافية، ولا مجده المبكر، ولا أي ميزة اخرى من ميزاته الواقعية، وانما فعلت ذلك وهي ذاهلة. يساورها الخوف من ان تفلت الفرصة من يدها، ومن اقترابها من اكمال احدى وعشرين سنة، وهو السن المتعارف عليه، الذي عليها بعده الاستسلام للقدر. كانت لحظة كافية لاقدامها على اتخاذ القرار المبين في قوانين الرب والبشر: حتى الموت. عندئذ زالت جميع الشكوك، وفعلت دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقاً: مرت باسفنجة دون دموع فوق ذكرى فلورينتينو اريثا، ومسحته تماماً، مفسحة المجال ليتفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرجاًمن شقائق النعمان. والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان اطلاق تنهيدة أعمق من المعتاد، التنهيدة الاخيرة: «ياللرجل البائس!».

لكن اكثر شكوكها اخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف. فما ان فتحت الصناديق، وحلت الحزم والطرود وأفرغت محتويات الاحد عشر صندوقاً التي أحضرتها معها لتتسنم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، حتى تنبهت بانبهار قاتل إلى انها سجينة في بيت خاطيء، والأسوأ من ذلك انها كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً. لقد احتاجت ست سنوات للخروج، كانت أسوأ سني حياتها، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا، حماتها، وتخلف اختي زوجها العقلي، اللتين ان لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما.

الدكتور اوربينو المستسلم لدفع ضريبة اصله النبيل، صمّ اذنيه عن رجائها، موقناً ان حكمة الله وقدرة الزوجة اللانهائية على التأقلم كفيلان بوضع الأمور في نصابها. كان حزيناً لانهيار أمه، بعد ان كان حبها للحياة في زمن آخر يبث الرغبة بالحياة حتى في اعتى الكفرة. هذا صحيح: فتلك المرأة الجميلة، الذكية، ذات الحساسية الانسانية التي لا مثيل لها في وسطها، كانت خلال مايقرب من اربعين سنة روح وجسد فردوسها الاجتماعي، الى ان اذاقها الترمل المرارة حتى استحال التعرف عليها، وجعلها مترهلة وساخطة، ومعادية للدنيا. والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحى بحياته وهو واع في سبيل كومة من الزنوج، كما كانت تقول، في حين ان التضحية الوحيدة العادلة هي نجاته من الموت في سبيلها. ولقد استمر زواج فيرمينا داثا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانهيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم. وعليه، وليس على شقيقتي زوجها المعتوهتين وحماتها نصف المخبولة، كانت فيرمينا داثا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك. وبدأت تشك بعد فوات الآوان بان الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره

الدنيوي شخصاً ضعيفاً بلا خلاص. . شيطاناً بائساً يتغطرس بوزن القابه الاجتماعي.
لجأت حينئذ الى الابن حديث الولادة. كانت قد أحست عند خروجه من جسدها براحة التحرر من شيء ليس منها، وعانت الهول من نفسها حين رأت انها لاتشعر بأدنى عاطفة تجاه عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عار تماماً، وملوث بالدهن والدم، وحبل الخلاص ملتف حول عنقه. لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرف عليه، فتعارفا، واكتشفت بفرح شديد ان حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم ابناء، وانما منشأه صداقة التربية. وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواءه في بيت محنتها. كان الحزن يقل عليها، وكذلك الحديقة المأتمية، وترهل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها. أحست بالجنون في الليالي المتطاولة بصراخ المجنونات في مشفى الامراض العقلية المجاور. وكانت تُخجلها عادة اعداد مائدة الولائم كل يوم، بشراشف مطرزة، وأدوات طعام فضية وشمعدانات مأتمية، لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجبن. مقتت صلوات الظهيرة، والتكلف على المائدة، والانتقادات المتوالية لطريقتها بامساك أدوات الطعام، ومشيتها بهذه الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع، ولارتدائها ملابس كملابس السيرك، بل ولاسلوبها القروي في معاملة زوجها وارضاع طفلها دون تغطية ثديها بدثار الرضاعة. وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساء، مع بسكويت امبراطوري وحلوى زهور، تماشياً مع عادة محدثة في انكلترا، عارضت دونيا بلانكا لانه لا يمكن تناول المشروبات الطبية المستخدمة للتعرق عند الحمى في بيتها بدلاً من الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليكة. ولم تفلت منها حتى الاحلام. ففي صباح أحد الأيام روت فيرمينا داثا انها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عاريا ويرش حفنات من الرماد في صالات القصر، فقاطعتها دونيا بلانكا بجفاء:
ـ لايمكن لامرأة محتشمة ان تحلم هذا النوع من الأحلام.
والى احساسها بانها تعيش في بيت غريب أضيفت نكبتان كبريان. احدهما طبق الباذنجان اليومي بجميع اشكاله، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج الميت، بينما ترفض فيرمينا داثا أكله بأي حال. كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها، وقبل ان تتذوقه، لانه بدا لها دوماً بلون السمّ. ولكن لا بد لها من القبول على كل حال بان شيئاً من اعتقادها قد تبدل، وكان في صالح حياتها. فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت تقوله دوماً على المائدة، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدة لستة أشخاص. ظنت انها ستموت، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً، ثم بسبب فنجان زيت الخروع الذي اجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب. وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان

في ذاكرتها على انها مُسهل، سواء بطعمهما أوبرعب السم، واثناء وجبات الغذاء الفظيعة في قصر المركيز دي كاسالدويرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروع.

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة. ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقوله: «لا أؤمن بوجود نساء محترمات لا يتقن العزف على البيانو». كانت تُصدر بذلك أمراً مما دفع ابنها لمجادلتها. فأفضل سنوات حياته امضاها سجيناً في دروس البيانو، رغم انه حمد ذلك في رشده. لكنه لم يكن قادراً على تصور زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد، خاضعة إلى العقوبة ذاتها. فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة، بذريعة صبيانية تقول انها الاداة الموسيقية التي يستخدمها الملائكة. وهكذا جلبوا من فيينا القيثارة الرائعة، التي بدت وكأنها من الذهب، وكانت أنغامها تصدح وكأنها كذلك فعلاً، والتي صارت فيما بعد أحد ابرز مقتنيات متحف المدينة، إلى ان التهمتها النيران مع كل ما كان فيه. خضعت فيرمينا داثا الى عقوبة الرفاهية هذه محاولة وقف الانهيار بتضحية اخيرة. بدأت الدروس مع معلم معلمين أحضروه خصيصاً من مدينة مومبوكس، فمات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقّي الدير، الذي كانت روحه الجنائزية تشوه موسيقاه القيثارية.

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها. فمع انها ماكانت تقبل ذلك في قرارة نفسها، ولا في مجادلاتها الصماء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل، الا انها تورطت باسرع مما كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده. كانت تردد أول الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها: «إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم». ولكنها ما لبثت ان تحمست لامتيازاتها التي احسنت كسبها، وخافت من الخزي والسخرية، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء، حتى المذلة، على أمل ان يعطف الله اخيراً على دونيا بلانكا، التي لم تكن تمل دعوته في صلواتها بان يبعث اليها الموت.

كان الدكتور اوربينو يبرر ضعفه بذرائع واهية، حتى دون ان يتساءل ان لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسته. فهو لا يوافق على ان منشأ الخلافات مع زوجته هو جو البيت المفكك، وانما في طبيعة الزواج بحد ذاته. انه ادعاء سخيف لا وجود له إلا في بركات الله اللانهائية، يتناقض مع اي سبب علمي في ان شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما، ولا تربطهما أية صلة قربى، مختلفي الطبائع والثقافة، بل ومختلفي الجنس أيضاً وجدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربما كانا مقررين في اتجاهين مختلفين. كان يقول: «مشكلة الزواج هي انه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب، ولا بد من

العـودة إلى بنـاتـه كل صباح قبل تناول الفطور». أما زواجهما، كما يقول، القائم بين طبقتين متنـاحـرتين، في مدينة ما زالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هو شيء صعب ومتقلب كالحب، ان كان له من وجود، وفي حالتهما لم يكن له وجود عند زواجهما، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب.

هكـذا كانت حياتهـا في مرحلة القيثـارة. لقـد تراجعت المصـادفات السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحمّ، ورغم المجادلات، والباذنجان السام، ورغم الشقيقتين المعتوهتين والأم التي انجبتهـا، كان لديـه ما يكفي من الحب ليطلب منهـا ان تليّفـة. فتبـدأ عمل ذلك مستعينـة بفتـات الحب الذي بقي لديها من اوروبا، ثم يتيح كلاهما للذكريات ان تخدعهما، متحـدثـين دون ان يشـاءا، وراغبـين دون ان يقـولا، وينتهيان إلى الموت حباً على الأرض، ملوثين بالرغوة المعطرة، فيما هما يسمعان الخادمات تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل: «اذا كانا لا ينجبان أولاداً فلأنهما لا يشذان». وبين الفينة والاخرى. ولدى عودتهما من احدى الحفلات المحليـة، كان الشـوق القـابـع وراء الباب يطرحهما بضربة من مخلبه، فيحدث حينئذ انفجار رائع يعـود كل شيء اثنـاءه إلى ماكـان عليـه من قبـل، ويعـودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيمين كما كانا في شهر العسل.

وباستثناء هذه الفرص النادرة، فان احدهما كان يشعر بالارهاق اكثر من الاخر عند موعد النوم. وكانت هي تتأخر في الحمام لتلف سجائرها بأوراق معطرة، وتدخن وحدها، ممارسة من جديـد غرامياتهـا المـواسية كما كانت تفعل وهي فتية وحرة في بيتها، حين كانت سيدة وحيدة على جسـدهـا. ثم انهـا صارت تعـاني من آلام رأس دائمـة، او تشعـر بالحر الخانق دوماً، أو تتصنع النوم، أو تدعي انها في العادة الشهرية ثانية، العادة الشهرية، ودائماً العادة الشهرية. لدرجـة ان الـدكتـور اوربينـو تجرأ على القـول في أحـد دروسه، لمجرد التفريج عن نفسه من اختناق لا يعترف به ان العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج، تأتي النساء حتى ثلاث مرات في الاسبوع.

نكبـات تضـاف إلى نكبـات، وعلى فيرمينـا دائـا ان تواجـه في أسـوأ سني حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً دون مفر: حقيقة تجارة ابيها السحرية والتي لم تعرفها أبداً. لقد حدد حاكم الـولايـة موعـداً في مكتبـه للدكتور خوفينال اوربينو ليطلعه على سوء سلوك حماه، وقد اختصر تلك المساوىء في جملة واحدة: «لا يوجد قانون الهي أو بشري يوضح كيف امكن لهذا الـرجـل ان يتقـدم». لقـد قام ببعض اخطـر عمليـاته مُستظلاً بسلطة صهره. وكان يصعب التفكـير بان هذا الاخـير وزوجتـه ليسـا مطلعـين على نشاطاته. ولمعرفة الدكتور اوربينو بان

السمعـة الـوحيـدة القـادرة على حماية جماه هي سمعته بالذات، لانها الوحيدة التي ما زالت واقفة على قدمين، فقد وضع كل ثقل سلطته، وتمكن من لفلفة الفضيحة بكلمة شرف منه. وهكذا كان على لورينثو دائا ان يغادر البلاد على أول سفينة وألا يعود أبداً. عاد إلى موطنه الاصـلي كما لو كان في رحلة من تلك الـرحـلات التي يقـوم بها المـرء بين الحـين والآخر لخداع حنينه، وفي أعماق هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة: فمنذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليتناول كأس ماء من خزانات التموين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه. لقد مضى دون حاجـة لليّ ذارعـه، مصـرحاً ببراءته، ومحاولاً اقناع صهره بأنه وقع ضحية مؤامرة سيـاسيـة. مضى وهـو يبكي على الطفلة، كما كان يسمي فيرمينـا دائا مذ تزوجت، ويبكي فراق حفيـده والأرض التي عرف فوقهـا الثـراء والحـريـة، والتي استطـاع ان يحقق فوقها مأثرة تحويل ابنته إلى سيدة مجتمع راقية معتمداً على صفقات غامضة. مضى هرماً ومريضاً، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول مما تمناه أي من ضحاياه. ولم تستطع فيرمينا دائا قهر تنهدة الراحة حين وصلها خبر مرته، ولم تحدّ عليه منعاً لاثارة التساؤ لات، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم دون ان تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمام، وكان انها تبكيه.

أسخف ما في وضعهـا ان السعـادة لم تبـد عليهـا يوماً في الاماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك. لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتها الكبرى على عداوات وسطها الخفيـة، الـوسـط الـذي ما كان ليتنـازل بقبـولها كما هما: مختلفين ومجددين، ومخالفين بالتالي للتقـاليـد القـائمـة. ومـع ذلـك. فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا دائا. فحياة المجتمـع، التي كانت تُخيفهـا كثـيراً قبـل ان تعـرفها، لم تكن اكثر من مجموعة من التحالفات المتـوارثـة، والطقـوس التافهة المبتذلة، والكلمات الجاهزة، التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتالوا بعضهم. ان السمة السائدة في فردوس التفاهة هذا هي الخوف من المجهـول. وقـد حددت فيرمينا دائا ذلك بطريقة إكثر بساطة: «مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجر». اكتشفت ذلـك فجأة بوضـوح مذ دخلت وهي تجر اذيـال فستان الزفاف اللانهائية إلى النادي الاجتـماعي، العـابق بروائـح كل تلك الزهور المتنوعة، وببريق الفالسات، وصخب الرجال المتعـرقـين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها دون ان يدرين حتى ذلك الحين كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قذفهم به العالم الخارجي. كانت قد اتمت احدى وعشرين سنة من عمـرهـا دون ان تخرج من بيتهـا إلا إلى المـدرسـة، لكن جولـة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك ان خصومها ليسوا منكمشين حقداً وانما هم مشلولون خوفاً. وبدلاً من أن تبعث فيهم

مزيداً من الرعب، مثلما تعاني، أحسنت اليهم بمساعدتهم على التعرف اليها. ولم يختلف أحد من الحضور عما ارادت له ان يكون، تماماً كما يحدث لها مع المدن، التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها، وانما كما رسمتها هي في قلبها. فباريس، ورغم مطرها الازلي، وبائعيها البخلاء، ورغم هذر حوذييها الهوميريّ، ستتذكرها دوماً كأجمل مدينة في العالم، لا لانها كذلك أوليست كذلك في الواقع، وانما لانها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها. أما الدكتور اوربينو، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده، والفارق الوحيد انه استخدمها بذكاء أشد، وبوقار محسوب. لم يكن يحدث شيء دون وجودهما: النزهات التمدنية، مهرجانات الزهور، الاحداث الفنية، اليانصيبات الخيرية، الاحتفالات الوطنية، الرحلة الأولى بالمنطاد. لقد كان لهما دور في كل شيء، وغالباً ما كان دورهما هو الاساس والمقدمة. ما كان لأحد ان يتصور في سنوات محنتهما، انه يمكن ان يكون هناك من هو أشد سعادة منهما أو من ينعم بزواج اكثر انسجاماً من زواجهما.

البيت الذي هجره الأب، منح فيرمينا داثا ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي. فكانت ما ان تفلت من الانظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة، لتستقبل هناك صديقاتها الجديدات وبعض صديقاتها القديمات من أيام المدرسة أو دروس الرسم: بديل بريء للخيانة. كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأم عزباء، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي ما زالت في ذاكرتها. أعادت شراء الغربان العطرة، والتقطت قططاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلاثيديا، التي صارت عجوزاً واصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح، لكنها بقيت تحتفظ بالحماس لبعث الحياة في البيت من جديد. أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلورنتينو اريثا لأول مرة، وحيث طلب منها الدكتور خوفينال اوربينو ان تُخرج لسانها محاولاً بذلك التعرف على قلبها، وحولتها إلى هيكل مقدس لذكريات الماضي. وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي، قبل ان تحطم العاصفة الزجاج رأت فلورينتينو اريثا على مقعده تحت اشجار لوز الحديقة، ببدلة ابيه المقيفة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الايام، وانما رأته بسنه التي تحفظها في ذاكرتها. وخشيت ان تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته، وتألمت لذلك. وتجرأت على القول لنفسها بانها ربما كانت اسعد حالاً لو أنها تزوجته.. لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رممته من اجله بكثير من الحب كما رمم بيته من اجلها، لكن مجرد الافتراض ارعبها، لانه أتاح لها ان ترى درك التعاسة الذي وصلت اليه. فاستجمعت عندئذ آخر قواها واجبرت زوجها على مناقشتها دون مراوغة؛ أجبرته على مواجهتها، على مشاجرتها، على البكاء معها قهراً لفقدانها الفردوس، إلى ان سمعا صياح آخر الديكة، ونفذ الضوء من بين تخاريم

القصـر، واشتعلت الشمس، ووقف الـزوج المتـورم لكثـرة ما تكلم، والمنهـك من النعاس، بقلبه المتصلب لكثـرة ما بكى، شدّ ربـاط حذائـه، وشـدّ حزامـه، وشـد كل ما تبقى له من الـرجـولـة، وقـال لها نعم يا حبي، وقـال انهـما سيمضيـان للبحث عن الحب الذي فقداه في اوروبـا: غداً بالـذات وإلى الأبـد. كان قراراً حاسـماً لدرجة انه اتفق مع بنك دي تيسورو، وكيل اعماله العالمي، على التصفية الفورية للارث العائلي الواسع، المبعثر منذ تكوينه في جميع انـواع الاعـمال التجارية، والاستثمارات والاوراق المقدسة والبطيئة، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقـين إلا انـه لا يصـل إلى المقادير المبالغ بها التي تدعيها الاساطير: ما يكفي لتصفيته وعـدم التفكـير فيـه. وطلب من البنـك تحويل المبلغ، مهما كان، إلى ذهب مختوم وايداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج، حتى لايبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبرٌ من الأرض يموتان فيه.

كان فلورينتينـو اريثـا ما يزال حيـاً، على عكس ما ظنت. وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الـذهبيـين، ورآهما ينـزلان مثلما رآهما يفعلان ذلك مرات ومرات في الاحتفالات العامة: كانا على أحسن حال. وكـان معهـما ابنهـما، الذي رُبّي بطريقة تشي بما سيصيره في المستقبل.. مثلما صار تماماً. حيا خوفينـال اوربينـو فلورينتينو اريثا تحية مرحة بقبعته: «اننا ماضون لغزو بلاد الفلاند». حيته فيرمينا داثا بانحناءة من رأسها، فرفع فلورينتينو اريثا قبعته وحياها بحني رأسه انحناءة خفيفة، ودققت فيه دون ان تظهر عليها امارات الشفقة لصلعه المبكر. انه هو، تماماً كما تراه: طيف شخص لم تعرفه أبداً.

لم يكن فلورينتينـو اريثـا على أحسن حال كذلـك. فالعمـل المتزايد يوماً بعد يوم، وتخمته كصياد متوحد، وخمود همته بفعل السنين، كانت تثقل عليه. ثم اضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانسيتو اريثا الاخيرة، التي اصبحت ذاكرتها دون ذكريات: صفحة بيضاء تقريباً. حتى انها كانت تلتفت اليه احياناً، فتراه يقرأ على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، فتسأله متفاجئة: «وابن من أنت؟». وكان يجيبها دائما بقول الحقيقة، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة:

ـ قل لي يا بني: وأنا من اكون؟

كانت قد وصلت الى حد من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة، فصارت تمضي النهار في دكان الخردوات الذي لم يعد فيه شيء للبيع، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أول الدبكة حتى فجـر اليـوم التـالي، لان ساعـات نومها أصبحت قليلة جداً. كانت تضع على رأسها اكاليل زهور، وتصبغ شفتيها، وترش البودرة على وجهها وذراعيها، ثم تسأل من يكون معها كيف يراهـا. وكـان جميـع الجيران يعـرفـون انهـا تنتظـر الاجـابـة نفسها دوماً: «انك الصرصارة

مارتينث». هذه الهوية، المتحلة من شخصية قصة للاطفال، هي الوحيدة التي كانت تريحها. فتتابع الهز على الكرسي الهزاز، والتهوية بباقة من الريش الوردي الطويل، الى ان تعود لتبدأ من جديد: اكليل الزهور الورقية، المسك على الجفون، الاحمر القاني على الشفاه، وطبقة البياض على الوجه. والسؤال ثانية لمن هو قريب منها: «كيف تراني؟». وعندما تحولت الى ملكة السخرية بين الجوار، عمد فلورينتينو اريثا في احدى الليالي الى تفكيك منضدة دكان الخردوات القديمة وخزائنها، وأغلق الباب المطل على الشارع، وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصارة مارتينث، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي.

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها، لكن المرأة المسكينة كانت تسير وهي شبه نائمة، حتى ان المرء يشعر احيانا بانها نسيت كذلك من تكون. وهكذا كان فلورينتينو اريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب الى ان يتمكن من تنويم امه. لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة من صديقاته القديمات اللواتي كان يتردد عليهن، ذلك ان تبدلا عميقاً طرأ على قلبه بعد لقائه المرعب مع اوليمبيا زوليتا.

كان لقاء صاعقا. فبعد ان أوصل فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر الى بيته، اثناء عاصفة من عواصف تشرين الاول التي لا تترك للمرء لحظة راحة، رأى وهو في العربة فتاة ضئيلة ورشيقة، ترتدي فستانا مزينا بالكشاكش يبدو اشبه بفستان زفاف. رآها تركض مرتبكة من جانب الى اخر، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطارت بها الى البحر. فحملها في عربته وانحرف عن طريقه ليوصلها الى بيتها، الذي كان اشبه بصومعة مقابل البحر الفسيح، وكان فناء البيت مليئا بأعشاش حمام تظهر من الشارع. وروت له في الطريق بانها تزوجت منذ أقل من سنة من تاجر خزفيات كان فلورينتينو اريثا قد رآه كثيرا في سفن شركته، حين كان يفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع انواع الخزفيات لبيعها في السوق، ويرافقته عالم من الحمائم في قفص خيزراني من تلك الاقفاص التي تستخدمها الامهات لحمل اطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية. كان يبدو على اوليمبيا زوليتا انها تنتمي الى فصيلة الزنابير، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب، وانما لكل ما فيها: شعرها الذي كاسلاك النحاس، وكلف الشمس في وجهها، وعيناها المستديرتان والمتقدتان والبعيدتان عن بعضهما اكثر مما يجب. ثم انها لا تتحدث عندما تشعر بالألفة الا لتقول اموراً ذكية وممتعة. لقد بدت لفلورينتينو اريثا ظريفة اكثر من كونها جذابة، ونسيها حالما أوصلها الى بيتها، حيث كانت تعيش مع زوجها، ووالد هذا الزوج واعضاء اخرين من العائلة.

وبعد مرور عدة أيام، رأى الزوج في الميناء وهويشحن سفينة بالبضائع بدلا من انزالها منها كعادته، وعندما أبحر المركب، سمع فلورينتينو اريثا صوت الشيطان واضحا في اذنيه. وفي مساء ذلك اليوم، بعد ان أوصل العم ليون الثاني عشر، مر كما لو كان مروره مصادفة، مقابل بيت اوليمبيا زوليتا، ورأها فوق السياج تقدم الطعام للحمائم الهائجة. فصاح بها من العربة قائلا: «ما ثمن الحمامة؟». تعرفت عليه واجابته بصوت مرح: «ليست الحمائم للبيع». فسألها: «ماذا عليّ ان أفعل لأحصل على واحدة؟» ودون ان تتوقف عن نثر الطعام للحمام، ردت عليه: «عليك ان توصل صاحبة الحمام بالعربة حين تجدها ضائعة تحت المطر». وهكذا عاد فلورينتينو أريثا الى بيته تلك الليلة حاملا هدية شكر من اوليمبيا زوليتا: حمامة زاجل في قائمتها خاتم معدني.

في مساء اليوم التالي، وفي ساعة تقديم الطعام للحمام تماما، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة الى عشها، ففكرت بانها قد افلتت. ولكنها حين امسكتها لتتفحصها رأت انها تحمل قصاصة ورقية مطوية في الخاتم: تصريح حب. كانت تلك هي المرة الاولى التي يترك فيها فلورينتينو اريثا اثراً مكتوبا، لكنها لن تكون الاخيرة، رغم انه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيعه على الورقة. واثناء عودته الى منزله في مساء اليوم التالي، الاربعاء سلمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص، مع رسالة بان سيدة الحمائم تبعث لك هذا وتقول لك ان تتفضل بالحفاظ عليها جيدا في القفص المقفل، لانها ستفلت منك ثانية ان لم تفعل، ولن نعيدها اليك بعد هذه المرة. ما كان يعرف كيف يفهم الرسالة: فاما ان الحمامة قد اضاعت رسالته في الطريق، واما ان راعية الحمام قررت التظاهر بالحماقة، أو انها ارسلت الحمامة ليعيدها اليها ثانية. ولكن الطبيعي في هذه الحالة الاخيرة ان تبعث الحمامة مع رد منها.

وفي صباح يوم السبت، وبعد تفكير مطول، بعث فلورنتينو اريثا الحمامة من جديد مع رسالة اخرى دون توقيع. ولم يكن عليه ان ينتظر هذه المرة حتى اليوم التالي. ففي المساء، اتاه الصبي نفسه حاملا الحمامة في قفص آخر، ورسالة شفوية بانها تعيد اليه ثانية الحمامة التي عادت لتفلت منه، وانها قد اعادتها أمس الأول بدافع حسن التربية وتعيدها هذه المرة اشفاقا، ولكنها تقول الحقيقة الان بانها لن تعيدها اذا ما افلتت منه. لهت ترانسيتو اريثا بالحمامة حتى وقت متأخر، فأخرجتها من القفص، وهدلت لها وهي تحملها بين ذراعيها، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال، وفجأة لاحظت ان في خاتمها وريقة كتب عليها سطر واحد: **لا أقبل رسائل مغفلة**. قرأه فلورينتينو اريثا بقلب فاقد للوعي، وكأنه في ذروة مغامرته الاولى، ولم يكد يغفو في تلك الليلة، الا ليعاني فقدان الصبر في احلامه. وفي صباح اليوم

التالي، وقبل ذهابه الى المكتب، اطلق الحمامة ثانية بعد ان حملها رسالة حب وقع عليها اسمه بحروف واضحة تماما، ووضع لها في الخاتم ايضا احدث وردة متفتحة في حديقته، واكثرها حيوية وشذى.

لم يكن الامر سهلا معها. فبعد ثلاثة شهور من الحصار، واصلت راعية الحمام الرد بالاجابة ذاتها «لست من هؤلاء». ولكنها لم ترفض ابدا تلقي الرسائل أو المجيء الى المواعيد التي كان يرتبها فلورينتينو اريثا بحيث تبدو لقاءات مصادفة. لقد كان معتاداً على التخفي : انه العاشق الذي لا يظهر وجهه ابداً، وهو اكبر طماع في الحب والاشد بخلا فيه في الحين ذاته . . من لا يمنح شيئا ويريد كل شيء، من لا يتيح لاحد ترك ادنى اثر في قلبه، هذا الصياد المتزوي خرج من مخبئه والقى بنفسه الى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقعة، وهدايا غزل، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام، بل انه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزوج فيهما مسافراً كما لم يكن في السوق. انها المرة الاولى، منذ زمن حبه الاول، التي احس فيها بان نصلا يخترقه.

بعد ستة شهور على لقائهما الاول، التقيا اخيراً في قمرة سفينة كان يجري اصلاحها وطلاؤ ها في الميناء النهري. كان مساء رائعاً. وكانت اوليمبيا زوليتا تتمتع بحب طويل، حب راعية حمام طائشة، وتهوى البقاء عارية لعدة ساعات، في راحة مسترخية هي بالنسبة لها حب كالحب. كانت القمرة منزوعة الطلاء، وقد أعيد طلاء نصفها تقريبا، وكانت رائحة التربنتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف. وفجأة، وبالحاح وحي فريد، نزع فلورينتينو اريثا غطاء علبة دهان أحمر كانت قريبة من السرير، وغمس اصبعه السبابة فيها، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهما داميا مصوبا نحو الجنوب، ثم كتب على بطنها عبارة : هذه اليمامة لي. وفي تلك الليلة بالذات، تعرت اوليمبيا زوليتا امام زوجها دون ان تتذكر الاعلان المكتوب على بطنها، ولم ينطق الزوج بأية كلمة، بل ان ايقاع انفاسه لم يتبدل . . لا شيء، لكنه مضى الى الحمام وتناول موس الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها، وذبحها بضربة واحدة.

لم يعلم فلورينتينو اريثا بالحدث الا بعد عدة أيام، حين ألقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها. وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير في رسائله الموقعة، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيدا لتجارته التي ينقلها في السفن، لكنه لم يكن يخشى ضربة موس حلاقة في العنق، ولا الفضيحة العامة، بقدر ما كان يخشى حظه العاثر اذا ما علمت فيرمينا داثا بخيانته. وفي أحد ايام سنوات الانتظار، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانسيتو اريثا في السوق بسبب مطر غزير في غير اوانه، وحين

رجعت الى البيت وجدتها ميتة. كانت تجلس على الكرسي الهزاز، مزينة ومزهرة كعادتها، وكانت عيناها متقدتين وعلى شفتيها ابتسامة خبث شديد بحيث لم تنتبه حارستها الى انها ميتة الا بعد ساعتين. وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على اطفال الحي ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير، قائلة لهم انهم يستطيعون اكلها كقطع الحلوى، ولم يكن ممكنا استعادة بعض القطع الثمينة. دفنها فلورينتينو اريثا في مزرعة لامانودي ديوس القديمة، التي مازالت تعرف باسم مقبرة الكوليرا، وزرع على قبرها شجيرة ورد.

ومنذ زيارته الاولى للمقبرة. اكتشف فلورينتينو اريثا ان اوليمبيا زوليتا كانت مدفونة قريبا من امه، في قبر بلا شاهدة، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالاصبع على اسمنت القبر الطري، وفكر مذعوراً بان تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج. وعندما ازهرت شجيرة الورد، كان يضع وردة على قبرها، ان لم يكن هناك من يراه، ثم انه زرع لها فيها بعد جفنة قطعها من شجيرة امه. كانت شجيرتا الورد تنموان بسرعة هائلة، مما جعل فلورينتنو اريثا يضطر الى حمل مقص التشذيب وغيره من ادوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة. لكن نموهما كان اكبر من قواه. وبعد عدة سنوات كانت الشجيرتان قد امتدتا كحرج ما بين القبور، فصارت مقبرة الوباء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة الورود، الى ان جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية، فانتزع شجيرات الورد في احدى الليالي، وعلق لوحة جمهورية فوق قنطرة المدخل: المقبرة الكونية.

لقد حكم موت الام على فلورنيتينو اريثا بالعودة الى ديدنه السابق: المكتب، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمنات، ولعب الدومينو في النادي التجاري، وقراءة كتب الحب نفسها، وزيارة المقبرة في أيام الاحاد. انه صدأ الروتين، الذي كثيرا ما كان محط قذف ومبعث خوف، لكنه حماه من الاحساس بتقدمه في السن. ومع ذلك، ففي يوم أحد من أيام كانون الثاني، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب، رأى سنونوة على اسلاك النور التي نصبت حديثا، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت أمه، وكم مضى على مقتل اوليمبيا زوليتا، وكم مضى ايضا على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الاول البعيد حين بعثت فيرمينا داثا رسالة تقول فيها أجل، انها ستحبه الى الابد. كان يتصرف حتى ذلك الحين وكأن الزمن لا يتقدم بالنسبة له وانما بالنسبة للآخرين فقط. ففي الاسبوع الماضي تقريبا التقى في الشارع بزوجين من اولئك الكثيرين الذين تزوجوا بفضل رسائله السرية، ولم يستطع ان يتعرف على الابن الاكبر الذي كان هو نفسه عرابه. وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية: «ياالله! ها قد أصبح رجلاً!». وحتى حين أصبح جسده يبعث اليه بأول اشارات الانذار، استمر على هذا الحال، لانه احتفظ دوماً بعافية

كالصخر في مواجهة الامراض. وقد اعتادت ترانسيتو اريثا القول: «المرض الوحيد الذي اصاب ابني هو الكوليرا». خالطة الكوليرا بالحب طبعاً، وذلك قبل ان تختلط ذاكرتها بمزمن طويل. ولكنها كانت مخطئة على اي حال، لان ابنها اصيب سراً بست حالات من السيلان الابيض، رغم ان الطبيب كان يقول بانها ليست ست حالات، وانما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة. كما اصيب بخراج، وبأربع حالات من عرف الديك وست اصابات بالبثور، ولكن لم يكن ليخطر بباله أو ببال أي رجل آخر اعتبار هذه الاصابات امراضاً وانما مجرد تذكارات حرب.

ما كاد يتم الاربعين من العمر حتى اضطر للهرع الى الطبيب شاكيا من آلام غير محددة في عدة مواضع من جسده. وبعد عدة فحوص، قال له الطبيب: «انها امور السن». لقد كان يعود الى البيت دوماً دون ان يتساءل إن كان لكل هذه الامور علاقة به. فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا داثا، ولم يكن يدخل في حسابات حياته الا ما له علاقة بها. وهكذا وجد نفسه يوم رؤيته طيور السنونو على اسلاك النور يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته، استرجع ذكرى غرامياته العارضة، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول الى موقع رئاسي، وكذلك الحوادث الكثيرة التي اثارها قراره الملحمي بان تكون فيرمينا داثا له، وهو لها رغم كل شيء وفوق كل شيء، وعندها فقط اكتشف ان الحياة تفلت منه. فهزت احشاءه قشعريرة افقدته صوابه، واضطر لافلات ادوات الحديقة والاستناد الى جدار المقبرة كي لا تطرحه ارضا أول ضربة من مخلب الشيخوخة، وقال مرتعدا:

ـ رباه! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة!

أجل ثلاثون سنة مرت كذلك على فيرمينا داثا دون شك، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها واكثرها حيوية. كانت أيام الرعب في قصر كاسالدويرو قد اهملت في مزبلة الذاكرة. واصبحت تعيش في بيتها الجديد في حي لامانغا، سيدة كاملة السيادة على مصيرها، مع زوج عادت تفضله على جمع رجال العالم لو اتيح لها الاختيار من جديد، ومع ابن سيتابع أرث العائلة في مدرسة الطب، وابنة تشبهها تماما عندما كانت هي في مثل سنها، حتى ان احساسها بانها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب. لقد عادت ثلاث مرات الى اوروبا بعد الرحلة التعيسة حين قررت الا تعود أبدا كي تتخلص من العيش في رعب دائم.

لابد ان الله استجاب اخيراً الى صلوات أحد ما: فبعد سنتين من الاقامة في باريس، وحين بدأت فيرمينا داثا بالبحث مع خوفينال اوربينو عما تبقى لهما من الحب بين الانقاض، وصلتهما برقية من برقيات منتصف الليل أيقظتهما بخبر ان دونيا بلانكا دي اوربينو تعاني مرضاً

خطيراً، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها. رجعا في الحال. ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها: كانت حبلى ثانية بالفعل، وقد كان هذا الخبر منطلقا لاغنية شعبية تحمل من الخبث اكثر مما تحمله من السوء، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول: ما الذي تفعله الجميلة في باريس، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة. ورغم ابتذال الكلمات، واصل الدكتور خوفينال اوربينو ترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته.

قصر المركيز دي كاسالدويرو الفخم، الذي لم يعثر مطلقا على خبر مؤكد حول وجوده ومآثره، بيع أولا لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة فيما بعد للحكومة المركزية، عندما جاء باحث هولندي لاجراء تنقيباتٍ هناك ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس: الضريح الرابع. وقد ذهبت شقيقتا الدكتور اوربينو للعيش في دير لاس ساليسيانـاس، في عزلة بلا نذور، وأقامت فيرمينا داثا في بيت ابيها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لامانغا. ودخلت اليه بخطى واثقة، دخلت لتأمر وتنهي، ومعها دخل الاثاث الانكليزي الذي احضرته منذ رحلة الزفاف والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الأول فيه بكل انواع الحيوانات الغريبة التي كانت تمضي بنفسها لتشتريها من سفن الانتيل. دخلت الى البيت الجديد مع زوجها المستعاد، مع ابنها اليافع، ومع ابنتها التي ولدت بعد اربعة شهور من عودتها وعمداها باسم اوفيليا. وادرك الدكتور اوربينو من جهته، انه يستحيل عليه استعادة زوجته تماما كما كانت له اثناء رحلة الزفاف، لان الحب الذي أراده منها منحته للطفلين، ولكنه تعلم العيش سعيدا ببقايا الحب. ثم وصلهما الانسجام المرغوب من حيث لم ينتظراه اثناء مأدبة عشاء قدم فيها صنف لذيذ لم تتمكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه. فتناولت طبقا لا بأس به، لكن الطعام أعجبها فعادت تسكب طبقا آخر، وتحسرت لان التكلف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث. وعندما علمت بانها انها تناولت بشهية لا شك فيها طبقين من بوريه الباذنجان المطحون، أصبح الباذنجان يقدم في بيت لامانغا بكل اشكاله وبكميات كتلك التي كان يقدم بها في قصر كاسالدويرو، وكان الجميع يأكلونه بشهية، حتى ان الدكتور خوفينال اوربينو صار يمزح في لحظات فراغ الشيخوخة بالقول انه يرغب بانجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت: باذنجانة اوربينو.

كانت فيرمينا داثا تعرف حينئذ ان الحياة الخاصة متقلبة ومليئة بالمفاجآت، على عكس الحياة العامة. ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين،

ولكنهـا كانت تفضـل الاطفـال في نهايـة المطاف، لان معايير هم اكثر صواباً. وما كادت تجتاز منعطف النضـوج، متخلصـة اخـيراً من كل انواع السراب، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في انها لم تكن أبداً كما حلمت ان تكون وهي شابة، في حديقة البشارة، وانما اصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعـتراف به حتى لنفسهـا: خادمـة مرفهـة. لقـد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعيـة المحبـوبة، ومحط الاعجاب فيها، لتكون في الوقت ذاته السيدة مرهوبة الجانب. ولكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن اقل تهادناً من ادارة شؤون المنزل. لقد أحست دومـاً بانهـا تعيش حيـاة مكـرسة لزوجها: سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من اجله، ومن اجله فقـط. كانت تعلم انـه يحبهـا فوق كل شيء، يحبهـا اكثر مما يحب أياً كان في الدنيا، انما يحبها من أجل نفسه فقط: في خدمته المقدسة.

واذا كان هناك ما يعذبها فهو الحكم المؤبد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي. اذ لم يكن الامر يتوقف عند اعداد الطعام في الموعد المحدد، بل لا بد ان يكون كذلك متقناً، وان يحتوي على ما يريـد الـزوج اكله دون ان تسألـه عما يريـد. واذا ما سألته يوماً، فان سؤالها سيكون طقسـاً آخـر يضـاف إلى طقـوس الـروتين البيتية التي لا طائل منها، لانه سيرد عليها دون ان يرفع نظره عن الجريدة: «أي شيء». والحقيقة انه كان يقول ذلك، بطريقته اللطيفة، لانه ما كان يستطيع ان يتصور نفسه كزوج أقل استبدادية. لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء، بل مايـريـده بالضبـط، وبلا ادنى نقصان: فاللحم ليس له مذاق اللحم، والسمك ليس له مذاق السمك، وليس للخنزير طعم الجرب، ولا للفروج مذاق الريش. ثم انه لا بد من وجـود الهليـون في اي موسم كان، حتى يتـاح له الابتهـاج لرائحة بوله الشذية. ما كانت تلومه، بل تلقي باللوم على الحياة. لكنه كان صانعاً لا يرحم من صناع الحياة. كانت تكفيه عثـرة شك ليـزيـح الطبق على المائدة قائلاً: «هذا طعام صُنع بلا حب». وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الالهام، ففي احد الأيام، تذوق قليلاً من شراب البابونج، ثم أعـاد ما شربـه بعبـارة واحـدة: «هـذا الشيء له طعم نافـذة». وقـد فوجئت هي كما فوجئت الخـادمـات، لأنهن لم يتعرفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلية. ولكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن.. فهمن: كان له مذاق نافذة.

لقد كان زوجاً دقيقاً: فهو لم يلتقط اي شيء عن الارض يوماً، كما لم يكن يطفيء النور أو يغلق البـاب أبـداً. وحـين يجد أحـد الازرار ناقصـاً، في عتمـة الفجـر، كانت تسمعه يقول: «لابـد للمـرء من زوجتين، واحدة ليحبها، وواحدة لتخيط له الازرار». وفي كل يوم، عند تنـاولـه أول رشفـة من القهـوة وأول ملعقة من الحساء الساخن، كان يطلق عواء مؤثراً ما عاد يفـزع أحـداً، ثم ينطلق بالقـول فوراً: «اذا هجرتِ هذا البيت يوماً فاعلموا انني فعلت ذلك

لاني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً». وكان يقول بانهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا حين يتناول مليناً لتنظيف معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام، وكان موقناً ان هذا التدبير هو مؤ امرة غادرة من زوجته، حتى انه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهل إلا اذا تناولت مُسهلاً معه.

ولضجرها من سوء تقديره، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها: ان يقوم باداء الاعمال البيتية ليوم واحد. فوافق فرحاً، وتولى ادارة البيت فعلاً منذ الفجر. قدم فطوراً رائعا، لكنه نسي انها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب. ثم أعطى التعليمات لاعداد غذاء عيد ميلاد لثمانية مدعوين واوعز بترتيب البيت، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً منها، فقد اضطر للاستسلام دون خجل قبل منتصف النهار. اذ ادرك منذ اللحظة الاولى انه لا يملك ادنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ وقد تركته الخادمات يقلب كل شيء ليبحث عما يريده، اذ شاركن كذلك في اللعب. وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الاوامر لاعداد الغذاء، لان تنظيف البيت لم يكن قد انتهى، كما لم يكن قد تم ترتيب غرف النوم بعد، وبقي الحمام دون تنظيف، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه، وكذلك استبدال شراشف الاسرة، كما نسي ان يبعث الحوذي لاحضار الأولاد، وخلط بين مهمات الخادمات؛ فأمر الطاهية بترتيب الاسرة وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام. وفي الساعة الحادية عشرة، حين كان المدعوون على وشك الوصول، كان البيت ما يزال غارقاً في الفوضى، مما دفع فيرمينا داثا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته، بل بشفقة تهز اعماقها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية. وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة: «لم يكن الأمر سيئاً على الاقل إلى الدرجة التي ستصلين اليها لو انك حاولت معالجة المرضى». لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما. فمع تقدم السنين وصلا، عبر سبيلين مختلفين، الى النتيجة الحكيمة بانه ليس ممكناً لهما العيش معاً بطريقة اخرى، وليس ممكناً لهما ان يحبا بعضهما بشكل آخر: اذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب.

في خضم حياتها الجديدة، رأت فيرمينا داثا فلورينتينو اريثا في مناسبات عامة عديدة، وكانت تراه اكثر كلما ترقى في عمله، لكنها تعلمت ان تراه بشكل طبيعي جداً، حتى انها نسيت مصافحته اكثر من مرة نتيجة سهوها عنه. وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لان موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش.ك.م.ن كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال. وكانت ترى إلى تحسن مكانته، والى الثناء على خجله كاحجية نائية، وكان مظهره يتحسن مع زيادة طفيفة في وزنه، كما ان بطء السن كان يناسبه، ثم انه عرف كيف يحلّ بوقار مشكلة

الصلع المدمرة. والاشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدية الزمن والموضة هي ملابسه القاتمة، والسترات التي كانت موضة زمن مضى، والقبعة الوحيدة، وربطة عنق الشاعر المصنوعة من شرائط كان يأخذها من دكان أمه، والمظلة المشؤومة. وقد اعتادت فيرمينا داثا على رؤيته بطريقة مختلفة، إلى ان لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متنهداً من اجلها تحت الاوراق الصفراء المتطايرة في حديقة البشارة. ولكنها لم تره أبداً بلامبالاة، وكانت تفرح دوماً للاخبار الطيبة التي تسمعها عنه، لانها كانت تهدىء شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب.

ومع ذلك، وحين ظنت انها قد محته تماماً من ذاكرتها، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لأشواقها. كانت قد هبت عليها أولى نسائم الشيخوخة حين بدأت تشعر ان شيئاً لا سبيل إلى اصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر. انه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده، الذي كان ينفجر كل يوم من ايام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساء في جبال فيبانويفا، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين. فبينما كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد أيام من حدوثها، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو وكأنها حدثت بالامس، وذلك بقدرة الحنين المضللة. صارت تتذكر ماناوري، البلدة الجبلية، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر، وعصافيرها بشير الفأل الطيب، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة، التي ماتت حباً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام. صارت تتذكر طعم جوافة ذلك الزمن التي تبدل مذاقها منذ ذلك الحين، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر، كما اخذت تتذكر امسيات سان خوان دي تيسير الزبرجدية، حين كانت تخرج لتتمشى مع كوكبة بنات خؤولتها الصاخبات وهي تضغط اسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف. باعت بيت أبيها بأي ثمن لانها ما عادت تحتمل آلام المراهقة، ولا مرآى الحديقة المقفرة من الشرفة، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة، ولا هول صورتها بزيٍ سيدة قديمة في مساء ذلك اليوم من شهر شباط، وهو نفس اليوم الذي حسمت فيه مصيرها. واينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كانت تصطدم بذكرى فلورينتينو اريثا. ومع ذلك، فقد كانت تمتلك من الصفاء دوماً ما يجعلها تدرك بانها ليست ذكريات حب أو ندم، وانما احساس مكدر يترك لها بقايا دموع. ودون ان تدري، كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي أضاعت عدداً كبيراً من ضحايا فلورينتينو اريثا الغافلات.

تشبثت بزوجها. وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج اليها اكثر من أي وقت آخر، اذ كان

يكبرها بعشر سنوات، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة، اضافة لكونه رجلاً وأشد ضعفاً. وانتهيا إلى معرفة بعضهما حتى أصبحا قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين، وصار القلق يساورهما لكثرة ما أصبح كل منهما يعرف ما يدور بخلد الآخر، وللحدث المضحك بان يسبق أحدهما إلى النطق بما كان سيقوله الآخر. لقد صرّفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية، والاحقاد الآنية، والقذارات المتبادلة، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافية. كان ذلك هو الزمن الذي أحبا فيه بعضهما على أحسن وجه، دون تسرع ولا مبالغة، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاها. وكان على الحياة ان تمدهما بمزيد من البراهين الفانية، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما: فقد كانا على الضفة الاخرى.

أُعدّ برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد، وأجدر هذه النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو التي لا تنضب. اجتمع معظم اهل المدينة عند شاطىء الارسينال لا بداء دهشتهم من ارتفاع بالون الحرير الهائل، الملون بألوان العلم الوطني في الجو، ليحمل أول بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي. كان الدكتور خوفينال اوربينو وزوجته، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني، هما أول من صعد إلى حجيرة المنطاد المصنوعة من الخيزران، ثم صعد معهما مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعوين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا، يسجلون فيها للتاريخ ان تلك الرسالة هي أول بريد ينتقل عبر الاجواء. أحد صحفيي الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال اوربينو ما هي آخر كلماته اذا ما قضى نحبه في المغامرة، فلم يتروّ هذا للتفكير بالجواب الذي سبب له شتائم كثيرة، اذ قال:

ـ أظن بان العالم باسره سيشهد تغير القرن التاسع عشر، باستثنائنا نحن.

وفيما المنطاد يرتفع، أحس فلورينتينو اريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشد النشيد الوطني، بانه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة بان تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا دائا. ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على اي حال. أو انها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة. لقد وصل المنطاد دون تيارات هوائية معاكسة إلى مستقره، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حد غير معقول. طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل، تدفعهم ريح هادئة ومواتية، فوق ذرى الجبال المكللة بالثلج أولاً، ثم فوق مستنقع ثيناغاغراندي الفسيح.

ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي اندياس القديمة والبطولية كما يراها الله، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا خوفاً من الكوليرا، بعد ان قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الانكليز وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون. رأوا الاسوار الكاملة، واشجار الشوارع الملتفة، والتحصينات التي قوضتها رهبانيات الثالوث، وقصور المزمر والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعفنين بالوباء في دروعهم السابغة.

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الاثرية القائمة وسط الماء، والمطلية بألوان مجنونة، والمرفقة بحظائر لتربية عظائيات الأكل، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستر وميليا في الجنائن المائية. كان مئات الاطفال يلقون بانفسهم من النوافذ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كاسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من حجيرة المنطاد.

طاروا فوق اوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يرتفع اليهم كبخار مميت، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر، أوربما في الرابعة، تتمشى في الاجمة الكثيبة ممسكة بيد امها التي كانت ما تزال حينئذ مجرد طفلة أيضاً وسط نساء اخريات يرتدين الموسلين، مثلها، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة. قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر: «يبدو انهم موتى». وأعطى المنظار للدكتور اوربينو، فرأى هذا الاخير العربات التي تجرها الجواميس بين الشجيرات، وخطوط السكة الحديد، واقنية الري المتجمدة، وحيثما توجه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة. وقال أحدهم بانه علم ان الكوليرا كانت تفتك بقرى منطقة ثيناغا غراندي. فقال الدكتور اوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار اثناء كلامه:

- لابد انه صنف خاص جداً من الكوليرا اذن. لان هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى.

ثم طاروا بعد ذلك بقليل فوق بحر من الزبد وحطوا دون اي حادث يذكر على شاطىء متقد، كانت ارضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة وكأنها نار متأججة. وكانت السلطات تقف هناك دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية، وكان هناك تلامذة المدارس الابتدائية يلوحون بأعلام صغيرة على ايقاع النشيد الوطني، وملكات الجمال يحملن زهوراً احرقها القيظ ويضعن تيجاناً من الورق المذهب، وسُذج بلدة غايرا المزدهرة، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطىء الكاريبي حالاً. الشي الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هو رؤية مسقط رأسها ثانية، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجول خوفاً من فتك الوباء. سلم الدكتور خوفينال اوربينو الرسالة التاريخية، التي فُقدت

فيـها بعـد ولم يعـد يُعـرف شيء عنهـا، وقـد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قيظ الخطـابـات الحـماسية. إلى ان حملوهم اخيراً على صهوات البغال حتى مرسى بوييلوبيخو، حيث تلتقي المستنقعات بالبحر، لان المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية. كانت فيرمينـا داثـا متأكـدة من انها قدمرت من هناك مع امها، وهي طفلة، في عربة يجرها زوج من الجـامـوس. وقـد روت ذلـك عدة مرات لابيهـا عنـدما كبرت، لكنه مات وهويصر على انه يستحيل عليها ان تتذكر ذلك، وكان يقول لها:

ـ انني اذكر هذه الرحلة جيداً، وقد كانت هكذا فعلاً، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الاقل.

عاد أعضـاء بعثـة المنطـاد بعـد ثلاثـة أيـام إلى ميناء المنشأ، وقـد انهكتهم ليلة عاصفة، واستقبلوا استقبـال الابطـال. وتعـرف فلورينتينو اريثا، الضائع بين الحشود طبعاً، على اثار البخـار فوق محيـا فيرمينـا داثـا. ومـع ذلـك، عاد لرؤيتهـا مسـاء ذلـك اليـوم في استعراض الدراجات، الذي اقيم تحت رعاية زوجها أيضاً، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب. كانت تقود دراجة فريدة تبدو اشبه بجهاز من اجهزة السيرك بعجلتها الامامية العالية، والتي جلست فوقهـا، بينـما كانت العجلة الخلفيـة صغـيرة جداً ولا تكـاد تكفي لاسنـادها. وكانت ترتدي سروالاً فضفـاضـاً ذا حواشٍ ملونـة أثار استنكار السيدات المسنات، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم، لكن أحداً لم يستطع ابداء لامبالاتة بمهارتها.

هذه الصـور، وغـيرهـا كثـير، كانت صوراً سريعـة الـزوال لسـنـوات طويلة، تظهر بغتة لفلورينتينـو اريثـا حين يحلو ذلـك للمصادفة، ثم ما تلبث ان تختفي بالطريقة نفسها تاركة في قلبه نورج لوعة. لكنها كانت تخلف اثراً في حياته، اذ انه لم يتعرف على قسوة الزمن من خلال مظهره هو بالذات بقدر ما تعرف عليه من التبدلات التي يلاحظها على فيرمينا داثا كلما رآها.

دخـل في أحـد الايـام إلى مطعم دون سانتشو، وهو مطعم فاخر من العهد الاستعماري، واحتـل ركنـاً منـزويـاً، كما هي عادتـه كلما مضى لتنـاول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور. وفجأة رأى فيرمينا داثا في المرآة الضخمة، جالسة إلى الطاولة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتيهـما، بزاويـة تتيـح له رؤ يـة صورتها المعكوسة في المرآة بكل رونقها. كانت عزلاء، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كانفجار الألعاب النارية، وكان جمالها أشد ألقاً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية: لقد عادت «أليس» لاختراق المرآة.

تأملها فلورينتينو اريثا ماشاء له التأمل بأنفاس مبهورة، رآها تأكل، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ، ورآها تمازح دون سانتشو، الرابع في سلالته، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة، وتمشى لاكثر من ساعة في ارضها الحرام دون ان يكون مرئياً. ثم تناول اربعة

فناجين اخرى من القهوة ليبقى وقتاً أطول، إلى ان رآها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها. لقد مروا قريباً جداً منه، لدرجة انه تمكن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الاخرى المنبعثة ممن هم معها.

ومنذ تلك الليلة، وعلى امتداد سنة تقريباً، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً، عارضاً عليه كل ما يشاء، من مال أو خدمات، أو تلبية اكثر ما اشتهاه في حياته، مقابل ان يبيعه المرآة. ولم يكن الأمر سهلاً فالشيخ دون سانتشو كان يؤمن بالخرافة القائلة ان ذلك الاطار الثمين الذي صنعه نجار ابنوس من فينا هو توأم اطار آخر كانت تملكه ماري انطوانيت، وقد اختفى دون ان يبقى له اثر: تحفتان فريدتان. وحين وافق اخيراً، علق فلورينتينو اريثا المرآة في صالة بيته، ليس لجمال الاطار ودقة صنعته، وانما لاجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين.

وكثيراً ما كان يري فيرمينا داثا، ممسكة بذراع زوجها، في انسجام تام، متحركين كليهما في جو خاص بهما، بانسياب مذهل لا يتشوش إلا حين يصافحاه. وفعلاً كان الدكتور يخوفينال اوربينو يشد على يده بحرارة، بل وكان يسمح لنفسه بان يربت على كتفه في بعض المناسبات. أما هي، فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض، ولم تُبد يوماً ادنى حركة تتيح له ان يشك بانها تتذكره مذ كانت عازبة. كانا يعيشان في عالمين متباعدين، وفيما كان يقوم بكل جهد متاح لتقريب المسافة، فانها لم تكن تقوم بأية خطوة إلا في الاتجاه المعاكس. لقد مضى زمن طويل قبل ان يجرؤ على التفكير بان تلك اللامبالاة ليست سوى درع لاخفاء الخوف. لقد خطر له ذلك فجأة، عند تعميد السفينة النهرية الأولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وكانت تلك أيضاً هي المناسبة الأولى التي مثل فيها فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أول، لرئيس ش. ك. م. ن. وقد اضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة، فلم يتخلف عن الحضور أحد ممن لهم أية قيمة في حياة المدينة.

كان فلورينتينو اريثا مشغولاً بمدعويه في الصالة الرئيسية بالسفينة، التي ما زالت تنبعث منها روائح الدهان الحديث والقار المذاب، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً. وكان عليه ان يقهر الارتعاشة القديمة كقدمه تقريباً حين رأى امرأة احلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها، بنضوجها الرائع، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط حرس الشرف المتزيين بزي المراسم، تحت وابل من الشرائط الورقية الملونة وأوراق الازهار الطبيعية التي تقذف من النوافذ. وكانا يردان على التصفيق بتحية من يديهما، لكنها

كانت فاتنـة حتى لتبـدو وكأنهـا وحيدة وسط الحشد. كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي، ابتداء من الحذاء ذي الكعب العالي واذيال الثعالب على عنقها، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس.

انتظـرهما فلورينتينـو اريثـا على الجسـر، إلى جانب السلطـات الاقليميـة. وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجؤرات السفينة القوية الثلاثة التي بللت رصيف الميناء بالبخار. صافح خوفينال اوربينو صف المستقبلين بتلك الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن انه يصافحه بحرارة خاصة. صافح أولاً قبطان السفينة ببدلة المراسم، ثم الاسقف. وبعـده الحـاكم وزوجتـه والعمـدة وزوجتـه، ثم قائد المنطقة العسكري، وهو انـديـزي حديث القدوم إلى المدنية. وبعد السلطات كان يقف فلورينتينو اريثا، مرتدياً بدلة قاتمة، ولا يكـاد يظهـر بين كل هؤلاء الاعيـان. وبعـد ان صافحت فيرمينا داثا قائد المنطقة العسكـري، بدا انهـا ترددت أمـام يد فلورينتينـو اريثـا الممـدودة فسألهـا العسكري المتأهب لتقديمه لها ان كانت لا تعرفه، فلم تقل لا ولم تقل نعم، بل مدت يدها إلى فلورينتينو اريثا بابتسامة صالون. كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين، وسيحدث في مناسبات اخرى، وقـد تمثله فلورينتينـو اريثـا دومـاً كتصـرف نابع من طبيعة فيرمينا داثا. ولكنه تساءل في مساء ذلـك اليـوم، بمقـدرتـه اللامحدودة على الحلم، ان لم تكن هذه اللامبالاة القاسية ليست إلا حيلة لاخفاء عذاب الحب.

وقد اضطرمت اشواقه لمجرد ورود هذه الفكرة بباله. فعاد للطواف حول بيت فيرمينا داثا بنفس القلق الـذي كان يشعـر به قبـل سـنوات طويلة اثناء طوافه في حديقة البشارة، لكنه لم يكن ينوي ان يجعلها تراه، وانما كانت نيته الوحيدة ان يراها ليعلم انها ما زالت حية في الدنيا. ولم يعـد ممكنـاً للزمن ان يمضي حينئـذ دون اكـتراث. كان حي لامـانغـا يقوم في جزيرة شبه مقفرة، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء، مغطاة باحراج من أشجار الاكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الآحاد ابان العهد الاستعماري. ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجـري القـديم الـذي بنـاه الاسبان، واقـامـوا جسـراً جديداً مع مصابيح انارة، لتتمكن الحافلات التي تجرها البغال من المرور. لقد كان على ساكني لامانغا أول الأمر احتمال عذاب ما كان في الحسبـان، ألا وهـو النـوم قريباً من أول محطة لتوليد الكهرباء في المدينة، والتي كان هديـرهـا أشبـه بهزة أرضيـة متـواصلة. ولم يستطـع حتى الدكتور خوفينال اوربينو بكل نفوذه جعهلم ينقلون المحطة إلى حيث لا تزعج احداً، إلى ان توسطت لصالحه العناية الالهية التي تحالفه دوماً. ففي احدى الليالي انفجر مرجل محطة التوليد في دوي بخاري هائل، وطار فوق البيـوت الجـديـدة، مجتازاً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهوى ليحطم الرواق الرئيسي في دير

سان خوليـان الـموسبيتـا الاريـو القديم . كان المبنى القديم قد هُجر في اوائل ذلك العام ، لكن المرجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فروا في أول الليل من السجن المحلي واختبأوا في الدير المهجور.

تلك الضـاحيـة الهـادئة ، ذات التقاليد الغرامية الجميلة ، لم تعد مع ذلك بالمكان المناسب للغراميات غير المواتية مذ أصبحت حياً راقياً. كانت متربة في الصيف ، وموحلة في الشتاء ، ومقفرة طوال العام ، فيها البيوت القليلة المختفية وسط حدائق وارفة ، ذات مصاطب الموزايك بدلاً من الشـرفـات القـديمـة ، تبدو وكأنها شيدت لاخماد حماس العشاق المتخفين. وكان ان شاعت في ذلك الحين ، لحسن الحظ ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجرة والتي تم تعـديلهـا ليجـرها حصان واحد وفقط ، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر منهـا شفق تشـرين المفتت أفضـل مما يظهـر عليـه من برج الفنار، وتظهر للعين كذلك أسماك القـرش الـرشيقـة وهي تترصـد شاطىء المجمع الاكليريكي ، وعابرة المحيطات التي تمر كل خميس ، ضخمة وبيضاء ، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تجتاز قنال الميناء . وقد اعتاد فلورينتينو اريثا استئجار عربة للنزهة بعد يوم العمل الشاق في المكتب ، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة كما هي العادة في شهور الحر ، وانما كان يبقى مختبئاً في الصمت ، غير مرئي في الظل ، ووحيداً دائـماً ، وكـان يوجـه الحـوذي في اتجـاهات غير متوقعة حتى لايثير افكاره السيئة . الحقيقة أن الشيء الـوحيـد الـذي كان يهمـه من النـزهـة هو البيت ذو المـرمـر الـوردي شبه المختفي بين شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتفة ، والذي كان تقليداً تعيساً لبيوت مزارعي القطن الحالمة في لويـزيـانـا . كان ابنـا فيرمينـا داثـا يرجعـان إلى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل ، وكان فلورينتينو اريثا يراهما عائدين في عربة العائلة ، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال اوربينو بعد ذلـك لزيـاراتـه الطبيـة المعتـادة ، ولكنه لم يحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف ، برؤية أي علامة تدل على وجود من كان يتشوق لرؤيتها .

وفي مساء يوم أصر فيه على النزهة المتوحدة رغم هطول أول أمطار حزيران المدمرة ، انزلق الحصـان في الـوحـل وسقط على وجهه . وانتبه فلورينتينو اريثا مرتعباً إلى انه كان مقابل بيت فيرمينا داثا تماماً ، فتوسل إلى الحوذي صائحاً ، دون ان يفكر بان تفجعه قد يشي به :

ـ ليس هنا ، ارجوك . في أي مكان إلا هنا .

حاول الحوذي الذي أعماه التسرع ، ان يجبر الجواد على النهوض دون ان يفكه ، فانكسر محور العـربـة . خرج فلورينتينـو اريثـا كيفما استطاع ، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر إلى ان عرض عليـه متنـزهـون اخـرون حمله معهم الى بيتـه . واثناء انتظاره ، رأته خادمة من خدم آل اوربينـو بمـلابسـه المبللة والمغطـاة بالوحل حتى الركبتين ، فحملت اليه مظلة ليأتي

ويحتمي على مصطبـة البيت. لم يكن فلورينتينـو اريثـا قد حلم بمصـادفـة كهـذه في أقصى هذياناته شططاً، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا داثا برؤيته وهو على تلك الحالة.

اثناء سكناه في المدينة القديمة، كان الدكتور خوفينال اوربينو يذهب مع افراد عائلته مشياً على الاقدام من بيته إلى الكتدرائية، لحضور قداس الساعة الثامنة، وكان ذاك عملاً دنيوياً اكثر منه دينياً. وفيما بعد، حين انتقلوا إلى البيت الجديد، تابعوا الذهاب إلى الكتدرائية في العربة عدة سنوات، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الاصدقاء تحت أشجار النخيـل في الحـديقـة. أمـا حين شيـد معبـد المجمـع الاكليريكي في لامـانغـا، مع شاطيء خصوصي ومقبرة خاصة، ما عادوا يذهبون إلى الكتدرائية إلا في بعض المناسبات الجليلة. وانتظر فلورينتينو اريثا، الذي كان يجهل أمر هذه التبدلات، لعدة آحاد على رصيف مقهى البـاروكيـة، مراقبـاً خروج النـاس من القـداسـات الثـلاثـة. ثم انه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسـة الجـديـدة، التي كان الـذهاب اليها شائعاً حتى سنوات قليلة، وهناك وجد الدكتور خوفينال اوربينو مع ابنيه، في الثامنة بالضبط، خلال أيام الآحاد الاربعة من شهر آب، لكن فيرمينـا داثـا لم تكن معهم. وفي أحـد أيام الآحاد هذه زار المقبرة المجاورة، حيث كان ساكنو حي لامـانغـا يبنـون اضـرحتهم الفخمـة، وقفـز قلبه حين رأى في ظل أشجار الثيا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الاضرحة. كان ناجزاً ومزيناً بزخارف زجاجية قوطية، وملائكة من المرمـر، ولـه شواهـد مذهبـة تحمـل اسماء جميع افراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة، وبينهم بالطبـع اسم دونيـا فيرمينـا داثـا دي اوربينـو دي لاكـايي، ويليها ضريح الزوج، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة: معاً كذلك في سلام الرب.

لم تحضر فيرمينا داثا خلال بقية العام أياً من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية، حتى ولا احتفـالات عيـد الميلاد، حيث كانت وزوجهـا عادة من ضيـوف الشـرف. لكن الاحساس بغيـابهـا بلغ ذروتـه في حفـل افتتـاح موسم الاوبـرا. وفي الاسـتراحـة بين الفصلين، فاجأ فلورينتينو اريثا جماعة لا بد انها كانت تتحدث عنها دون ذكر اسمها. كانوا يقولون ان هناك من رآها تصعد عند منتصف احدى ليالي حزيران الفائت إلى عابرة المحيط كونارد، المتجهة إلى بنـامـا، وانهـا كانت تغطي وجهها بخمار أسود كي لاتظهر اثار المرض المخجل الذي كان يستنفـــدهـا. وسأل أحـدهم أي مرض رهيب هذا الـذي يجرؤ على امـرأة متجـبرة مثلهـا، والاجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء:

ـ ان امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها ان تصاب إلا بالتدرن.

كان فلورينتينو اريثا يعلم ان اثرياء موطنه لا يصابون بأمراض قصيرة. فاما انهم يموتون فجأة، ويكـون ذلـك في الغـالب عشيـة حفلة كبرى يفسـدهـا الحـداد، واما انهم يأخذون بالانطفـاء في أمـراض بطيئـة وفظيعـة، تشيـع اثنـاءهـا اسـرار مرضهـم بين الجميـع. ويكاد الاعتكـاف في بنـامـا يكون تكفيراً اجبارياً في حياة جميع الاثرياء، حيث كانوا يخضعون هناك لمشيئـة الله في مشفى المؤمنـين ببعث المسيـح، والذي كان عبارة عن بناء فسيح أبيض ضائع تحت أمطار «دارين» الخرافية، يفقد فيه المرضى حساب القليل المتبقى لهم في الحياة. ولم يكن أي منهم ليعرف حق المعرفة في الحجرات المتوحدة ذات النوافذ المغطاة بستائر سميكة، اذا ما كان مبعث رائحـة الفينيك هو الصحـة أم المـوت. وكان الذين يشفون منهم يعودون محملين بهدايـا رائعـة يوزعـونهـا بسخـاء وهـو يبدون الكآبة ليسامحهم المجتمع على طيشهم في البقاء أحياء. وكان بعضهم يعودون وفي بطونهم اثار خياطة بربرية تبدو وكأنها اجريت بخيوط قنب كالتي يستخـدمهـا الاسكافيون، فيرفعون قمصانهم ليعرضوها على زائريهم، ويقارنوها بآثار جراح اخـرين ممن ماتـوا مختنقين لفرط السعادة، ويعيشون بقية حياتهم وهم يروون ويعيدون روايـة الـرؤى المـلائكيـة التي رأوهـا وهم تحت تأثير الكلوروفورم. ولم يكن هناك بالمقابل من يعرف كيف كانت رؤى الذين لم يرجعوا، وخصوصاً اشدهم حزناً: اولئك الذين ماتوا منفيين في جناح المسلولين، بتأثير كآبة المرض اكثر مما هو بتأثير فتك الداء.

وحـين فكـر بالاختيـار، لم يعـرف فلورينتينو اريثا ما الذي كان يفضله لفيرمينا داثا. لكنه كان يفضـل الـوصـول الى الحقيقـة قبـل أي شيء، حتى ولـو كانت لاتطـاق، ورغم بحثـه اللؤوب عنها لم يتوصل اليها. وبدا له غير معقول ألا يجد أحداً قادراً على اعطائه دليلاً يثبت صحة رواية المرض. ففي عالم السفن النهرية، الذي هو عالمه، لم يكن هنالك من سر يمكن اخفاؤه ولا ائتمان يمكن صونه. ومع ذلك، فان احداً لم يسمع بأمر المرأة ذات الخمار الاسود. ولم يكن هنـاك من يعـرف شيئـاً عنهـا، في مدينـة كل ما فيهـا معـروف للجميع، حيث تشيع الاخبـار عن اشيـاء كثيرة قبل حدوثها، وخصوصاً اذا كانت من شؤون الاغنياء. كما لم يكن لدى أحد تفسير معين لاختفاء فيرمينا داثا. تابع فلورينتينو اريثا الطواف في لامانغا، مستمعاً دون تقوى إلى المواعظ في كنيسة المدرسة الاكليريكية، ومشاركاً في احتفالات تمدنية ما كانت لتهمه وهو في حالة معنوية اخرى، لكن مرور الوقت لم يكن إلا ليزيد من صحة رواية المرض. كل شيء كان يبدو طبيعياً في بيت آل اوربينو، باستثناء غياب الام.

وفي خضم استقصاءاته الكثيرة وجد أخباراً اخرى لم يكن يعرفها، أو لم يكن يبحث عنها، منها موت لورينثو داثا في القرية الكانتبرية التي ولد فيها. تذكر انه كان يراه لسنوات طويلة في حروب الشطـرنـج الصـاخبة في مقهى الباروكية، بصوته الابح لكثرة ما يتكلم، وكان يصبح

اكثر بدانه وفظاظة كلما هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقيتة. لكنه ما عاد يبادله الحديث منذ فطور خمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي، مع ان فلورينتينو اريثا كان متأكداً من ان لورينثو داثا ما زال يذكره بحقد شديد كحقده هو عليه، حتى بعد ان حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرر حياته الوحيد. لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا، فعاد إلى مقهى الباروكية ليحصل عليها من ابيها، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية، حين واجه جيرميا دي سانت ـ امور وحده اثنين واربعين خصماً. وكان ان علم هناك بنبأ موت لورينثو داثا، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه، رغم معرفته بان ثمن تلك البهجة قد يكون استمراره في الحياة دون معرفة الحقيقة. واخيراً اعتبر رواية مستشفى اليائسين من الشفاء صحيحة، دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر: امرأة مريضة.. امرأة خالدة. وفي أيام يأسه، كان يقنع بفكرة ان خبر موت فيرمينا داثا، في حال وقوعه، سيصله على اي حال دون ان يبحث عنه.

لكن الخبر لن يصله أبداً. ففيرمينا داثا كانت حية ومعافاة، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا. لقد ذهبت بلا فضيحة، وباتفاق مع زوجها، بعد ان تورطا كلاهما كمراهقين في الازمة الجدية الوحيدة التي عرفاها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر. لقد فاجأتهما الازمة وهما في راحة النضوج، حين بدآ يشعران انهما بمنأى عن أية مكيدة يحيكها الخصوم مع ابنيهما الكبيرين وحسني التربية، والمستقبل المفتوح امامهما ليتعلما كيف يشيخان دون مرارات. لقد كانت ازمة غير منتظرة لكليهما، ولم يشاءا فضها بالصراخ والدموع والوسطاء. كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي. وانما بحكمة الأمم الاوربية، وبما انهما لم يتمكنا من عمل هذا ولا ذاك، فقدانتهيا إلى التخبط في حالة صبيانية لاتنتمي إلى أي مكان. وأخيراً، قررت الذهاب، حتى دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة، يقودها الى ذلك الغضب وحده، ولم يكن هو بقادر على اقناعها بالعدول عن رأيها، يمنعه من ذلك شعوره بالذنب.

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينةٍ عند منتصف الليل وسط تكتم شديد وبوجه مغطى بطرحة الحداد، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذاهبة إلى بناما، وانما في سفينة عادية ماضية إلى سان خوان دي لاثييناغا، المدينة التي ولدت وعاشت فيها الى ان بلغت سن الرشد، وكان حنينها اليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين. ورغم مشيئة الزوج وعادات العصر، فانها لم تأخذ معها من يرافقها سوى ابنة في العماد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت، لكنهم أعلموا بسفرها قباطنة السفن وسلطات الموانىء التي

ستمـر فيهـا . وحـين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه ، اخبرت ابنيها بانها ذاهبة لتخفف عن نفسـها لمدة ثلاثة شهور حيث تعيش الخالة هيلديبراندا ، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك . كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف جيداً صلابة طبعها ، وكان مغموماً لدرجة انه تقبل سفرها بذل وكأنـه عقـاب من الـرب لخطـورة آثـامـه . لكنـه لم يضع من نظره انوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه .

ورغم احتفاظهما بمراسلة رسمية حول وضع الابنين وبعض شؤون البيت الاخرى ، فقد انقضت سنتـان تقـريبـاً دون ان يجد أي منهـما طريقـاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء . ذهب الابنان الى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتهما المدرسية في السنة الثانية ، وفعلت فيرمينا داثا المستحيـل لتبـدو راضيـة عن حيـاتها الجديدة . وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال اوربينو من رسائل ابنه . ثم ان اسقف ريوهاتشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الانحـاء ، ممتطيـاً تحت مظلة تقيـه الشمس متن بغلتـه الشهـيرة البيضاء ذات السرج الموشى بالـذهب . وجـاء في اثـره حجـاج من اقـاليم نائيـة ، وعازفو اكورديون ، وبائعو أطعمة وتمائم متجـولـون ، وامتلأت المـزرعـة لثـلاثة أيام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء ، لم يأتوا في الحقيقـة من اجـل مواعـظ الاسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية ، وانما سعياً وراء منة البغلة ، التي كان يشـاع انهـا تحقق معجـزات دون علم سيدها . كان الاسقف على علاقة وطيدة بآل اوربينو دي لا كايي مذ كان خورياً ، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجانه ليتناول الغداء في عزبة هيلديبراندا . وبعد الغداء ، الذي لم يتكلم خلاله إلا بامور دنيوية ، قاد فيرمينا داثا جانباً واراد ان يسمع اعترافها . ولكنها رفضت بلطف ، انما بحسم ، متذرعة بانه ليس لديها ما تنـدم عليـه . ومـع ان غرضهـا لم يكن كذلك ، في وعيها على الأقل ، إلا انها فكرت بان ردها سيصل إلى حيث يجب وصوله .

لقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو القول ، ليس بلا شيء من المباهاة ، بان تينك السنتين المـريـرتـين من حيـاتـه لم تكـونـا نتيجة ذنبه وانما بسبب عادة زوجته المرذولة بشم الملابس التي يخلعهـا أفـراد العـائلة ، والتي تخلعهـا هي نفسها ، لتعرف من الرائحة ما اذا كان يجب ارسالها للغسيل ، حتى وإن بدت نظيفة للوهلة الأولى . كانت تفعل ذلك منذ طفولتها ، ولم تكن ترى فيـه ما يلفت الانتبـاه ، إلى ان انتبـه زوجهـا للأمـر في ليلة الزفاف بالذات . كما انتبه إلى انها تدخن ثلاث مرات على الاقـل يوميـاً وهي حابسـة نفسها في الحمام ، لكن هذا لم يقلقه ، لان نسـاء طبقتـه اعتدن حبس انفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال ، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى ان ينطرحن ارضاً في سكرة كسكرات البنائين . لكن عادتها في شم كل ما تجده امامها من ملابس ، لم تكن تبدو له غير لائقة حسب ، وانما ذات خطر على

الصحة أيضاً. فكانت تأخذ الأمر بالمزاح، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته، وتقول ان الله لم يضع لها في وجهها ذلك الانف المدقق لمجرد الزينة. وفي صباح أحد الايام، اثناء خروجها إلى السوق، قلبت الخادمات الحي بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له اثراً في أي مكان في البيت. وجاءت هي وسط الذعر، فقامت بجولتين اوثلاث جولات كتلك التي تقوم بها كلاب الاثر البوليسية، ووجدت الابن نائماً في احدى خزائن الملابس، حيث لم يخطر ببال أحد ان يكون قد اختبأ. وعندما سألها زوجها المندهش كيف وجدته رددت قائلة:

ـ من رائحة برازه.

والحقيقة ان حاسة الشم لم تكن تفيدها في غسل الملابس أو في العثور على أطفال ضائعين فقط: لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية. وقد لاحظ الدكتور خوفينال اوربينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها، وخصوصاً في بدايتها، حين كانت دائمة العبوس في جو مهيء ضدها منذ ثلاثمئة سنة، ومع ذلك فانها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادة دون ان تصطدم بأحد، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا ان تكون غريزة خارقة للطبيعة. هذه القدرة الرهيبة، التي قد يكون منشأها حكمة ترجع لملايين السنين أو قلب صواني، جاءتها بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للقداس، حين كانت فيرمينا داثا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحست بقلق ان رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها.

شمت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تنزع الساعة ذات السلسلة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الاوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة، ثم شمت القميص المجعد وهي تحل ياقة ربطة العنق وزري المعصم الياقوتيين وزر الياقة الذهبي، ثم شمت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الاحد عشر مفتاحاً وقلامة ريشة الكتابة ذات المقبض الصدفي، وشمت اخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه. ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك: ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتهما المشتركة الطويلة، رائحة يستحيل تحديدها، لانها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية، وانما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية. لم تقل شيئاً، كما لم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضول لتعرف ما اذا كانت بحاجة للغسيل، وانما بجزع لا يطاق كان يكوي احشاءها.

لم تعرف فيرمينا داثا أين تحدد موقع رائحة الملابس في روتين زوجها. لا يمكن ان يكون ذلك ما بين الدرس الصباحي والغذاء، لانها افترضت انه لا يمكن لامرأة سليمة العقل

ممارسة حب متعجل في مثل تلك الساعة، حين يكون على المرأة كنس البيت، وترتيب الاسرة، والتسويق، واعداد الغذاء، وربما تكون قلقة من ان يأتيها أحد الأطفال وقد أعادوه من المدرسة قبل الموعد لاصابته بضربة حجر، فيجدها عارية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبة، كما يجد، وتلك قاصمة الظهر، ان طبيباً فوقها. وكانت تعلم، من تجربتها، ان الدكتور خوفينال اوربينو لا يمارس الحب إلا ليلاً، بل انه يفضل ان يكون الظلام دامساً، وربما قبيل الفطور احياناً، على زقزقة أول العصافير. أما بعد هذه الساعة، فان نزع الملابس كما كان يقول، ولبسها من جديد أشق على النفس من متعة حُب كحُبِ الديك. أي ان تلوث الثياب لا يمكن له ان يحدث إلا في احدى زياراته الطبية، أو في وقت مختلس من لياليه في لعب الشطرنج أو في السينما. وقد كان التحقق من هذا الاحتمال الاخير صعباً، لان فيرمينا داثا، على العكس من معظم صديقاتها، كانت تعتز بكبريائها بحيث لا تسمح لنفسها بالتجسس على زوجها، أو بان تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها. ان توقيت زيارة المرضى الذي يبدو الاكثر ملاءمة لاقتراف الخيانة، هو في الوقت ذاته اسهل فترة يمكن رصدها، لان الدكتور خوفينال اوربينو يسجل بالتفصيل وضع كل مريض من زبائنه، بما في ذلك حالة حسابات الاتعاب، منذ ان يزوره أول مرة والى ان يودعه من هذا العالم بصليب اخير وعبارة من اجل راحة روحه.

بعد ثلاثة اسابيع، لم تجد فيرمينا داثا للرائحة اثراً في الملابس لعدة أيام، ثم عادت تجدها فجأة ودون سابق انذار، ثم انها وجدتها فيما بعد أوضح مما كانت عليه سابقاً ولأيام متتالية، رغم ان أحد تلك الايام كان يوم أحد احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة. وفي احدى الامسيات، وجدت نفسها في مكتب زوجها، على خلاف عادتها بل وعلى خلاف رغبتها وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدم عليه أبداً، وانها امرأة اخرى سواها، محللة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زياراته لمرضاه خلال الشهور الاخيرة. كانت المرة الاولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة، وصور مدرسية مضطربة، وشهادات شرف، واسطرلابات وخناجر زائفة جمعها خلال سنوات. انه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة، وهي لا تدخله لانه لاعلاقة له بالحب اما المرات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً. لم تكن تشعر بان لها الحق في الدخول وحدها، وخصوصاً اذا كانت تريد اجراء تحريات لا تبدو لها محترمة. انها ها هي هناك. انها تريد العثور على الحقيقة، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها، مدفوعة

بعاصفة متسلطة واكثر عتواً من كبر يائها الخُلقي، اكثر عتواً من كرامتها: انه تعذيب ساحر للنفس.

لم تستطع الوصول إلي شيء واضح، لان مرضى زوجها، باستثناء الاصدقاء المشتركين بينهما، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة. انهم أناس بلا هوية، لا يُعرفون بوجوههم وانما بآلامهم، لايعرفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم وانما بحجم كبدهم، وقلح لسانهم، وكثافة بولهم، وهذيانهم في ليالي الحمى. اناس يؤمنون بزوجها، يؤمنون بانهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له، وينتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير الطبي: اهدأ، فالرب ينتظرك عند الباب.. غادرت فيرمينا داثا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالهما إلى شيء. شاعرة بانها قد خضعت لغواية فاحشة.

وبدأت تكتشف، مدفوعة بأوهامها، التبدلات التي طرأت على زوجها. أصبحت تراه مراوغاً قليل الشهية على المائدة وفي الفراش، ميالاً الى السخط والردود المتهكمة، ولم يعد الرجل الهادىء الذي كانه من قبل اثناء وجوده في البيت، وانما صار اشبه بأسد محبوس. ولأول مرة منذ زواجهما، أخذت تراقب تأخره، وترصد اوقاته بالدقيقة، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق، ولكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها. وفي احدى الليالي استيقظت مذعورة لاحساسها بان زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحقد. لقد عانت قشعريرة مماثلة وهي في زهرة شبابها، حين كانت ترى فلورينتينو اريثا يتأملها عند طرف السرير، والفارق الوحيد هو ان مظهره لم يكن حينئذ مظهر حقد وانما حب. ثم انها لم تكن واهمة هذه المرة: كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك، انكر الأمر. وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً:

- لابد انك كنت تحلمين.

بعد هذه الليلة، وبفعل احداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا داثا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام، توصلت إلى اكتشاف باهر بانها آخذة بالجنون. ثم انتبهت اخيراً إلى ان زوجها لم يتناول القربان الرباني يوم خميس التجسيد، ولا في اي أحد من آحاد الاسابيع الاخيرة، كما انه لم يجد وقتاً للخلوة الروحية في ذلك العام. وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية، تلقت رداً مبهماً. وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل، لانه لم يكن يتخلف عن تناول القربان المقدس في يوم بهذه الاهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر. وهكذا ادركت ان زوجها لم يسقط في الخطيئة المهلكة وحسب، وانما هو مصر على الولوغ فيها، لانه يرفض اللجوء إلى مساعدة

كاهن الاعتراف. لم تتصور يوماً انها قد تعاني الى هذا الحد من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً، ولكنها كانت في خضم هذه المعاناة، ورأت ان الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دس النار إلى جحر الحيات التي سممت دخيلتها. وهكذا فعلت. فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو اعقاب الجوارب على الشرفة، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة. وفجأة، قطعت عملها، ورفعت نظارتها إلى جبهتها، واستجوبته دون اية قسوة:

ـ دكتور.

كان غارقاً في قراءة L'LLEDES PINGOUINES، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام، واجابها دون ان يخرج من جو الرواية: Oui. فألحت:

ـ انظر إلى وجهي.

فعل ذلك، ناظراً اليها دون ان يراها من خلال غلالة نظارة القراءة، ولكنه لم ينزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها. وسألها:

ـ ما الأمر؟

فقالت:

ـ أنت تعرفه خيراً مني.

ولم تقل شيئاً آخر. بل انزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب. حينئذ علم الدكتور خوفينال اوربينو ان ساعات الجزع الطويلة قد انتهت. وعلى العكس من تصوره لتلك اللحظة، فانها لم تكن هزة تزلزل القلب، وانما مجرد ضربة سلام. انها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً: لقد دخل شبح الانسة باربرا لينتش الى البيت اخيراً.

كان الدكتور خوفينال اوربينو قد تعرف عليها قبل أربعة أشهر، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة، وانتبه على الفور بان شيئاً لا سبيل لاصلاحه قد حاق بقدره. كانت خلاسية طويلة القامة، انيقة، ذات عظام طويلة، لبشرتها لون العسل الاسود وقوامه اللدن ذاته، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من نفس النوع ذات حافة عريضة تفرد ظلها حتى رموش عينيها. وكانت تبدو وكأنها من جنس اكثر تحديداً من سائر ابناء البشر. لم يكن الدكتور خوفينال اوربينو يعالج المرضى في العيادات الخارجية، ولكنه اعتاد، كلما مر من هناك وكان لديه متسع من الوقت، الدخول ليذكر تلاميذه الكبار بانه لا دواء أفضل من التشخيص الجيد. وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العابرة. محاذراً ألا يلحظ تلامذته اية حركة لاتبدو عرضية، ودون ان ينظر اليها تقريباً، ولكنه دوّن في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها. وفي هذا المساء بالذات، بعد زيارة اخر مرضاه، جعل العربة تمر من العنوان الذي أفضت به في

العيادة، وكانت هناك فعلاً، تستمتع على الشرفة برطوبة اذار.

كان البيت واحداً من بيوت الانتيل التقليدية، مطلياً كله باللون الاصفر بما في ذلك سقف التوتياء، وله نوافذ مخرمة وفيه اصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لا مالاكريانثا. وفي قفص معلق بافريز السطح، كان يغرد عصفور توريبال. وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية، وكان الاطفال يخرجون منها بفوضى اجبرت الحوذي على شد الاعنة بقوة ليحول دون اجفالهم للحصان. لقد كانت تلك ضربة حظ، اذ تمكنت الانسة باربارا لينتش من التعرف على الدكتور. فحيته بحركة معارف قدماء، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريثما تنتهي الفوضى، فتناوله بكل سرور، على خلاف عادته، مستمعاً اليها تتحدث عن نفسها، وهو الشيء الوحيد الذي اصبح يهمه منذ ذلك الصباح والشيء الوحيد الذي سيستحوذ على اهتمامه، دون لحظة سلام، خلال الاشهر التالية. لقد قال له احد اصدقائه بحضور زوجته في احدى المناسبات، وهو حديث العهد بالزواج، بانه سيواجه عاجلاً أو آجلاً عاطفة تبعث على الجنون، يمكنها ان تعرض استقرار حياته الزوجية للخطر، لكنه، هو الذي كان يظن بانه يعرف نفسه جيداً، ويعرف متانة جذوره الاخلاقية، ضحك من هذه النبوءة. حسناً اذن: ها هي الآن.

الانسة باربارا لينتش، دكتوراة في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للمحترم جونثان ب. لينتش، الراعي البروتستانتي، الزنجي النحيف، الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندية، مبشراً بتعاليم أحد الآلهة الكثيرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال اوربينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميزهم عن إلهه. كانت تتحدث بقشتالية جيدة، مع عثرة ضئيلة في النحو يضاعف تكرارها من ظرافتها. كانت ستتم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني، وقد طلقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً. قالت: «لا أحب احداً سوى عصفوري التوريبال». لكن الدكتور خوفينال اوربينو كان جدياً بما يكفيه ليفكر بانها انما تقول ذلك متعمدة. بل انه سأل نفسه وهو مضطرب الافكار ما اذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً فيما بعد، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على انه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب.

وعندما ودعها، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً، مدركاً انه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه، وقد كانت هي في منتهى الروعة بحديثها عن آلامها، حتى

انه وعدها بالعودة في اليوم التالي، الساعة الرابعة تماماً، لفحصها فحصاً دقيقاً. احست بالفزع: كانت تعلم ان طبيباً من هذا النوع بعيد جداً عن امكانياتها، لكنه طمأنها: «واننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء». ثم سجل الملاحظة في دفتر جيبه: الآنسة باربارا لنتش، مستنقع لامالا كريانثا، السبت، ٤ مساء. بعد ذلك بشهور، قرأت فيرمينا داثا تلك الملاحظة التي أضيفت اليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطور المرض. وقد لفت الاسم اهتمامها، وخطر لها فجأة بانها واحدة من هؤلاء الفنانات المضللات في سفن نيو اورليانز للفواكه، لكن العنوان جعلها تفكر بان الاحتمال الاقرب الى الصواب هو انها جامايكية، وزنجية بالطبع، فصرفت النظر عنها دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها.

ذهب الدكتور خوفينال اوربينو إلى موعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق، حين لم تكن الآنسة لينتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله. ولم يشعر بتوتر كالذي شعر به امامها منذ ايام باريس، حين كان عليه التقدم لامتحان شفوي. كانت الآنسة لينتش جمالاً لا محدوداً وهي مستلقية على السرير، بقميص نوم حريري رقيق. كل ما فيها كان عظيماً وزخماً: فخذاها اللذان كفخذي عروس البحر، وبشرتها المحروقة على نار خفيفة، ونهداها الذاهلان، ولثتها الشفافة ذات الاسنان الدقيقة، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية، وهي الرائحة البشرية التي وجدتها فيرمينا داثا في ملابس زوجها. كانت قد ذهبت إلى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعوه بظرافة شديدة مغصاً ملتوياً، وظن الدكتور اوربينو بانها اعراض قلة شرب السوائل. وقد لامس على أي حال اعضاءها بغرض أبعد ما يكون عن الاهتمام الطبي، وراح ينسى اثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً ان تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج، وعندئذ ترك متعة اللمس تقوده، ليس على انه الطبيب الاكثر شهرة في ساحل الكاريبي، وانما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز. كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرة واحدة في حياته المهنية الطويلة، وقد كان ذاك هو يوم عاره الكبير، لان المريضة الحانقة ازاحت يده، واعتدلت على السرير قائلة له: «ان ماتريده يمكن ان يحدث، ولكن ليس هكذا». أما الآنسة لينتش، فقد سلمت نفسها ليديه، وحين لم يعد لديها ادنى شك في ان الطبيب ما عاد يفكر بعلمه، قالت:

ـ كنت أظن ان هذا غير مسموح في الاخلاق الطبية.

كان مبللاً بالعرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء، فمسح يديه ووجهه بمنشفة، وقال:

ـ الاخلاق الطبية تتصورنا معشر الاطباء من خشب.

مدت له يداً شاكرة وقالت:

ـ كوني كنت أظن لا يعني انه لا يمكنك فعل ذلك. تصور ما الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الاهمية.

فقال :

ـ لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة.

كان اعترافاً مرتعشاً إلى حد جعله جديراً بالشفقة. ولكنها وضعته بمنجى من كل شر بقهقهة أضاءت حجرة النوم. وقالت :

ـ أعرف ذلك مذ رأيتك في المستشفى يا دكتور. صحيح انني زنجية، ولكنني لست غبية.

لم يكن الامر سهلاً. فالانسة لينتش تريد شرفها نظيفاً، وتريد الامان والحب، وترى انها جديرة بذلك. لقد اتاحت للدكتور خوفينال اوربينو فرصة اغوائها، انما دون السماح له بالدخول إلى الحجرة اثناء وجودها وحيدة في البيت. وأبعد ما وصلت اليه هو السماح له بتكرار طقوس اللمس والفحص بالتنصت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات اخلاقية يشاؤها، ولكن دون ان تنزع ثيابها. أما هو، فلم يستطع افلات الطعم بعد ان ابتلعه، وثابر على حصاره اليومي. كان استمرار علاقته بالانسة لينتش شبه مستحيل لاسباب مرتبطة بنظامه العملي، ولكنه كان أضعف من ان يكبح نفسه في الوقت المناسب، كضعفه في المضي قدماً فيما بعد. لقد كانت له حدوده.

لم تكن حياة المحترم لينتش بالحياة المنتظمة، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحملة في أحد جانبيها بكتب مقدسة ونشرات دعائية انجيلية، وفي الجانب الآخر بالزاد ومواد التموين، ويرجع حين لا تخطر عودته ببال أحد. كما كان هناك عائق آخر يتمثل بالمدرسة المقابلة، فالاطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل، بابوابه ونوافذه المشرعة على مصراعيها منذ الساعة السادسة صباحاً، ويرون الانسة لينتش وهي تعلق القفص بافريز السطح ليتعلم طائر التوريبال موسيقى الدروس المغناة، ويرونها بعمامتها الملونة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاريبي النقي اثناء قيامها بأعمال البيت، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالانكليزية مزامير المساء.

كان عليه ان يختار وقتاً لا يكون الاطفال موجودين فيه، ولم يكن امامه سوى احتمالين: اما اثناء استراحة الغداء، ما بين الثانية عشرة والثانية، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء ايضاً، واما في المساء، حين ينصرف الاطفال إلى بيوتهم. وقد كان هذا الاحتمال الاخير هو الأفضل دائماً، ولكن الدكتور يكون حينئذ قد انهى زياراته ولا يبقى امامه

سوى دقائق قليلة للوصول الى البيت وتناول الطعام مع اسرته. أما المشكلة الثالثة، وهي الاخطر بالنسبة له، فكانت تتمثل في وضعه بالذات. اذ لم يكن بامكانه الذهاب دون العربة، وهي عربة معروفة جيداً ويجب ان تنتظره دوماً أمام الباب. كان بإمكانه الاتفاق مع الحوذي، كما يفعل جميع اصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته. حتى ان حوذي العائلة نفسه، وبعد ان أصبحت زياراته للانسة لينتش مكشوفة بما فيه الكفاية، تجرأ على سؤاله اذا لم يكن من الأفضل ان يرجع بحثاً عنه فيما بعد كي لا تبقى العربة متوقفة امام الباب لوقت طويل. لكن الدكتور اوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً:

ـ هذه هي المرة الأولى التي اسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألا تقوله مذ عرفتك. ولكن لا بأس: سأعتبر انك لم تقل شيئاً.

لم يكن ثمة مفر: ففي مدينة كهذه لا يمكن اخفاء أمر مرض ما دامت عربة الطبيب عند الباب. لقد كان الطبيب يبادر احياناً بالذهاب الى بيت المريض مشياً على الاقدام حين تسمح المسافة بذلك، أو الذهاب في عربة اجرة، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة. ومع ذلك، فان هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير، فالادوية التي يصفها الطبيب لتشترى من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة، مما كان يدفع الدكتور اوربينو إلى وصف ادوية مزيفة إلى جانب الادوية الصحيحة، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار امراضهم. ورغم قدرته كذلك على ان يبرر بوسائل شريفة مختلفة، وقوف عربته امام دار الانسة لينتش، إلا انه لن يتمكن فعل ذلك لزمن طويل، بل لوقت اقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه: مدى الحياة.

صارت دنياه جحيماً. فما ان ارتوى الجنون الأول حتى ادرك كلاهما المخاطر المحيقة بهما، ولم يكن الدكتور خوفينال اوربينو قد حسم أمره يوماً وأعد نفسه لمواجهة الفضيحة. لقد كان يعدها بكل شيء اثناء هذيانه المحموم، ولكنه بعد الانتهاء، يؤجل كل شيء إلى ما بعد. وكان بالمقابل كلما ازداد شوقه للقائها يزداد كذلك خوفه من فقدانها، وهكذا أصبحت لقاءاتهما سريعة وصعبة. لم يكن يفكر بشيء آخر. كان ينتظر المساء بجزع لا يُطاق، وينسى مواعيده الاخرى، ينسى كل شيء سواها، ولكن ما ان تبدأ العربة بالاقتراب من مستنقع لا مالا كريانثا حتى يأخذ بالابتهال إلى الله ليبعث له عائقاً في اللحظة الاخيرة يجعله يواصل طريقه دون الدخول اليها. كان يعاني حالة من الكآبة تجعله يبتهج حين يرى أحياناً، وهو على الناصية، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة، والابنة في الصالة تلقن أصول الدين لأطفال الحي من خلال الاناجيل المغناة. فيمضي حينئذ سعيداً إلى بيته

كي لا يستمـر في تحدي القـدر. ولكنـه لا يلبث ان يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله ان يتحول اليوم كله وجميع الايام لتصبح جميعها الخامسة مساء فقط.

اصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين أخذ ظهور العربة يكثر أمام الباب، ولم يعد ذلك الحب بعـد مرور ثلاثـة شهـور سوى عمـل مضحك. فقد كانت الانسة لينتش تدخل حجرة النوم دون أن يتاح لها الوقت لقول أي شيء، بمجرد رؤيتها العاشق الولهان يدخل. وكانت تتخـذ الاحتيـاطـات المسبقـة في الايـام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستانا جامايكيا بديعا مزينـا بزهـور ملونـة، ولكن دون أيـة ملابس داخليـة، ودون أي شيء، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف. لكنه كان يهدر كل ما تفعله لاسعاده. فيلحقها الى حجرة النـوم لاهثـا ومـلـلا بالعـرق، ثم يبـدأ بالتخلص مما يحمله ملقيـا بكـل شيء على الارض: العكـاز، وحقيبـة الطبيب، والقبعـة البنميـة، ليـمارس حباً مرتبكاً بسروال مجعد عند كاحليه وسـترة مزررة ليكـون ازعـاجهـا أقل، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدريته، وهو منتعل حذاءه، وكـل شيء، مهتـما بالـذهـاب بأسـرع ما يمكن اكثر من اهتمامه باستكمال المتعة. وتبقى هي. صائمة، ما ان تهم بدخول نفق عزلته، حتى يبدأ باحكام ازرار سرواله من جديد وهو منهك، كما لو انــه مارس الحب المطلق على الخـط الفـاصـل بين الحيـاة والمـوت، بينما هو لم يفعل في الحقيقـة اكثـر مما يتطلبـه فعـل الحب من جهد جسدي. ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه: انه الوقت اللازم بالضبط لاعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية. ويعود بعدئذ الى البيت خجلا من ضعفه، راغبا في الموت، ولاعنا فقدانه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا دائما ان تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه.

لم يكن يتعشى، وكـان يصـلي دون ايـمان، ويتصنـع مواصلة قراءة ما بعـد القيلولة وهو في الفراش فيما زوجته تلف في البيت وتدور مرتبة الدنيا قبل ان تنام. وما ان يداعبه النعاس فوق الكتـاب حتى يأخـذ بالغـرق شيئـا فشيئـا في غابـة الانسـة لينتش التي لا مفر منها، يغرق في رائحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة الا خمس دقائق من مساء اليوم التالي، وبها تنتظره في السرير دون أي شيء سوى جبلها اللدن القاتم تحت الفستان الجامايكي المجنون: انها الدائرة الجهنمية.

كان قد بدأ يعي ثقـل جسـده منـذ بضـع سنـوات. وكان يعرف الاعراض. لقد قرأها في كتب الطب، ولمسها في الحياة الواقعية بمعاينتها في مرضى هرمين بلا سوابق مرضية خطيرة، يبـدؤ ون فجأة بوصف أعـراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب، رغـم انها لا تعـدو كونهـا اوهـامـا. لقد نصحه استاذ طب الاطفال في جامعة سالبيتر يير يوماً بدراسة طب

الاطفـال لانـه أنبـل اختصـاص ، فالاطفـال لايمـرضون الا حين يكونون مرضى حقا ، ولا يستطيعـون التـواصـل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وانما بالاعراض المحددة للامراض الحقيقيـة . أمـا البـالغين ، اعتبارا من سن معين ، فاما ان لديهم أعراضا بلا أمراض ، واما ان لديهم ماهو اسوأ من ذلك : امراضاً خطيرة وأعراض أمراض اخرى ليست ذات شأن . وكان هو يشغلهم بالمسكنات . متيحا الوقت للزمن ، كي يتعلموا عدم الشعور بتوعكات الكبر بعد معايشتهم لها في مزبلة الشيخوخة . وما لم يفكر به الدكتور خوفينال اوربينو أبدا هو ان طبيبا في مثل سنه ، يظن بأنه رأى كل شيء وخبره ، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بانه مريض حين لا يكون كذلك . أويقع له ما هو أسوأ بان يظن انه ليس مريضا ، متعللا باوهام طبية محضة ، في حين ربـما يكـون مريضـا فعـلا . لقـد قال في احد دروسه يوماً وهو في الاربعين ، نصف مازح ونصف جاد : «الشيء الـوحيـد الـذي احتـاجه في الحياة هو أحد يفهمني» . ولكنه حين وجد نفسه ضائعا في متاهة الانسة لينتش لم يفكر بالامر مازحاً .

جميـع الاعـراض الحقيقيـة والوهميـة لمرضاه المسنين اجتمعت في جسده . فكان يحس شكل كبـده بوضـوح ، ويستطيـع تحديـد حجمـه دون ان يلمسـه . كان يشعر بزمجرة القط النائم في كليتيه ، ويشعر ببريق مرارته الساطع ، ويحس خرير الدم في شرايينه . وكان يستيقظ صباحا في بعض الاحيان كسمكة لاتجد الهواء المتنفس . ويشعر بوجود ماء في قلبه ، ويحس به يفقد ايقاعه للحظة ، أويشعر به ، بين حين وآخر ، يتأخر في نبضة من نبضاته ، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة ، ثم يشعر بانه يستعيد قواه لان الله كبير . ولكنه بدلا من ان يلجأ الى علاج السلوى الذي كان يطبقه على المرضى ، فانه سمح للخوف ان يعميه . حقا ان الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة ، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً ، هو أحد يفهمه . وهكذا لجأ الى فيرمينا داثا ، اكثر من تحبه ويحبها في هذا العالم ، ومن سيريح ضميره أمامها .

حدث هذا بعـد ان قاطعتـه في قراءتـه المسـائيـة لتطلب منه ان ينظر الى وجهها ، فجاءته الاشارة الاولى بان حلقته الجهنمية قد كُشفت . لم يفهم كيف حدث ذلك ، اذ كان مستحيلا عليه ان يتصور بان فيرمينا داثا اكتشفت الحقيقة بمجرد الشم . لكن هذه المدينة لم تكن على اي حال ، ومنـذ زمن بعيـد ، بالمـدينـة المنـاسبة لكتمان الاسرار . فبعد وقت قصير من وصول اجهـزة الهـاتف الاولى ، انهـارت عدة زيجـات كانت تبـدو راسخـة ، تحت نمائم الاتصـالات الهاتفية المجهولة ، ودفع الرعب عائلات كثيرة الى الغاء اشتراكها أو رفض الاشتراك بالهاتف لسنـوات طويلة . كان الـدكتـور خوفينال اوربينو يعرف ان زوجته تعتز بنفسها كثيراً بحيث لا تسمـح حتى بمحـاولـة وشاية مجهولة بالهاتف ، ولم يكن قادراً على تصور ان أحداً يتجرأ على اخبـارهـا معلنا عن اسمه . لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة : ورقة تدسها يد مجهولة

من تحت الباب يمكنها ان تكون فعالة، ليس لانها تضمن ازدواجية المجهولية للمرسل والمرسل اليه، وانما لان اصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتا فيزيقية ما مع تدابير العناية الالهية.

لم تكن الغيرة تعرف الى البيت سبيلا: فخلال اكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي، كان الدكتور اوربينو يفاخر في الاماكن العامة، وكان صادقاً حتى ذلك الحين، بانه مثل الثقاب السويدي، لايشتعل الا بعلبته. لكنه كان يجهل كيف يمكن ان يكون رد فعل زوجته بكبريائها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الحاد، أمام خيانة ثابتة. وهكذا فانه حين تطلع في وجهها كما طلبت منه، لم يخطر له شيء سوى ان يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق، وظل يتظاهر بالانغماس في تعرجات نهر جزيرة ألكا العذب، ريثما يخطر له ما يفعله. ولم تقل فيرمينا داثا من جهتها شيئا أخر. وعندما انتهت من رفو الجوارب، ألقت بالادوات دون انتظام في علبة الخياطة، وأعطت التعليمات في المطبخ لاعداد العشاء، ومضت الى حجرة النوم.

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة الى منزل الانسة لينتش. أما وعود الحب الابدي، والحلم ببيت سري لها وحدها حيث يستطيع زيارتها دون مفاجآت، والسعادة على مهل حتى الموت، وكل ما وعدها به اثناء ومضات الحب ألغي الى الابد. وأخر ما تلقته منه ألانسة لينتش كان اكليلا من الزمرد سلمها اياه الحوذي دون أي تعليق، دون أي رسالة، دون أية ملاحظة مكتوبة، في علبة ملفوفة بورق صيدلية، حتى يظنه الحوذي نفسه دواء مستعجلا. ولم يعد لرؤيتها ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته، والله وحده يعلم كم من الالام كلفه هذا القرار البطولي، وكم من الدموع المريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجاوز كارثته الحميمة. فبدلا من ان يذهب اليها في الساعة الخامسة، قام بتقديم توبته النصوح أمام كاهن الاعتراف، وشارك يوم الاحد التالي في تناول القربان الرباني بقلب مفتت، انما روح مطمئنة.

يوم قطع علاقته بها، وفيما هو ينزع ملابسه لينام، كرر على مسامع فيرمينا داثا تراتيل ارقه الصباحي المريرة، والوخزات المباغتة، والرغبة بالبكاء عند الظهيرة، والاعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يرويها لها حينئذ كما لو كانت اعراض الشيخوخة البائسة. كان عليه ان يحكي ذلك لاحد كي لا يموت . . كي لايروي الحقيقة، ثم ان تلك المفاتحات بمكنون قلبه كانت أولا واخيرا أحد طقوس الحب البيتي. استمعت اليه باهتمام، انما دون النظر اليه، ودون ان تقول شيئا، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها. كانت تشم كل قطعة منها دون

أيــة ايــماءة تشي بغضبهــا، ثم تطـويهـا كيفـما اتفق، وتلقي بها الى سلة الثيـاب المتسخـة الخيزرانية. لم تجد الرائحة، ولكن الامر سيان: غدا سيكون يوم آخر. وقبل ان تجثو للصلاة أمـام المـذبـح الصغـير في حجـرة النـوم، اختتم هوروايتـه المكـرورة عن بؤسه بتنهدة حزينة وصريحة أيضا: «أظن انني سأموت». ولم ترمش رمشة واحدة حين ردت عليه قائلة:

ـ سيكون هذا أفضل. لاننا سنستريح كلانا.

قبل سنوات، وخلال ازمة مرض خطير، كان قد تحدث عن احتمال موته، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه. وقد عزا الدكتور اوربينوذلك يومها الى قسوة النساء، هذه التي تتـابـع الارض بفضلهـا الدوران حول الشمس، لانه كان يجهل حينئذ بانها تقيم دوماً حاجزا من الغضب لتخفي خوفها، ولتخفي يومئذ اكثر مخاوفها رهبة، الا وهو الخوف من البقاء بدونه.

لكنهـا تمنت له المـوت في تلك الليلة بكـل حدة قلبهـا، وقـد أفزعه هذا اليقين. بعد ذلك سمعهـا تبكي في الظـلام، بوهن شديـد، عاضـة الوسادة كي لا يسمعها. فبهره ذلك، لانه كان يعلم انهـا لا تبكي بسهـولـة من أي ألم جسـدي اوروحي. وانها تبكي بتأثير حنق عظيم فقط، ويكون بكاؤ ها أشد اذا ما كان هذا الحنق ناشئا، بطريقة ما، عن خوفها من الشعور بالذنب. لم يتجرأ على مواساتها، مدركا ان ذلك سيكون اشبه بمواساة نمرة مطعونة بحربة. ولم يمتلك الجرأة ليقول لها ان اسباب بكائها قد زالت هذا المساء، وانها انتزعت من جذوُرها الى الابد، حتى من ذاكرته.

هزمـه الارهـاق لدقـائق. وعنـدمـا استيقظ وجد انها قد اضاءت النور الخفيف الذي الى جانبها وانها مازالت مفتوحة العينين، انما دون بكاء. لقد حدث لها شيء حاسم فيما هونائم: فالـرواسب التي تراكمت في قاع عمـرهـا خلال سنـوات طويلة قد هاجّت بعـذاب الغـيرة، وخرجت طافية الى السطح، وأهرمتها في لحظة واحدة. فتجرأ على القول لها انها تحاول النوم وهـو مذهـول لتجـاعيـدهـا الفجائية، ولشفتيها الذاويتين، ولرماد شعرها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. فكلمته دون ان تنظر اليه، ولكن دون اي أثر للسخط في صوتها، بل بصوت أقرب الى الوداعة، قائلة له:

ـ لي الحق بان أعرف من هي.

عنـدئـذ روى لها كل شيء، شاعـراً بانه يرفع عن كاهله ثقل العالم، لانه كان مقتنعا بانها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل. لكن الامر لم يكن كذلك طبعاً، وفيما هويتكلم عادت هي تبكي، ليس باجهـاشـات خجـولـة كما في البـدء، وانـما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجهها، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها، لانه لم يفعل ما كانت

تنتظره منه وروحها معلقة بخيط، اذ كانت تنتظر منه ان ينكر كل شيء حتى الموت، وان يغضب من الافتراء، وان يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة الذين لايتورعون عن دوس شرف الاخرين، وان يقف ثابت الجأش حتى امام الادلة الدامغة على خيانته: كرجل. بعد ذلك، وحين روى لها بانه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء، خشي ان يعميها الغضب. فمنذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بان أهل الكنيسة لايتمتعون بأية فضيلة ملهمة من الرب. وكان هذا خلافاً جوهريا في الانسجام البيتي، تمكنا من حله دون صدامات. انما كون زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل الى هذا الحد في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط، بل وملكها ايضاً، كان شيئا يتجاوز كل الحدود.

قالت:

ـ ان هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الازقة.

كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها. كانت متأكدة من ان شرفها أصبح على كل لسان قبل ان ينتهي زوجها من الاعتراف، وشعور المهانة الذي اثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة. والاسوأ من كل بذلك، ياللعنة . . مع زنجية. فصحح قائلا: «خلاسية». ولكن أي تحديد كان فائضا عن اللزوم حينئذ: لقد انتهى الأمر.

قالت:

ـ انها اللعنة نفسها. والآن فقط بدأت افهم: لقد كانت رائحة زنجية.

حدث هذا يوم الاثنين. وفي السابعة من مساء يوم الجمعة، ابحرت فيرميا داثا في السفينة الصغيرة النظامية الذاهبة الى سان خوان دي لا ثيناغا، دون ان تأخذ معها سوى صندوق واحد، وبرفقة ابنة بالعماد، وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الاسئلة لها ولزوجها كذلك. لم يذهب الدكتور خوفينال اوربينو الى الميناء، باتفاقهما معا، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام، قررا على اثرها ان تذهب الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث، في بلدة فلوريس دي ماريا، لتفكر جيدا قبل اقدامها على اتخاذ قرار نهائي. وقد فهم الابنان الامر، دون ان يعرفا الاسباب، على انه رحلة جرى تأجيلها مرات ومرات، وكانا هما نفسيهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد. وقد رتب الدكتور خوفينال اوربينو الامور بحيث لا يتاح لأحد من أبناء عالمه الغادر الوصول الى تخمينات خبيثة، وفعل ذلك باتقان حتى ان اخفاق فلوريتينو اريثا بالعثور على اي أثر لاختفاء فيرمينا داثا لم يكن لضعف وسائله في التقصي وانما لعدم وجود اية اثار فعلا. ولم يكن يراود الزوج أي شك في انها ستعود بعد ان يفارقها الغضب. أما هي، فذهبت واثقة ان الغضب لن يفارقها ابد الدهر.

لكنها سرعان ما ستدرك ان هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ماهو وليد الحنين.

فبعد رحلة شهر العسل عادت عدة مرات الى اوروربا، رغم قسوة الايام العشرة التي تمضيها في البحر، ولقد كانت رحلاتها تستغرق دوما وقتا كافيا للاحساس بالسعادة. كانت تعرف العالم، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة اخرى، لكنها لم ترجع أبدا الى سان خوان دي لاثيناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة. كان في العودة الى مقاطعة ابنة الخال هيلدبراندا شيئا من استعادة الماضي بالنسبة لها، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة. ولم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية: بل قبل ذلك بكثير. وهكذا فان مجرد فكرة تنقيبها عن ذكريات صباها كان يعزيها في تعاستها.

عندما نزلت الى البر مع ابنتها في العهاد في سان خوان دي لاثيناغا، لجأت الى مافي طبعها من احتياطيات هائلة، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات. وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع، الذي ذهبت اليه بتوصية للاهتمام بها، دعاها الى جولة في العربة الرسمية ريثما يخرج القطار الذاهب الى سان بيدرو اليخاندرينو، حيث ارادت الذهاب للتأكد مما قيل لها من أن السرير الذي مات عليه بطل التحرير[1] كان صغيرا جدا كسرير طفل. وكان ان عادت فيرمينا داثا حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية مساء. عادت لرؤية الشوارع التي تبدو اشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحالب، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبلاء المحفورة على الرواق المقنطر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية، حيث تتردد دون رحمة في صالاتها الظليلة تمارين البيانو المكرورة والحزينة، التي كانت تعلمها امها حديثة الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات. رأت الساحة الخاوية من اية شجرة في جمر الحجارة المتقدة، وصف العربات ذات الاغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفا، وقطار سان بيدرو اليخاندرينو الاصفر، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى اكبر بيت بين جميع البيوت واكثرها جمالا برواقه الحجري المقنطر الذي تغطيه نباتات خضراء، وبوابته الضخمة كبوابة دير، ونافذة غرفة النوم التي ستولد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة، حين لن تعود لها ذاكرة لتتذكر ذلك. فكرت بالعمة اسكولاستيكا، التي ما زالت تبحث عنها دون أمل في السماء والارض. وفيما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكر بفلورينتينو اريثا، بثيابه كأديب ويكتاب اشعاره تحت اشجار اللوز في الحديقة، كما يحدث لها أحيانا حين تتذكر سنوات المدرسة الكريهة. وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرف على بيتها العائلي القديم، فحيث كانت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير، وعند المنعطف كان يمتد شارع بيوت الدعارة، حيث مومسات من ارجاء الدنيا ينمن قيلولتهن أمام الابواب، فلربما مر

(١) المقصود ببطل التحرير (El Libertador) هو محرر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار.

البريد حاملا لهن شيئاً . . . لم تكن البلدة هي بلدتها.

منذ بداية الجولة في المدينة ، غطت فيرمينا داثا نصف وجهها بالطرحة ، ليس خوفا من التعرف اليها حيث لا أحد يستطيع التعرف عليها ، وانما لمرأى الموتى الذين ينتفخون تحت الشمس في كل مكان ، بدءا من محطة القطار وحتى المقبرة . وقال لها القائد المدني والعسكري للموقع : «انها الكوليرا» . كانت تعلم ذلك ، لانها رأت الخثارات البيضاء على فم الجثث المكتوية ، لكنها لاحظت انه لا اثر لرصاصة الرحمة في عنق اي جثة من الجثث ، كما كان الامر في زمن المنطاد.

فقال لها الضابط :

ـ وهو كذلك . فالرب يحسن من اساليبه ايضا.

كانت المسافة التي تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندرينو القديمة هي تسعة فراسخ فقط ، لكن القطار الاصفر كان يستغرق في اجتيازها يوما كاملا ، لان صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت كي يحركوا ارجلهم بالمشي في مرابع الغولف التابعة لشركة الموز ، أو ليستحم بعض الرجال منهم ، وهم عراة ، في الانهار الصافية والمثلجة التي تنحدر من الجبال ، أو انهم ينزلون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الابقار الطليقة في المراعي . وعندما وصلت فيرمينا داثا مروعة ، لم يتح لها الوقت للتمعن باشجار التمر الهندي الهوميرية حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضر عليها ، وللتأكد من ان السرير الذي مات عليه لم يكن صغيرا بالنسبة لرجل ، كما قالوا لها فقط ، بل انه صغير حتى على مولود خديج . ولكن زائرا آخر يبدو انه يعرف كل شيء ، قال ان السرير ليس الا أثرا زائفا ، والحقيقة هي ان أبا الوطن قد ترك يموت وهو ملقى على الارض . كانت فيرمينا داثا مغمومة لما رأته وسمعته مذ خرجت من بيتها ، لدرجة انها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنت اليها دوما ، وانما اخذت تتجنب المرور من القرى التي كانت تحن اليها . وهكذا حمت تلك القرى وحمت نفسها من خيبة الامل . كانت تسمع العزف على الاوكورديونات من الطريق حيث كانت تهرب من خيبة الامل ، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكة ، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال ، وحين لا تجد مفرا من المرور في احدى القرى ، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكرها كما كانت من قبل.

في احدى الليالي ، وبعد تجنب طويل للماضي ، وصلت الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا ، وحين رأتها تنتظر أمام الباب كادت تسقط مغميا عليها : كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة . لقد رأتها بدينة وهرمة ، محاطة بابناء غير مروضين لم تنجبهم من

الـرجـل الـذي مازالت تحبـه دون أمـل ، وانـما من ضابط ينعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلهـا واحبهـا بجنـون . ولكنهـا في اعـماق جسـدهـا المدمر كانت ماتزال على حالها . وقد تخلصت فيرمينـا داثـا من هذا الانطبـاع بعـد ايام قليلة في الريف وبتأثير الذكريات الطيبة ، لكنها لم تغادر المزرعة الا للذهاب الى القداس في أيام الاحاد برفقة أحفاد صديقاتها القديمات الجمـوحـات ، الحـاذقـين في ركـوب الخيـول الكـريمة ، وبرفقة بناتهن الجميلات الانيقات ، اللواتي يشبهن امهـاتهن حين كن في سنهن ، واللواتي يمضـين وقـوفـا في العربات التي تجرها الجواميس ، ويغنين معا ، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي . ولم تمر الا بقرية فلوريس دي ماريا ، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لانها لم تظن بانها ستعجبها ، ولكنها فتنت بها حين عرفتها . وكانت مصيبتها ، اومصيبة البلدة ، انها لم تستطع ان تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع ، وانما كما كانت تتخيلها قبل ان تعرفها .

قرر الـدكتـور خوفينـال اوربينـو الـذهـاب لاحضارها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا . فالنتيجـة التي استخلصهـا هي ان زوجته لم تتأخر لانها لاتريد الرجوع وانما لانها لاتجد وسيلة لتجـاوز كبريـائهـا . وهكـذا مضى الى هنـاك دون اعـلامهـا ، بعـد تبـادل عدة رسـائل مع هيلديبرانـدا ، استخلص منهـا بوضـوح ان حنـين زوجتـه قد انقلب : فهي لاتفكر الان الا ببيتها . كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحا ، حين سمعت صرخـات عمال المـزرعة ، وصهيل الخيول ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت ، وصوت الرجل :

ـ ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه .

ظنت انهـا ستمـوت من السعـادة . ودون ان يتاح لها الوقت للتفكير بالأمر ، غسلت يديها كيفـما اتفق وهي تهمهم : «حمـداً لك يارب ، حمدا لك ، لكم انت طيب» ، مفكـرة بانهـا لم تستحم بعـد من البـاذنجـان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون ان تخبرها من القادم للغداء ، ومفكرة بانها قد اصبحت عجوزاً قبيحة ، وان وجهها قد سلخته الشمس ، مما سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها بهذا الحال ، اللعنة . لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق ، واستعـانت بكـل الكـبريـاء الذي اخرجتها به امها الى الدنيا لتضبط قلبها المتراقص طرباً ، ومضت للقـاء الـرجـل بمشيتهـا الغزلانية العذبة ، وبرأسها المرفوع ، ونظرتها البراقة ، وانفها الحـربي ، شاكـرة للقـدر الطمأنينـة العظيمـة بالعـودة الى البيت ، رغم ان الامـر لن يكـون بالسهولة التي تصورها هوحتما ، اذ عادت معه وهي سعيدة حقا ، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الالام المريرة التي حطمت حياتها .

بعـد حوالي سنتـين من اختفاء فيرمينا داثا ، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة

التي كانت ستعتبرها ترانسيتو اريثا سخرية من سخريات الرب. لم يكن فلورينتينو اريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع السينما. لكن ليونا كاسياني حملته دون مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا، الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو. كان فناء سينما دون غاليليو داكونتي المكشوف، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامتة على الشاشة، قد غص بالحضور البارزين. كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط. أما فلورينتينو اريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما. ومن خلفه، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر مايفكر به:

ـ رباه، ان هذا أطول من ألم!

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الافلام الصامتة بموسيقى البيانو، ولم يكن يسمع في عتمة الصالة سوى ازيز الة العرض الذي يشبه صوت المطر. لم يكن فلورينتينو اريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف، لكنه شكره من اعماق روحه هذه المرة. لانه كان سيتعرف فورا على ذلك الصوت المعدني الرخيم. حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعا تحت التراب، مذ حفظه في روحة مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الاوراق الصفراء في حديقة متوحدة: «انصرف الان، ولاترجع الي ان اطلب اليك». كان يعلم انها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده، الى جانب زوجها دون ريب. وكان يحس بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب. لم يشعر بانها منخورة بعث الموت، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الاخيرة، وانها تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد، ببطنها المكورة ببذرة ابنها الاول تحت عباءة مينيرفا. تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى الوراء، غير عابيء بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة. كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها، ويتشوق لمعرفة افكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة. وقبيل نهاية الفيلم بقليل، ادرك فجأة بومضة بهجة، انه لم يكن ابداً قريبا بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن احبها حبا جما.

انتظر ان ينهض الاخرون عند اشعال الانوار. ثم وقف على مهل، والتفت متشاغلا بتثبيت ازرار الصدرية التي تفلت دائما خلال عروض السينما، فتقابل الاربعة وجها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية، رغم ان احدا منهم ما كان يرغب بذلك. صافح الدكتور خوفينال اوربينو ليونا كاسياني أولا، وكان يعرفها جيدا، ثم شد على يد فلورينتينو اريثا بتهذبه

المعتـاد. وابتسـمت لها فيرمينـا داثا ابتسامة مهذبة، ولاشيء سوى انها مهذبة، ولكنها كانت على كل حال ابتسـامـة شخص رآهما كثيرا، ويعـرف من هما، وبالتالي لاحاجة لتقديمهما. وردت عليهـا ليـونـا كاسيـاني بلطفهـا كخـلاسية. أما فلورينتينو اريثا فلم يدر ما يفعل، لأن رؤيتها أذهلته.

لقد كانت امرأة اخرى. لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع، ولا من أي مرض اخـر، وكـان جسـدهـا مايـزال يحتفظ بوزنه ورقته التي كان عليها في أفضل ازمانه، ولكن لاشك بان السنتين الاخيريتين قد مرتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف. كان الشعـر القصـير منـاسبـا لها بتلك القصـة المـائلة على خديها، ولكنه فقد ذلك اللون العسلي السـابق وصـار بلون الالمنيـوم. وفقدت العينان الرمحيتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظـارة الجـدة. رآهـا فلورينتينو اريثا وهي تبتعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما، وفوجيء بانها آتية الى مكان عام بطرحة بائسة وخفٍ من النوع البيتي. ولكن اكثر ما هيج مشاعره هو ان زوجها اضطر لان يشدها من ذراعها ليشير لها الى طريق الخروج، وقد اخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة.

كان فلورنتينـو اريثـا شديـد الحسـاسيـة لعثرات الشيخوخة هذه. ففي شبابه كان يقطع قراءاتـه للاشعـار في الحـدائق ليراقب ازواج المسنـين الـذين يساعد احدهما الاخر على عبور الشـارع، وكـانت تلك دروسـا في الحياة قد تضيء امامه قوانين شيخوخته بالذات. لقد كان الـرجـال، وهـم في مثـل سن الدكتور خوفينال اوربينو في ليلة السينما تلك، يتفتحون بنوع من الشبـاب الخـريفي، فيبـدون اكثـر وقـارا مع أول الشعـرات الشـائبـة، ويصبحـون فاتنـين وجـذابـين، خصوصا في عيون النساء الشابات، بينما تضطر زوجاتهم الذاويات الى التشبث باذرعتهم كي لا يتعثرن بظلالهن ذاتها. ولكن هؤلاء الازواج مايلبثون ان ينزلقوا فجأة، بعد بضـع سنـوات، الى هوة شيخـوخـة مرذولـة جسـدا وروحـا، وحينئـذ يصبح على زوجاتهم المستقـرات اسنـادهـم من اذرعهـم كالعميـان البـاحثـين عن صدقة، والهمس في اذانهم، كي لايجرحن كبرياءهم، بان ينتبهوا جيدا لان عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث وليس اثنتين، وان هنـالـك بركـة ماء في وسـط الشارع، وان تلك الصرة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحـاذ ميت، ويسـاعـدونهم بمشقـة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الاخـير. لقـد رأى فلورينتينـو اريثـا نفسـه مرات ومرات في هذه المرآة، حتى انه لم يشعر يوما بالخوف من الموت كخوفه من ارذل العمر حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه. اذ كان يعلم انه في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم فقط، عليه ان يتخلى عن الامل بفيرمينا داثا.

لقد اطار ذلك اللقاء النوم من عينيه. وبدلا من ان يحمل ليونا كاسياني بالعربة، فقد رافقها

مشيا على الاقدام عبر المدينة القديمة، حيث كانت خطواته تقرع بلاط الرصيف كحوافر حصان. وكانت تنطلق بين حين واخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة، اومناجيات من مخادع النوم، او نحيب حب تضخمه المسامع الخيالية واريج الياسمين الدافيء في الازقة الهاجعة. وكان على فلورينتنو اريثا ان يستجمع ثانية كل قواه ليمنع نفسه من ان يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينا داثا. كانا يسيران معاً، بخطواتهما المحسوبة، غارقين في الحب بلا تسرع، كخطيبين قديمين، هي تفكر بروعة كابيريا، وهو يفكر بمحنته الشخصية. وفي ساحة الجمارك كان هناك رجل يغني، وكان صوته يتردد في الجو باصداء متسلسلة: حين كنت أعبر امواج البحر العظيمة. وفي شارع لوس سانتوس دي بيدرا، حين كان عليه ان يودعها أمام بيتها، طلب فلورينتينو اريثا من ليونا كاسياني ان تدعوه لتناول كاس من البراندي. كانت تلك هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف متشابهة. في المرة الاولى، قبل عشر سنوات، قالت له: «اذا ما صعدت الى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه الى الابد». ولم يصعد يومها. أما الان فكان مستعدا للصعود في جميع الاحوال، حتى لو اضطر الى نقض عهده فيما بعد. لكن ليونا كاسياني دعته للصعود دون أي التزام.

وهكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل ان يولد. كان ابواها قد توفيا، وجمع اخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراثاو، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة. قبل سنوات، وحين لم يكن قد فقد الامل بجعلها عشيقة له، اعتاد فلورينتنيو اريثا زيارتها أيام الاحاد برضى ابويها، وكان يزورها في الليل أحيانا ويبقى حتى ساعة متأخرة، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات اصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيته. ولكنه شعر في تلك الليلة، بعد السينما، بان صالة الاستقبال قد طهرت من ذكرياته. كانت اماكن الاثاث قد تبدلت، وعلقت على الجدران صور جديدة، ففكر بان كل هذه التغيرات القاسية انما اجريت عمداً لتأكيد يقينه بانه لم يكن له من وجود أبدا. كما ان القط لم يتعرف عليه. فقال وقد افزعه نذير النسيان: «ماعاد يذكرني». ولكنها ردت عليه وهي توليه ظهرها فيما كانت تملأ كأسي البراندي، بانه اذا كان قلقا لهذا فبامكانه النوم مطمئنا، لان القطط لاتتذكر أحدا.

وبيناهما متكئان على الاريكة، متلاصقان، تحدثا عن نفسيهما، عما كاناه قبل ان يتعارفا في مساء يوم من يذكر كم مضى عليه في حافلة تقودها البغال. وكانت حياتهما تمضي في مكتبين متجاورين، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي. وفيما هما يتحدثان، وضع فلورينتينو اريثا يده على فخذها وأخذ يداعبها برقة مجربة في الغواية، وتركته يفعل ذلك، ولكن دون ان ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة. وحين حاول المضي أبعد من ذلك، امسكت يده المستكشفة وقبلت راحته قائلة:

ـ كن مهذباً. فقد ادركت منذ زمن بعيد بانك لست الرجل الذي أبحث عنه.

ففي صباهـا، بطحهـا على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع، لم تروجهه أبـداً، وعـراهـا ممزقـاً ثيـابها، ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً. وفيها هي ملقاة فوق الاحجار، وجسـدهـا كله مليء بالجـروح، تمنت لو يبقى ذلـك الرجل فوقها الى الابد، ليموت حباً بين ذراعيهـا. لم تروجهـه، ولم تسمـع صوتـه، لكنهـا كانت متأكـدة من التعـرف عليه بين آلاف الـرجـال لشكله وحجمـه وطريقته في ممارسة الحب. واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من يريد سماعها: «اذا ما عرفت شيئاً في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة من الشـارع فوق صخـور سد الغـرقى، في يوم كان الخـامس عشر من تشرين الأول، حوالي الحـادية عشرة والنصف ليـلاً، فقـل له أين يستطيع ان يجدني». كانت تقول ذلك بمحض العـادة، وقـد كررتـه كثيراً لدرجة انها فقدت كل أمل. وكان فلورينتينو اريثا قد استمع منها مرات ومـرات لهذه القصـة كما لو انـه يسمـع صفـارات وداع تطلقهـا سفينة في الليل. وحين اعلنت الساعة الثالثة صباحاً، كان كل منهما قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي، وكان هو يعلم بانه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً، وسرّ لمعرفته ذلك. وقال لها وهو يستعد للانصراف:

ـ برافو يا ليونا، لقد اجهزنا على هذا النمر.

ولم يكن هذا هو الأمـر الـوحيد الذي قُضي تلك الليلة. فاكذوبة سرادق المسلولين الخبيثة عكـرت أحـلامـه، لانها أوحت له بأن فيرمينا داثا هي من البشر، ويمكن ان تفنى، ويمكن بالتـالي أن تموت قبـل زوجهـا. ولكنـه حين رآهـا تتعثر عند الخروج من السينما، تقدم خطوة اخرى نحو الهاوية عندما انكشف له بأنه قد يكون هوولبس هي من يموت أولا. وكانت تلك من أكثـر النبـوءات هولا، لانهـا تستنـد الى الـواقـع. لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر، والآمـال السعيـدة، ولم يلح في الافق سوى خضم الامـراض المتخيلة الـذي لا يسبر له قرار، والتبـول قطـرة قطـرة في صباحات الأرق، والموت اليومي في الظهيرة. وفكر بأن كل لحظة من لحظات اليوم، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة، بدأت تتآمر ضده. لقد ذهب منـذ سنوات قليلة الى موعـد غرامي جريء وقلبـه مثقل بالخوف من المصادفة، فوجد البـاب غير مقفـل والمفصـلات مزيتـة لتوها كي يستطيع الدخول دون اثارة اية ضجة، لكنه احجم في اللحظـة الاخيرة مخافـة ان يسبب لامـرأة غريبـة وخـدومـة الضرر الذي لا سبيل لاصلاحه بموته في سريرها. وهكذا كان معقولاً التفكير بأن المرأة التي احبها اكثر من كل ما احبـه على وجـه الأرض، والتي انتظـرهـا دون تذمـر من قرن الى آخـر، لن يتـاح لها الوقت لاسنـاده من ذراعـه وعبـور شارع مليء بحثوات التراب القمرية وجنائن البرقوق التي بعثرتها

الريح، لمساعدته في الوصول سليماً معافى الى الرصيف الآخر للموت.

الحقيقة ان فلورنتينو اريثا، قد دخل وفق معايير عصره حدود الشيخوخة، كان عمره ستاً وخمسين سنة، بالتمام والكمال، وكان يظن بانه عاش أفضل حياة، لان سنوات حياته كانت سنوات حب. ولكن لم يواجه اي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنه، بينما كان هو كذلك، أوكان يعتقد بأنه كذلك؛ كما لم يكن أي من اولئك الرجال ليتجرأ على الاعتراف دون خجل بأنه ما زال يبكي خفية من أجل صدّ لقيه في القرن الماضي. لقد كان عصراً سيئا للظهور بمظهر الشباب: فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل، وتستمر حتى القبر. ولقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي اكثر منها مرحلة حياتية. فالشباب فيها يلبسون مثل اجدادهم، ويصبحون اكثر وقاراً بالنظارات المبكرة، كما كان حمل العكاز امراً مقبولا منذ سن الثلاثين. أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتين: سن الزواج، وهو لا يتعدى الثانية والعشرين من العمر؛ وسن العزوبية الابدية . الذي يضم الكاسدات. أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمهات وأرامل وجدات، فكن صنفاً مختلفاً من البشر، لا تحسب حياتهن بما يعشنه من سنوات، وانما بالزمن المتبقي أمامهن للموت.

لقد واجه فلورينتنو اريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة، حتى وهو يعرف قدره الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته. وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أول الأمر، اذ كانت ترانسيتو اريثا تفتق له وتعيد خياطة ملابس ابيه التي يقرر التخلص منها وإلقاءها الى القمامة. وهكذا كان يذهب الى المدرسة الابتدائية بسترة تصل الى الارض عند جلوسه، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه، رغم تضييق اطارها بحشوات من القطن. وبما انه كان يستخدم نظارات لقصر النظر كذلك منذ الخامسة من عمره، وكان له شعر هندي كشعر امه، مزبئر وقاس كشعر جواد، فلم تكن لمظهره اية سمات واضحة. ولحسن الحظ ان المعايير المدرسية كانت أقل انتقائية مما كانت عليه من قبل، وذلك بعد فوضى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الاهلية المفروضة والمتلاحقة. فكانت المدارس العامة تزخر بخليط من الاصول والظروف الاجتماعية المتباينة. كان يأتي الى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس، بملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بالرصاص في معارك مشكوك فيها، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً على خصورهم. وكانوا يصطدمون فيما بينهم بالرصاص لاي خلاف في الاستراحة، ويهددون المعلمين ان هم اساؤوا تقديرهم في الامتحانات، بل ان أحدهم، وهو تلميذ في الصف الثالث بمدرسة لاساليه وكولونيل ميليشيا متقاعد، قتل الاخ خوان اريميتا، رئيس الطائفة، بالرصاص لانه قال في درس أصول الدين ان الرب هو

عضو عامل في الحزب المحافظ.

من جهة اخرى، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون الى المدرسة بملابس امراء قدماء، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة. وبين كل هذه المفارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات. كان فلورنتينو اريثا من اشد الحالات غرابة، ولكن ليس الى الحد الذي يلفت اليه الانتباه كثيراً. وكان أقسى ما سمعه هو ان أحدهم صرخ به في الشارع يوماً: «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات». وعلى أي حال فان ذلك الزي الذي فرضته الحاجة، كان منذ ذلك الحين، وسيبقى طوال حياته، الاكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب. وحين وصل الى أول منصب مهم في ش. ك. م. ن.، بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس ابيه، الذي ما زال يذكره كشيخ توفي عن عمر موقر كعمر المسيح: ثلاث وثلاثون سنة. لقد كان فلورنتينو اريثا يبدو اذن اكبر من سنه الحقيقي بكثير. لدرجة ان النمامة بريجيدا زوليتا، احدى عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق دون ان تمر بها في الماء، قالت له منذ اليوم الأول بانه يعجبها اكثر حين يخلع ملابسه، لانه يصغر عشرين سنة وهو عار. ولم يستطع رغم ذلك التوصل إلى التوافق أبداً، أولا لان ذوقه الشخصي لا يمكنه من ان يتزيا بطريقة اخرى، وثانياً لان أحداً من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له ان يتزيا بزي شاب في العشرين دون ان يُخرج مجدداً من خزانته سراويله القصيرة وقبعة الأولاد. ومن جهة اخرى، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره. وهكذا فقد كاد ان يكون طبيعياً حين رأى فيرمينا داثا تتعثر لدى خروجها من السينما، وامكن لبارقة الذعر ان تبعث القشعريرة فيه لاحساسه بأن الموت العاهر سينتصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس.

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً حتى ذلك الحين وخسرها دون أمجاد، هي معركته ضد الصلع. فمنذ رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط، ادرك انه محكوم بجحيم لا يمكن لمن لم يعشه تصور عذاباته. قاوم خلال سنوات. لم يدع وصفة أو علاجاً للصلع إلا وجربه، ولا خرافة إلا وآمن بها، ولا تضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم. حفظ عن ظهر قلب تعليمات رزنامة بريستول الزراعية، لانه سمع أحدهم يقول ان نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية. وهجر حلاقه الخاصة الذي كان يقص شعره عنده منذ الازل، لانه كان ذا صلعة مهيبة، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال. وأخذ الحلاق الجديد يثبت ان يده مُخصبة حقاً حين كُشف أمره كمغتصب تلميذات غريرات تلاحقه شرطة عدة بلدان انتيلية، وقيد مكبلا بالسلاسل.

كان فلورنتينو اريثا قد قص حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه، الأولى وهو منتوف مثل شمامة، والثانية بشعر أغزر من لبدة أسد: قبل وبعد استخدام الدواء المضمون. وبعد مرور ست سنوات، كان قد جرب مئة واثنين وسبعين دواء، اضافة الى وسائل اخرى مكملة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناني الدواء. لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الاكزيما في رأسه، قرحة حارقة ومنتنة، يطلق عليها اولياء المارتينيك الصالحين اسم القرع الشمالي، لان اشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام. وبعد ذلك لجأ الى جميع اصناف الاعشاب التي يروجها الهنود في السوق العام، وجميع الادوية السحرية والاكاسير الشرقية التي تباع في زقاق الكتبة العموميين، وحين ادرك انه ليس سوى ضحية عمليات غش، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه. وفي السنة صفر، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد، مر في المدينة ايطالي يصنع بيروكات من الشعر الطبيعي على المقاس. كانت الواحدة منها تكلف ثروة، ولا يتحمل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاث شهور من الاستعمال. ولكن عدداً ضئيلا فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للاغراء. وكان فلورنتينو اريثا أحد الأوائل. جرب بيروكة مشابهة تماما لشعره الاصلي، حتى انه خشي من وقوف الشعر مع تبدلات مزاجه. لم لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر انسان ميت على رأسه. وكان عزاؤه الوحيد ان شراهة الصلع لم تتح له التعرف على لون شعراته الشائبات. وفي يوم من الايام عانقه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة اكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب، فافلتت الباروكة امام سخرية عمال الشحن، وطبع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ:

ـ صلعة ربانية!

في تلك الليلة بالذات، وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من العمر، حلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق. بل انه لم يعد يطلي صباح كل يوم قبل الحمام ذقنه وحدها بالرغوة، وانما كذلك اجزاء من رأسه حيث يجد ان بعض الشعر آخذ بالظهور، فيجعلها بموس الحلاقة مثل إلية طفل رضيع. لم يكن ينزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب، اذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور. ولكنه حين اعتاد عليها تماماً، نسب اليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها، وكان يزدريها من قبل على انها مجرد اوهام من الصلعان. ثم انتقل فيما بعد الى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة، ولم يتخل عنها ابداً. ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذا الحال، بالطريقة الجنائزية ذاتها، حتى بعد ان شاعت قبعة تارتاريتا، وهو

الاسم المحلي لقبعة كانوتيه.

أما فقدانه اسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية، وانما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنـان متجـول رأى انـه لا بد من نزع الاسنـان اثر التهاب عادي. كان الرعب من آلة ثقب الاسنان قد منع فلورنتينو اريثا من زيارة طبيب الاسنان رغم آلام اضراسه المستمرة، إلى ان فقد القدرة على الاحتمال. وقد فزعت امه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل، اذ بدت لها كتأوهاته في زمن آخر شبه مطموس في ضباب ذاكرتها، ولكنها حين طلبت منه ان يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب، اكتشفت ان ما يضنيه هي الخراجات والدمامل الصغيرة.

ارتسله العم ليون الثاني عشر الى الدكتور فرانسيس ادوناي، وهو مارد زنجي يلبس سروالا خاصاً بركوب الخيل، ويتنقل في السفن النهرية حاملا عيادته السنية كلها في اكياس، فيبدو أشبه بمندوب متجول للرعب في قرى النهر. وبعد نظرة واحدة الى فم فلورنتينو اريثا، قرر انه لا بد من نزع اسنانه كلها، بما في ذلك الاسنان والاضراس السليمة، لانقاذه الى الابد من محن اخـرى. وعلى العكس من الصلعـة، لم يسبب له هذا الاعـلاج الحـماري اي نوع من القلق، باستثنـاء خوفـه الطبيعي من المجـزرة دون مخدر. كما لم تزعجـه فكـرة الاسنـان الاصطناعية، أولا لان احدى ذكريات طفولته التي يحن اليها هي ذكرى ساحر رآه في مهرجان وكـان ينـزع فكيـه ويضعهـما على طاولـة ليتكلما بمفـردهما، وثـانيـاً لانـه سيضع حداً لآلام الاضـراس التي عذبتـه منـذ طفـولته، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب. لم ير في الأمر ضربة غادرة من ضربات الشيخوخة، كما رأى في الصلعة، اذ كان مقتنعاً، رغم طعم المطاط المكـبرت، بان مظهـره سيكون اجمل بابتسامة قويمة. وهكذا سلم نفسه دون مقاومة لكماشة الدكتور ادوناي المضمخة بالدم، واحتمل آلام العلاج بصبر كصبر حمير العتالة.

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تُجرى له بالذات. فقد كان يولي الاسنـان الاصطنـاعيـة اهتماماً خاصاً اثر احدى رحلاته الاولى في نهر مجدلينا، وبسبب هوسه بالغناء الجميل. ففي احدى الليالي المقمرة، وقريباً من ميناء غامارا، راهن مساح اراض ألماني بانـه قادر على ايقـاظ مخلوقـات الغـابة بغنائه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان. وكاد ان يكسب الـرهـان. اذ انطلقت في عتمـة النهـر خفقـات اجنحـة طيـور مالـك الحـزين في المستنقعات، وضرب ذيول التماسيح، وانفاس اسماك الشابل وهي تحاول القفز الى اليابسة، ولكنـه حين وصـل القفلة الختـاميـة، وحيـن خشي المجتمعـون من تمزق شرايـين المغني لقوة صوته، افلت طقم الأسنان الاصطناعية من فمه مع النفس الاخير، وغرق في الماء.

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة ايام في ميناء تينيريفي، ريثما صنعوا له مجموعة اسنان طواريء جديـدة. وقـد كانت هذه الاسنـان الجـديـدة متقنـة. ولكنه في رحلة العودة، واثناء

محاولته ان يشرح للقبطان كيف أضاع طقم اسنانه السابق، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رئتيه هواء الغابة الملتهب، وصدح بأعلى لحن يستطيعه، واحتفظ به حتى النفس الاخير محاولا افزاع التماسيح الجاثمة تحت الشمس متأملة مرور السفينة دون ان يطرف لها رمش، فغرق طقم الاسنان الجديد في مجرى النهر أيضاً. ومنذ ذلك الحين وضع نسخاً من الاسنان الاصطناعية في كل مكان، وفي عدة أماكن بالبيت، وفي درج مكتبه، كما وضع طقماً في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث. وإضافة الى ذلك، صار يحمل معه كلما ذهب لتناول الطعام خارج المنزل، طقماً اضافياً يضعه في علبة لاقراص السعال في جيبه، وذلك لان اسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدد في غداء ريفي. وخشية ان يقع ابن اخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور ادوناي بأن يصنع له مجموعتين من الاسنان: احداهما من مواد عادية، للاستخدام اليومي في المكتب، واخرى لايام الآحاد والاعياد، مزودة بلمعة ذهبية في ضرس الابتسامة، مما منحها لمسة اضافية حقاً. واخيراً، رجع فلورنتينو اريثا، في يوم أحد يضج بنواقيس العيد، الى شارعه بهوية جديدة، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بأن شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا.

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها امه وبقي فلورينتينو اريثا وحده في البيت الذي كان ركناً مناسباً لغرامياته، اذ ان شارعه يكتم الاسرار رغم ان النوافذ الكثيرة التي تمنحه الاسم توحي بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر. ولكن كل ما في هذا البيت انما صنع لاسعاد فيرمينا داثا، وسيكون لها وحدها. وهكذا فضل فلورينتينو اريثا تبديد فرص كثيرة خلال اكثر سنواته إثماراً، على ان يدنس بيته بغراميات اخرى. ولحسن الحظ ان كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش. ك. م. ن.، كانت تعني امتيازات جديدة، ومكاسب سرية على وجه الخصوص، واكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة اليه كانت امكانية استخدامه المكاتب خلال الليل، وفي أيام الآحاد والعطل، بالاتفاق مع البوابين. وفي احدى المرات، حين كان نائباً أول للرئيس، فُتح باب مكتبه بغتة بينما كان يمارس حباً مستعجلاً مع احدى الفتيات اللواتي يعملن ايام الآحاد، وكان جالساً على الكرسي فيما هي رابضة في حضنه، وبعد فتح الباب، أطل العم ليون الثاني عشر برأسه، كما لو انه أخطأ في المكتب، ووقف يتأمل من فوق نظارته ابن اخيه المرتبك. ثم قال العم دون اي قدر من الدهشة: «كراخو! انها لعنة ابيك نفسها!». وقبل ان يغلق الباب ثانية، قال ونظره تائه في الفراغ:

ـ وأنت أيتها الانسة، تابعي بلا خوف. أقسم لك بشرفي انني لم أر وجهك.

لم يعد للحديث في هذا الأمر. ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورينتينو اريثا خلال

الاسبوع التالي. فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجلبة لتركيب مروحة ذات رياش في السقف الاملس، واتى صانعو الاقفال دون انذار مسبق، واثاروا ضجة حرب وهو يثبتون مزلاجاً في الباب لاغلاقه من الداخل. وأخذ النجارون مقاسات دون ان يقولوا لماذا، وجاء المنجدون بنماذج من قماش الكريتون ليروا ان كانت تتناسب مع لون الجدران، وكان عليهم في الاسبوع التالي ان يستخدموا النافذة، لأن الابواب لم تتسع لادخال اريكة مزدوجة مزينة برسوم ازهار. اشتغلوا في ساعات لا تخطر على بال، بوقاحة لا تبدو انها مصادفة، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول : «انها اوامر الادارة العامة». لم يعلم فلورينتينو اريثا ابداً ان كان هذا التدخل لطفاً من العم، الساهر على غرامياته الضالة، ام انه اسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته. ولم يتبين حقيقة ان العم ليون الثاني عشر كان يشجعه، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك انباء تقول ان لابن اخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال، وقد اقلقه ذلك لانه رأى فيه عائقاً امام تعيينه خليفة له.

لقد عاش ليون الثاني عشر لوايثا، على عكس اخيه، حياة زوجية مستقرة، استمرت ستين سنة، وكان يفاخر دوماً بانه لا يشتغل أيام الآحاد. وقد انجب أربعة ابناء وابنة واحدة، وكان يريد اعدادهم جميعاً ليرثوا عنه امبراطوريته، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية : لقد مات الابناء الاربعة، واحداً بعد الاخر، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية. أما الابنة، التي لا تتمتع بأية ميول نهرية، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدسون من نافذة على ارتفاع خمسين متراً. فوُجد هناك بعد كل هذه الميتات من يؤمن باسطورة ان فلورينتينو اريثا، بمظهره المشؤوم ومظلته التي كمظلة مصاصي الدماء، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً.

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً، بأمر طبي، ضحى فلورينتينو اريثا راضياً ببعض غرامياته في ايام الآحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة، والتي كانت ذراع ادارة محركها قوية الارتداد لدرجة انها انتزعت ذارع سائقها الأول. كانا يتحادثان لساعات طويلة فيها العجوز مستلق في ارجوحة نومه المطرز عليها اسمه بخيوط حريرية، بعيداً عن كل شيء، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من مصاطبها المشرفة مساء قمم سلسلة الجبال المكللة بالثلج. كان يصعب على فلورينتينو اريثا وعمه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لامرئياً. لقد كانت احدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الحيلولة دون انتقال الملاحة النهرية إلى ايدي رجال اعمال من اقاليم الداخل الذين

يرتبطـون بالاحتكـارات الاوربيـة . وكـان يقـول : «لقـد كان هذا العمـل دومـاً هوعمـل الماتاكونغيين . اما اذا تولاه الداخليون فسيهدونه ثانية الى الألمان» . وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يجب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة :

ـ أكاد أكمل مئة سنة ، وقد رأيت كل شيء يتغير ، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون ، ولكنني لم أر حتى الآن شيئاً يتغير في هذه البلاد . فهنا توجد دساتير جديدة ، وقوانين جديدة ، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور ، لكننا ما زلنا نعيش في العهد الاستعماري .

وكان يرد دائماً على أخويه الماسونيين اللذين يعزوان كل الشرور إلى فشل الاتحادية : «لقد كانت حرب الألف يوم خاسـرة قبـل انـدلاعهـا بعشـرين سنـة . . منـذ حرب ٧٦» . وكـان فلورينتينـو اريثـا ، الـذي تتجـاوز لامبالاته السياسية حدود المطلق ، يستمع الى هذا الكلام الطـويـل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر . ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً فيما يتعلق بسياسة الشركة . اذ كان يرى ، على العكس من عمه ، بان تخلف الملاحة النهرية ، التي تبدو دائـماً على شفـير الكـارثة ، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الـذي منحـه الكـونغـرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد . وكان العم يعـترض : «هـذه الافكار تحشوها في رأسك سَميَّتي ليونا المولعة بالفوضوية» . وكان هذا هو نصف الحقيقـة فقـط ، اذ كانت مبررات فلورينتينـو اريثـا تستند إلى تجربة الربان الألماني جون ب . البيرس ، الـذي أفسـد بطمـوحـه الشخصي المفرط نبوغه النبيل . أما العم ليون فكـان يرى ان فشـل البـيرس لم يكن بسبب امتيـازاته . وانما نتيجة التعهدات اللاواقعية التي التـزم بها في حينـه ، فكـان كمن يلقي على كاهله مسؤوليـة الجغـرافية الوطنية باسرها : فقد تحمـل مسؤوليـة الحفاظ على الملاحة النهرية ، وبناء المنشآت المرفأية ، والطرق البرية المؤدية إلى المـوانيء ، ووسـائـط النقـل . أضف إلى ذلك ـ كان يقول ـ ان معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك .

كان معظم المسـاهمين في الشـركـة يرون في ذلـك الخلاف كواحد من الخلافات الزوجية ، حيث كلا الجانبين على حق . فعناد الشيخ يبدو لهم طبيعياً ، ليس لان الشيخوخة جعلته أقل وهماً مما كان عليه دوماً ، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وانما لان التخلي عن الاحتكار برأيـه هو إلقـاء إلى القـمامـة بمكـاسب النصـر الـذي تحقق في معـركة تاريخية خاضها واخواه منفردين في الأزمنة البطولية ، ضد خصوم جبارين من العالم باسره . ولهذا لم يعارضه أحد حين ربـط حقـوقـه بطـريقة لا تتيح لأحد المس بها قبل غيابه القانوني . ولكن حين سلم فلورينتينو اريثا اسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة ، ابدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المئوي ، بشرط مشرف وحيد هو ألا يتم التنازل قبل وفاته .

كان هذا هو عمله الاخير. ولم يعد بعده للحديث في شؤوون العمل، بل انه لم يعد يسمح لهم بان يستشيروه فيه. ولم يفقد تجعيدة واحدة من تجاعيد رأسه الامبراطوري، ولا ذرة واحدة من وضوحه، لكنه فعل كل ما امكنه حتى لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة. كانت ايامه تمضي وهو يتأمل الثلوج الدائمة من شرفته، محركاً كرسيه الفيني المزاز ببطء، إلى جانب طاولة صغيرة تحرص الخادمات على وجود ابريق قهوة مرة ساخنة عليها دوماً ومجموعتين من اسنانه الاصطناعية التي ما عاد يستخدمها إلا لاستقبال الزيارات. كان يلتقي عدداً محدوداً من الاصدقاء، ولا يتحدث معه إلا عن ماض سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية. ولكن بقي له مع ذلك، موضوع جديد للحديث: رغبته بزواج فلورينتينو اريثا. وقد عبر عن ذلك عدة مرات، وبالطريقة ذاتها دوماً.

كان يقول له:

ـ لو انني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوجت من سَمِيَّتي ليونا. فأنا لا استطيع تصور زوجة أفضل منها.

كان فلورينتينو اريثا يرتعش لخوفه من ان يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطارىء في اللحظة الاخيرة. لكنه كان يفضل الاستقالة، والتخلي عن كل شيء، والموت، قبل ان يخلف وعده لفيرمينا داثا. ولحسن الحظ ان العم ليون الثاني عشر لم يصر في طلبه. وحين اتم الثانية والتسعين من العمر، اعترف بابن اخيه وريثاً وحيداً وتقاعد من الشركة.

بعد ذلك بستة شهور، وباجماع المساهمين، عُيِّن فلورينتينو اريثا رئيساً لمجلس الادارة ومديراً عاماً للشركة. ويوم تولى مهام منصبه، بعد تناول الشمبانيا، طلب العجوز ليون المتقاعد السماح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز، وارتجل خطبة قصيرة بدت اشبه بمرثية. قال ان حياته بدأت وانتهت بحدثين صادرين عن العناية الالهية. الحدث الأول هو ان بطل التحرير حمله بين ذراعيه، في بلدة توربـاكو، اثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت. والحدث الثاني كان عثوره، رغم كل العوائق التي فرضها القدر، على خليفة جدير بالشركة. واخيراً، في محاولة لنزع المأساوية من المأساة، اختتم حديثه قائلاً:

ـ المرارة الوحيدة التي احملها من هذه الحياة هي انني غنيت في جنازات كثيرة، باستثناء جنازتي.

ولا ختتام الاحتفال، وكيف لا، غنى منفرداً اغنية وداعاً للحياة، من اوبريت توسكا. غناها بلحن كنائسي، كما يحب ان يغنيها، وبصوت ما يزال ثابتاً. لقد تأثر فلورينتينو اريثا، لكنه لم يكد يُظهر ذلك في ارتعاشة صوته حين القى كلمة شكر. مثلما فعل وفكر بكل ما فعله

وفكر به في الحياة. لقد وصل إلى القمة دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً وفي حالة صحية جيدة لحظة توليه مصيره في ظل فيرمينا داثا.

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت اليها ليونا كسياني. بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن. سواء من يرقدن في المقابر، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن، أو اولئك اللواتي ما زلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها ازواجهن بقرون مذهبة تحت ضوء القمر. وباستثناء واحدة منهن، كان يرغب بان يكون معهن جميعاً في وقت واحد، وهو ما كان يخشاه دائماً. ففي أصعب سنوات حياته، وأقسى لحظاته، احتفظ بعلاقة ما، وان كانت واهية، مع عشيقاته اللواتي لاحصر لهن: لقد تابع دائماً خيط حياتهن.

تذكر في تلك الليلة روساليا، أقدمهن جميعاً، التي فضت عذريته وما زالت ذكراها تعذبه كما عذبته في اليوم الأول. كان يكتفي باغماض عينيه ليراها بفستان الموسلين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تهز قفص الطفل عند حافة السفينة. وكان قد أعد عدة كل شيء مرات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها دون ان يعرف أين، ودون ان يعرف ما هو لقبها، ودون ان يعرف ان كانت هي حقاً من يبحث عنها، ولكنه كان متأكداً من انه سيجدها في أي مكان ما بين ازهار السلحبيات. وفي كل مرة، بفعل عائق حقيقي يطرأ في اللحظة الاخيرة، او بفعل خلل خارج عن ارادته، كانت الرحلة تتأجل وهو على وشك ان يرفع جسر السفينة: وقد كانت للاسباب دوماً علاقة ما بفيرمينا داثا.

تذكر ارملة ناثاريت، الوحيدة التي دنس معها بيت أمه في شارع لا-س فيتاناس، رغم انه لم يكن هو، وانما ترانسيتو اريثا، من سمح لها بالدخول. ولقد كرس لها تفهماً اكثر من أي واحدة سواها، لانها الوحيدة التي كانت تشع حناناً يكفي لاحلالها محل فيرمينا داثا، رغم بلادتها في الفراش. لكن ميولها كقطة متشردة، وغير مروضة، تفوقت على قوة حنانها وحكمت عليها بالخيانة. ومع ذلك، فقد أصبحا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي: خائنان، ولكن غير مخادعين. وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلورينتينوعن وجهه الحقيقي من اجلها: فحين وصله خبر موتها، وعلم انها ستدفن في مدافن الاحسان، تكفل بدفنها على نفقته، وكان الوحيد الذي حضر جنازتها.

تذكر أرامل اخريات محبوبات. بروديثيا بيترا، أقدم اللواتي ما زلن على قيد الحياة، والمعروفة للجميع باسم ارملة الرب، لانها ترملت مرتين. وتذكر بوردينثيا الاخرى، ارملة اريبانو المتيمة بحبه، والتي كانت تقطع ازرار ملابسه ليضطر للبقاء في بيتها ريثما تعيد

اصـلاحهـا . وخـوسيفا ، ارملة زونيغا ، المجنونة بحبه ، والتي كادت تقص عضوه بالمقص وهو نائم ، كي لا يكون لأحد سواها .

تذكـر انخيلس الفـارو ، التي غابت سريعـاً وكـانت احبهن اليه ، اذ جاءت لمدة ستة اشهر لتعليم موسيقى الآلات الـوتـرية في مدرسة الموسيقى ، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها ، كما قذفت بها امها الى الدنيا ، عازفة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيـولـونتشيلو[1] ، الـذي يتحول صوته إلى صوت انسان بين فخذيها الذهبيين . ومنذ الليلة المقمـرة الأولى ، تفتت قلبـاهما ارباً بحب مبتدئين شرسين . لكن انخيلس الفارو مضت مثلما جاءت ، بعضوها الغض وآلتها الموسيقية ، في سفينة ترفع راية النسيان ، والشيء الوحيد الذي بقي منهـا في ليـالي السطـح المقمـرة هو تلويحـة وداعهـا بمنديل أبيض بدا وكأنه حمامة متوحدة وحـزينـة في الافق ، كما في أشعـار مهـرجان الزهور . لقد تعلم فلورينتينو اريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً دون ان يـدرك كنهه : وهو انه بوسع المرء ان يعشق عدة اشخاص في الوقت نفسه ، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً ، دون خيانة أي منهم . وفيما هو يقف وحيداً وسط الجموع في الميناء ، قال غاضبـاً : «ان في القلب حجـرات اكثـر مما في فنـدق للعـاهرات» . كان مبللاً بدموع آلام الوداع . ولكن ما ان اختفت السفينة عند خط الافق ، حتى عادت ذكرى فيرمينا داثا لتشغل الفراغ كله .

تذكـر انـدريـه بارون ، التي مر من أمـام بيتهـا الاسبوع الماضي ، ونبهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمام إلى انه لا يستطيع الدخول : لقد سبقه أحدهم . أحدهم . . رجل أو امـرأة ، لان انـدريـه بارون لم تكن لتتوقف عند ترهات من هذا النوع في فوضى الحب . وبين جميع من هن في قائمته ، كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها ، ولكنها كانت تتحكم به حسب رغبتهـا ، دون وكيـل أعمال . في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية ، مما جعلهـا جديـرة باسم سيـدتنا قديسة الجميع . لقد فتنت حكاماً وامراء بحر . ورأت بعض نبلاء السلاح والادب ممن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون انفسهـم ، يبكون على كتفها ، وكـذلـك بعض من كانوا مشهورين حقاً . كما كان صحيحاً ان الرئيس رافائيل رييس ، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي امضاها في زيارتيه للمدينة خصص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقـاء خدمـات قدمتهـا في وزارة الخـزينـة ، حيث لم تكن يوماً موظفة . لقد كانت توزع عطايا متعتهـا إلى اقصى ما أتـاحـه لها الجسد ، ورغم ان سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع ، فانـه لم يكن بامكـان أحـد تقـديم أدلـة دامغـة ضدها ، لان زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما

(١) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا.

يحمــون انفسهم، مدركــين انهم هم وليس هي من سيخسـر اكثـر بالفضيحـة. وقـد خرق فلورينتينـو اريثـا من أجلها مبدأه المقدس بعدم الدفع، وخرقت هي قانونها بألا تمارس الحب مجاناً حتى ولو مع الزوج. اذ اتفقا على سعر رمزي هو بيزو واحد عن كل مرة، لكنها لم تكن تأخـذ البيـزو كما لم يكن هو يعطيهـا ايـاه في يدهـا، وانما كان يُسقطه في الحصالة إلى ان يصل المبلغ الى ما يكفي لشـراء أيـة بدعـة من زقاق الكتبة العموميين. وهي التي عزت إلى الحقن الشـرجيـة التي يستخـدمهـا في إمسـاكـه، حسيـة مختلفة في الحب، واقنعته بصواب فكرتها، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في امسياتها المجنونه، محاولين بذلك ابتداع مزيد من الحب في الحب.

كان يرى نفسـه محظـوظـاً، لان الـوحيـدة التي اذاقتـه قطرة مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطـرة، هي سارا نوريغـا المتقلبـة، التي انهت حياتها في مشفى الراعية الالهية للمجاذيب، ملقية اشعاراً شيخوخية بذاءتها تتجاوز كل الحدود، مما اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنـون للمجنـونـات الاخـريـات. وحـين تسلم فلورينتينـو اريثـا كامل مسؤوليات ش. ك. م. ن. لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة احلال أحد محل فيرمينا داثا: كان قد أوقن بانهـا عصيـة على الاستبدال. وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زياراته لمن يعرفهن، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطعنه، وإلى حيث يستطيع، والى حيث تسمح لهم الحياة، وفي يوم أحد العنصرة، حين مات خوفينال اوربينو، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة، واحدة فقط، لها أربعة عشر عاماً من العمر اكملتها لتوها، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الاخريات حتى ذلك الحين لجعله يجن حباً.

اسمهـا امـيركـا فيكـونيـا. وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتوبادري البحرية، مبعـوثـة من أهلهـا إلى فلورينتينـو اريثـا، ولي امـرهـا الذي تربطهم به صلة قربى معروفة. جاءت بمنحـة حكـوميـة لتتأهـل كمعلمة، وبدت كدمية حين وصولها بصرة سفرها وحقيبتها الصفيحيـة. ومنـذ نزولها من السفينة بحذائها الأبيض وضفيرتها الذهبية، خطرت له الفكرة الفظيعـة بانهـا سيقضيـان معـاً قيلولات آحاد كثيرة. كانت ما تزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى، القلح في اسنـانهـا، وقـروح المـدرسة الابتدائية في ركبتيها، لكنه تخيل فوراً المرأة التي ستصـيرهـا عما قريب. فرعـاهـا لنفسـه خلال سنـة بطيئـة من سبوت في السيرك، وآحاد في الحدائق ومحلات المثلجات، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها، وكسب ودها، وراح يقودها من يدهـا برقـة خبيثـة كجد كريم إلى مسلخه السري. وكانت استجابتها فورية: لقد فتحت لها أبـواب السـماء فانفجـرت في تفتـح وردي جعلهـا تفيض سعـادة، وكـان ذلـك دافعاً ناجحاً لدراستها، اذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر الخروج من المدرسة في نهاية

الاسبوع. وكانت بالنسبة له الركن الاكثر خفاء في خليج شيخوخته. فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة، احس لمذاق البراءة المفسدة فتنة ضلال مستجد.

انسجما. كانت تتصرف على سجيتها: طفلة متأهبة لاستكشاف الحياة تحت اشراف رجل موقر لا يفاجأ بشيء، وتصرف وهوواع بالشكل الذي كان يخشى ان يصير اليه في الحياة: خطيب شائخ. ولم يطابق بينها وبين فيرمينا داثا أبداً، رغم التشابه الكبير بينهما، وليس في السن، والزي المدرسي، والضفيرة، والمشية البرية فقط، بل وبالطبع المتكبر وغير المتوقع. ثم ان فكرة الاستبدال، التي كانت حافزاً جيداً له في استعطاء الحب من قبل، قد تلاشت نهائياً من ذهنه. انها تعجبه كما هي، ويحبها لما هي عليه بحمى لذة غسقية. وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيولة دون حبل عرضي. وبعد بضعة لقاءات، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الآحاد.

بما انه الشخص الوحيد المخول باخراجها من المدرسة الداخلية، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وكان ينزع غطاء السيارة القماشي في بعض الامسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطىء، هو بقبعته الكئيبة، وهي منفجرة بالضحك، وممسكة بكلتا يديها قبعتها البحرية التي تشكل جزءاً من زيها المدرسي، كي لا تطير مع الريح. لقد قال لها أحدهم يوماً ألا ترافق ولي امرها اكثر من اللازم، وألا تأكل شيئاً كان قد تذوقه وألا تقترب كثيراً من انفاسه، لان الشيخوخة معدية. لكنها لم تول ذلك اهتماماً. كلاهما كان يبدي لا مبالاته لما يمكن للناس ان يظنوه بهما، لان قرابتهما كانت معروفة جيداً، ثم ان سنيهما النقيضين يضعانهما بمنأى عن كل الشبهات.

كانا قد انتهيا من ممارسة الحب يوم أحد العنصرة، في الرابعة بعد الظهر، حين بدأ قرع النواقيس. وقد فوجيء فلورينتينو اريثا لفزع قلبه. فقرع النواقيس كان يدخل ـ في شبابه ـ ضمن تكاليف الجنازة، وكان يحظر على الفقراء فقط. وبعد حربنا الاخيرة، في الجسر الواصل بين القرنين، رسخ النظام المحافظ تقاليده الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الأبهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك من هو قادر على دفعها سوى اغنى الاغنياء. وحين توفي الاسقف اركولي دي لونا، قرعت نواقيس المقاطعة كلها لتسعة أيام بلياليها، وبلغ الضيق العام حداً دفع خليفته إلى الغاء تقليد قرع اجراس الكنائس في المآتم، وحصره بالموتى البارزين. ولذلك حين سمع فلورينتينو اريثا قرع النواقيس في الكتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة، أحس ان شبحاً من أيام شبابه المنسية يزوره. لم يتصور مطلقاً ان قرع النواقيس هذا هو الذي تشوق اليه لسنوات وسنوات، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا داثا تخرج من القداس الكبير وهي حبلى في الشهر السادس.

قال في العتمة:

ـ اللعنة. لا بد انه حوت سمين كي تقرع من اجله اجراس الكتدرائية.

أما اميركا فيكونيا، التي استيقظت لتوها، عارية تماماً، فقالت:

ـ لا شك انها من أجل العنصرة.

لم يكن فلورينتينو اريثا خبيراً أوما شابه ذلك في شؤون الكنيسة، كما انه لم يذهب الى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علمه كذلك علم التلغراف، ولم يتوصل إلى خبر مؤكد عن مصيره أبداً. لكنه كان يعرف دون شك ان النواقيس ما كانت من اجل العنصرة. صحيح ان في المدينة مأتماً، وهو يعرف ذلك، اذ زارت بيته لجنة من لاجئي الكاريبي لتخبره ان جيرميا دي سانت ـ آمور قد وجد ميتاً في معمل تصويره. ومع ان فلورينتينو اريثا لم يكن من اصدقائه المقربين، إلا انه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الذين اعتادوا على دعوته إلى مناسباتهم العامة، وخصوصاً المآتم. لكنه كان متأكداً من ان الاجراس لا تقرع لجيرميا دي سانت ـ آمور، الذي كان ملحداً مصمماً وفوضوياً متمادياً، اضافة إلى انه قتل نفسه بيده.

قال :

ـ لا. ان قرع أجراس كهذا لا يمكن ان يكون إلا من أجل حاكم فما فوق.

لم تكن اميركا فيكونيا، بجسدها الشاحب المرقط بفعل انعكاس اشعة الضوء المتسربة من اباجور النافذة المغلقة، قد بلغت سناً يمكنها من التفكير بالموت. كانا قد مارسا الحب بعد الغداء واضطجعا في سكون القيلولة، عاريين تحت مروحة السقف التي لم يطغ ازيزها على نقر طيور الرخمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن. كان فلورينتينو اريثا يحبها كما أحب كثيرات من النساء الاخريات العابرات في حياته الطويلة، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد، لانه كان موقناً من انه سيكون قد مات من الشيخوخة حين تنتهي هي من المدرسة العليا.

كانت الحجرة تبدو اشبه بقمرة سفينة، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرات ومرات فوق طلائها الأول، كما هو الحال في السفن. لكن الحر كان أشد من حر قمرات سفن النهر في الرابعة مساء، رغم المروحة المعلقة فوق السرير، وذلك للحر الذي يعكسه السقف المعدني. لم تكن حجرة نوم عادية وانما قمرة على اليابسة أمر فلورينتينو اريثا ببنائها خلف مكاتبه في ش. ك. م. ن. ، دون نية أو ذريعة اخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كعجوز. كان النوم هناك مستحيلاً في الايام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن وقعقعة رافعات الميناء النهري، وجؤار السفن الضخمة في الميناء. ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنة

أيام الآحاد.

فكرا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير، لكن قرع النواقيس ذكر فلورينتينو اريثا بوعده في حضور جنازة جيرميا دي سانت ـ آمور، فارتدى ملابسه بأسرع مما يفعل في العادة، وكان قد جدل قبل ذلـك، كعـادتـه، ضفيرة الطفلة التي يحلها قبل ممارسة الحب، ورفعها فوق الطاولة ليعقد لها شريـط حذائهـا المـدرسي، الـذي لم تحسن ربطـه يومـاً. كان يسـاعدها دون خبث، وكانت تسـاعـده ليسـاعـدهـا كما لو كان ذلك واجباً عليها. . لقد فقد كلاهما الاحساس بالسن منذ لقاءاتها الأولى، وتعاملا بثقة زوجين اخفيا عن بعضهما اموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه.

كانت مكـاتب الشـركـة مقفلة وغـارقـة في الظلام لان اليوم عطلة، لم يكن في الميناء المقفر سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة. وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر، أول أمطار السنة، لكن شفـافيـة الهـواء وصمت المينـاء الاحـدي بديا وكأنهما من شهر لطيف. وكانت الدنيا من هنـاك اكثـر فجـاجة من ظلمة القمرة، وكان قرع النواقيس اكثر ايلاماً دون معرفة لمن تقرع. نزل فلورينتينو اريثا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الاسبان فيما مضى كميناء للنخاسة وحيث ما زالت بقايا المثقال وحدائد اخرى من تجارة الرقيق. كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى ان استقرا في مقعديهما. دارت السيارة من وراء الحانات المسيجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السـابق سوق لاس اينـهـاس، حيث كانت جماعـة من اليـافعـين شبه العراة يلعبون بالكـرة، وخـرجت من المينـاء النهـري وسـط زوبعـة من الغبار الملتهب. كان فلورينتينو اريثا متأكـداً ان التشـريف الجنـائزي لا يمكن ان يكون من اجل جيرميا دي سانت ـ آمور، لكن الحاح النواقيس جعله يرتاب. وضع يده على كتف السائق وسأله صارخاً لماذا تقرع الاجراس.

فقال السائق:

ـ انها من أجل هذا الطبيب المعروف. . ما اسمه؟

لم يكن على فلورينتينـو اريثـا ان يفكـر بالأمـر ليعـرف من المقصـود. ولكن سرعان ما غار الـوهم الفـوري حين روى له السـائق كيف مات، لانـه لم يجد الأمـر محتملاً. فلا شيء يشبه الانسـان كطـريقـة موته، وليس من موت يبدو أقل شبهاً للرجل الذي تصوره من هذه الميتة. لكنـه كان هونفسـه، حتى ولـوبدا الأمـر غير معقول: فالطبيب الاكبر سناً والاكثر تأهيلاً في

المدينة، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات اخرى كثيرة، قد مات اثر تهشم نخاعه الشوكي، عن احدى وثمانين سنة، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول امساك ببغاء.

كل ما فعله فلورينتينو اريثا منذ زواج فيرمينا داثا، كان يرتكز على أمل هذا الخبر. ولكن حين ازفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيرا ما تصورها في اوقات ارقه، وانما أحس بضربة من مخلب الرعب: لقد رأى بوضوح عجيب انه كان يمكن لهذه النواقيس ان تقرع لموته هو. وفزعت اميركا فيكونيا، الجالسة إلى جواره في السيارة المتقافزة على الشوارع الحجرية، لشحوبه وسألته عما أصابه. فأمسك فلورينتينو اريثا يدها بيده المتجمدة، وتنهد قائلاً:

ـ آه يا صغيرتي. تلزمني خمسون سنة اخرى لأروي لك. نسي جنازة جيرميادي سانت ـ آمور. وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعداً اياها على عجل بالمجيء اليها يوم السبت القادم، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال اوربينو. وجد ازدحام سيارات وعربات اجرة في الشوارع المجاورة، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت فمدعوو الدكتور لاثيديس اوليفيا، الذين تلقوا النبأ المشؤوم وهم في اوج الحفلة، جاؤوا على عجل. ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام، لكن فلورينتينو اريثا تمكن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة امام الباب، ورأى خوفينال اوربينو على السرير الزوجي كما تمنى رؤيته مذ سمع باسمه لأول مرة، محاطاً بوقار الموت. انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت. والى جانبه، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة، كانت تقف فيرمينا داثا منذهلة وكئيبة.

كان فلورينتينو اريثا قد تخيل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه، حين كرس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المتهور. فمن أجلها احرز لقباً وثروة، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لابناء عصره، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحد انتظار أحد أو شيء في هذا العالم: دون لحظة واحدة من التقاعس. ويقينه بان الموت قد تدخل اخيراً لصالحه، بث فيه الشجاعة التي كان يحتاجها ليكرر أمام فيرمينا داثا، في ليلتها الأولى كأرملة، يمين الولاء الابدي وحبه الدائم.

لم ينف أمام نفسه بان ما فعله كان عملاً طائشاً، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة، وانه قد تسرع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية. كان قد أعد ما يريده بطريقة أقل فظاظة، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن مما فعل. خرج من بيت العزاء متألماً لانه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هو نفسه، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها، لانه أحس بان تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قدرهما معاً.

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الاسابيع التالية. كان يتساءل يائساً أين يمكن ان تكون فيرمينا داثـا من دونـه، وبـماذا تفكر، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها. عاني من نوبة امساك نفخت بطنه كطبل، وكان عليه ان يلجأ إلى المسكنـات الاكثر لطفـاً من الحقن الشـرجية. كما إن آلام الشيخوخة، التي كان يحتملها خيراً من معـاصـريـه، لانـه عرفهـا منذ شبابه، هاجمته كلها دفعة واحدة. وعندما حضر إلى المكتب، يوم الاربعـاء، بعـد اسبـوع من الغيـاب، ارتعـدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحـالـة من الشحوب والاسترخاء. لكنه طمأنها: انه الأرق ثانية كالعادة، وعاد يعض لسانه كي لا تفلت الحقيقـة من ثقـوب قلبـه الكثيرة. ولم يمنحـه المطر هدنة مشمسة ليفكر فقضى اسبوعاً لا واقعياً آخر، دون قدرة على التركيز في شيء. وكان يأكل بشكل سيء وينام بطريقة أسوأ، ويحاول تحسس اشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص. لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا اية مبررات، ففسرها على انها نذير بان شيئاً جديداً لن يحدث، وان كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من اجله: انها النهاية. ومع ذلك، فلدى وصوله يوم الاثنين إلى بيتـه في شارع لاس فينتـانـاس، اصطـدم برسـالـة مبللة بالماء المتجمع وراء البـاب، وتعـرف من المغلف في الحـال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تقلبات الحياة، بل انه احس برائحة العطر الليلي لازهار الياسمين الذابلة، لأن قلبه حدثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى: انها الرسالة التي انتظرها، دون لحظة راحة واحدة، خلال اكثر من نصف قرن.

لم تتصور فيرمينا داثا انه يمكن لفلورينتينو اريثا فهم تلك الرسالة التي دفعها الغضب لكتابتها على انها رسالة حب. لقد ضمنتها كل السخط الذي استطاعته، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات واهانات جارحة، وظالمة أيضاً، ومع ذلك رأت انها ضئيلة أمام حجم الاساءة. كانت الرسالة ذروة مرارة دامت اسبوعين، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد. أرادت ان تعود إلى ذاتها، وان تسترد كل ما اضطرت للتخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيدة بها دون شك. ولكن موت زوجها لم يترك لها اثـراً من هويتها. كانت شبحاً في بيت غريب تحول بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش، وكانت هي تهيم فيه على غير هدى، متسائلة بمرارة من هو الميت: أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة.

ما كانت قادرة على تصريف احساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات. كان كل شيء من اشيائه يدفعها للبكاء: البيجاما التي تحت الوسادة، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرآة وهو يخلع ملابسه فيما هي تسرح شعرها للنوم، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل بعد موته. كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به وتضرب جبهتها بكفها، لانها تذكرت فجأة شيئاً نسيت ان تخبره به. وترد إلى ذهنها في كل لحظة الاسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الاجابة عنها أحد سواه. لقد قال لها في أحد الايام شيئاً لم تستطع تصوره: ان المبتورين يحسون آلاماً، وخدراً، ودغدغة في ارجلهم التي ما عادوا يمتلكونها. وهذا ما شعرت به هي من دونه. كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له من وجود.

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة، تقلبت في السرير دون ان تفتح عينيها، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم، فكان ان مات بالنسبة لها في هذه اللحظة. اذ وعت حينئذ فقط بانه

قضى الليل لأول مرة خارج البيت. ثم كان انفعالها الاخر على المائدة، ليس لشعورها بانها وحيدة، كما كانت فعلاً، وانما لقناعتها الغريبة بانها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً. وانتظرت قدوم ابنتها اوفيليا من نيو اورليانز، مع زوجها وبناتها الثلاث، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام، ولكنها لم تستخدم الطاولة المعتادة، وانما مائدة مرتجلة، أصغر حجماً، أمرت بوضعها في الممر. ولم تكن حتى ذلك الحين قد أعدت وجبة نظامية، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت، حين تشعر بالجوع، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء دون ان تضع الطعام في طبق، وهي واقفة أمام الموقد، تتحدث إلى الخادمات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بانها على مايرام، وتتفاهم معهن على أحسن وجه. ورغم كل محاولاتها، لم تتمكن من تجنب حضور زوجها: فحيث ذهبت وحيث مرت، ومهما فعلت، كانت تصطدم بشيء من اشيائه يذكرها به. ومع ان ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً، الا انها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم. وهكذا اتخذت قرارها الحاسم باخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة بدونه.

كانت عملية استئصال. وافق الابن على أخذ الكتب لتحول المكتب إلى غرفة الخياطة التي لم تمتلكها أبداً وهي متزوجة. أما الابنة، فأخذت بعض الاثاث وعدداً من الاشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزاد العاديات في نيو اورليانز. كان هذا كله مهدئاً لفيرميناداثا، التي لم تر أية طرافة في تحققها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار اثاراً قديمة. وأمام الذهول الصامت للخادمات، والجيران، والصديقات المقربات اللواتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الايام، أضرمت محرقة في أرض خلاء وراء البيت، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها: اكثر الملابس التي رأتها المدينة منذ القرن الماضي كلفة واناقة، واكثر الاحذية دقة، والقبعات التي تشبهه اكثر من صوره، وكرسي القيلولة الهزاز الذي نهض عنه اخر مرة ليموت، وأشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وتشكل جزءاً من هويته. فعلت ذلك دون اي تردد، وبيقين كامل في ان زوجها كان سيؤيد ذلك، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط، بل ولانه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بان تُحرق جثته، وألا يحشر في الظلام دون أية فجوة في صندوق من خشب الارز. ان دينه يمنع ذلك دون ريب: وكان بامكانها ان تتجرأ على جس نبض الاسقف، لترى وجهة نظره على أية حال، وكان هذا سيرد عليها بجواب سلبي قاطع. فالأمر محض وهم، لان الكنيسة لا تسمح باقامة افران لاحراق الجثث في مقابرنا، حتى ولو كانت تابعة لاديان غير الدين الكاثوليكي. كما انه لم يخطر لأحد سوى خوفينال اوربينو جدوى بناء محارق كهذه. لم تنس فيرمينا داثا رعب زوجها هذا، بل انها

تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته ان تأمر النجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء الى التابوت.

كانت محرقة بلا جدوى على اي حال. فسرعان ما ادركت فيرمينا داثا ان ذكرى زوجها الميت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الايام على ما يبدو. ورغم ذلك، فانها لم تحتفظ بعد احراق الثياب بحنينها لكل ما أحبت فيه فقط، وانما أيضاً، وقبل كل شيء، لأكثر ما كان يزعجها فيه: الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه. وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد. فاتخذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت. كانت تعلم ان استيقاظها كل صباح سيكون صعباً، لكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم.

وبدأت تلمح فعلاً، عند انتهاء الإسبوع الثالث، أول الانوار. ولكن كلما ازدادت تلك الانوار وأصبحت أشد وضوحاً، كانت تعي ان في حياتها شبحاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام. لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصدها في حديقة البشارة، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة، وانما الشبح البغيض الذي يرتدي سترة الجلاد ويحمل قبعته مستندة إلى صدره، والذي أقلقتها سفاهته السخيفة إلى حد يستحيل عليها عدم التفكير به. لقد كانت مقتنعة دوماً، منذ صدته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، بانها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تنميتها. وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها، وكانت مجرد رؤيته تقلقها وترعبها إلى حد انها لم تجد أبداً اسلوباً طبيعياً للتعامل معه. وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه، حين كانت ازهار زوجها الميت ما تزال تعبق في جو البيت، لم تستطع ان تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة اولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد.

وقد فاقم الحاح ذكراه من غضبها. وحين استيقظت وهي تفكر به، في اليوم التالي للدفن، استطاعت محوه من ذاكرتها باشارة بسيطة من ارادتها. لكن الغضب كان يعاودها دوماً، وسرعان ما أدركت ان رغبتها في نسيانه كانت أقوى محرض لتذكره. حينئذ تجرأت لأول مرة، في اذعانها للحنين، على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي. كانت تحاول ان تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين، وكيف كانت اشجار اللوز المحطمة، والمقعد الحجري الذي كان يحبها منه، لان شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومها. لقد تبدل كل شيء، اذ استأصلوا الاشجار وسجادتها من الاوراق الصفراء، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زي المراسم العسكري، بلااسم ولا تاريخ وبلا تفسير يبرر نصبه هناك، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح

التحكم بكهرباء الحي . اما بيتها، الذي بيع اخيراً، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الاقليمية. ولم يكن من السهل عليها تصور فلورينتينو اريثا كما كان في ذلك الحين، كما لم تكن قادرة على ان تصدق بان ذلك الشاب المكفهر، البائس جداً تحت المطر، هو ذات الشيخ المنخور الذي وقف امامها دون أي اعتبار لحالتها، وبلا أي احترام لألمها، وكوى روحها بإهانة لاهبة ما زالت تثقل على انفاسها.

كانت ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الانسة لينتش. لقد جاءت هيلديبراندا عجوزاً، بدينة وسعيدة، يرافقها ابنها البكر، الذي اصبح عقيداً في الجيش، مثل ابيه الذي تبرأ منه اثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لاثيناغا. كانت ابنة الخال وابنة العمة قد التقتا مرات عديدة، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنان إلى الحقبة التي تعارفتا فيها. وقد كانت هيلديبراندا اكثر حنيناً في زيارتها الاخيرة مما كانت عليه في أي لقاء آخر، واكثر تأثراً بثقل الشيخوخة. وكتأكيد لحنينها، أحضرت معها نسختها من الصورة التي التقطها لهما المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجه فيه الشاب خوفينال أوربينو طعنة الرحمة لارادة فيرمينا داثا. كانت نسخة هذه الاخيرة من الصورة قد ضاعت، بينما كانت نسخة هيلديبراندا غير واضحة المعالم، لكنهما تعرفتا على نفسيهما من خلال غلالة الخيبة: شابتان وجميلتان كما لن تصبحا أبداً.

كان مستحيلاً ألا تتحدث هيلديبراندا عن فلورينتينو اريثا، لانها كانت تجد قدرها في قدره. وكانت تتذكره كما رأته يوم بعثت أولى برقياتها، ولم تتمكن أبداً ان تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كئيب محكوم عليه بالنسيان. أما فيرمينا، فقد رأته مرات ومرات، دون ان تبادله الحديث طبعاً، ولم تكن قادرة على ان تتصور انه هو حبها الأول ذاته. لقد كانت تصلها على الدوام اخبار عنه، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة. كان يقال بانه لم يتزوج لانه ذو عادات مختلفة، ولكنها لم تول هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً، لانها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة، ولانه كانت تقال أشياء مشابهة عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة اخرى. وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو اريثا بزيه الصوفي، وعطره الغريب، وبقائه غامضاً هكذا بعد ان شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية اضافة إلى كونها شريفة. ولم تكن لتصدق بانه الشخص نفسه، وكانت تفاجأ دائماً حين تتنهد هيلديبراندا قائلة: «يا للرجل المسكين، كم تألم!». اذ كانت تراه دون آلام منذ زمن بعيد: فهو شبح ممحو.

ومـع ذلـك، فقـد أصـاب قلبهـا شيء غريب ليلة التقت به في السينـما، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا. لم تفاجأ بخروجه مع امرأة، وامرأة زنجية كذلك. لكن ما فاجأها هو انه مازال في حالة جيدة، وانه يتصرف بطلاقة شديدة، ولم يخطر لها ان تفكر بانها قد تكون هي، وليس هو، من طرأ عليه التبدل بعد دخول الانسة لينتش العاصف في حياتها الخاصة. منذ ذلك الحين، وخلال اكثر من عشرين سنة، تابعت رؤيته بعينين اكثر اشفاقاً. وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبد لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للاحقاد: تصرف ينم عن العفو والنسيان. ولهذا لم تكن تتوقع اعادة المأساوية لعرض حب لم تشعر بوجوده يوماً، وفي سن لم يبق لفلورينتينو اريثا ولها فيها من شيء ينتظرانه من الحياة.

بقي غضب الوهلة الأولى القاتل بكامل زخمه بعد الاحراق الرمزي للزوج، وراح ينمو ويتشعب اكثر فأكثر كلما شعرت بانها أقل قدرة في السيطرة عليه. بل واكثر من ذلك: ففراغات الذاكرة التي تمكن من اخلائها باقصاء ذكرى الميت منها، كان يحتلها شيئاً فشيئاً، ولكن باصرار، مرجُ البرقوق الذي كانت ذكرى فلورينتينو اريثا مدفونة فيه. وهكذا كانت تفكر فيه دون ان تحبه، وكلما فكرت فيه اكثر ازداد غضبها عليه، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر، إلى ان أصبح شيئاً لا يطاق وطفح به ذهنها. حينئذ جلست إلى طاولة زوجها الميت، وكتبت إلى فلورينتينو اريثا رسالة من ثلاث صفحات متهورة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة، التي هدأت من روعها لاقترافها بذلك أحط فعلة في حياتها الطويلة.

لقد كانت تلك الاسابيع الثلاثة بالنسبة لفلورينتينو اريثا أيضاً أسابيع احتضار. ففي الليلة التي كرر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا هام على غير هدى في الشوارع المخربة بطوفان المساء، متسائلاً بفزع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد ان قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن. كانت المدينة تعيش حالة طوارىء بسبب عنف الأمطار. وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون انقاذ ما يشاؤه الله من وسط الطوفان، وأحس فلورينتينو اريثا بان لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارثته الشخصية. لكن الهواء كان وديعاً وكانت نجوم الكاريبي ساكنة في مواقعها. وفجأة، كما في سكون أزمنة اخرى، تعرف فلورينتينو اريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسياني يغني مرات كثيرة، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها: من الجسر رجعت مبللاً بالدموع. اغنية كان لها، بالنسبة له فقط، علاقة ما بالموت في تلك الليلة.

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيتو اريثا كما شعر يومئذ، كان بحاجة لكلمتها الحكيمة، ورأسها كملكة سخرية متوجة بأزهار ورقية. ولم يستطع الحيلولة دون ذلك: فكلما وجد نفسه في خضم الكارثة، احس بحاجته إلى الانزواء في كنف امرأة. وهكذا مر من أمام مدرسة

المعلمات بحثاً عمن هن في متناول يده، ورأى نوراً ينبعث من نافذة اميركا فيكونيا. وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يقدم على حماقة جدّ هرم باخراجها في الساعة الثانية فجراً، وهي دافئة بالحلم بين اقمطتها، ورائحة المهد ماتزال تفوح منها.

في الطرف الآخر من المدينة كانت ليونا كاسياني، وحيدة وحرة. ومستعدة دون ريب لان تقدم له الحنان الذي يحتاجه سواء أكانت الساعة الثانية، أو الثالثة فجراً، أو أي ساعة اخرى. ولم تكن المرة الاولى التي يدق بابها في ارقه المقفر، لكنه أحس بانها ذكية إلى حد بعيد، وانهما يحبان بعضهما كثيراً، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها دون ان يفضي لها بالسبب. وبعد تفكير طويل، سار مسرعاً في المدينة المقفرة، وخطر له بانه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا: أرملة الرب. كانت أصغر منه بعشر سنوات. وكانا قد تعارفا في القرن الماضي، وإذا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلأنها أصرت ألا تسمح لأحد بان يراها وهي في الحال الذي صارت اليه: شبه عمياء، وعلى حافة الشيخوخة فعلاً. وما ان تذكرها فلورينتينو اريثا حتى عاد إلى شارع لاس فينتاناس، ودس في حقيبة المشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل، ومضى لزيارتها دون ان يدري ان كانت ما تزال في بيتها نفسه، أو اذا كانت وحدها، أو اذا كانت ما تزال على قيد الحياة.

لم تكن بروديثيا بيترا قد نسيت اشارة الخمش على الباب، التي كان يُعرف بها على نفسه حين كانا يظنان انهما ما يزالان شابين رغم انهما لم يكونا كذلك، وفتحت له دون اسئلة. كان الشارع مظلماً ولم يكن هو مرئياً ببدلته السوداء وقبعته القاتمة ومظلة الخفاش المعلقة بذراعه، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلا في وضح الضوء، لكنها تعرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على اطار نظارته المعدني. كان يبدو كقاتل مازالت يداه ملطختين بالدم. قال:

ـ المأوى ليتيم بائس.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله. وفوجيء بكم هرمت مذ رآها لآخر مرة، وكان مدركاً بانها تراه كذلك. ولكنه عزّى نفسه بالتفكير بانهما بعد دقيقة، وحينما يستعيدان انفاسهما من اثر الوهلة الأولى، سيلاحظ كل منهما اقل فأقل اثار السن في الآخر، وسيعودان ليريا بعضهما اكثر شباباً، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعرفا.

قالت له:

ـ تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة.

ولقد كان كذلك. كما انها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية مرور اكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الاسقف دي

لونـا. لقـد ايقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تهز الأرض، واختلاط فرق الموسيقى العسكـريـة، وفـوضى الاغـاني الجنائزية التي تعلوعلى ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوية دون توقف منـذ اليـوم السـابق. وقد رأت من شرفتها العسكريين وهم يمرون على صهوات جيـادهم بزي المـراسم، والهيئـات الدينية، وتلامذة المدارس، وسيارات السلطات اللامرئية الطـويلة السـوداء، وعـربـة الدفن الفاخرة التي تجرها خيول رؤ وسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب، والتابوت الاصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع تاريخية، واخيراً مجموعة عربات الفيكتوريا القديمة المكشوفة والتي ما زالت على قيد الحياة لحمل اكاليل المآتم. وبعد حوالي نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة بروديتثيا بيترا، انهمر المطر طوفاناً، وتفرق الموكب في كل الانحاء.

قالت:

ـ يالها من طريقة سخيفة في الموت.

فقال:

ـ ليس في الموت ما هو مضحك ـ ثم أضاف بحزن ـ: وخصوصاً في مثل سننا.

كـانـا يجلسـان على المصطبـة، مقـابـل البحر الفسيح، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السـماء، ويـرنـوان إلى الاضـواء الملونة المنبعثة من السفن في الافق، وينعمان بالنسيم الدافىء والعطر بعد العاصفة. كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته بروديثيا بيترا من رغيف في المطبخ. لقد امضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعد ان أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد التقاها فلورينتينو اريثـا في حقبـة كانت مـستعـدة فيهـا لاستقبـال أي رجل يرغب بمرافقتها، حتى لو استأجرته بالساعة، وتمكنا من اقامة علاقة اكثر جدية وأطول أمداً مما بدا ممكناً.

ورغم انهـا لم تُلمـح للأمـر أبداً، إلا انها كانت مستعدة لأن تبيع روحها للشيطان في سبيل الـزواج منـه في زفـاف ثان. كانت تعلم ان الخضـوع لشحـه ليس سهـلا، وكذلك الاذعان لحاجـاتـه كشيـخ مبكر، ولأوامره المخبولة، وجشعه في طلب كل شيء دون اعطاء أي شيء. ولكنها لم تكن تجد بالمقابل رجلا يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه، لانه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله الى الحب لهذا الحد. ولكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو اكثر تقلباً منه، اذ لم يكن يمكن للحب ان يصل إلى ابعد مما كان يصل اليه: الى حيث لا يؤثر في قراره بالاحتفـاظ بحـريتـه من اجـل فيرمينـا دائـا. ومـع ذلـك، استمرت علاقتهما لسنوات طويلة، حتى بعـد ان رتب أمـر زواج بروديثيـا بيـترا ثانيـة من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور اخرى مرتحلا، وانجبت منه ابنة واحدة واربعة ابناء،

كان أحدهم، حسب زعمها، من فلورينتينو اريثا.

تحادثا دون احساس بالوقت، لانهما كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابهما، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيخوخة أقل بكثير. ورغم ان فلورينتينو اريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب، إلا انه لم يستعد انفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة. كان يتعرق بغزارة، وقالت له أرملة الرب ان يخلع سترته، ان يخلع صدريته، بنطاله، ان يخلع كل ما يشاء، اللعنة، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً من معرفتهما بالملابس. وقال انه سيفعل ذلك ان هي فعلت، لكنها لم تقبل: لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة، وأدركت فجأة بأن الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية أمامه أو أمام سواه.

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلورينتينو اريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ، تابع الحديث عن الماضي، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد، لكنه كان يتشوق للعثور على طريق سريّ في الماضي ليغرق نفسه فيه. كان هذا هو ما يحتاجه: ان يقذف روحه من فمه. وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة، فسألها بطريقة بدت عرضية: «ماذا تفعلين اذا ما عرض أحدهم عليك الزواج، هكذا كما أنت، أرملة وفي هذه السن؟». ضحكت ضحكة مجعدة كعجوز، وسألت بدورها:

ـ أتعني بهذا ارملة اوربينو؟

كان فلورينتينو اريثا ينسى دائماً، حين لا يجب النسيان، ان النساء يفكرن بالمعنى الخفي للاسئلة اكثر من تفكيرهن بالاسئلة ذاتها، وتفعل بروديثيا بيترا ذلك اكثر من سواها. قال لها وقد احس بأنه وقع ضحية ريح مباغتة نتيجة تسديده الطائش: «انني اعنيك انت بهذا». فعادت تضحك: «اذهب واسخر من العاهرة أمك، ليرحمها الله». ثم الحت عليه ليصارحها بما يريد ان يقوله، لانها تعلم انه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر ان يوقظها في الثالثة فجراً، بعد الانقطاع عنها كل هذه السنوات، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط. قالت: «لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عمن يود البكاء معه». ارتعش فلورنتينو اريثا ثانية، وقال لها:

ـ انك مخطئة هذه المرة. فاسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء.

فقالت:

ـ فلنغن اذن.

بدأ يدندن بصوت لا بأس به الاغنية الدارجة: رامونا، لا أستطيع العيش بدونك. وكان في ذلك نهاية تلك الليلة، اذ انه لم يعد يجرؤ على لعب ألعاب محرمة مع امرأة قدمت له أدلة

كافية في معرفة الوجه الآخر للقمر. خرج الى مدينة مختلفة تعبق برائحة ازهار الداليا الاخيرة لشهر حزيران، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأرامل في العتمة وهن خارجات من صلاة الساعة الخامسة. وكان هو الذي انتقل الى الرصيف الآخر هذه المرة، وليس هن، كي لا يرين دموعه التي ما عاد يطيق حبسها، ليس منذ منتصف الليل، كما كان يظن، لان هذه الدموع كانت دموعا اخرى: انها التي غص بها منذ حوالي احدى وخمسين سنة وتسعة شهور واربعين يوماً.

كان قد فقد الاحساس بالزمن حين استيقظ دون أن يدري المكان الذي هو فيه، مقابل نافذة مضيئة. ونقله الى الواقع صوت اميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخادمات في الحديقة.. انه في سرير امه التي ما زالت حجرة نومها على حالها، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي اقلقته فيها العزلة. وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة، والتي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا داثا مرسومة فيها. عرف ان اليوم هو السبت، لانه اليوم الذي يحضر فيه السائق اميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية، ويأتي بها الى بيته. وانتبه الى انه قد نام دون ان يدري، حالما انه غير قادر على النوم، في حلم يعذبه فيه وجه فيرمينا داثا الغاضب. استحم وهو يفكر كيف ستكون الخطوة التالية، وارتدى أفضل ملابسه على مهل، وتعطر وصمغ شاربه الابيض ذا الطرفين المدببين، ولدى خروجه من حجرة النوم، رأى من ممر الطابق الثاني البنية الجميلة ذات الزي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لآحاد كثيرة، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق. أشار لها بأن تأتي معه، وقبل ان يصعدا الى السيارة قال لها دون داعٍ للقول: «لن نفعل اشياء هذا اليوم». ورافقها الى المقهى الاميركي للمثلجات، الذي كان يغص في مثل هذه الساعة بآباء يتناولون البوظة مع اطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف. طلبت اميركا فيكونيا بوظة من عدة طبقات متنوعة الألوان في كأس كبير، وهو النوع الذي تفضله، والذي يلقى رواجاً شديداً لان بخاراً سحرياً كان ينبعث منه. تناول فلورنتينو اريثا قهوة قوية، وهو يتأمل الطفلة دون ان يتكلم، فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً، تصل الى قاع الكأس. ثم قال لها فجأة، دون ان يتوقف عن مراقبتها:

ـ سأتزوج.

نظرت الى عينيه نظرة مرتابة، وهي ترفع الملعقة في الفضاء، لكنها استعادت انفاسها فوراً، وابتسمت قائلة:

ـ انها خدعة. فالشيوخ لا يتزوجون.

أوصلهـا مســاء هذا اليـوم الى المدْرسة الداخلية عند موعد صلاة الانخيلوس، تحت وابل من المطر العنيد، بعد ان رأيا معاً دمى الحديقة، وتناولا الغداء في اكشاك السـمك المقلي عند ملطم الامـواج، وبعـد ان رأيـا أقفـاص الحيـوانات المفترسة التابعة لسيرك وصل يومئذ الى المدينة، واشتريا من الأزقة كل انواع الحلوى لتحملها معها الى المدرسة الداخلية، وبعد ان جابا المدينة عدة مرات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره ولي امرها، وليس عشيقاً لها. وفي يوم الأحد التالي بعث اليها السيارة لتقوم اذا كانت ترغب بنزهة مع صديقاتها، لكنه لم يشأ رؤيتها، لانه وعى منذ الاسبوع الفائت وعياً كاملا فارق السن بينهما. وفي هذه الليلة بالـذات قرر ان يكتب الى فيرمينـا داثـا رسـالـة اعتـذار، حتى ولـو كان ذلـك لمجـرد عدم الاستسـلام، لكنـه أجـل الأمـر لليـوم التـالي. وفي يوم الاثنين، بعد ثلاثة اسابيع كاملة من الآلام، دخل الى بيته مبللا بالمطر، ووجد رسالتها.

كانت السـاعـة الثـامنـة ليـلا. وكانت فتاتا الخدمة قد نامتا، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورنتينو اريثا من الوصول الى حجرة نومه. كان يعلـم ان عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الايام من الأكـل العشـوائي تلاشى بانفعـال الرسـالـة. ووجـد صعوبة في اضاءة نور حجرة النوم الرئيسي لارتعـاش يديه. وضع الرسالة المبللة على السرير، واضاء مصباح الكوميدينو، ثم خلع سترتـه المبللة بهدوء مصطنـع، هو من اسـاليبـه في طمأنـة نفسـه، وعلقهـا على مسنـد الكـرسي، ثم نزع الصـدريـة ووضعهـا بعـد طيهـا جيـداً فوق السـترة، وحل شريط العنق الحريري الازرق والياقة القاسية التي ما عادت تستعمل في العالم، وفك ازرار القميص حتى الخصر ثم حل الحزام ليتنفس براحة، ونزع القبعة اخيراً ووضعها الى جوار النافذة لتجف، ارتعش فجأة لانه لم يدر أين هي الرسالة، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجأ حين وجدها، فهـو لا يذكـر بأنـه وضعهـا على السـرير. وقبل ان يفتحها جفف المغلف بمنديل، محاذراً ألا يمسح الحبر المكتوب به اسمه، وفيما هو يفعل ذلك انتبه الى ان ذلك السر لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط، وانما بين ثلاثة على الاقل، فلا بد ان حامل الرسالة، كائناً من كان، قد انتبه الى ان ارملة اوربينـو تكتب لشخص من خارج عالمهـا ولمـا تمض على وفـاة زوجهـا سوى ثلاثـة اسـابيـع، وانهـا تفعـل ذلـك بتسرع لم يتح لها ارسال الرسالة بالبريد، وبتكتم شـديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد، وانما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول. لم يكن بحاجة الى تمزيق المغلف، لان الماء حلل صمغه، لكن الرسالة كانت جافة: ثلاث ورقات، دون ترويسه، موقعة بالحروف الأولى من اسمها كمتزوجة.

قرأهـا أول مرة بسـرعـة وهـو جالس على السـريـر، مستسلماً للهجتهـا أكثـر من تمعنـه بمضمـونهـا، وقبـل ان ينتقـل الى الصفحـة الثانية كان متأكداً من عدالة الشتائم التي انتظر تلقيهـا. وضعهـا مفتوحة تحت ضوء مصباح الكوميدينو، ونزع حذاءه والجوربين المبللين، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب، ووضع على وجهه غطاء الشوارب المصنـوع من الشمـواة واستلقى دون ان يخلع بنطـالـه والقميص، مسنداً رأسه الى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ. وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نية من نواياها الخفية دون حل. ثم قرأها أربع مرات اخرى، الى ان تشبع بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تفقد معناها. بعد ذلك خبأ الرسالة دون المغلف في درج الكوميدينو، واستلقى شابكا يديه على عنقه، وثبت نظره لأربع ساعات في المرآة حيث كانت هي، دون ان يرمش، ودون ان يتنفس تقريباً، وكان اكثر موتاً من ميت. وعند منتصف الليـل تمامـاً خرج الى المطبـخ، فأعـد ترمس قهـوة كثيفـة كالبترول الخام، وحمله الى حجرة نومـه، وألقى باسنـانـه الاصطنـاعيـة في كأس المـاء المزوج بمطهر البورون الذي كان يجده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو، وعاد ليستلقي بوضعية تمثال المرمر السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة، وبقي على هذا الحال الى ان دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة.

في هذه الساعة كان فلورينتينو اريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية. الحقيقة ان الشتائم لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة، التي كان يمكن لها ان تكون أقسى نظراً لمعرفته طبع فيرمينا داثا وخطورة السبب. الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو الرسالة ذاتها لانهـا تتيـح له الفـرصـة وتعـترف له بحق الرد عليها. بل وتتطلب ذلك منه. وهكذا وصلت الحيـاة الى الحـد الـذي أراد ايصـالها اليه. وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن. كان مقتنعاً قنـاعـة راسخـة ان جحيمـه الخـاص المستمـر منـذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهتها بحماسة أشد ومعاناة أصلب وحب أقوى من كل ما فات، لانها ستكون التجارب الاخيرة.

بعد خمسة أيام من تلقيه رسالة فيرمينا داثا، ولدى وصوله الى مكاتب شركته، أحس بانه يطفو في الفراغ الوعر وغير المألوف لآلات الكتابة، اذا ان ضجيجها المطري لم يكن ملحوظاً كصمتها. كانت وقفة قصيرة. وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلورينتينو اريثا الى مكتب ليـونـا كاسياني وتأملها وهي جالسة وراء الته الكاتبة، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها اداة بشـريـة. فأحست هي بأنهـا مراقبـة، ونظـرت نحو الباب بابتسامتها الشمسية المذهلة، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة.

سألها فلورينتينو اريثا :

ـ اخبريني يا لبوة روحي . بماذا ستشعرين اذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الاداة ؟

وبدت عليها، هي التي لم تفاجأ بشيء، علائم مفاجأة حقيقية، وهتفت:

ـ يا للرجل! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل.

لم تجد جواباً آخر على الاقل. ولم يكن فلورينتينو اريثا قد فكر بالأمر حتى ذلك الحين، لكنه قرر المضي بالمغامرة الى نهايتها. نقل الى بيته احدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة : «لا يمكن لببغاء عجوز ان تتعلم الكلام». وعرضت عليه ليونا كاسياني، المتحمسة لكل جديد، ان تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت. لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف البيت عزف الكمان على النوتة، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة اوركسترا محترفة، وحياته كلها، بمعدل ست ساعات يومياً ليعزف بشكل جيد. ولكنه استطاع رغم ذلك اقناع امه بأن تشتري له كمان عميان، ومن خلال القواعد الاساسية الخمس التي علمه اياها لوتاريو توغوت، تجرأ على العزف ضمن كورال الكتدرائية قبل مضي أقل من سنة وعلى عزف السيرانادات لفيرمينا داثا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح. فاذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة كالكمان، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة تحتاج إلا لاصبع واحد كآلة الكتابة.

وهذا ما فعله. احتاج لثلاثة أيام كي يتعرف على مواقع الحروف على لوحة الملامس، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه، ثم ثلاثة أيام اخرى لينهي الرسالة الأولى دون أخطاء، بعد أن مزق نصف ماعون من الورق. بدأ الرسالة بمطلع وقور: سيدتي. ووقعها بالحروف الأولى من اسمه، كما اعتاد ان يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه. وبعثها بالبريد، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة الى أرملة حديثة الترمل، وبدون كتابة اسم المرسل على الوجه الآخر للمغلف.

كانت رسالة في ست ورقات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة. لم تكن لها النبرة، ولا الاسلوب ولا النَفَس الخطابي الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى، بل كانت معلجة عقلانية ومتقنة التأمل، لو خالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة. لقد كانت، الى حد ما، اقتراباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً.

ان رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيناً بعد سنوات، أما في ذلك الحين، فكانت الآلة الكاتبة ما تزال مجرد حيوان مكتبي، بلا فلسفة خاصة بها، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدن. وكانت تبدو كصرعة جريئة، ولا بد ان

فيرمينا داثا قد فهمت الأمر كذلك، لانها حين كتبت رسالتها الثانية الى فلورنتينو اريثا، بعد ان تلقت منـه ما يزيـد عن الاربعين رسالة، بدأت بالاعتذار لعثرات خطها، لكونها لا تملك وسائط كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الفولاذية.

لم يشر فلورينتينـو اريثـا مجرد اشـارة الى الـرسـالة الرهيبة التي بعثها اليه، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية، دون أية إشارة الى غراميات الماضي، أو الماضي بحد ذاته: شطب كل ما سبق وفتح صفحة جديدة. كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة، يستند الى أفكـار وتجاربـه في العـلاقـات بين الـرجـل والمرأة، التي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمم لسكـرتـير العـاشقـين. ولم يفعـل حينئـذ سوى صيـاغـة تلك التأملات باسلوب بطريركي، لذكـريـات شيخ، كي لا تظهـر بوضـوح حقيقة كونها رسالة حب. لقد كتب قبل ذلك عدة مسودات على الطريقة القديمة، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر مما تتأخر في القاءها الى النـار. كان يعلم ان اي زلـة في الاشـارة الى المـاضي، أو اي طيش في الحنين قد يثير في قلبهـا ترسبـات قديمـة، ومع انه كان يشعر بانها ستعيد اليه مئة رسالة قبل ان تتجرأ على فتح الـرسـالـة الأولى، إلا انـه تمنى ألا يحدث ذلـك ولـو لمرة واحـدة. وهكـذا وضع مخططه بكل تفـاصيله كما في معـركـة حاسمـة: كل شيء يجب ان يكون مختلفا ليبعث فضولات جديدة، ووسـاوس جديـدة وآمـالا جديـدة، في امـرأة عاشت حياة كاملة على اتساعها. لا بد له من جعـل الأمـر حلماً لا معقـولا، قادراً على منحهـا الشجاعة الكافية لتلقي الى القمامة باعراف طبقة لم تكن هي طبقتها الاصلية، ولكنها انتهت الى الاندماج فيها وجعلها طبقتها اكثر من أي طبقة اخرى. كان عليه ان يعلمها التفكير بالحب على انه حالة غير وسيطة لأي شيء، بل هو منشأ ومستقر بحد ذاته.

لقد كان من القناعة بحيث انه لم يعد ينتظر رداً فورياً، بل اكتفى بألا تعاد اليه الرسالة. ولم تعد، كما لم تعد الرسالة التالية. وكلما مرت الأيام كانت اشواقه تتأجج، وكلما ازدادت الايام التي تمر كانت آماله بالرد تزداد. كان تواتر رسائله مشروطاً بمهارة أصابعه: بدأ برسالة واحدة في الاسبـوع أول الأمـر، ثم رسـالتين، الى ان تمكن اخيراً من كتابة رسالة في كل يوم. ولقد اثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه، حين كان يعمل رافع أعلام، لانه لم يكن مستعـداً للمغـامـرة بالظهـور في مكتب الـبريد كل يوم كي يبعث رسالته الى الشخص ذاته، ولا لارسالها مع أحد قد يحصيها عليه. أما الآن، فمن السهل ارسال موظف ليشتري الطـوابـع الـبريدية لشهر بكامله، ثم القاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة. وسرعان ما ادخل تلك المهمة في روتينه اليومي: كان ينتهز ساعات ارقه ليكتب، واثناء ذهابه الى المكتب في اليوم التالي، يطلب من السائق التوقف للحظة أمام

صنـدوق بريـد معلق عنـد ناصيـة أحد الشوارع ، فينزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه . لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلا منه ، رغم انه طلب ذلك في صباح يوم ماطر. وصار يحتاط أحيـانـاً فيرسـل مجمـوعـة رسـائـل في الوقت ذاته بدلا من رسالة واحدة ، كي يبدو الأمر اكثر طبيعيـة . ولم يكن السـائق يعلم بكـل تأكيـد ، ان الـرسـائل الاخرى ليست إلا اوراق بيضاء يبعثهـا فلورنتينـو اريثـا بنفسـه لنفسـه ، لانه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد ، باستثناء تقـريـره الـذي يبعثـه كوصي في اواخـر كل شهر الى والديّ اميركا فيكونيا ويضمنه انطباعاته الشخصية حول سلوك الصغيرة ، ومعنوياتها وصحتها ، وتقدمها المطرد في الدراسة .

أخذ يرقم الرسائل منذ الشهر الأول ، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هو الحال في روايات الصحف المسلسلة ، خشية ألا تنتبه فيرمينا داثا إلى ان الرسائل مترابطة ببعضها إلى حد ما . وحـين أصبحت الـرسـائـل يومية ، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفـات بيضـاء وطويلة ، مما منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطيء . حين بدأ يبعث رسائله كان مستعداً لاخضاع صبره لتجربة اكبر ، الى ان يجد على الأقل دليلا قاطعاً بانـه يضيـع وقتـه بهذا الاسلوب الـوحيد الذي استطاع تصوره . وانتظر فعلا دون الاحساس بالقلق الـذي كان يسببه له الانتظار في شبابه . . انتظر بعناد شيخ اسمنتي ليس لديه ما يفكر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحة نهرية كانت تبحر وحدها في ذلك الحين مدفوعة برياح مواتية ، اضافة الى يقينه بانه سيكون حياً في الغد ، آجلا أو آبداً ، حين تقتنع فيرمينا داثا اخيراً بانه لا علاج لجزعها كأرملة متوحدة إلا بانزال جسور حصنها له .

وتابع اثناء ذلك حياته المعتادة . متهيئاً لتلقي ردٍّ ايجابي . بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكـون جديـراً بمن يمكن اعتبـارهـا صاحبته وسيدته منذ تم شراؤه . وتردد عدة مرات على بروديثيـا بيـترا ، كما وعـدهـا ، ليثبت لها بانه يحبها رغم اثار السن ، في وضح النهار ، وليس في ليـالي خذلانـه فقـط . وتـابـع المـرور مقابل بيت اندريه بارون الى ان وجد نور الحمام مطفأ ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب ، حسب خرافة اخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين ، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً .

كانت علاقته باميركا فيكونيا هي العائق الوحيد . لقد ثابر على ارسال السائق لاحضارها من المدرسة الداخلية في السـاعة العاشرة من صباح أيام الآحاد ، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهايـة الاسبـوع . ولقـد أحست بالتغـير حين لم يبـدِ اهتـمامـاً بها في المرة الأولى . كان يعهد بها للخادمات كي يرافقنها الى السينما المسائية ، ولمشاهدة الدمى المتحركة في حديقـة الأطفـال ، والى اليـانصيبـات الخـيريـة ، اويدعوها الى برامج آحاد احتفالية مع

زميلات اخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها الى الجنة السرية وراء المكاتب، حيث كانت تود الذهاب دوماً مذ أخذها هناك أول مرة. ولم ينتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد، الى ان النساء قد يصبحن راشدات في ثلاثة أيام، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بويرتوبادري حين جاءت في السفينة الشراعية المزودة بمحرك. ورغم كل محاولاته لاضفاء الحلاوة على الوضع الجديد، إلا ان التبدل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها، لكنها لم تستطع تصور سبب هذا التبدل. يوم قال لها في مقهى المثلجات انه سيتزوج، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة، عانت صدمة ذعر عابرة، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتمالا لا معقولا ما لبثت ان نسيته تماماً. لكنها سرعان ما أيقنت انه يتصرف كما لو كان ذلك صحيحا، بمراوغة لا تفسير لها، وكما لو لم يكن اكبر منها بستين سنة، وانما أصغر منها بستين سنة.

وفي مساء أحد أيام السبت، وجدها فلورنتينو اريثا وهي تحاول الكتابة على الآلة الكاتبة في غرفة نومه، وكانت تفعل ذلك بشكل لا بأس به، اذ انها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة. كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة، وكان من السهل افراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية. انحنى فلورنتينو اريثا فوق كتفها ليقرأ ما تكتبه، فاختلجت بحرارته الرجولية، ونفسه المتقطع، وعطر ملابسه، الذي هو عطر وسادته ذاته. لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يعريها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال: هذا الحذاء أولا للدب، ثم هذه البلوزة للكلب، ثم هذا السروال الداخلي المزين بالازهار للأرنب. . والآن قبلة حلوة سيطبعها البابا على هذه الحمامة الصغيرة. لا : انها الآن امرأة مكتملة الانوثة تحب ان تمسك زمام المبادرة. واصلت الكتابة باصبع واحدة من يدها اليمنى، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس . . استكشفته، ووجدته، وأحست به ينبعث، ينمو، يتنهد بشوق، فتعثر تنفسه كشيخ وصار ثقيلا. كانت تعرفه: فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه . . ستتفكك مفاصله . . سيصبح تحت رحمتها، ولن يجد سبيلا للرجوع قبل ان يصل الى النهاية. قادته من يده الى السرير، كما تقود ضريراً بائساً في الشارع، وعرته من ثيابه قطعة قطعة برقة خبيثة، رشت ملحاً لذوقه، وبهاراً ذا رائحة، وفص ثوم، وبصلة مفرومة، وعصير ليمونة، وورقة غار، الى ان تبلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة. لم يكن في البيت أحد. فالخادمات خرجن، وعمال البناء والنجارين الذين كانوا يرممون البيت لا يشتغلون أيام السبت: كان العالم بأسره لهما. لكنه خرج من غيبوبته وهو على شفير الهاوية، فأزاح يدها ونهض قائلا بصوت مرتعش:

ـ حذار، لا توجد هنا موانع للحمل.

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل، وهي غارقة في التأمل، وحين رجعت الى المدرسة الداخلية، قبل ساعة من الموعد، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء، وركزت حاسة شمها وشحذت اظافرها لتجد اثار الأرنبة البرية المختفية التي قلبت لها حياتها رأساً على عقب. اما فلورنتينو اريثا، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال: ظن بانها قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانه.

كان غارقاً في شؤونه. وحين لم يتلق أية إشارة، بعد مرور ستة شهور، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر، تائهاً في صحراء أرق مختلف. كان يفكر بان فيرمينا داثا قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل اخرى غابرة، وألقت بها في محرقة القمامة دون ان تتكلف مشقة تمزيقها. وكان يكفيها ان ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه دون ان تفتحها، وهكذا حتى نهاية الازمان، فيما هو يصل الى نهاية تأملاته المكتوبة. لم يكن يصدق بان هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل دون ان تعرف حتى لون الحبر الذي كتبت به. ولكن اذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع، فلا يمكن إلا أن تكون هي وحدها.

بدأ فلورنتينو اريثا يشعر بأن زمن الشيخوخة ليس تياراً افقياً، وانما خزاناً مثقوب القعر تتسرب منه الذاكرة. كانت قريحته تُستنفد. وبعد عدة أيام من التجوال في حي لامانغا، ادرك ان ذلك الاسلوب الشبابي لن يتمكن من تحطيم الابواب المحكومة بالحداد. وفي صباح أحد الأيام، وبينما هو يبحث عن رقم في دليل الهاتف، وجد مصادفة رقمها. اتصل بها. ورن الجرس مرات كثيرة، واخيراً تعرف على الصوت، جدياً وأبح: «من؟». أعاد وضع السماعة دون ان يتكلم، لكن البعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم اعاد التماسك لمعنوياته.

في أحد هذه الايام، احتفلت ليونا كاسياني بعيد ميلادها، ودعت مجموعة محدودة من الاصدقاء الى بيتها. كان هو ساهياً فلوث ملابسه بصلصة الدجاج. غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طية سترته، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث اكبر: فبدا كرضيع هرم. ولاحظت انه نزع نظارته عدة مرات خلال تناول الطعام ليمسحها بالمنديل، لان عينيه كانتا تدمعان. وعند تناول القهوة، غفا وهو يحمل الفنجان بيده، فحاولت انتزاع الفنجان دون ايقاظه، لكنه افاق خجلا: «كنت اريح بصري فقط». وقد نامت ليونا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف ان الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح.

في الذكرى الأولى لموت خوفينال اوربينو، بعثت اسرته ببطاقات دعوة لصلاة على ذكراه في الكتدرائية. كان فلورنتينو اريثا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنتين وثلاثين دون

ان يتلقى اي رد، وهـذا ما دفعـه الى اتخـاذ القـرار الطـائش بحضور الصلاة رغم انه لم يكن مدعـواً. لقـد كان حدثـاً اجتـماعياً باذخاً اكثر من كونه ذكرى مؤثرة. كانت مقاعد الصفوف الأولى محجـوزة لورثـة الألقـاب الكبيرة، وكانت على قفا كل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه. حضر فلورنتينو اريثا مع أول الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرمينا داثا ان تمر دون ان تراه. وفكر بان أفضل المقاعد، بعد الاماكن المحجوزة، هي مقاعد القسم الأوسط، لكن عدد الحضور كان كبيراً لدرجة انه لم يجد مكاناً هناك ايضاً، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للاخـوة الفقـراء. ومن هنـاك رأى فيرمينـا داثـا تدخـل ممسكة بذراع ابنها. كانت ترتـدي ثوبـاً مخملياً أسـود يصـل الى معصميهـا، ولا وجـود فيه لأية حلية سوى مجموعة من الازرار المتـاليـة من العنق وحتى القـدمين، فكان يبدو أشبه برداء قسيس، وكانت تضع ياقة ذات تخريمات قشتـاليـة بدلاً من القبعـة ذات الخـمار التي تستخـدمهـا الارامـل، وكثـير من السيدات اللواتي يأملن بان يصبحن ارامل. كان لوجهها السافر بريقـكبريق المرمر المعرق، وكـانت عينـاهـا الـرمحيتـان تعيشـان حياة خاصـة تحت الشريات الضخمة في ممر الكتدرائية الأوسط، وكانت تمشي باستقامة، وكبرياء، وسيطرة تامة على نفسها، حتى انها لم تكن لتبدو اكبر سناً من ابنها. استند فلورنتينو اريثا، الواقف، بأطراف أصابعه على المقعد الذي امامه الى ان مرت الاغماءة التي احس بها مرور الكرام، فقد شعر بأن المسافة الفاصلة بينهما ليست ست خطوات كما هي في الواقع، وانما هما في يومين مختلفينْ.

اجتملت فيرمينـا داثـا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير، ممضية مُعظم الوقت وهي واقفة، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الاوبرا. لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية، ولم تبق في مكانها لتتلقى تجديد العزاء، كما هي التقاليد السائدة، وانما شقت طريقها لتشكر كل واحد من المدعوين: انها لفتة تجديدية تتفق تماماً مع اسلوبها في الحيـاة. صافحت المـوجـودين هنـا وهنـاك الى ان وصلت الى مقـاعـد الاقارب الفقراء، ثم التفتت اخيراً فيـما حولهـا لتتأكـد من انها لم تنس أحداً تعرفه. أحس فلورنتينو اريثا حينئذ ان ريحـاً غير مألـوفـة قد أخـرجتـه من جوه: لقد رأته. وفعلا، ابتعدت فيرمينا داثا عن مرافقيها بطلاقتها التي تتصرف بها في المجتمع، ومدت له يدها، وقالت بابتسامة شديدة الرقة:

ـ شكراً لحضورك.

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب، بل انها قرأتها كذلك باهتمام بالغ، ووجدت فيها اسباباً جدية للتأمـل والاستمـرار في الحيـاة. كانت تجلس الى المـائدة لتناول الفطور مع ابنتها حين تلقت الـرسـالـة الأولى. فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة، واتقدت وجنتاها بتورد سريع حين تعرفت على الحروف الاولى من اسم صاحب التوقيع. لكنها سيطرت على

نفسها في الحال وخبأت الرسالة في جيب مريلتها. قالت: « انها رسالة تعزية من الحكومة ». فوجئت الابنة: « ولكنها وصلت كلها ». فلم تتأثر هي: « وهذه واحدة اخرى ». كانت تنوي احراق الرسالة فيما بعد، بعيداً عن أسئلة ابنتها، لكنها لم تستطيع مقاومة اغراء القاء نظرة عليها قبل ذلك. كانت تتوقع وداً جديراً برسالتها المليئة بالاهانات، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة ارسالها، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوقيري ونوايا الفقرة الاولى، ادركت ان شيئاً قد تبدل في الدنيا. سيطر عليها الذهول لدرجة انها حبست نفسها في حجرة النوم لتقرأها بهدوء قبل احراقها، وقرأتها ثلاث مرات دون ان تلتقط انفاسها.

كانت الرسالة تتضمن تأملات حول الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت: أفكار طالما مرت مرفرفة كعصافير ليلية فوق رأسها، لكنها كانت تقذفها بنثارة ريش كلما حاولت امساكها. وها هي الآن واضحة، بسيطة، تماماً كما كانت تحب ان تقولها. وتألمت مجدداً لان زوجها ليس حياً لتناقشها معه، كما اعتادا ان يناقشا بعض الامور اليومية قبل النوم. وهكذا تكشف لها فلورنتينو اريثا مجهولا، ذا بصيرة لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته. كانت أقرب الى كلمات الرجل الذي بدا للعمة اسكولاستيكا بأنه ملهم بالروح القدس. فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرة الاولى. وكان اكثر ما ساعد في تهدئتها على أي حال هو يقينها بأن رسالة الشيخ الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة المأتم، وانما طريقة جد نبيلة لمحو الماضي.

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة. لكنها أحرقتها على أي حال بعد ان قرأتها باهتمام متزايد، رغم انها كلما أحرقت الرسائل كانت تشعر برواسب احساس بالذنب ما تلبث ان تزيحها. وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقمة، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها. لقد كانت نيتها الأولية، على أي حال، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها، وانما لانتظار ان تسنح فرصة لاعادتها الى فلورنتينو اريثا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها انه ذا قيمة انسانية. ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى، واحدة كل ثلاثة او اربعة أيام خلال سنة كاملة، ولم تعرف كيف تعيدها دون ان يبدو ذلك على انه صد من جانبها ما عادت ترغب في القيام به، ودون ان تجد نفسها مضطرة لشرح الامر في رسالة يمنعها كبرياؤها من كتابتها.

كانت تلك السنة كافية لان تعتاد على حياتها كأرملة. ولم تعد ذكرى الزوج النقية تشكل عائقاً أمام أعمالها اليومية، وتحول حضوره في افكارها الحميمة، وفي أبسط نواياها إلى حضور حارس، يراقبها دون ان يزعجها. وكانت تجده أحياناً، ليس كروْيا، وانما بلحمه وعظمه، حيث تحتاج اليه حقاً. كان اليقين يلهمها بانه هنا، ما يزال حياً، انما دون نزواته كرجل، دون طلباته البطريركية، دون الحاجة المضنية لأن تحبه بنفس طقوس القبلات غير المناسبة

والكلمات الرقيقة التي يحبها بها. كانت تفهمه حينئذ أفضل مما فهمته وهو حي، فهمت قلق حبه، واستعجاله للعثور فيها على الأمن الذي كان يبدو انه ركيزة حياته العامة، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً. ففي أحد الايام، صرخت به وهي في قمة يأسها: «ألا تشعركم أنا تعيسة». فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته، دون ان يتأثر، وأغرقها بماء عينيه الصبيانيتين الصافي، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة: «تذكري دائماً ان أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وانما الاستقرار». ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة ادركت ان تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبته اليها يوم قالها، وانما هي الحجر القمري الذي خصص لهما معاً ساعات طويلة من السعادة.

كانت فيرمينا دائما، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم، تشتري كل جديد يلفت نظرها. كانت ترغب الاشياء لانطباعها الأولي وكان زوجها يشاركها منطقها. ولقد كانت تلك الاشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدها المنشأ، في واجهات روما، وباريس، ولندن، أو في نيويورك ذلك الزمان المهتزة بالشارلستون، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو، لكنها لا تحتمل تجربة فالسات شتراوس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل الى الاربعين في الظل. وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دسته من الصناديق المعدنية البراقة، المزودة بأقفال وزوايا نحاسية، تشبه نعوشاً خيالية. فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً إلا في اللحظة السريعة التي يراها فيها أحد من عالمها المحلي لمرة واحدة. اذ انها مشتراه لهذا الغرض: كي يراها الآخرون مرة واحدة. لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل ان تبدأ بالشيخوخة بزمن طويل، وكثيراً ما سُمعت تقول في البيت: «لا بد من التخلي عن كل هذه التفاهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة». وكان الدكتور اوربينو يسخر من نواياها العقيمة، لانه يعرف ان الاماكن الشاغرة لن تفيد إلا لملئها من جديد. لكنها كانت تصر على موقفها، لانه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد، ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء، كالقمصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشتوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن المطبخ. وهكذا فانها كانت تنهض في صباح أحد الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن، وتفرغ الصناديق، وتجرد غرف المهملات، وتعلنها حرباً على اكوام الملابس التي شوهدت بها بكفي، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لانها لم تجد فرصة مناسبة اثناء شيوع موضتها، والاحذية التي كان يحاكي بها فنانو اوروبا احذية الامبراطورات في حفلات تتويجهن، والتي كانت تقابل هنا باحتقار الآنسات النبيلات لانها تشبه تماماً الاحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت. وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة

طوارىء خلال فترة الصباح كلها، ويصبح التنفس في البيت امراً شاقاً بفعل الرائحة الحادة لكرات النفتالين. لكن الهدوء ما يلبث ان يعم بعد ساعات قليلة، اذ انها ترق لكل هذا الحرير المبعثر على الأرض، وكل هذا البروكار الفائض مع بقايا الحرير المخرم، وكل ذيول الثعالب الزرقاء هذه المحكومة بالمحرقة.

وكانت تقول:

ـ ان احراقها، بينما هناك اناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه، هو خطيئة.

وهكذا كانت عملية الاحراق تتأجل. . لقد تأجلت دوماً، وكل ما في الأمر هو ان أماكن الاشياء كانت تتبدل، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحولت إلى مستودع للتصفيات، بينما تبدأ الاماكن التي أخليت بالامتلاء من جديد، كما كان يقول هو بالضبط، إلى أن تفيض باشياء تعيش للحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن، ريثما يحين موعد التصفية التالية. كانت تقول: «يجب ابتداع ما يمكن عمله بالاشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن الالقاء بها كذلك». انها هكذا: ترتعد للنهم الذي تغزو به الاشياء اماكن المعيشة، محتلة مكان البشر، وزاجة بهم في الزاويا، إلى ان تضعها فيرمينا داثا حيث لا تبدو للعيان. لم تكن امرأة مرتبة اذن كما يشاع عنها، وانما كان لديها منهج خاص ويائس لتبدو كذلك: انها تخفي الفوضى. ولقد اضطروا يوم وفاة خوفينال اوربينو إلى افراغ نصف محتويات المكتب، وتكويم الاشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت.

مرور الموت من البيت جاء بالحل. فما ان احرقت فيرمينا داثا ملابس زوجها، حتى لاحظت ان نبضها لم يرتعش، فتابعت بالنبض ذاته ايقاد المحرقة بين فترة واخرى، ملقية اليها بكل شيء، القديم والجديد، دون ان تفكر بحسد الأغنياء ولا بآلام الفقراء الذين يموتون جوعاً. ثم أمرت اخيراً بقطع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من اثار المحنة، وأهدت الببغاء حية إلى متحف المدينة الجديد. وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالبيت الذي حلمت به دوماً: فسيح وبسيط ولها وحدها.

أقامت ابنتها اوفيليا معها لثلاثة شهور ثم رجعت إلى نيو اورليانز. وكان الابن يأتي مع اسرته لتناول غداء عائلي أيام الآحاد، وكلما اتيح له ذلك خلال أيام الاسبوع. وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزرنها بعد اجتيازها ازمة الحداد، ويلعبن معها الورق مقابل الفناء المقفر، ويجربن اعداد اصناف جديدة من الطعام، ويطلعنها على اخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي ما زال قائماً من دونها. ومن اكثرهن مواظبة على زيارتها كانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، وهي ارستقراطية على الطريقة القديمة، كانت تربطها بها صداقة متينة

من قبـل، وقـد تقـربت منها اكثر بعد وفاة خوفينال اوربينو. ولم تكن لوكريثيا دل ريال المخدرة بالتهـاب المفـاصـل والسـاخطـة على حيـاتهـا السيئة، خير رفيقة لها وحسب، بل انها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدنيوية التي يجري الاعداد لها في المدينة، مما يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي، رغم انها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ، فقد نزعوا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً، لتصبح أرملة اوربينو.

لم تكن فيرمينـا داثـا قادرة على تصـور الأمر، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجهـا، كانت تشعـر بانهـا تلج عالمـاً ظليلاً ورطباً وساكناً: انها الابكة التي لا مخرج منها. لم تكن واعيـة حينئـذ، كما لن تعي لعـدة سنـوات، كم ساعـدتهـا التأمـلات التي كان يكتبهـا فلورينتينـو اريثـا على استعادة سلامها الروحي. فالرسائل، بمطابقتها مع تجاربها، هي التي اتاحت لها فهم حياتها بالذات، واعانتها على انتظار تقدم الشيخوخة وباطمئنان وهدوء. وقد كان اللقـاء في ذكـرى وفـاة الزوج فرصة دبرتها العناية الالهية لافهام فلورينتينو اريثا بانها هي أيضاً وبفضل رسائله المشجعة، كانت مستعدة لمحو الماضي.

بعـد يومـين من ذلـك، تلقت منـه رسـالـة مختلفة: مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر، واسمـه الكـامـل موضـح على المغلف. كان الخـط هوخط رسـائـل الشبـاب الأولى نفسه، والعبارات الغنائية نفسها، مسبوكة في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكتدرائية. وبقيت فيرمينا داثا تفكر بها بحنين قلق بعد عدة أيام من قراءتها، حتى انها سألت لوكريثيا دل ريـال دل اوبيسبـو، دون اي منـاسبـة، اذا ما كانت تعرف فلورينتينو اريثا، صاحب السفن النهرية. وأجابت لوكريثيا ان نعم: «يبدو انه شاذ ضائع». وأعادت سرد الرواية المتداولة بانه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة، وان له مكتباً سرياً يأخذ اليه الصبية الذين يلاحقهم ليلاً على أرصفة الميناء. كانت فيرمينا داثا قد سمعت هذه الاسطورة منذ أمد بعيد، ولكنها لم تصـدقهـا يومـاً ولم تولها اي اهتمام. اما حين سمعت لوكريثيادل ريال دل اوبيسبو، التي اشيع عنها يوماً انها ذات امزجة غريبة، ترددها بهذه القناعة، لم تستطع مقاومة رغبتها بوضع الأمور في نصـابهـا. فروت لها بانهـا كانت تعـرف فلورينتينو اريثا منذ الصغر. وذكرتها بان امه كانت تملك دكـــان خردوات في شارع لاس فينتـــانـاس، وانهـا كانت تشـتري كذلـك القمصـان والشـراشف القـديمـة لتنسـل خيوطها وتبيعها كقطن طوارىء اثناء الحروب الاهلية. وختمت حديثها بقول صحيح: «انه رجل شريف، كون نفسه بنفسه». كانت محتدة حدأدفع لوكريثيا لان تسحب ما قالتـه: «ثم انهم في آخـر المطـاف يقولون عني أنا أشياء مشابهة». لم يكن لدى فيرمينا داثا فضول لتسألها عن تلك الاشياء لانها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن اكثر من ظل في حياتها. تابعت التفكير فيه، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه وبعد مضي

اسبوعين من الصمت، أيقظتها احدى الخادمات من قيلولتها لتهمس لها منذرة :

ـ سيدتي، ها هو دون فلورينتينو هنا.

هاهو هنا. كانت ردة فعل فيرمينا داثا الأولى صدمة ذعر. وفكرت ان لا، فليرجع في يوم آخر، وانها ليست قادرة على استقباله، وانه ليس لديها ما تتحادث وإياه به. لكنها استردت انفاسها في الحال وأمرت بادخاله إلى الصالة وتقديم القهوة له ريثما تستعد لمقابلته. كان فلورينتينو اريثا ينتظر عند الباب الخارجي، متقداً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية، ولكنه كان مسيطراً تماماً على اعصابه وممسكاً الاعنة بقبضته. فهو موقن من انها ستعتذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة. لكن القرار الذي نُقل اليه هزه حتى النخاع، وعند دخوله الى عتمة الصالة الرطبة، لم يتسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها، لان أحشاءه امتلأت فجأة بانفجار رغوة مؤلمة. جلس حابساً أنفاسه، تحاصره ذكرى ذرق العصفور المشؤوم على رسالته الغرامية الأولى، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة، مستعداً لتقبل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة، باستثناء تلك المحنة الظالمة.

لقد كان يعرف نفسه جيداً: ويعلم انه رغم اصابته بالامساك المزمن، إلا ان امعاءه قد خانته في اماكن عامة ثلاث أو أربع مرات خلال حياته الطويلة، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرات الثلاث أو الأربع. وكان يرى في هذه المناسبات فقط، وفي مناسبات اخرى شديدة الحرج، حقيقة العبارة التي يحب ترديدها مازحاً: «انا لا أومن بالرب، ولكنني أخشاه». ولم يكن له حينئذ متسع للشك، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته. لقد علمه زميل له، حين كان طفلاً، بضع كلمات سحرية لاصابة العصافير بحجر «تك تاك تك تاك. ان لم اصبك سأدوخك» وقد جربها حين ذهب إلى الجبل لأول مرة حاملاً مقلاعاً جديداً، فهوى العصفور مصعوقاً. وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة، لكنه لم يصل إلى النتيجة ذاتها. ثارت احشاؤه بحركة ملتوية وكأن فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده، وانبعثت قرقرة من رغوة بطنه المتعاظمة الكثافة والألم، تركته مغطى بعرق مثلج. ارتعدت الخادمة التي حملت اليه القهوة لسيماء الميت التي بدت عليه. فتنهد قائلاً: «انه الحر». فتحت النافذة معتقدة انها تُسعده بذلك، لكن شمس الأصيل لفحت وجهه، مما اضطرها لاغلاقها من جديد. احس بانه عاجز عن الاحتمال لدقيقة اخرى، حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لاتكاد تُرى في العتمة، وارتعدت لرؤيته على هذا الحال، فقالت له:

ـ يمكنك خلع السترة.

لكن ما كان يؤلمه اكثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من ان تتمكن من سماع قرقرة

أحشائه. واستطاع الصمود للحظة قال فيها ان لا، وانه انما جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط. فقالت وهي ما تزال واقفة وقد اصابها الذهول: «هاأنتذا هنا». ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحر أقل. فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهدة أسف:

ـ ارجوك ان تؤجلي اللقاء ليوم غد.

تذكرت ان يوم غد هو الخميس، يوم الزيارة المنتظمة للوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، لكنها عرضت له حلاً نهائياً: «بعد غد الساعة الخامسة». شكرها فلورينتينو اريثا، واشار لها بحركة وداع متعجلة بقبعته، وانصرف دون ان يتذوق القهوة. بقيت حائرة في وسط الصالة، دون ان تفهم ما الذي حدث، إلى ان سمعت فرقعة السيارة في الشارع. بحث فلورينتينو أريثا حينئذ عن الوضع الأقل ألماً في مقعد السيارة الخلفي، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته، واستسلم لمشيئة الجسد. وأحس حينئذ وكأنه يولد من جديد. أما السائق، الذي لم يعد يفاجأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته، فقد حافظ على عدم تأثره. لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت، قال له:

ـ حذار يا دون فلورو، قد تكون الكوليرا.

لكن الأمر كان كالمعتاد. ولقد حمد فلورينتينو اريثا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء، ووجد فيرمينا داثا جالسة وراء طاولة معدة لشخصين. عرضت عليه ان يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة، فطلب فلورينتينو اريثا قهوة، ساخنة جداً وقوية جداً. وأمرت هي الخادمة قائلة: «ولي الشراب المعتاد». الشراب المعتاد هو شراب قوي محضر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة. حين انتهت من تناول ابريق الشاي، وانتهى هو من ابريق القهوة، كانا قد خاضا واجتازا عدة موضوعات، ليس لانها كانت تهمهما كثيراً، وانما لتجنب الدخول في المسائل الاخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرأ على ملامستها. كلاهما كان مرتعداً، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما، على شرفة بلاطها كرقعة الشطرنج في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعبق برائحة ازهار الميت. انهما يجلسان معاً للمرة الأولى، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيقة، ولديهما فائض من الوقت ليريا بعضهما بهدوء بعد نصف قرن من الانتظار. ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما: عجوزان يترصدهما الموت، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماض غابر لم يعد ملكاً لهما وانما لشابين مختفيين كان يمكن أن يكونا حفيديهما. وفكرت بانه سيقتنع اخيراً بعدم واقعية حلمه، وهذا سيخلصه من سفاهته.

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة، وجهت اليه اسئلة محددة حول السفن النهرية. ولم تكد تصدق انه هو، صاحب السفن، لم يسافر فيها إلا مرة

واحـدة، منـذ سنـوات بعيـدة، حين لم تكن له أيـة علاقـة بالشركة. ولم تكن هي تعرف النهر أيضـاً. اذ ان زوجهـا كان يمقت الاهـواء الانـديـزيـة، ويعلل ذلـك بذرائع متنوعة: مخاطر الارتفـاعـات على القلب، المخاطرة بالاصابة بذات الرئة، نفاق الناس. وهكذا كانا يعرفان نصف العـالم ولكنهـا لا يعـرفان بلدهما. كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكرز تنطلق من قريـة إلى قريـة في حوض نهر مجدلينـا، كجـرادة من الألمنيـوم، تتسع لطاقمها المؤلف من شخصين، ولستة مسافرين اضافة إلى اكياس البريد. وقد علق فلورينتينو اريثا قائلاً: «انها اشبـه بتـابـوت طائر في الجو». وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد، ولم تعان أية صعـوبـة، ولكنهـا لاتكاد تصدق اليوم انها هي نفسها التي تجرأت على تلك المغامرة، وقالت: «الأمر مختلف». تعني بذلك انها هي التي تغيرت، وليس أساليب السفر.

كان أزيـر الطـائـرات يفـاجئهـا أحيـانـاً. فمع انها رأتها تمر على ارتفاع منخفض، وتقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بالذكرى المئوية لموت بطل التحرير، ورغم انها رأت احدى تلك الطائرات، سوداء مثل طائر رخمة عظيم، وهي تلامس اسطح بيوت لامانغا، مخلفة جزءاً من جنـاحهـا عالقـاً بشجـرة مجاورة، قبـل ان يبقى هيكلهـا معلقاً بأسلاك الكهرباء، إلا ان فيرمينا داثا لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات. بل انها لم تشعر بالفضول في السنوات الاخيرة للذهاب إلى خليج مانثانييو، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد ان تقوم زوارق خفـر السـواحـل بابعـاد مراكب الصيادين وزوارق اللهو، التي كانت اعدادها في ازدياد. وقد اختـاروهـا وهي عجـوز بهذه الحـالة لاستقبال تشالز ليندبيرغ بباقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة، ولم تستطع ان تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة، وهذه الشقرة، وهذا الجـمال ان يرتفـع في الجـو بجهـاز يبدو وكأنه من الصفيح المجعد، يقوم ميكانيكيان بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود. ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات اكبر من تلك بقليل تتسـع لثـمانيـة أشخـاص. بينـما سمعت بالمقـابـل ان السفن النهرية هي متعته خالصة لانها لاتتأرجح كسفن البحر. ولكن لهذه السفن مخاطرها الاقسى، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر، وتعرضها لهجمات قطاع الطرق.

وبـين لها فلورينتينـو اريثـا ان هذه ليست إلا اساطير من ازمنة غابرة: ففي السفن الحالية صالـة رقص، وقمـرات واسعـة وفخمـة كأنهـا غرف الفنـادق مزودة بحمامات خاصة ومراوح كهـرابـائيـة، كما انـه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الأهلية الأخـيرة. وبـين لها كذلـك، بسعـادة من حقق نصراً شخصياً، ان هذا التقدم يعود قبل كل شيء إلى حريـة المـلاحـة التي دعـا اليهـا هو، مما شجـع المنـافسـة: فبـدلاً من شركة واحدة وحيـدة، كـما كان الحـال من قبـل، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة. ومع ذلك

فان تقدم الطيران السريع يشكل خطراً حقيقاً على الجميع . حاولت مواساته : فالمرن ستبقى دائماً ، لان المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا بالكثيرين . واخيراً تحدث فلورينتينو اريثا عن التقدم الذي احرزه البريد ، سواء في اساليب نقله أو توزيعه ، آملاً بذلك ان تحدثه عن رسائله . لكنه لم يتوصل لما أراد .

وجاءت الفرصة بعد قليل وحدها . كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع ، حين قاطعتهما احدى الخادمات لتسلم فيرمينا داثا رسالة نقلتها حينئذ من البريد المديني الخاص ، الذي انشىء مؤخراً ، وكان يستخدم في توزيع الرسائل اسلوب توزيع البرقيات ذاته . ولم تجد هي نظارة القراءة ، كما يحدث معها دائماً . فقال لها فلورينتينو اريثا برزانه :

ـ لا لزوم لذلك . فهذه الرسالة مني .

وكانت كذلك فعلاً . لقد كتبها في اليوم السابق ، وهو يعاني حالة انقباض رهيبة لانه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الأولى الفاشلة . وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالاقدام على زيارتها دون اذن مسبق ، ويبدي تخليه عن نية العودة لزيارتها . لقد القاها في صندوق البريد دون ان يفكر مرتين ، وحين تروى بالامر كان الوقت قد فات لاستردادها . لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورية ، فاكتفى بالطلب إلى فيرمينا داثا ان تتفضل بعدم قراءة الرسالة .

فقالت :

ـ طبعاً . فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها . أليس كذلك ؟

فخطا خطوة واثقة بقوله :

ـ أجل . ولذا فانها أول شيء يعاد عند وقوع القطيعة .

مرت على اشارته دون اهتمام ، وأعادت له الرسالة قائلة : «من المؤسف انني لن أستطيع قراءتها ، فقد كانت الرسائل الاخرى ذات نفع كبير لي» . اخذ نفساً عميقاً عندما فوجىء بانها قالت بشكل عفوي اكثر بكثير مما كان ينتظره منها ، وقال لها : «لايمكنك ان تتصوري مدى سعادتي لمعرفة ذلك» . لكنها غيرت الموضوع ، ولم يتمكن من العودة اليه ثانية في بقية المساء .

ودعها بعد الساعة السادسة ، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت . كان يشعر بثقة اكبر ، ولكنها ثقة بلا أوهام ، لانه لم ينس طبع فيرمينا داثا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين ، ولم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه للتفكير بانها قد تغيرت . ولهذا تجرأ على سؤالها بمذلة صريحة ان كان يستطيع العودة في يوم آخر ، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً .

قالت :

ـ عد متى شئت. فأنا وحيدة في اغلب الاحيان.

بعـد أربعـة أيـام، أي يوم الثلاثـاء، عاد دون ابلاغ مسبق، ولم تنتظر هي ان يقدموا لها الشاي لتحدثه عن مدى النفع الذي اصابته من رسائله. فقال لها بانها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة، وانها هي أوراق متفرقة من كتاب كان يتمنى تأليفه. وكانت هي قد فهمت الرسـائل على هذا النحو أيضاً، لدرجة انها فكرت باعادتها اليه، اذا هو لم ير ذلك على انه صد من جانبهـا، كي يحمـل تلك الـرسـائل إلى مصير أفضل. تابعت الحديث عن الدور الطيب الـذي قدمتـه اليهـا الـرسـائل في لحظة قاسية من حياتها، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد، وعرفان بالجميل شديد، وربما بعاطفة شديدة أيضاً، مما جعل فلورينتينو اريثا يتجرأ على التقدم باكثر من خطوة واثقة: اذ انه قفز قفزة قاتلة بقوله:

ـ لقد كنا نتخاطب دون كلفة من قبل.

كانت كلمة من قبل كلمة محرمة. وأحست بمرور ملاك الماضي الوهمي، وحاولت تفاديه. لكنـه توغـل اكثـر: «أعني في رسـائلنـا التي تبـادلناها من قبل». استاءت، وكان عليها القيام بمجهود جدي كي تخفي استياءها. لكنه انتبه للأمر، وأدرك ان عليه التقدم بحذر، وتلمس مواقع اقدامه جيداً، رغم ان العثرة اطلعته على انها مازالت على شراستها التي كانت عليها في شبابها، لكنها تعلمت ان تكون شرسة برقة.

قال:

ـ أعني ان هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً.

فقالت:

ـ كل شيء في الدنيا يتغير.

قال:

ـ أنا لم أتغير. وحضرتك؟

أوقفت فنجـان الشـاي في منتصف الطـريق الى فمهـا، وزجـرتـه بعينين استمرتا تلمعان بالحياة رغم القسوة. وقالت:

ـ لقد صار الأمر سيان. فقد اكملت اثنتين وسبعين سنة.

تلقى فلورينتينـو اريثـا الطعنـة في القلب. وودّ العثور على جواب سريـع كسرعة السهم وتلقـائيتـه، لكن ثقـل السن هزمـه: لم يشعر أبداً بمثل هذا الارهاق في محادثة قصيرة كهذه. كان قلبه يؤلمه، وكانت كل ضربة منه ترتد دوياً معدنياً في شرايينه. أحس بانه شيخ، حزين، عديم النفـع، وراودتـه رغبـة ملحـة في البكـاء حتى لم يعـد قادراً على البكاء. تناولا فنجان الشـاي الثـاني بصمت ثلمتـه الخـواطـر المنـذرة، وحين عادت هي للتكلم، فعلت ذلك بان

توجهت إلى احدى الخادمات طالبة منها احضار حقيبة الرسائل. كاد ان يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل، لان لديه نسخة كربون منها، لكنه فكر بان كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل. ولم يعد لديهما ما يتحدثان فيه. وقبل ان يودعها، اقترح ان يعود يوم الثلاثاء التالي في نفس الساعة. فسألته لماذا عليه ان يكون متلطفاً إلى هذا الحد. وقالت:

ـ لا أرى من معنى لهذه الزيارات.

فقال:

ـ أنا لم أفكر بان يكون لها أي معنى.

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي، في الساعة الخامسة، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية، دون اعلان مسبق، لان الزيارة الاسبوعية دخلت في روتين كل منهما اعتباراً من نهاية الشهر الثاني. كان فلورينتينو اريثا يأتي حاملاً معه البسكويت الانكليزي لتناوله مع الشاي، والكستناء الملبس بالسكر، والزيتون اليوناني، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء. وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفوتوغرافية مع هيلدبيراندا، التي التقطها لهما مصور بلجيكي منذ اكثر من نصف قرن، وكان قد اشتراها بخمسة عشر سنتافو من مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين. لم تستطع فيرمينا داثا ان تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك، كما لم يستطع هو فهم الأمر إلا على انه معجزة غرامية. وفي أحد الأيام، وبينما كان فلورينتينو اريثا يقطف وروداً من حديقته، لم يستطع مقاومة اغراء حمل وردة اليها في زيارته التالية. وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور، لانها تتعلق بأرملة حديثة الترمل. فوردة حمراء، ترمز إلى العاطفة المتأججة، قد تعتبر اهانة لحدادها. أما الورود الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة. ورغم انه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء، التي قد تكون الاكثر ملاءمة، إلا انه لم يستطع الحصول عليها ليأقلمها مع الجو في حديقة بيته. لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء، كان اعجابه بها أقل من اعجابه بالزهور الاخرى، لانها بكماء لا تعني شيئاً. ولخوفه من أن يجد خبث فيرمينا داثا معنى لها، قام بتقليم اشواكها في اللحظة الاخيرة.

وجدت الوردة لديها صدى طيباً، على انها هدية بلا أية نوايا خفية. مما اثرى تقليد الثلاثاء بطقس جديد، حتى انه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الوردة البيضاء. وفي أحد أيام الثلاثاء، وفيما هو يضع الوردة، قال بطريقة بدت عرضية:

ـ لم يكن أحد يهدي وروداً في زماننا، بل كانوا يتبادلون ازهار الياسمين.

فقالت:

ـ هذا صحيح، ولكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك.

هذا ما كان يحدث دوماً: فكلما حاول التقدم خطوة قطعت عليه الطريق. لكنه في هذه المناسبة، ورغم الجواب الدقيق، أدرك انه قد أصاب الهدف، لانها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي تورد خديها. كان تورداً متقداً، فتياً، له حياته الخاصة، مما اثار سخطها ضد نفسها. وقد احسن فلورينتينو اريثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة، لكن شهامته كانت بينة بحيث انها انتبهت اليها، وضاعف هذا من سخطها. كان يوم ثلاثاء منحوساً. فقد كادت ان تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع، مما سبب لها نوبة ضحك. وبينما كان فلورينتينو اريثا يضع الوردة في المزهرية يوم الثلاثاء التالي، أمعنت التأمل في وعيها وتأكدت وهي سعيدة بانه لم يبق لديها ادنى اثر للغضب الذي اعتراها في الاسبوع السابق.

وسرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح، اذ كان الدكتور اوربينو داثا وزوجته يحضران أحياناً بشكل يبدو كأنه مصادفة، ويبقيان هناك للعب الورق، لكن فيرمينا داثا علمته ذلك خلال زيارة واحدة؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين اوربينو داثا بتحدٍ مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي. كانت لقاءات مفرحة للجميع، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات، وأقرت لها أعراف بان يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء. فالدكتور اوربينو داثا وزوجته التي كانت حلوانية بارعة، يساهمان باحضاء قوالب حلوى متقنة، وذات طعم مختلف في كل مرة، أما فلورينتينو اريثا فتابع احضار طرائف مثيرة للفضول كان يجدها في السفن الاوروبية، بينما كانت فيرمينا داثا تبتدع لهم كل اسبوع مفاجئة جديدة. وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر، ورغم انهم ما كانوا يتراهنون على نقود، إلا انه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية.

كانت طبيعة الدكتور اوربينو داثا منسجمة مع صورته الاجتماعية: فهو رجل ذو امكانيات ضئيلة، واساليب مضطربة يعاني من نوبات قلق مفاجئة، مبعثها السعادة أو السخط على حد سواء، كما كان وجهه يتورد بلا مناسبة مما يثير المخاوف حول متانته الذهنية. لكنه كان بلا شك، وكما يبدو عليه من النظرة الأولى، رجلاً طيباً. وقد كان فلورينتينو اريثا يخشى ان يعتبره الدكتور كذلك أيضاً. أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعوب، كما كانت تقدم

بانسجامها وتوافقها لمسة اكثر انسانية إلى سعادتها. ولم يكن لفلورينتينو اريثا ان يتمنى زوجين أفضل منهما للعب الورق، ثم ان حاجته للحب التي لا ترتوي، تُوجت اخيراً باحساس انه في وسط عائلي.

في احدى الليالي، وعند خروجهما معاً من البيت، دعاه الدكتور اوربينو داثا لتناول الغداء معه: «غداً، الساعة الثانية عشرة والنصف، في النادي الاجتماعي». وكانت وليمة لذيذة مع نبيذ فاخر. كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لاسباب متنوعة، وأحد أهم هذه الاسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له. ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال، كما عانى فلورينتينو اريثا نفسه عار اخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد الاعضاء المؤسسين، كان فلورينتينو اريثا قد قدم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية، وما كان من الداعي إلا ان اصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر، قائلاً له:

ـ علينا نحن الذين نضع الانظمة، ان نكون أول من يطبقها.

لكن فلورينتينو اريثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور اوربينو داثا، وقد استقبل هناك استقبالاً خاصاً، رغم انهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصص للمدعوين البارزين. كانت دعوة محدودة، اقتصرت عليهما فقط، ودار الحديث بينهما بصوت منخفض. والمخاوف التي ساورت فلورينتينو اريثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء، تلاشت مع تناولهما كأس الاوبورتو الفاتح للشهية. كان الدكتور اوربينو داثا يود الحديث عن امه. ولكثرة ما تحدث، انتبه فلورينتينو اريثا إلى انها قد حدثته عنه. كما انتبه إلى شيء اكثر اثارة: لقد كذبت على ابنها لصالحه، اذ اخبرته بانهما كانا صديقين منذ الطفولة، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لاثييناغا، وانه هو الذي شجعها على قراءاتها الأولى، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم. وقالت له كذلك انها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانسيتو اريثا البارعة، التي كانت تطرز أعمالاً رائعة في دكان الخردوات. واذا كانت لم تعد تلتقي بفلورينتينو اريثا كما كانت تلتقيه في السابق، فليس لانها غير راغبة في ذلك، وانما لافتراق حياتيهما.

وقبل ان يصل إلى عمق اغراضه، جال الدكتور اوربينو داثا حول موضوع الشيخوخة. كان يرى ان العالم سيتقدم بسرعة اكبر لو انه تخلص من عرقلة الشيوخ. قال: «ان الانسانية كالجيوش في المعركة، تقدمها مرتبط بسرعة أبطأ افرادها». وكان يأمل بمستقبل اكثر انسانية، وبالتالي اكثر تحضراً، تعزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية، كي تتجنب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة. وقال ان حد السن

المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن ان يكون ستين عاماً..ولكن ريثما يتم الوصول الى هذا المستوى من الاحسان، فان الحل الوحيد هو الملاجىء، حيث يتسنى للشيوخ ان يتسلوا مع بعضهم البعض، وان يتفقوا فيما يحبون ويمقتون، وفي عاداتهم واحزانهم، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الاجيال التالية. وقال: ان اجتماع الشيوخ مع الشيوخ يجعلهم أقل شيخوخة». حسناً اذن: كان الدكتور اوربينو داثا يود شكر فلورينتينو اريثا على مرافقته الطيبة لامه في وحدة الترمل، ورجاه الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع، وطلب منه الصبر على مزاجها الشيخوخي. أحس فلورينتينو اريثا بالراحة لنتائج اللقاء، وقال له: «كن مطمئناً. فأنا اكبر منها بأربع سنوات، وهذا ليس الآن فقط، وانما من قبل.. قبل مولدك بكثير». ثم استسلم لاغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم، فاختتم قائلاً:

ـ في مجتمع المستقبل، عليك ان تذهب إلى المقبرة، لتحمل اليها وإليّ باقة من الانتوريو من اجل الغداء.

لم يكن الدكتور اوربينو داثا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزده إلا تخبطاً. لكن فلورينتينو اريثا ساعده للخروج من ورطته. كان مشعاً، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور اوربينو داثا في لقاء كهذا، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تجاوزه: طلب يد أمه رسمياً وقد كان جو الغداء مشجعاً، اذ بين له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به. ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، لو انه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا داثا. بل ان رسميات الطلب، بعد حديثهما خلال ذلك الغداء التاريخي، كانت تبدو فائضة عن الحاجة.

لقد اعتاد فلورينتينو اريثا صعود الادراج ونزولها بحذر خاص، حتى حين كان شاباً، فقد كان يفكر دوماً بان الشيخوخة انما تبدأ بزلة قدم أولى لا أهمية لها، ثم يتلوها الموت في الزلة الثانية. وكان يرى ان أخطر الادراج هو درج مكتبه، لانه ضيق وشبه منتصب. وقد اعتاد منذ زمن طويل، قبل ان يبدأ بجر قدميه بصعوبة على صعوده متفحصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه. ورغم انهم كثيراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج اقل خطورة، الا ان قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً، لان استبداله كان يبدو له كاقرار بشيخوخته. وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن، ليس لانه كان يتكلف مشقة اكبر، كما يدعي هو باصرار، بل لانه كان يضاعف من حذره في كل مرة. ومع ذلك، فانه بعد عودته من الغداء مع الدكتور اوربينو داثا، وبعد كأس الاوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الاحمر مع الطعام، وبعد تلك المحادثة الظافرة خصوصاً، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة كخطوات راقص شاب مما لوى كاحله الايسر وجعله

يهوي على ظهره، وينجو من الموت باعجوبة. لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوعي كافٍ ليفكر بانه لن يموت في تلك العثرة، لان منطق الحياة لا يسمح لرجلين تدلها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها، بان يموتا بالطريقة نفسها ويفارق سنة واحدة بينهما. وكان محقاً. لفوا ساقه من القدم وحتى ربلة الساق واجبروه على البقاء في السرير دون حراك، لكنه كان حياً اكثر مما كان عليه قبل الوقوع. وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً، لم يستطع ان يصدق كل هذه التعاسة، فقال له متوسلاً:

ـ لا تفعل بي هذا يا دكتور. ان شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت.

وحاول ان ينهض عدة مرات، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكلتا يديه، فكان الواقع يهزمه دوماً. لكنه حين عاد للمشي اخيراً وكاحله ما يزال يؤلمه، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش، كانت لديه اسباب كافية للاعتقاد بان القدر قد كافأ اصراره بزلة من العناية الالهية.

أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول. كان الألم قد تراجع، وكان التشخيص الطبي مشجعاً، إلا انه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داثا مساء اليوم التالي، لأول مرة منذ اربعة أشهر. ولكنه بعد قيلولة اذعان، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار. كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام، وبالغ في مأساويته حيال خطورة الحادث دون خجل، محاولاً استنهاض عطفها. وردت عليه بعد يومين، متأثرة جداً، ولطيفة جداً ولكن دون كلمة واحدة خارج الحدود، مثلما كانت في أيام الحب العظيمة. وتشبث بالفرصة فوراً ليكتب اليها ثانية. وحين ردت عليه للمرة الثانية، قرر المضي أبعد مما كانت عليه احاديثهما الملغزة أيام الثلاثاء، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة. وطلب من مقسم الهاتف المركزي ان يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ اتصل بها لأول مرة. سمع صوت الجرس الخافت، المتوتر بغموض البعد، ثم الصوت المحبوب يرد، وتعرفت هي على الصوت الآخر فودعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة. أحسن فلورينتينو اريثا بالغم لهذه اللامبالاة، ورأى انه يعود إلى نقطة البداية من جديد.

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا ترجوه فيها الا يتصل بالهاتف ثانية. وكانت اسبابها وجيهة. فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدوداً جداً، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين، وحياتهم ومعجزاتهم، وليس مهما اذا هم كانوا خارج البيت: فهي تجدهم حيث يكونون. ومقابل هذه الفعالية، كانت تتنصت الى المحادثات، وتكتشف اسرار الحياة الخاصة، والمآسي المحفوظة بتكتم، ولم يكن غريبا عليها ان تتدخل في حوار دائر لتدلي

بوجهة نظرها اولتخفف من حدة الغضب. كما كانت قد تأسست في تلك الايام أيضا جريدة العدالة، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الالقاب الكبيرة، بالاسم الصريح وبلا أية اعتبارات، كرد من صاحب الجريدة على عدم قبول ابنائه كاعضاء في النادي الاجتماعي. ورغم نظافة حياتها، فقد كانت فيرمينا دائما تلتزم جانب الحذر حينئذ اكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أوتفعله، حتى مع اصدقائها المقربين. وهكذا بقيت مرتبطة مع فلورينتينو اريثا بخيط الرسائل البائد. واصبح تبادل الرسائل ما بينهما كثيفا الى حد جعله ينسى ساقه المصابة، وعقوبة البقاء في السرير، وكل شيء اخر، ويكرس نفسه تماما للكتابة على طاولة متنقلة كتلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى.

رفعا الكلفة بينهما من جديد، وعادا لتبادل الاراء حول حياتهما كما كانا يفعلان في رسائلهما السابقة، لكن فلورينتينو اريثا حاول المضي ثانية بسرعة: كتب اسمها بوخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا، وبعثها في رسالة، وبعد يومين أعيدت اليه دون أي تعليق. لم تستطع فيرمينا داثا منع ذلك: فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال. وحين أصر فلورينتينو اريثا على استعادة ذكرى امسيات الاشعار الكئيبة في حديقة البشارة، ومخابيء الرسائل في الطريق الى المدرسة، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز. وضعته في مكانه الطبيعي، وروحها تتألم، بسؤال بدا عرضيا وسط مجموعة اخرى من الاحاديث المطروقة: «لماذا تصر على الحديث في أمر لا وجود له؟». ثم أنبت فيها بعد عناده العقيم في عدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية. وهذا هو حسب رأيها، سبب سقوطه واحباطاته الدائمة في تذكر الماضي. لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الافكار التي ساعدتها على تجاوز الترمل، ان يورط نفسه بتلك الطريقة الصبيانية حين يحاول تطبيق افكاره على حياته بالذات. فانقلبت الادوار، واصبحت هي حينئذ من حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارة لم يستطع فهمها في تسرعه الطائش: دع الزمن يمض وسنرى ما الذي يحمله، اذ لم يكن في يوم من الايام تلميذاً نجيبا كما كانت هي. ان قعوده الاجباري، ويقينه الذي كان يتضح اكثر فأكثر بتسرب الزمن، ورغبته المجنونة لرؤيتها، اكدت له ان تخاوفه من الزلل كانت اكثر اصابة ومأساوية مما توقعه. وبدأ يفكر لأول مرة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً.

كانت ليونا كاسياني تساعده في الاستحمام واستبدال البيجاما مرة كل يومين، وتضع له الحقن الشرجية، والمبولة، وكمادات البابونج على قروح ظهره، وتجري له المساجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل اخرى اسوأ. وكانت تحل محلها في هذه المهمات يومي السبت والأحد امريكا فيكونيا، التي كانت ستنهي دراستها كمعلمة في شهر كانون الاول من تلك السنة. وقد وعدها بايفادها في دورة عليا الى الاباما على نفقة الشركة

النهرية، وذلك ليكمّ فم ضميره من جهة، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها، والتفسيرات التي يتوجب عليه ان يقدمها اليها من جهة اخرى. لم يتصور يوماً مدى معاناتها في ساعات ارقها في المدرسة الداخلية، وفي نهايات الاسبوع التي تقضيها بعيداً عنه، وفي حياتها من دونه، لانه لم يتصور أبداً كم كانت تحبه. وعلم من رسالة بعثتها إليه المدرسة ان الموقع الاول الذي كانت تحتله دوما قد اصبح الاخير، وانها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية. لكنه تناسى واجبه كوصي ولم يبلغ والديّ اميركا فيكونيا بالأمر، يمنعه احساس بالذنب يحاول التخلص منه. كما انه لم يبحث الامر معها. وذلك لمخاوفه الراسخة بانها ستحاول القاء جريرة فشلها عليه. وهكذا ترك الامور على حالها. وأخذ يؤجل مشاكلها دون ان يدري، على أمل ان يتكفل الموت بحلها.

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتيْن كانتا تسهران على العناية به فقط، بل ان فلورينتينو اريثا نفسه فوجيء بالتبدل الذي طرأ عليه. فمنذ أقل من عشر سنوات، كان قد هاجم احدى خادماته وراء السلم الرئيسي في بيته، وهي بملابسها وواقفة على قدميها، وتركها حبلى في وقت أقصر مما يحتاجه ديك فيليبيني، وكان عليه ان يهديها بيتا مفروشا لتقسم ان الفاعل الذي لطخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الاحاد، لم يكن في الواقع قد قبلها مجرد قبلة، فقام أبوها وأعمامها، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيوف في موسم الحصاد، باجباره على الزواج منها. ولم يكن يبدو على فلورينتينو اريثا انه الرجل نفسه الذي تقلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لايتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حبا، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلكانه في كل اجزاء جسده، دون ان تفلت منه تنهدة نشوة. وكان لكل منهما تفسيرها لفقدانه الرغبة. فليونا كاسياني تظن بانها مقدمات الموت، بينما تعزوه اميركا فيكونيا الى منشأ خفي لاتستطيع إدراك كنهه. وكان هو وحده يعرف الحقيقة، ويعرف ان لها اسماً محدداً. لكن ذلك كان ظلماً على أي حال: فقد كانتا تعانيان وهما تخدمانه اكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات.

ان ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا داثا مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينو اريثا. كانت تقضي تلك الايام مع صديقاتها المواظبات على زياراتها. وكانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو قد ذهبت الى بناما لتنظر في أمر ألم أصاب سمعها ولم يعد يتوقف باي ثمن، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر، لكن سمعها كان أخف مما كان عليه قبلا ببوق تضعه في اذنها. وكانت فيرمينا داثا هي الصديقة الاكثر احتمالا لاختلاط اسئلتها واجاباتها، مما شجع لوكريثيا على زيارتها يومياً، وفي أي وقت يخطر لها. لكن فيرمينا داثا لم تجد في أحد تعويضاً عن امسيات فلورينتينو اريثا المُسكّنة.

لم تكن ذكرى الماضي لتعوض عن المستقبل، كما كان يظن. بل انها على العكس من ذلك، كانت ترسخ قناعة فيرمينا دائما الدائمة في ان ذلك الهياج المحموم في العشرين من العمر انما كان شيئا نبيلا وجميلا جدا، لكنه ليس بالحب. ورغم صراحتها الفجة، فانها لم تشأ ان تكشف له ذلك سواء بالبريد او شخصيا، كما لم تجد في قلبها متسعا لتقول له كم هو زائف رنين العواطف في رسائله بعد ان عرفت آية تأملاته المكتوبة، وكيف تخفض اكاذيبه الغنائية من قيمته، وكم يضر به إصراره المجنون على استعادة الماضي. لا . . . لم يكن بامكان اي سطر من سطور رسائله القديمة ولا أية لحظة من لحظات شبابها المضجر اشعارها بان امسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة، كما هي في الواقع، من دونه، وبهذا التوحد والخواء.

كانت قد بعثت الى مستودع المهملات في الاصطبل خلال احدى نوباتها المفاجئة بمذياع اهداها اياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الاعوام، وقد فكرا كلاهما بتقديمه الى المتحف باعتباره اول مذياع وصل الى المدينة. وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه، لأن أرملة لها ألقابها لايمكن لها الاستماع الى أية موسيقى دون ان تسيء الى ذكرى زوجها الميت، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها. ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث للوحدة أمرت باعادته ثانية الى الصالة، لالتستمتع باغنيات اذاعة ريوبامبا العاطفية، كما كانت من قبل، وانما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع الى روايات الدموع التي تبثها اذاعة سنتياغو دي كوبا. وكان ذلك قرارا صائبا، لانها بدأت تفقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي اكسبها اياها زوجها باجتهاد منذ رحلة الزفاف، وفقدت تلك العادة تماما مع ما اصاب بصرها من ضعف متزايد، الى ان أصبحت تمضي بضعة شهور أحيانا دون ان تعرف أين هي نظارتها.

لقد استهوتها الروايات الاذاعية من اذاعة سنتياغو دي كوبا، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة. وكانت تستمع بين الحين والاخر الى الاخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا، وفي بعض المناسبات النادرة، حين تبقى وحدها في البيت، كانت تستمع بصوت منخفض جداً، الى موسيقى الميرينغي من اذاعة سانتو دومينغو وموسيقى بلينا من اذاعة بورتوريكو النائيتين والواضحتين. وفي احدى الليالي، سمعت خبرا مؤثرا من محطة اذاعة مجهولة انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لو كانت تبث من البيت المجاور، وجاء في الخبر ان عجوزين اعتادا ان يكررا شهر عسلهما في نفس المكان منذ اربعين سنة، قد قُتلا بضربات مجداف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة، وذلك ليسرق ما معهما من مال: أربعة عشر دولاراً. وكان تأثرها أشد حين روت لها لوكريثيا دل ريال القصة الكاملة كما نشرتها احدى الصحف المحلية. فقد اكتشفت الشرطة ان العجوزين المقتولين ـ المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والثمانين ـ هما عاشقان سريان، يقضيان اجازتهما معاً منذ اربعين

سنة، لكن كل منهما متزوج زواجاً محترماً ومستقراً وسعيداً، ولكل منهما عائلة كبيرة. وفيرمينا داثا التى لم تبك يوماً بسبب المسلسلات الاذاعية، جاهدت بصعوبة لقهر عقدة الدموع التي علقت في حلقها، حين بعث اليها فلورنتينو اريثا في رسالته التالية قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه.

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داثا لقهرها. فقبل ان يكمل فلورنتينو اريثا ايام اعتكافه الستين، كشفت صحيفة العدالة على صدر صفحتها الاولى مع صور المعنيين، عن غراميات سرية مزعومة للدكتور خوفينال اوربينو ولوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو. واسهبت الجريدة في تفاصيل العلاقة، ومداها واسلوبها، وكذلك حول تواطؤ الزوج، المستسلم لانحرافاته السدومية مع الزنوج العاملين في مصنعه لتكرير السكر. وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة وبحبر له لون الدم دوياً كدوي رعد الكارثة في اوساط الطبقة الارستقراطية الاخذة بالتفسخ. ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة: صحيح ان خوفينال اوربينو ولوكريثيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا عازبين وبقيا صديقين بعد زواجهما، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الايام. ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال الى ان المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال اوربينو، الذي تتمتع ذكراه باحترام مجمع عليه، وانما كان المقصود هو زوج لوكريثيا دل ريال، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الاسبوع السابق. وقد تم اخماد الفضيحة خلال ساعات قليلة. لكن لوكريثيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داثا، واعتبرت هذه الامر على انه اعتراف بالذنب.

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً ان فيرمينا داثا نفسها لم تكن كذلك بمنجى من مخاطر طبقتها. فقد حملت عليها جريدة العدالة مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة: أعمال أبيها التجارية. فعندما اذعن هذا للنفي الاجباري، كانت تعرف حادثة واحدة من اعماله الغامضة، كما روتها لها غالا بلاثيديا. وفيما بعد، حين أكد لها الدكتور اوربينو الأمر بعد مقابلته للحاكم، أيقنت ان أباها كان ضحية مكيدة مدبرة. والمسألة هي ان اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة البشارة، وقد فتشا البيت كله دون أن يجدا ما يبحثان عنه، ثم أمرا اخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الأبواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داثا سابقاً. كانت غالا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ، ولم يكن لديها من وسيلة لانذار أحد، فرفضت فتح الخزانة متذرعة بانها لا تملك المفتاح. عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الابواب بعقب مسدسه، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملؤ بأوراق نقدية مزيفة من فئة المئة دولار. كانت هذه هي ذروة سلسلة من الابحاث التي قادت الى لورينثو داثا على انه الحقة الاخيرة من عملية دولية واسعة. وكان

التزوير متقنا جداً، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقود الاصلي : اذ انهم محوا الكتابة والرسوم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيماوية تشبه السحر، ثم طبعوا على الورق ذاته نقوداً من فئة المئة دولار. وادعى لوريتشو داثا انه اشترى الخزانة بعد زمن طويل من زواج ابنته، وان الخزانة وصلت الى البيت دون شك والاوراق النقدية مخبأة فيها، لكن الشرطة اثبتت ان الخزانة موجودة في البيت مذ كانت فير يمنا داثا تذهب الى المدرسة. وانه لايمكن لأحد سواه اخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا. هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور اوربينو لزوجته يوم تعهد أمام الحاكم باعادة حماه الى موطنه للتغطية على الفضيحة. أما الجريدة فروت أموراً كثيرة اخرى.

روت ان لوريتشو داثا توسط خلال احدى الحروب الاهلية الكثيرة في القرن الماضي، بين حكومة الرئيس الليبرالي اكيلوبارا وشخص بولوني الاصل، يدعى جوزيف ك. كورزينوفسكي، أقام هنا عدة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت انطون، التي ترفع العلم الفرنسي، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة، ولم يعرف احد كيف اتصل كورزينوفسكي، الذي ذاع صيته للعالم فيما بعد باسم جوزيف كونراد، مع لوريتشو داثا، الذي اشترى منه شحنة الاسلحة لحساب الحكومة، بوثائق وايصالات نظامية، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً. وحسب رواية الجريدة، فقد ادعى لوريتشو داثا ضياع الاسلحة في هجوم مباغت، ثم انه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي الى المحافظين الذين يخوضون حرباً ضد الحكومة.

وروت العدالة أيضا ان لوريتشو داثا اشترى بثمن زهيد جداً شحنة احذية عسكرية فائضة لدى الجيش الانكليزي، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل رييس البحرية الحربية، وانه ضاعف في هذه العملية وحدها ثروته خلال ستة شهور. وحسبما جاء في الصحيفة، فانه لدى وصول الشحنة الى هذا الميناء، رفض لوريتشو داثا استلامها لان الاحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي اعلنتها الجمارك حسب القوانين النافذة، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هومئة بيزو. وفي اثناء ذلك، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة احذية للقدم اليسرى، كانت قد وصلت الى جمارك ريوهاتشا. وما ان انتظمت الاحذية مع بعضها حتى باعها لوريتشو داثا، مستفيدا من نسبه مع ال اوربينو دي لا كايي، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت الفين بالمئة.

وانتهت رواية العدالة الى القول ان لوريتشو داثا لم يغادر سان خوان دي لاثيناغا في اواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته، كما كان يدعي، وانما لانكشاف أمره في مزج التبغ المستورد مع ورق مفروم، وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة، حتى

انها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين. كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية، كان نشاطها الرائج في اواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بناما الى البلاد بأساليب غير مشروعة. أما تجارة البغال المشبوهة، والتي أساءت كثيرا الى سمعته، فيبدو انها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته.

عندما غادر فلورينتينو اريثا الفراش، وظهره ملتهب بالقروح، مستخدما لأول مرة في حياته عكازا بدلا من المظلة، كان خروجه الاول الى بيت فيرمينا داثا. وجدها وقد تبدلت تماما، بفعل آثار السنين على بشرتها، وبحقد أفقدها الرغبة في الحياة. وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور اوربينو داثا لفلورينتينو اريثا اثناء مرضه، حدثه عن الاسى الذي سببته لأمه مقالتا العدالة. فالمقالة الاولى اثارت فيها غضبا مجنونا لخيانة زوجها وغدر صديقتها، مما جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الاحد كل شهر، وذلك لسخطها من انه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللعنات التي تريد ان تكيلها له: لقد اختلفت مع الميت. وبعثت الى لوكريثيا دل ريال، مع كل من يريد ان يوصل الكلام اليها، تقول لها بان تقنع بالعزاء.لانها وجدت على الاقل رجلا بين جميع من مروا في فراشها. أما في المقالة عن لورينثو داثا لم يكن معروفاً ماهو الذي يؤلمها اكثر: أهي المقالة، ام اكتشافها المتأخر لهوية ابيها الحقيقية. لكن أحد الاحتمالين، أوكلاهما معا، قصم ظهرها. فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبل وجهها، صار يبدو وكأنه نسالات الذرة الصفراء، وعينا الفهدة الجميلتان ماعادتا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيهما. وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها. ورغم اقلاعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين، سواء وهي محبوسة في الحمام او في أي مكان آخر، فقد عادت اليه مجددا بشكل علني وبشراهة لا كابح لها. وبدأت أول الامر بتدخين سجائر تلفها بنفسها، كما كانت تحب ان تفعل من قبل، ثم أخذت تدخن الانواع العادية التي تجدها في المتجر، لانها لم تعد تجد متسعا من الوقت والصبر للف السجائر.

لو ان أي رجل آخر كان في موقع فلورينتينو اريثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله، اعرج ومكوي الظهر بقروح كقروح حمار، ولامرأة لاتتوق لسعادة اخرى سوى الموت. أما هو فلم يتساءل. بل وجد بصيصاً من الأمل مابين انقاض الكارثة، وبدا له ان نكبة فيرمينا داثا تجعلها أعظم شأناً، والغضب يجعلها أجمل، والحقد على العالم قد أعاد اليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر.

كان لديها الان سبب آخر للاعتراف بجميل فلورينتينو اريثا. فقد بعث على اثر المقالات الشنيعة برسالة نموذجية الى العدالة حول مسؤولية الصحافة الاخلاقية ودورها في احترام

شرف الاخرين. لم تنشر الصحيفة الرسالة، لكن الكاتب بعث بنسخة منها الى دياريو دل كوميرثو، أقدم صحف ساحل الكاريبي واكثرها جدية، فأبرزتها هذه على صفحتها الاولى. كانت الرسالة تحمل توقيع جوبيتر، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة، مما حمل البعض لنسبتها الى بعض ابرز كتاب المقاطعة. كانت صوتا منفردا وسط الاقيانوس، لكنه سمع بعمق ووصل بعيدا جداً. وعرفت فيرمينا داثا هوية الكاتب دون ان يخبرها أحد بذلك، لانها تعرفت على بعض الافكار، بل وعلى جملة حرفية، من تأملات فلورينتينو اريثا الاخلاقية. ولذا، فقد استقبلته بحيوية في فوضى يأسها. وفي هذه الفترة بالذات، وجدت اميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء احد الايام في غرفة النوم ببيت شارع لاس فينتاناس، واكتشفت دون أي بحث، وبمحض الصدفة، في خزانة بلا مفاتيح، نسخا من تأملات فلورينتينو اريثا المطبوعة على الالة الكاتبة، ورسائل فيرمينا داثا المكتوبة بخط اليد.

ابتهج الدكتور اوربينو داثا لتجدد الزيارات التي ترفع كثيرا من معنويات امه. وكان بذلك على عكس اخته اوفيليا، التي رجعت في أول سفينة فواكه قادمة من نيو اورليانز فور سماعها باخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا داثا مع رجل، سمعته الاخلاقية ليست على ما يرام. وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الاسبوع الاول، حين لاحظت درجة الالفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو اريثا الى البيت، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبيهة بوشوشات ونزاعات خطيبين وذلك اثناء زياراته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل. وما كان يراه الدكتور اوربينو داثا تآلفاً صحياً بين عجوزين متوحدين، كانت ترى فيه أسلوبا مريبا في اتخاذ خليل سري. هكذا كانت اوفيليا اوربينو دوماً، اقرب شبها بدونيا بلانكا جدتها لابيها، منها لامها. فهي مترفعة مثل جدتها، ومتعجرفة مثلها، وتعيش مثلها على الأوهام. ما كانت قادرة على تصور صداقة بريئة تجمع بين رجل وامرأة حتى ولو كانا في الخامسة من العمر، فكيف اذا كانا في الثمانين. وفي احدى نزاعاتها المعتادة مع اخيها، قالت ان الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو اريثا به امها هو ان ينام معها في سريرها كأرملة. ولم تكن لدى الدكتور اوربينو داثا الشجاعة لمواجهتها، لانه لم يكن يمتلك الشجاعة امامها يوماً، لكن زوجته تدخلت بتبرير جدي حول الحب في أي سن كان. ففقدت اوفيليا صوابها وصرخت بها:

- ان الحب في سننا شيء مضحك، أما في سنهما فهو قذارة خنازير.

وقررت في حدة اندفاعها ان تطرد فلورينتينو اريثا من البيت، ووصل هذا الى سمع فيرمينا داثا. فاستدعتها إلى حجرة النوم، كما تفعل كلما ارادت الحديث في أمر لا تريد ان تسمعه الخادمات، وطلبت منها ان تعيد أمامها ما قالته من شتائم. ولم تحاول اوفيليا ان تخفف

من قسوتها : كانت موقنة ان فلورينتينو اريثا ، بسمعته الفاسدة التي لا تخفى على أحد ، انما يريد الوصول إلى علاقة آثمة ، ستشوه اسم العائلة الطيب اكثر مما شوهته اساءات لورينثو داثا ومغامرات خوفينال اوربينو الغبية . استمعت اليها فيرمينا داثا دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بل ودون ان ترمش ، ولكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحولت إلى امرأة اخرى . . كانت قد عادت إلى الحياة ، فقالت لها :

ـ الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو انني لا أملك القوى لضربك الضرب الذي تستحقين ، لوقاحتك وخبث نيتك . ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت ، وأقسم لك برفات أمي انك لن تدخليه ما دمت على قيد الحياة .

لم تكن هنالك من قوة قادرة على ثنيها عن قرارها . فذهبت اوفيليا للاقامة في بيت اخيها ، وبعثت من هناك بكل انواع التوسلات عبر وسطاء من الاعيان . ولكن دون جدوى . فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاع ثنيها . ثم انها أطلقت اخيراً أمام كنتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات ، سراً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابها : «منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لاننا كنا ما نزال صغيرين ، وها هم يريدون افسادها الآن ثانية لاننا أصبحنا عجوزين» . ثم أشعلت سيجارة من عقب الأخرى ، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة :

ـ فليذهبوا الى الخراء . ان كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب ، انه لم يعد هناك من يأمرنا .

لم يكن للصلح من مكان . وحين اقتنعت اوفيليا اخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات ، رجعت إلى نيواورليانز . والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل اليه مع امها هو ان تودعها . ووافقت فيرمينا داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة ، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت : لقد أقسمت على ذلك بعظام أمها ، التي كانت بالنسبة لها ، في تلك الايام الغائمة ، الشيء الوحيد الذي بقي طاهراً .

في احدى زياراته الأولى ، واثناء الحديث عن سفنه ، وجه فلورينتينو اريثا دعوة رسمية لفيرمينا داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر . حيث يمكنها من هناك الوصول ، بعد يوم واحد في القطار ، إلى عاصمة الجمهورية ، التي ما زالا ، مثلهم كمثل معظم الكاريبيين من ابناء جيلهم ، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي : سانتافي . لكنها كانت تحتفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقاتمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى صلاة الخامسة ، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع المثلجات ولا إلى الدوائر العامة ، كما قيل لها ، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع ومطر خفيف متواصل

منذ سنوات البغلة ذات الحدوات. . انها أسوأ من باريس. ولكنها كانت تشعر بالمقابل بميل شديد إلى النهر، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم الذي يشبه بكاء النساء، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن، اضافة إلى كونها أرملة ووحيدة، كانت تبدو لها امراً لا واقعياً.

كرر فلورينتينو اريثا الدعوة لها فيما بعد، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة بدون زوجها، فبدت لها الفكرة حينئذ اكثر احتمالاً. ولكن بعد خلافها مع ابنتها، واحساسها بالمرارة للاهانات الموجهة الى ابيها، وحقدها على زوجها الميت، وغضبها من تملقات لوكريثيا دل ريال المنافقة، والتي اعتبرتها لسنوات طويلة أفضل صديقاتها، أخذت تشعر بانها مجرد شيء زائد عن الحجة في بيتها. وفي مساء أحد الأيام، وفيما هي تشرب شرابها الخاص المحضر من أوراق شاي كونية، نظرت إلى مستنقع الفناء، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها، وقالت:

ـ ما أريده هو هجر هذا البيت، والانطلاق قدماً، قدماً قدماً، وعدم العودة اليه أبداً.

فقال فلورينتينو اريثا:

ـ اذهبي في سفينة نهرية.

نظرت اليه فيرمينا داثا وهي ساهمة وقالت:

ـ يمكنك الاعتقاد بأن هذا وارد.

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل ان تنطق به، ولكن مجرد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الامر ناجزاً. وقد سر الابن والكنة حين علما بالخبر. وسارع فلورينتينو اريثا ليؤكد ان فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهزة بكل شيء وكأنها في بيتها، وستكون الخدمة على اكمل وجه، وسيكلف القبطان بالذات لحمايتها والسهر على راحتها. وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجعها، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائجة، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحالة مشهورون، أو انهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة. فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رائقاً وتقول له:

ـ ليس عليك ان تخدعني كما لو انني طفلة. اذا كنت أريد الذهاب فلانني قررت ذلك، وليس اهتماماً بالمناظر الطبيعية.

وحين اقترح ابنها بان تذهب زوجته معها لمرافقتها، قاطعته بلهجة مسالمة: «لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني». ورتبت بنفسها تفاصيل الرحلة. وكانت تشعر براحة كبيرة لفكرة انها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله دون ان تحمل معها شيئاً باستثناء

الحاجات التي لا غنى عنها: نصف دزينة من الفساتين القطنية، وادوات زينتها ونظافتها، وزوج من الاحذية للصعود به إلى السفينة وللنزول إلى البر، ونعال بيتي لاستخدامه اثناء الرحلة، ولا شيء آخر... انه حلم حياتها.

في شهر كانون الثاني لعام ١٨٢٤، قام الربان خوان برناردو البيرس، مؤسس الملاحة النهرية، برفع راية السفينة البخارية الأولى التي مخرت مياه نهر مجدلينا، وقد كانت آلة بدائية بقوة اربعين حصاناً، تدعى وفاء. وبعد مرور اكثر من قرن، في السابع من تموز، وفي الساعة السادسة مساء، رافق الدكتور اوربينو داثا وزوجته، فيرمينا داثا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الأولى عبر النهر. وكانت تلك السفينة هي الاولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وقد عمدها فلورينتينو اريثا باسم وفاء الجديدة تخليداً لذكرى سلفتها المجيدة. ولم تستطع فيرمينا داثا ان تصدق ابداً بان ذلك الاسم ذا المغزى الشديد هو مجرد مصادفة تاريخية حقاً، وليس ظرافة اخرى من ظرافات فلورينتينو اريثا، الرومنسي المزمن.

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الاخرى، القديمة منها والحديثة، كان في وفاء الجديدة، والى جانب قمرة القبطان، قمرة اضافية واسعة ومريحة، مكونة من صالة استقبال مؤثثة بمفروشات من البامبو الملون بألوان احتفالية، ومخدع زوجي مزخرف بكامله بزخارف صينية، وحمام فيه حوض بانيو ودوش، وشرفة مغلقة وفسيحة جداً، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى أمام السفينة وجانبيها، ومزودة باجهزة تبريد صامتة تحافظ على الجو في ربيع دائم بعيداً عن القيظ المتقد في الخارج. كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة، لان ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين، ولم يكن لهذه القمرة اي غرض تجاري، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصين جداً. وقد بناها فلورينتينو اريثا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، لكنه كان متأكداً في دخيلته من انها ستكون عاجلاً او آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرمينا داثا.

وفعلاً جاء اليوم المنتظر، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسية كربة وسيدة للمكان. وقدم القبطان فروض التشريف للدكتور اوربينو داثا وزوجته ولفلورينتينو اريثا بالشمبانيا والسلمون المدخن. كان اسمه ديغو ساماريتانو، وكان يرتدي بدلة من الكتان الابيض، محكمة على مقاسه تماماً، من الحذاء وحتى القبعة التي تحمل شعار ش.ك.م.ن مطرزاً بخيوط ذهبية، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة اشجار الثيبا، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كردينال فلورنسي.

في الساعة السابعة ليلاً أُطلقت أولى اشارات الابحار، واحست بها فيرمينا داثا تدوي بألم حاد في اذنها اليسرى. لقد حلمت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجرأ على تفسيرها. ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمع الاكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا، وصالحت زوجها الميت، وهي واقفة أمام قبره، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للومها العادل الذي كانت تغص به. ثم روت له تفاصيل الرحلة، وودعته متمنية اللقاء به قريباً. لم تشأ ان تخبر أحداً آخر بانها ذاهبة، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى اوروبا، لتحول دون الوداعات المنهكة. ورغم رحلاتها الكثيرة، فقد أحست وكأن هذه هي رحلتها الاولى، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد. وحين أصبحت على متن السفينة، أحست بالهجران والكآبة، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي.

عند انطلاق اشارة الابحار الاخيرة، ودعها الدكتور اوربينو داثا وزوجته دون دراماتيكية، ورافقهما فلورينتينو اريثا إلى جسر النزول إلى البر. حاول الدكتور اوربينو داثا ان يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى ان فلورينتينو اريثا ذاهب في الرحلة أيضاً. ولم يستطع الدكتور اوربينو داثا السيطرة على حيرته، فقال:

ـ ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل.

اراه فلورينتينو اريثا، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه: قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين. ولكن الدكتور اوربينو داثا لم ير في ذلك دليلاً كافياً على البراءة. فاتجه الى زوجته بنظرة غريق، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته، ولكنه التقى بعينين ثلجيتين. وقالت له بصوت خافت جداً، وحازم في الوقت ذاته: «وأنت أيضاً؟» أجل. هو أيضاً، مثل اخته اوفيليا، يفكر ان للحب سناً معيناً يصبح بعده امراً غير لائق. لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب، وودع فلورينتينو اريثا شاداً على يده بحركة فيها من الاذعان اكثر مما فيها من الشكر.

رآهما فلورينتينو اريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة. تماماً كما كان ينتظر ويأمل، والتفت الدكتور اوربينو داثا وزوجته بنظرهما اليه قبل ان يدخلا السيارة، فودعهما ملوحاً بيده. وردا عليه بتحية مماثلة. وبقي عند الدرابزين إلى ان اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن، ثم مضى إلى قمرته ليرتدي ملابس اكثر ملائمة للعشاء الأول على متن السفينة، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان.

كانت ليلة رائعة، تبلها القبطان ديغو ساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الاربعين في النهر، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة. ورغم انطلاق صفارة التنبيه الاخيرة في الساعة الثامنة، ورغم انزال الزائرين ورفع جسر النزول في هذه الساعة

أيضاً، فان السفينة لم تنطلق إلى ان انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرف على مناورة الخروج من الميناء. بقيت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا يتطلعان من فوق درابزين الصالة العامة، مختلطين مع المسافرين الصاخبين الذين كانوا يلعبون لعبة تمييز أضواء المدينة، إلى ان خرجت السفينة من الميناء، وولجت قنوات لامرئية ومستنقعات مبرقعة بانوار متموجة تنبعث من زوارق الصيادين، وشخرت اخيراً ملء رئتها في الهواء الطلق لنهر مجدلينا العظيم. حينئذ انطلق الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح، وبدأ الرقص الصاخب.

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة. لم تكن قد نطقت بأية كلمة خلال الليل، وقد تركها فلورينتينو اريثا تتيه في تأملاتها، ولم يقاطعها إلا ليودعها أمام قمرتها. لكنها لم تكن تشعر بالنعاس، وانما بشيء من البرد فقط، واقترحت ان يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة. فسحب فلورينتينو اريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة، وأطفأ الانوار، ووضع لها بطانية صوفية على كتفيها، وجلس إلى جانبها. لفت سيجارة من العلبة التي أهداها اياها. لفتها بمهارة مذهلة، ودخنتها ببطء واضعة الجمرة في فمها، دون ان تتكلم، ثم لفت سيجارتين اخريين متتاليتين وخدنتهما دون توقف. وشرب فلورينتينو اريثا ترمسين من القهوة المرة رشفة بعد اخرى.

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الافق. ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن، ومرابع العشب على ضفتيه تبدو تحت ضوء القمر المكتمل بدراً وكأنها سهوب فوسفورية. وبين الحين والحين كان يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها انهم يبيعون هناك حطباً لمراجل السفن. كان فلورينتينو اريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه، ولكن مرأى النهر جعله يستعيدها في دفقات مبهرة كما لو انها حدثت بالأمس. روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً ان ذلك قد يبث فيها الحماس، لكنها كانت تدخن في عالم آخر. فتخلى فلورينتينو اريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها، وكانت اثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى ان نفدت العلبة. توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل، وتلاشى صخب المسافرين، ثم تحول إلى همسات هاجعة، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان ايقاع أنفاس السفينة.

بعد مرور بعض الوقت، نظر فلورينتينو اريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر، فرآها طيفية، ورأى بروفيل وجهها الذي كتمثال يصبح اكثر حلاوة تحت البريق الازرق الخفيف، وانتبه إلى انها كانت تبكي بصمت. ولكنه بدلاً من مواساتها، أو الانتظار إلى ان تنفد دموعها، كما كانت ترغب هي، سمح للقلق بان يداهمه، فسألها:

ـ اتودين البقاء وحدك ؟
قالت :
ـ لو كنت اريد ذلك لما طلبت منك الدخول.
عندئذ مد أصابعه الباردة في الظلام، وبحث باللمس عن اليد الاخرى، ووجدها بانتظاره. لقد كانا يتمتعان، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من اليدين لم تكن هي اليد التي تخيلاها قبل ان يلمساها، وانما كانتا يدين هرمتين معروقتين. ولكنهما ما لبثا ان أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية. بدأت تتحدث في الزمن الحاضر، عن زوجها الميت، وكانه ما يزال حياً، وعرف فلورينتينو اريثا انه قد ازفت بالنسبة لها أيضاً لحظة التساؤل بوقار وعظمة، ورغبة جامحة في الحياة، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها دون سيد.
توقفت فيرمينا داثا عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده. كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي. ما كانت قادرة على تصور زوج أفضل من ذاك الذي كان زوجها، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والنزاعات الجوفاء، والاحقاد التي فضت على غير ما يرام. وتنهدت فجأة: «لا أستطيع ان أصدق كيف يمكن للانسان ان يكون سعيداً خلال سنوات طويلة، وسط كل هذه الخلافات، وكل هذه المشاكل، اللعنه، وكل ذلك دون ان نعرف ان كان هذا حباً أم لا». وعندما انتهت من التفريج عن قلبها، أطفأ أحد القمر. كانت السفينة تتقدم بخطواتها المحسوبة، واضعة قدماً قبل ان ترفع الاخرى: كحيوان ضخم يترصد. وكانت فيرمينا داثا قد افاقت من ذهولها. فقالت :
ـ انصرف الآن.
ضغط فلورينتينو اريثا على يدها، ومال نحوها، محاولاً تقبيل وجنتها. لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبح ورقيق:
ـ لا، ما عاد هذا ممكناً.. ان لي رائحة عجوز.
أحست به يخرج في الظلام، وأحست بوقع خطواته على الادراج، وأحست باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي. أشعلت فيرمينا داثا سيجارة اخرى، وفيما هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال اوربينو بملابسه الكتانية الناصعة، وصرامته المهنية، ولطفه المبهر، وحبه الرسمي، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة اخرى من الماضي. «لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم. أما حين تقرر امرأة مضاجعة أحد الرجال، فليس هناك من حاجز إلا وتجتازه، لا حصن إلا وتحطمه، ولا اعتبار أخلاقي إلا وتكون مستعدة لخرقه من اساسه:

وليس ثمة رب ينفع . » هذا ما قاله لها في احد الأيام . وبقيت فيرمينا د ثا جامدة حتى الفجر، تفكر بفلورينتينو اريثا ، ليس كحارس كئيب في حديقة البشارة لا تثير ذكراه فيها أي حنين، وانما كما هو حينئذ، عجوز وأعرج، ولكنه واقعي : انه الرجل الذي كان رهن اشارتها دوماً ولم تستطع التعرف اليه . وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الازهار البدائي ، كانت تدعو الله ان يلهم فلورينتينو اريثا ليعرف كيف يبدأ ثانية في اليوم التالي .

وقد عرف . كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجرسون، بان يتركها نائمة إلى ان تستيقظ من تلقاء نفسها . وحين استيقظت وجدت على الكوميدينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة، ما تزال مضمخة بالندى ، ومعها رسالة من فلورينتينو اريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها منذ ودعها . كان رسالة هادئة، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية . . وكانت شديدة الغنائية كرسائله الاخرى، وخطابية مثلها جميعها ، ولكنها مستندة الى الواقع . قرأتها فيرمينا داثا يبعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة . وكانت الرسالة تنتهي بالطلب اليها ان تخبر الجرسون حين تكون جاهزة، لان القبطان ينتظرهما في مركز القيادة ليشرح لهم سير العمل في السفينة .

في الساعة الحادية عشر كانت جاهزة، مستحمة ومنتعشة بالصابون الذي له رائحة ازهار، ومرتدية فستان ارملة رمادي اللون وشديد البساطة ، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية . طلبت فطوراً بسيطاً من الجرسون الذي يرتدي ملابس ببضاء ناصعة، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً ، لكنها لم تبعث اليهم كي يحضروا لمرافقتها . صعدت وحدها، مبهورة بالسماء الصافية ، ووجدت فلورينتينو اريثا يتحدث إلى القبطان في مركز القيادة . بدا لها مختلفاً ، ليس لانها رأته بعينين اخريين حينئذ، وانما لانه كان مختلفاً بالفعل . فبدلاً من الملابس الجنائزية الي ارتداها طوال حياته ، كان ينتعل حذاء ابيض ويرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان مفتوحاً عند العنق واكمامه قصيرة وعلى جيبه الذي فوق الصدر نقشت الحروف الأولى من اسمه . وكان يعتمر قبعة اسكتلندية ، بيضاء اللون ايضاً ، ويضع نظارة ذات عدسات قاتمة فوق نظارة قصر النظر الازلية . ومما لا شك فيه ان كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى ، وانه اشتراه من اجل الرحلة ، باستثناء حزام الجلد البني العتيق ، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى وكأنه ذبابة في طبق الحساء . حين رأته على هذا الحال، مرتديا ملابس متميزة من أجلها ، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها . وانبهرت عند مصافحته ، وانبهر هو اكثر لانبهارها . وادراكهما بانهما يتصرفان كخطيبين زاد من انبهارهما، ووعيهما بانهما منبهرين كليهما أبهرهما إلى الحد الذي جعل القبطان ساماريتانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب . وأخرجهما من الحرج بان شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة

خلال ساعتين. كانوا يبحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الافق. وعلى عكس مياه المصب العكرة، كانتَ تلك المياه بطيئة وصافية، ولها بريق معدني تحت الشمس الحارقة. وأحست فيرمينا داثا بان المكان هو دلتا تتخللها جزر رملية. فقال لها القبطان:

ـ هذا ما تبقى لنا من النهر.

لقد فوجيء فلورينتينو اريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي، حين أصبح الابحار أصعب، ورأى ان النهر الأب، نهر مجدلينا، أحد الأنهار الكبرى في العالم، ليس إلا وهماً من اوهام الذاكرة. واخبرهما القبطان ساماريتانو ان عمليات قطع الغابات اللاعقلانية قد قضت على النهر خلال خمسين سنة: فمراجل السفن التهمت غابات الاشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلورينتينو اريثا تثقل على انفاسه في رحلته الاولى. وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيو اورليانز التماسيح التي كانت تتظاهر بالموت واشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات، بينما راحت تموت الببغاوات ذات الرطانة الغريبة والقرود ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات، بينما كانت الأطم التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضل لرصاص صيادي المتعة.

كان القبطان ساماريتانو يشعر نحو الاطم بعاطفة شبه امومية، لانه كان يرى فيها سيدات مُسخن لخطيئة حب اقترفنها، وكان يؤمن بصحة الاسطورة القائلة بانها الاناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان. وكان يعارض دوماً اطلاق النار عليها من سفينته، كما هي العادة، رغم وجود قوانين تحظر ذلك. وقد رفض صياد من كارولينا الشمالية، يحمل وثائق نظامية، الرضوخ لتعليماته يوماً، وهشم رأس أطومة أم بطلقة صائبة من بندقيته السبرينغفيلد، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة امه الممددة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبر له مخرجاً، وترك الصياد مهجوراً على الشاطىء المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة. وقد أمضى ستة اشهر في السجن، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية، وكاد يفقد تصريح عمله كبحار، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك. وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً: فالأطوم اليتيم، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس، كان الأطوم الاخير الذي شوهد في النهر.

قال القبطان:

ـ كلما مررت من هذا الشاطىء، أدعو الله ان يعود ذلك الامريكي للابحار في سفينتي،

كي اتركه وحيداً من جديد.

فيرمينا داثا، التي لم تكن تستلطفه أول الأمر، أحست بميل شديد نحو ذلك المارد الرقيق، وانزلته منذ ذلك الصباح في منزلة متميزة من قبلها. وقد أحسنت صنعاً بذلك: فالرحلة لم تكد تبدأ بعد، وستجد مناسبات كثيرة لتتأكد من انها لم تكن مخطئة.

بقيت فيرمينا داثا مع فلورينتينو اريثا في مركز القيادة حتى موعد الغداء، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم، ولم تعد الآن سوى اطلال ميناء شوارعها مقفرة. الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة: هو امرأة متشحة بالبياض تلوح بمنديل في يدها. ولم تفهم فيرمينا داثا لماذا لم يحملوها في السفينة، مع انها كانت تبدو مغمومة جداً، ولكن القبطان أوضح لها بانها شبح امرة غارقة تلوح للمراكب باشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الاخرى. ولقد مروا قريباً جداً منها حتى ان فيرمينا داثا رأتها بكل تقاطيعها، واضحة تماماً تحت الشمس، ولم ترتب في انها غير موجودة حقاً، لكن وجهها بدا لها مألوفاً:

كان يوماً طويلاً وقائظاً. وقد رجعت فيرمينا داثا إلى القمرة بعد الغداء، لتنام قيلولتها المعتادة، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم اذنها، الذي اشتد بعد ان تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة اخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدة فراسخ من بارانكا بييخا. قطع فلورينتينو اريثا حلماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل. حلم بروسالبا، قريباً جداً من المكان الذي رآها تنزل فيه من السفينة إلى البر. رآها في حلمه تسافر وحدها، بملابس من القرن الماضي، وكانت هي، وليس الطفل، تنام القيلولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة. كان حلماً غامضاً ومسلياً في الوقت ذاته، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين.

كان الحر يخمد مع غروب الشمس، فتنبعث الحياة في السفينة يخرج المسافرون كما لو كانوا يخرجون من سبات طويل، وقد استحموا وارتدوا ملابس نظيفة، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً جرسون يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شماس. وفيما هم يأكلون، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل.

لم تشأ فيرمينا داثا العشاء بسبب ألم اذنها، وتفرجت على تحميل شحنة الحطب الأولى للمراجل، وذلك في وهدة جرداء حيث لاشيء سوى جذوع مكومة، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التجارة. لم يكن يبدو ان هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة. ولقد كان

التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومملاً، وغير وارد في عابرات المحيط الاوروبية، وكان الحر شديداً حتى داخل الشرفة المبردة. ولكن حين انطلقت السفينة من جديد، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة، وأصبحت الموسيقى اكثر مرحاً. وفي بلدة سيتيو نويغو، كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد، ولم يعط مكتب الميناء الاشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة، لذلك تابعت السفينة قدماً دون ان تطلق صفارة تحية.

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ اليها فلورينتينو اريثا ليراها دون أن يقرع باب القمرة، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقائه. فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بشكل يبدو عرضياً، ولم يكن عليها ان تمشي كثيراً: كان فلورينتينو اريثا يجلس على أحد مقاعد الممر، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة، وكان يسائل نفسه منذ اكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراها. وابدى كلاهما سيماء الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنعها على حد سواء، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب، وكان يغص بمسافرين شبان معظمهم من الطلبة الصاخبين الذين ينهكون انفسهم مع بعض القلق في الحفلة الاخيرة من الاجازة. وتناول فلورينتينو اريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتي مرطبات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف. وقالت: «يا للهول!». وسألها فلورينتينو اريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع. فقالت:

ـ بالعجوزين المسكينين، اللذين قتلا بضربات المجداف في القارب.

ومضيا للنوم عندما توقفت الموسيقى، بعد محادثة طويلة دون عثرات في الشرفة المظلمة. لم يكن هناك قمر، وكانت السماء ملبدة، وفي الافق تلمح بروق بلا رعود فتضيئهما لهنيهة. لف فلورينتينو اريثا لها السجائر، لكنها لم تدخن منها سوى اربع، وهي تتعذب بالألم الذي كان يهدأ للحظات ثم ما يلبث ان يشتد حين تجأر السفينة لدى لقائها بسفينة اخرى، أو مرورها مقابل قرية هاجعة، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر. روى لها كيف أنه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع؛ وفي رحلة المنطاد، وعلى الدراجة الاكروباتية، وحدثها عن الشوق الذي كان ينتظر به الاحتفالات العامة طوال السنة، وذلك ليراها فقط. وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة، ولم تتصور يوماً بانه موجود ليراها فقط. ومع ذلك، فقد تساءلت فجأة حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة، كيف امكن له ألا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور، لانه كان سيفوز دون ريب. وكذب فلورينتينو اريثا عليها: لم يكن يكتب إلا لها، جميع أشعاره لها، ولم يكن يقرأها أحد سواه. حينئذ بحثت هي عن يده في

الظلام، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة، وانما امسكت بها بغتة. فتجمد قلب فلورينتينو اريثا، وقال :

- يا لغرابة النساء.

أفلتت ضحكة عميقة، ضحكة يمامة فتية، وعادت تفكر بشيخي القارب. لقد كان ذلك مقدراً: وستلاحقها تلك الصورة دوماً. لكنها قادرة على احتمالها هذه الليلة، لانها تشعر بالطمأنينة والراحة، كما شعرت مرات قليلة في حياتها: احست انها مطهرة من أي خطيئة. وكانت قادرة على ابقاء هكذا حتى الفجر، صامتة، ويده تتعرق في يدها، لكنها لم تستطع احتمال ألم اذنها. فحين انطفأت الموسيقى، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون اراجيح نومهم في الصالة، أدركت ان ألمها أقوى من رغبتها في البقاء معه. كانت تعلم ان مجرد اخباره بألمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه. اذ كانت تشعر حينئذ بانها تعرفه كما لو انها عاشت معه حياتها كلها، وكانت ترى انه لن يتورع عن اعطاء الامر بعودة السفينة إلى الميناء اذا كان هذا يخلصها من الألم.

أحس فلورينتينو اريثا ان الامور ستمضي هذه الليلة على هذا الحال، فانسحب. وفيما هو عند باب القمرة، حاول توديعها بقبلة، لكنها وضعت له خدها الايسر. فاصر، وقد تهدجت انفاسه، فقدمت له خدها الآخر بغنج لم يعرفه في تلميذة مدرسية. وعندئذ أصر للمرة الثانية، فتلقته بشفتيها، وضمته برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت :

- رباه، كم أنا مجنونة في السفن!

ارتعش فلورينتينو اريثا: فقد كانت تنبعث منها حقاً، كما قالت، رائحة الشيخوخة. ولكنه فيما كان يتقدم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط متاهة اراجيح النائمين، عزى نفسه بان له رائحة كتلك، إلا انها اكبر بأربع سنوات، ولا بد انها قد احستها بالانفعال نفسه. انها رائحة الخمائر البشرية التي أحسها في عشيقاته القديمات وأحسسنها فيه. لقد قالت له أرملة ناثاريت، التي لا تخفي شيئاً، بطريقة فجة يوماً: «ان رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة». وكان كلاهما يحتمل رائحة الآخر، لانهما كانا متساويين: رائحتي مقابل رائحتك. لكنه كان شديد الحذر مع امريكا فيكونيا، فرائحة الاقمطة التي تنبعث منها كانت توقظ غرائزه الامومية، لكنه كان يتعذب لفكرة انها لا تستطيع احتمال رائحته: رائحة الشيخ المتصابي. غير أن هذا كله أصبح من الماضي. والمهم الآن هو ان فلورينتينو اريثا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على طاولة مكتب التلغراف... انها سعادة غامرة إلى حد يبعث فيه الخوف.

كان قد بدأ يغفو، حين ايقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبرانو ليسلمه برقية مستعجلة. كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كسياني، وتاريخ اليوم السابق، وكل رعبها ضمنته في سطر واحد: اميركا فيكونيا ماتت أمس. الاسباب غير معروفة. وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني، وقام هو نفسه بالعمل على جهاز الارسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف. وعلم ان اميركا فيكونيا، التي وقعت ضحية احباط قاتل لرسوبها في الامتحانات النهائية، شربت قنينة لودانوم سرقتها من مستوصف المدرسة. كان فلورينتينو اريثا يعلم في اعماق روحه ان ذلك الخبر غير مكتمل. ولكن لا: فاميركا فيكونيا لم تترك اية ملاحظة تتيح القاء مسؤولية قرارها على أحد. كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بويرتو بادري، بعد ان أعلمتهم ليونا كاسياني بالأمر، وسيتم الدفن في الخامسة مساء. تنفس فلورينتينو اريثا الصعداء. فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى. محا الأمر من ذاكرته، رغم انه سيشعر به ينبعث على نحو مفاجىء بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية، دون أي داعٍ، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل.

كانت الأيام التالية حارة لا تطاق. وأصبح النهر عكراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلورينتينو اريثا في رحلته الأولى، كانت هناك بطاح كلسية، وبقايا غابات التهمتها مراجل السفن، وانقاض قرى مهجورة لرحمة الله، ما زالت شوارعها غارقة في ازمنة الجفاف القاسية. ولم تكن توقظهم في الليل اغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف، وانما روائح النتانة المنبعثة من الجثث التي تمر طافية صوب البحر. لم تكن ثمة حروب ولا اوبئة، لكن الجثث المنتفخة ما زالت تمر طافية. وقد كان القبطان متواضعاً لمرة واحدة: «لدينا اوامر بان نقول للمسافرين بانها جثث غرقى». وبدلاً من رطانة الببغاوات وصخب القرود اللامرئية التي كانت تفاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة اخرى، لم يبق سوى صمت الأرض الخراب.

كانت أماكن التحطيب المتبقية قليلة جداً، ومتباعدة أحدها عن الآخر، مما ابقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة. ورست لمدة اسبوع تقريباً، إلى ان توغل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الاشجار المبعثرة. لم تكن هنالك أشجار اخرى: فالحطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملاكي الاراضي، وهرباً من الكوليرا اللامرئية، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها. واثناء ذلك، نظم المسافرون الضجرون مسابقات في السباحة، وحملات صيد، كانوا يعودون منها بعظاءات ضخمة حية يشقون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بابر تنجيد

بعد ان يستخرجوا منها عناقيد البيض البراقة الطرية، التي يعلقونها في سلاسل لتجف على حواف السفينة. واقتفت عاهرات القرى المجاورة البائسات أثر حملات الصيد، فنصبن خياماً مرتجلة عند ضفة النهر، وجئن بالموسيقى والخمر، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة المتوقفة.

قبل ان يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل، كان فلورينتينو اريثا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها. وكان يطمئن شركاءه: «لا تقلقوا، فحين ينتهي الحطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالبترول». ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر، لانه كان مبهوراً بهوى فيرمينا داثا، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بامكانه عمل شيء، اللهم إلا شق نهر جديد. في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء، كان لابد من ربط السفن للنوم، وحينئذ يصبح مجرد كون المرء حياً أمراً لا يطاق. فيغادر معظم المسافرين، والاوروبيين منهم بشكل خاص، عفونة القمرات ويقضون الليل سائرين على سطح السفينة، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناشف ذاتها التي يمسحون بها عرقهم المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بلسع الحشرات. لقد كتب رحالة انكليزي في اوائل القرن التاسع عشر، مشيراً إلى الرحلة التي كانت تتم في الزوارق أولاً ثم على متن البغال، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً، يقول: «انها من أسوأ الأسفار التي يمكن لانسان ان يقوم بها واكثرها مشقة». ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال ثمانين السنة الأولى من الملاحة البخارية، ثم عاد ليصبح كذلك وإلى الأبد، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات، وانقرضت الأطم الامومية، واختفت الببغاوات، والقرود، والقرى: وانتهى كل شيء.

كان القبطان يقول ضاحكاً:

-لا وجود لأي مشكلة، فخلال بضع سنوات سنذرع مجرى النهر الجاف في سيارات فاخرة.

احتمت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا خلال الايام الثلاثة الأولى في كنف الشرفة المغلقة ذات الجو الربيعي، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الحطب، فتحولت القمرة الرئاسية إلى ما يشبه طنجرة الضغط. وكان الفضل في بقاء فيرمينا داثا على قيد الحياة خلال الليل يعود إلى الهواء النهري الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، فيما هي تهش البعوض بالمنشفة، لان مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى اثناء توقف السفينة. وأصبح ألم اذنها لا يطاق، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الايام فجأة، كما يتوقف غناء زيز منفجر. ولكنها لم تدرك حتى حلول الليل انها فقدت السمع باذنها اليسرى، وذلك حين كلمها فلورينتينو اريثا من هذه الجهة، فاضطرت لان تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله. لم

تخبر أحداً بذلك، مؤمنة بان الأمر ليس سوى نقيصة اخرى لامناص منها من نقائص التقدم في السن.

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لهما محنة مباركة رغم كل شيء ولقد قرأ فلورينتينو اريثا ذلك يوماً : «ان الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن». كانت رطوبة القمرة الرئاسية تغرقهما في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه دون اسئلة. كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر اثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة، يتبادلان قبلاً بطيئة، وينعمان بنشوة المداعبات دون عراقيل الغضب. وفي ليلة السبات الثالثة، انتظرته وقد هيأت زجاجة من خمر اليانسون، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصبة ابنة خالها هيلديبراندا، ثم مع صديقات عالمها المستعار فيما بعد، حين تزوجت وصارت أماً. لقد كانت تحتاج لبعض النشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام، ولكن فلورينتينو اريثا ظن انها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للاقدام على الخطوة الأخيرة، ومدفوعاً بهذا الوهم، تجرأ على التقدم برؤوس اصابعه لاستكشاف عنقها الذاوي، وصدرها المصفح بأسياخ معدنية وردفيها العظميين المتآكلين، وفخذي الغزالة الهرمة. وتقبلت ذلك منتشية، بعينين مغمضتين، ولكن دون ان ترتعش، فيما هي تدخن وتشرب رشفات متباعدة من الخمر. واخيراً حين نزلت المداعبات إلى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية، قالت :

ـ اذا كنا سنمارس الحماقات، فلنفعل؛ على ان يكون ذلك كأناس طاعنين في السن.

قادته إلى المخدع، وراحت تتعرى دون خفر زائف تحت الانوار المضاءة. واستلقى فلورينتينو اريثا على ظهره فوق السرير، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه، دون ان يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله. قالت له : «لا تنظر». فسألها لماذا دون ان يرفع نظره عن السقف الأملس.

فقالت :

ـ لانني لن أعجبك.

عندئذ نظر اليها، ورآها عارية حتى وسطها، تماماً كما تخيلها. كان كتفاها مجعدين وثدياها متهدلين، وأضلاعها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع. غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها، وأطفأت النور. حينئذ اعتدل في السرير وبدأ بخلع ملابسه في الظلام، قاذفا اياها بكل قطعة يخلعها من ثيابه، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك.

بقيا مستلقيين على ظهرهما لوقت طويل، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقته النشوة، فيما هي هادئة، وشبه هامدة، لكنها كانت تدعو الله ألا يجعلها تنفجر بالضحك دون سبب، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمر اليانسون. تحدثا لشغل الوقت. تكلما

عن نفسيهما، وعن حياتيهما المختلفتين، وعن المصادفة التي لا تصدق في كونهما عاريين داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة، في الوقت الذي كان عليهما ان يفكرا بانه لم يبق لديهما متسع من الوقت إلا لانتظار الموت. لم تكن قد سمعت يوماً بانه كان على علاقة بامرأة، ولو بامرأة واحدة، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه. قالت له ذلك عرضاً، فردّ عليها مباشرة ودون أية ارتعاشة في صوته:

ـ لقد احتفظت بعذريتي من اجلك.

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال، حتى ولو كان صحيحاً، لان رسائله الغرامية كانت مصوغة من عبارات كتلك التي لا تكمن قيمتها في معناها، وانما في قدرتها على الابهار. لكنها أعجبت الشجاعة التي قال فيها ذلك. وتساءل فلورينتينو اريثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرأ على التفكير فيه: أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش حياتها الزوجية. ولم يكن ليفاجأ بأي شيء، لانه كان يعلم ان النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية: يلجأن إلى الحيل ذاتها، والمكائد المباغتة ذاتها، والخيانات بلا وازع من ضمير ذاتها. ولكنه أحسن صنعاً بعدم توجيه السؤال اليها. ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حد بعيد، سألها كاهن الاعتراف دون أي مبرر اذا ما كانت غير وفية لزوجها يوماً، فنهضت دون ان تجيب، ودون ان تنتهي، ودون ان تودع، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع اي كاهن آخر. أما فطنة فلورينتينو اريثا فقد جاءت بمردود غير منتظر: مدت يدها في الظلام، وداعبت بطنه، وخاصرته، وعانته شبه المرداء، وقالت: «ان لك بشرة طفل رضيع». ثم قامت بخطوة اخيرة: بحثت عنه حيث لم يكن، وعادت تبحث دون أوهام، فوجدته أعزل.

قالت:

ـ انه ميت.

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرة الأولى، معهن جميعاً، ودائماً إلى ان تعلم التعايش مع ذلك الوهم: في كل مرة عليه ان يتعلم من جديد، كما لو كانت المرة الأولى. أمسك يدها ووضعها على صدره، فأحست فيرمينا داثا عند سطح الجلد تقريباً بالقلب الهرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق. فقال: «ان حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلة الحب». لكنه قال ذلك دون قناعة: كان خجلاً وغاضباً من نفسه، يتلهف إلى مبرر يتيح له اتهامها باخفاقه. وكانت تعرف ذلك، فأخذت تستفز الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة، كقطة ناعمة تتلذذ بالقسوة، إلى ان فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى إلى قمرته، تابعت التفكير فيه حتى الفجر، مقتنعة اخيراً من حبها له،

ولكيا كان الخمر يفارقها بموجات بطيئة، كان القلق يهاجمها بانه قد غضب منها ولن يعود أبداً.

لكنه عاد في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة، وكان منتعشاً ومرمماً، ووقف يتعرى امامها بشيء من المباهاة. وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تخيلته في الظلام: رجلاً بلا سن محدد، ذا بشرة قاتمة، ومشدودة كمظلة مفتوحة، دون أي شعر سوى بعض الزغب السبط تحت الابطين وفي العانة. سلاحه عامراً، وانتبهت إلى انه لا يُظهره مصادفة وانما هو يعرضه كنصب حربي ليبث الشجاعة في نفسه. لم يتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يهب نسيم الفجر وسبب لها تسرعه كمبتدىء ارتعاشة عطف، لكنها لم تزعجها، اذ لم يكن من السهل عليها في حالات كتلك التمييز بين العطف والحب. ومع ذلك فقد أحست آخر الأمر بالخواء.

كانت المرة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ اكثر من عشرين سنة، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرف إلى كنهه في سنها وبعد عطالة طويلة الأمد. لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما اذا كان جسدها يحبه أيضاً. لقد كان سريعاً وحزيناً، وفكرت: «هانحن ذا قد افسدنا كل شيء الآن». لكنها كانت مخطئة: فرغم خيبة املهما، ورغم ندمه لبلادته وتأنيبها نفسها لجنون اليانسون، لم يفترقا عن بعضهما للحظة واحدة خلال الأيام التالية. ولم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام. وكان القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مخبأ في سفينته، يبعث اليهما بالوردة البيضاء كل صباح، ويأمر بعزف موسيقى من زمنهما، ويعد لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح، وذلك بان يضيف اليها مواد مهيجة. ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل، حين جاءهما الالهام دون ان يسعيا في طلبه. لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً.

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا ان القبطان بعث اليهما يخبرهما بان السفينة ستصل بعد الغداء إلى ميناء لادورادا، الميناء الاخير، بعد احد عشر يوماً من السفر. ورأت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا من القمرة رابية البيوت المضاءة بشمس شاحبة، وظنا بانهما توصلا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم، لكن الأمر ما لبث ان بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهث مثل مراجل السفينة، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفور. ثم ان السفينة لم تتوقف هناك، وانما رست عند الضفة المقابلة، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي.

غادرا مخبأهما فور نزول المسافرين إلى البر. وتنفست فيرمينا داثا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي، وراقب كلاهما من حافة السفينة الحشود الصاخبة التي كانت تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية. كان يمكن الاعتقاد بانهم قادمون من

اوروبـا ، وخصـوصـاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكـل نقيضـاً للقيـظ الاغبر . وكانت بعضُ النسوة يزين شعورهن بازهار بطاطا ذابلة بفعـل الحـر . انهن قادمـات من السهـل الانديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حالمة ، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلائم مع جو الكاريبي .

وسـط صخب السـوق ، كان ثمـة رجـل عجـوز يُخرج صيصـاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسـول . لقـد ظهـر فجأة ، شاقـاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقع لا بد انه كان لشخص اكثر منه طولاً وبدانة . خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الالقـاء ، وراح يُخرج من جيـوبـه حفنـات من صيصـان لينـة وبباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين اصابعه . وبدأ رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي تزقزق في كل مكـان ، بين المسـافـرين المتعجلين الـذين يدوسـونهـا دون ان يشعـروا بها . وفيـما فيرمينا داثا مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه يجري على شرفها ، لانها الوحيدة التي كانت تراقبه ، لم تنتبـه متى بدأ المسـافـرون في رحلة العـودة يصعدون الى السفينة . لقد انتهت حفلتها : اذ رأت بين القـادمـين عدداً كبـيراً من الوجوه المعروفة ، منهم بعض الاصدقاء الذين رافقوها في حدادهـا منـذ وقت قريب ، فسـارعت إلى اللجـوء مجدداً في القمـرة . وجدها فلورينتينو اريثا مذعورة : كانت تفضل الموت على ان يكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة ، ولما يمض على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل . وقد تأثر فلورينتينو اريثا شديد التأثر لجزعها ، مما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة .

لقـد خطـرت له الفكـرة فجأة اثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة . كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد ان يناقشها منذ زمن طويل مع فلورينتينو اريثا ، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية : «بامكان ليونا كاسياني تدبر هذه الامور خيراً مني» . ولكنه استمع اليه هذه المرة . المسألة هي ان السفن تشحن البضائع في صعودها ، ولكنها تعود فارغة في رحلة العـودة ، بينـما يكـاد يحدث العكس بالنسبـة للمسـافـرين ، وقال : «هذا مع افضلية البضائع ، لان أجور شحنها اعلى اضافة إلى انها لا تأكل» . كانت فيرمينا داثا تتناول العشاء بلا شهية ، ضجـرة من المنـاقشـة الخـافتة بين الرجلين حول ضرورة اقرار فروق في التعرفة . استمـع فلورينتينـو اريثـا حتى النهـايـة ، وحينئذ فقط وجه سؤالاً بدا للقبطان على انه فكرة الخلاص ، اذ قال :

ـ ايمكننـا ، نظـريـا ، القيـام برحلة مبـاشـرة بلاحمولة ولا مسافرين ، ودون التوقف في أي ميناء ، ودون أي شيء ؟

وقال القبطان ان ذلك ممكن نظريا فقط ، لان لدى ش . ك . م . ن . التزامات عمل يعرفها

فلورينتينو اريثا افضل من سواه، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء اخرى كثيرة لايمكن تجنب معظمها. والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة. لان السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحيا، وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طوارىء. لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدة مرات بسبب اصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر، رغم ان السلطات الصحية كانت تجبر الاطباء فيما بعد على اصدار وثائق تثبت ان الحالة ليست الا ديزنطاريا عادية. ثم ان راية الوباء الصفراء رفعت كثيرا عبر تاريخ النهر للتهرب من الضرائب، أو للتخلص من مسافر غير مرغوب فيه، أو للحيولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة. وجد فلورينتينو اريثا يد فيرمينا داثا تحت المائدة، وقال:

ـ حسناً. فلنفعل هذا.

فوجيء القبطان، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها، رأى كل شيء واضحا في الحال. فقال:

ـ أنا آمر في هذه السفينة، ولكنك تأمر علينا، فاذا كنت تتكلم بجد، اعطني الامر مكتوبا، وسننطلق الان في الحال.

كان جديا بالطبع، ووقع فلورينتينو اريثا الامر. فالجميع يعلمون في نهاية المطاف ان الكوليرا لم تنته بعد، رغم احصائيات السلطات الصحية المتفائلة. أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لاية مشكلة. تم تحويل البضائع القليلة لنقلها في سفينة اخرى، وقيل للمسافرين ان عطلا طرأ على المحركات، وانهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة اخرى في الصباح. ولم يجد فلورينتينو اريثا ما يمنع من اقتراف هذه الامور في سبيل الحب، اذا كانت تقترف لاسباب كثيرة غير اخلاقية، وغير وقورة احيانا. والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بويرتو ناريه، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة: فقد كان له قلبه المخبأ أيضا.

وهكذا أبحرت وفاء الجديدة عند فجر اليوم التالي، بلا بضائع ولا مسافرين، فيما راية الكوليرا الصفراء تخفق طربا على صاريها الاكبر. وعند الظهر التقطوا من ميناء بويرتو ناريه امرأة أطول من القبطان وأضخم منه، ذات جمال فظيع، لاتنقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك. زينايدا ينفيس، لكن القبطان كان يدعوها ممسوستي: انها صديقة قديمة، اعتاد حملها من أحد الموانيء وتركها في ميناء اخر، وما ان صعدت الى السفينة حتى هبت ريح شديدة مواتية. وفي ذلك الحجر الكئيب، استعاد فلورينتينو اريثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار انفيغا دو يصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال، وهطل وابل من المطر الامازوني، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة. ولكن احدا لم

يهتم لذلك : اذ ان للحفلة العائمة سقفها الخاص. في تلك الليلة، وكمساهمة شخصية في الحفلة، نزلت فيرمينا داثا الى المطابخ، وسط تشجيع طاقم السفينة، وأعدت طبقا مبتكرا للجميع، عمده فلورينتينو اريثا باسم : باذنجان الحب.

كانوا يلعبون الورق خلال النهار، ويأكلون حتى التخمة، وينامون قيلولات غرانيتية تستنفد قواهم، وما ان تغيب الشمس حتى يطلقون الموسيقى ويشربون خمر اليانسون مع السلمون الى ما بعد الارتواء. لقد كانت رحلة سريعة، في السفينة الخفيفة والمياه الطيبة، التي تحسنت بالفياضانات الرافدة من الجبال، حيث هطل مطر غزير في ذلك الاسبوع كالمطر الذي هطل على طول مجرى النهر. وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لافزاع الكوليرا، فيردون شاكرين بجؤار حزين. وكلما التقوا بسفينة تابعة لاية شركة نهرية، كانت تبادلهم اشارات المواساة. وفي بلدة ماغانغيه، حيث ولدت ناديا، حملوا حطبا لبقية الرحلة.

فزعت فيرمينا داثا حين بدأت تحس بصفارة السفينة تدوي في اذنها السليمة، ولكنها في اليوم الثاني من تناول خمر اليانسون، أصبحت تسمع جيدا بكلتا اذنيها. واكتشفت ان للازهار رائحة اقوى بكثير من رائحتها السابقة، وان العصافير تغرد في الصباح افضل بكثير من تغريدها السابق، وان الله خلق اطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكي لتوقظها فقط. سمعها القبطان، فحرف السفينة عن مسارها، ورأوا اخيرا الام الضخمة وهي تُرضع صغيرها على ذراعيها. لم تنتبه فيرمينا كما لم ينتبه فلورينتينو كيف اندمجا معا الى هذا الحد: كانت تساعده في ارتداء سترته، وتستيقظ قبله لتنظف بالفرشاة اسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام، وحلت مشكلة النظارات، لان نظارته كانت تناسبها تماماً للقراءة ورفو الجوارب. وعند استيقاظها في صباح أحد الايام، رأته في الظلمة يخيط زراً لقميصه، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها، قبل ان يكرر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين. والشيء الوحيد الذي طلبته هي منه كان ان يضع لها كأس حجامة لألم أصاب ظهرها.

ومن جهة اخرى، كان فلورينتينو اريثا يتحرق شوقاً للعزف على كمان الفرقة الموسيقية، وقد استطاع ان يعزف لها فالس الربة المتوجة بعد ان تدرب عليه في نصف نهار، وعزفه خلال ساعات وساعات، الى ان اوقفوه مكرها. وفي احدى الليالي، استيقظت فيرمينا داثا للمرة الاولى في حياتها مختنقة ببكاء لم يكن وليد غضب وانما بكاء حزن، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجداف صاحب القارب الذي كانا فيه. أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثر فيها، وفكرت متأخرة بان باريس قد لاتكون كئيبة الى الحد الذي تصورته من قبل، وان سانتافي ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط. ووسع من افاقها الحلم برحلات اخرى مع فلورينتينو اريثا في المستقبل: رحلات مجنونة، بلا صناديق كثيرة، وبلا التزامات اجتماعية:

رحلات حب.

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة، وعلقوا اكاليل ورقية ومصابيح ملونة. كان المطر قد توقف عن الهطول عند المغيب. ورقص القبطان وزينايدا متلاصقين رقصة البوليرو والتي كانت تخلب القلوب في تلك السنوات. وتجرأ فلورينتينو اريثا، فاقترح على فيرمينا داثا ان يرقصا فالس الانسجام، لكنها رفضت. ومع ذلك، فقد أمضت الليل وهي تضبط الايقاع بحركة من رأسها وكعبي حذائها، ووصل بها الامر في بعض اللحظات الى الرقص وهي جالسة دون ان تنتبه الى ذلك، بينما القبطان يتيه مع ممسوسته في عتمة البوليرو. شربت كثيرا من الخمر مما اضطرهم لمساعدتها في ارتقاء السلالم، واجتاحتها نوبة ضحك صاخب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعا. لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمرة المعطرة، مارست مع فلورينتينو حب هادئا وصحياً.. حب جدين ملوثين، سيستقر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة العسلية. ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيبين حديثين، على خلاف ما كان يفترضه القبطان وزينايدا، ولا كعاشقين متأخرين. كانا يشعران وكأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية الصعبة، ووصلا دون لف ولا دوران الى جوهر الحب. كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوتهما الحياة، الى ما وراء خدع العاطفة، الى ماوراء حيل الاوهام القاسية وسراب خيبة الأمل: الى ماوراء الحب. لقد عاشا معا ما يكفي ليعرفا ان الحب هو ان نحب في أي وقت وفي أي مكان، وان الحب يكون اكثر زخما كلما كان أقرب الى الموت.

استيقظا في الساعة السادسة. كانت تعاني وجع رأس مضمخ باليانسون، وكان قلبها مذهولا لاحساسها بان الدكتور خوفينال اوربينو قد رجع، اكثر بدانة وشبابا مما كان عليه حين انزلق عن الشجرة، وانه يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت. ولكنها كانت صاحية بما يكفي لتدرك ان ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون، وانما بفعل الوصول الوشيك. قالت:

ـ سيكون هذا الرجوع كانه الموت.

ـ فوجيء فلورينتينو اريثا، لانها عبرت بما قالته عن فكرة لم تتح له العيش منذ بدأت رحلة العودة. لم يكن بامكانه ولا بامكانها تصور نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمرة، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الاكل في السفينة، أويندمجان في حياة ستكون غريبة عليهما الى الابد. لقد كان ذلك كانه الموت حقا. ولم يستطع العودة الى النوم. بقي مستلقيا في السرير، ويداه متقاطعتين وراء رقبته. وفي لحظة معينة، وخزته ذكرى اميركا فيكونيا وجعلته يتلوى ألما، فلم يستطع تأجيل الحقيقة اكثر: حبس نفسه في الحمام وبكى ماشاء له البكاء، دون تسرع، الى ان جفت دمعته الاخيرة. وحينئذ فقط واتته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبها.

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للنزول الى البر، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الاسباني القديم، وكانوا يبحرون وسط انقاض السفن وبقع الزيت الميت في الخليج. وكان يوم خميس مشمس يعلو قباب مدينة الفيريس المذهبة، لكن فيرمينا داثا التي كانت تنظر الى المدينة من الشرفة، لم تستطع احتمال عفونة امجادها، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي . . لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية. لم يشعر هو كما لم تشعر هي، دون ان يقول احدهما ذلك للآخر، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة.

وجدا القبطان في صالة الطعام، في حالة اضطراب لاتتفق مع عاداته المهذبة: كانت ذقنه غير حليقة، وعيناه محتقنتين بالأرق، وعلى جسده مازالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خمر اليانسون. أما زينايدا فكانت ما تزال نائمة. بدأوا بتناول الفطور صامتين، حين اقترب زورق يسير بالبترول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف.

ورد القبطان صارخا من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة. كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه، وعدد المسافرين في السفينة، وعدد المرضى بينهم، وماهي احتمالات انتقال العدوى الى آخرين. ورد القبطان بان السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط، وجميعهم مصابين بالكوليرا، ولكنهم معزولون بشكل صارم، وأن احدا لم يتصل بهم، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون الى السفينة في لادورادا او من رجال الطاقم. لكن قائد الدورية لم يطمئن، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميرثيدس حتى الثانية بعد الظهر، ريثما يجهزون لهم اجراءات الحجر الصحي على السفينة. اطلق القبطان فرقعة حوذي من فمه، وأمر عامل الدفة باشارة من يده للدوران والعودة الى المستنقعات.

سمع كل من فيرمينا داثا وفلورينتنو اريثا مادار من حديث وهما على المائدة، ولكن لم يبد على القبطان انه مهتم بالامر. تابع تناول طعامه بصمت، وكان تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدن التي ترسخ سمعة قباطنة النهر العريقة. وخز برأس السكين البيضات الاربع المقلية، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الاخضر كان يدسها كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة. نظرت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا اليه دون كلام، وكانهما بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي. لم يتبادلا اي كلمة خلال حواره مع الدورية الصحية، ولم تخطر لهما ادنى فكرة عما سيصيب حياتيهما، لكنهما كانا يدركان ان القبطان يفكر من اجلهما: كان ذلك يبدو في نبض صدغيه.

وفيما هويلتهم وجبة البيض، وصحن الموز الاخضر، وفنجان القهوة مع الحليب، خرجت السفينة ومراجلها مطفأة من الميناء، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفارش الطحالب،

ونباتات اللوتس الطافية ذات الازهار البنفسجية والاوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب، وعادت الى المستنقعات. كان الماء براقا بفعل عالم الاسماك الطافية على جنوبها، ميتة بديناميت الصيادين، وكانت طيور الارض والماء تحوم فوقها مطلقة صرخات معدنية. ونفذت ريح الكاريبي من النوافذ محملة بصخب العصافير، فأحست فيرمينا داثا في دمائها خفقات حريتها القلقة. والى اليمين، كان مصب نهر مجدلينا العظيم المعكر والرصين يمتد حتى الجانب الاخر من الدنيا.

عندما لم يبق في الاطباق شيء يؤكل، مسح القبطان شفتيه بطرف شرشف الطاولة، وتكلم برطانة قوضت الى الابد سمعة حسن التحدث التي عرف بها قباطنة النهر. لم يتكلم عنهما ولا عن أحد، وانما كان يحاول التوافق مع غضبه. والنتيجة التي وصل اليها بعد سلسلة من الشتائم البربرية. هي انه لايجد سبيلا للخروج من ورطة راية الكوليرا التي ادخلوا انفسهم فيها.

استمع اليه فلورينتينو اريثا دون ان يطرف له رمش. ثم نظر عبر النافذة الى دائرة ساعة اجهزة الملاحة، والى الافق الرائق، والى سماء كانون الاول التي لاتشوبها غيمة، والى المياه المواتية للابحار الى الابد، وقال:

ـ فلنتابع قدما، قدما، قدماً، ونرجع الى لادورادا ثانية. ارتعشت فيرمينا داثا، لانها تعرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس، ونظرت الى القبطان: كان هو القدر. لكن القبطان لم يرها، لانه كان غارقا في قدرة فلورينتينو اريثا الرهيبة على الالهام.

وسأله:

ـ أتقول هذا جاداً؟

فقال فلورينتينو اريثا:

ـ منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدية.

نظر القبطان الى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الاول لصقيع شتوي. ثم نظر الى فلورينتينو اريثا، بتماسكه الذي لايقهر، وحبه الراسخ، وأرعبه ارتيابه المتأخر بان الحياة، اكثر من الموت، هي التي بلا حدود.

سأل:

ـ والى متى تظن باننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والاياب الملعون؟

كان الجـواب جاهـزا لدى فلورينتينـو اريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها. فقال:

ـ مدى الحياة.